

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدّراف

الجزء الثاني من المجلد الثاني

٧



تونس



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص: ٨٧٣٧، ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٣
العنوان البريدي: دار الحديث - بيروت - لبنان



(شكل ٢٤) أثينا الحاملة ، نقش لا يعرف صاحبه ، وأكبر النان أنه من القرن الخامس
في متحف الأكروبول بأثينا

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ح
الكتاب الثالث - العصر الذهبي	
فهرس للحوادث مرتبة حسب تواريخها	٣
الباب الحادى عشر : بركليز والتجربة الديمقراطية	٦
الفصل الأول : نهضة أثينة	٦
الفصل الثانى : بركليز	١١
الفصل الثالث : الديمقراطية الأثينية	٢١
١ - المناقشات	٢١
٢ - القوانين	٢٧
٣ - القضاء	٣٠
٤ - النظام الإدارى	٣٧
الباب الثانى عشر : العمل والثروة فى أثينة	٤٤
الفصل الأول : الأرض ونظام	٤٤
الفصل الثانى : الصناعة	٤٩
الفصل الثالث : التجارة والمال	٥٤
الفصل الرابع : الأحرار والعبد	٦٢
الفصل الخامس : حرب الطبقات	٦٩
الباب الثالث عشر : أخلاق الأثينيين وآدابهم	٨٠
الفصل الأول : الطفولة	٨٠
الفصل الثانى : التمسيم	٨٣
الفصل الثالث : المظهر الخارجى	٨٨
الفصل الرابع : المبادئ الأخلاقية	٩٣
الفصل الخامس : الطبايح	٩٨
الفصل السادس : العلاقات الجنسية قبل الزواج	١٠٣
الفصل السابع : الصداقة اليونانية	١٠٨

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن : الحب والزواج	١١١
الفصل التاسع : المرأة	١١٧
الفصل العاشر : المنزل	١٢١
الفصل الحادي عشر : الشيفوخة	١٢٨

الباب الرابع عشر : الفن اليوناني في عصر بركليز ١٣٧

الفصل الأول : زينة الحياة الدنيا	١٣٢
الفصل الثاني : نشأة فن التصوير	١٣٧
الفصل الثالث : أسئلة التمثيل	١٤٢
١ - أساليبهم	١٤٢
٢ - المدارس	١٤٧
٣ - فنهم	١٥٢
الفصل الرابع : البنائون	١٥٧
١ - ارتقاء فن العمارة	١٥٧
٢ - إعادة بناء أثينا	١٦١
٣ - البارثينون	١٦٧

الباب الخامس عشر : تقدم العلوم ١٧٤

الفصل الأول : علماء الرياضة	١٧٥
الفصل الثاني : ألكساندروس	١٧٨
الفصل الثالث : أبقراط	١٨٤

الباب السادس عشر : النزاع بين الفلسفة والدين ١٩٥

الفصل الأول : المنطقيون	١٩٥
الفصل الثاني : الماديون	٢٠٠
الفصل الثالث : أبيقور	٢٠٦
الفصل الرابع : السوفسطائيون	٢١١
الفصل الخامس : سقراط	٢٢٢
١ - فن سقراط	٢٢٢
٢ - صورة ذهابه لتحليل	٢٢٧
٣ - فلسفة سقراط	٢٣٣

الباب السابع عشر : أدب العصر الذهبي ٢٣٩

الفصل الأول : بندان	٢٣٩
---------------------	-----

الصفحة	الموضوع
٢٤٦	الفصل اثنان : ملهى ديونيشن
٢٥٦	الفصل اثنان : إسكلس
٢٦٩	الفصل الرابع : سفكليز
٢٨٢	الفصل الخامس : يورديز
٢٨٢	١ - المسرحيات
٢٩٦	٢ - يورديز الكاتب المسرحي
٢٩٩	٣ - الفيلسوف
٣٠٥	٤ - الطريق
٣١١	الفصل السادس : أرسطوفان
٣١١	١ - أرسطوفان والحرب
٣١٧	٢ - والمتطرفون
٣٢٤	٣ - الفتنان والمكسر
٣٢٧	الفصل السابع : المؤرخون

٣٣٨ الباب الثامن عشر : انتحار بلاد اليونان

٣٣٨	الفصل الأول : العالم اليوناني عصر بركليز
٣٤٢	الفصل الثاني : كيف ثبت الحرب الكبرى
٣٤٦	الفصل الثالث : من الوفاء إلى السلم
٣٥٠	الفصل الرابع : ألقبيادس
٣٥٤	الفصل الخامس : المغامرة الصقلية
٣٥٩	الفصل السادس : انتصار اسپارطة
٣٦٦	الفصل السابع : م ت سقراط

الكتاب الرابع - اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها ٣٧٣

٣٧٥ خهرس للحوادث مرتبة حسب تواريخها

٣٧٨ الباب التاسع عشر : فليب

٣٧٨	الفصل الأول : الإمبراطورية اسپارطية
٣٨٣	الفصل الثاني : أبامينداس
٣٨٦	الفصل الثالث : الإمبراطورية الأثينية اثنان
٣٩٩	الفصل الرابع : نهضة سراقوصة
٤٠٧	الفصل الخامس : تقدم مقدونية
٤١١	الفصل السادس : دمستين

الصفحة	الموضوع
٤١٧	الباب العشرون : الآداب والفنون في القرن الرابع
٤١٧	الفصل الأول : الخطباء
٤٢٣	الفصل الثاني : إسقراط
٤٢٩	الفصل الثالث : أكسانوفون
٤٣٤	الفصل الرابع : أبليرز
٤٣٩	الفصل الخامس : بركستليز
٤٤٥	الفصل السادس : أسكوپاس وليسپوس
٤٥٠	الباب الحادى والعشرون : العصر الذهبى للفلسفة
٤٥٠	الفصل الأول : العلماء
٤٥٧	الفصل الثاني : المدارس السقراطية
٤٥٧	١ - أرسطوس
٤٦١	٢ - ديجين
٤٦٨	الفصل الثالث : أفلاطون
٤٦٨	١ - المسلم
٤٧٣	٢ - الفنان
٤٧٦	٣ - الميثاقين
٤٨٠	٤ - العالم الأخلاق
٤٨٣	٥ - الطوبى
٤٨٧	٦ - المشرح
٤٩٢	الفصل الرابع : أرسطوطاليس
٤٩٢	١ - أعوام التجوال
٤٩٦	٢ - العالم الطبيعى
٥٠٤	٣ - الفيلسوف
٥٠٩	٤ - السياسى
٥١٦	الباب الثانى والعشرون : الإسكندر
٥١٦	الفصل الأول : نفسية فاتح
٥٢٣	الفصل الثاني : طرق المجد
٥٣١	الفصل الثالث : موت إله
٥٤١	الفصل الرابع : خاتمة عصر

فهرس الأشكال والصور

٢٤	أثينا الحاملة	شكل
٢٥	اختطاف عروس لايت	»
٢٦	لوحة دمستراتي	»
٢٦	هرقل وأطلس	»
٢٨	نيكى تربط حذاءها	»
٢٩	هيكل نيكى إبتروس ومدخله	»
٣٠	سائق مركبة دلتا	»
٣١	تاج عمود من الأركثيوم	»
٣٢	الهارثنون	»
٣٣	القوصرة الشرقية للهارثنون	»
٣٤	القوصرة الغربية للهارثنون	»
٣٥	فرسان من الإفريز الغربية للهارثنون	»
٣٦	سفكليز (سفكل)	»
٣٧	دمستين	»
٣٨	تمثال من تنجارا	»
٣٩	ضريح هلكرنس	»
٤٠	نقش بارز من ضريح هلكرنس	»
٤١	أفرديتي بثلث	»
٤٢	نيكى بونيهوس	»
٤٣	هرمس بركستليز	»

مقدمة الترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وبعد :
فهذا هو الجزء الثانى من المجلد الثانى من مجلدات قصة الحضارة الست : وهو
يضم بين دفتيه حضارة اليونان فى العصر الذهبى ، وفى عصر اضمحلال
الحرية اليونانية وسقوطها . وهو كسابقه ترجمة أمينة للأصل الإنجليزى
لا يزيد عليه إلا فى بعض شروح قليلة فى هامش الكتاب . ولقد جرينا فيه
على النسبة التى جرينا عليها فى الأجزاء السابقة فأثبتنا أسماء الأماكن والأشخاص
بالطروف الإنجليزية بعد العربية حين يرد ذكرها أول مرة ، حتى يكون
القارئ على بينة منها ، وحتى يسهل عليه نطقها . أما الأسماء اليونانية التى
ورد ذكرها فى الكتب العربية كأسماء الفلاسفة وبلادهم ، فقد كتبناها كما
كتبها العرب أنفسهم وإن خالف ذلك نطقها باليونانية والإنجليزية . ولعلنا
لم نستطع الوصول إلى بعض هذه الأسماء ، ولكننا قد بذلنا كثيراً من الجهد
فى الوصول إليها ، وستدرك ما نستطيع معرفته منها فى الجزء الثالث كما
تداركنا فى هذا الجزء بعض ما فاتنا فى الجزء الأول .

ونعود فنكرر الشكر للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، التى بفضلها
ترجم هذا الكتاب ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر التى بفضلها نشر . والله
المهادى إلى سواء السبيل ؟

محمد بربراه

ديسمبر سنة ١٩٥٢

الكتاب الثالث

العصر الذهبي

من ٤٨٠ إلى ٣٩٩ ق = ٤٢٠

أهم الحوادث في الكتاب الثالث

مرتبة حسب تواريخها

- ق . م . ٠
- ٤٧٨ - - - - - بندانر الطيبى ، الشاعر .
- ٤٧٨ - ٤٦٧ - - - - - هيرون الأول طاغية و سراقوصة .
- ٤٧٨ - - - - - فيثاغورس الرجيوى ، المثال
- ٤٧٧ - - - - - تأليف حلف ديلوس .
- ٤٧٢ - - - - - بولخنوتوتس المصور ؛ برسو إسكلس .
- ٤٦٩ - - - - - مولد سقراط .
- ٤٦٨ - - - - - سيمون يهزم الفرس و أدرميون ، المباراة الأولى بين إسكلس وسفكليز .
- ٤٦٧ - - - - - بكميليدز الكيوسى الشاعر ، سبعة ضد طيبة لإسكلس .
- ٤٦٤ - ٤٥٤ - - - - - ثورة الأرقاء (الهيلوت) ؛ حصار إيثوم .
- ٤٦٣ - ٤٣١ - - - - - بركليز في الحياة العامة .
- ٤٦٣ - - - - - إفيلايز يحدد اختصاصات مجلس الأريويكس ، ويقرر أجوراً للقضاة أنكساغوراس في أثينة .
- ٤٦١ - - - - - سيمون يبنى ؛ إفيلايز يقتل .
- ٤٦٠ - - - - - أنبانوقليس الأكرجاسى ، الفيلسوف ؛ بروميثيوس المقيد لإسكلس .
- ٤٥٩ - ٥٥٤ - - - - - إخفاق حملة أثينة على مصر .
- ٤٥٨ - - - - - أرسايا لإسكلس و الأسوار الطويلة .
- ٤٥٦ - - - - - هيكل زيوس في أولمبيا ، بيونثوس المنفى ، المثال .
- ٤٥٤ - - - - - خزانة حلف ديلوس تنقل إلى أثينة .
- ٤٥٠ - - - - - زينوفن الإيلى ، الفيلسوف ، أبقرراط البلشيوزى الرياضى ؛ كلمكوس يوطد أركان النظام الكورنثى ؛ فيلولوس الطيبى ، الفلكى .
- ٤٤٨ - - - - - صلح كلياس مع فارس .
- ٤٤٧ - ٤٣١ - - - - - البياثنون .
- ٤٤٥ - - - - - ليوسيس الأبدى ، الفيلسوف .
- ٤٤٣ - - - - - ميروذوت الهليكرنى ، المؤرخ ، ينضم إلى المستعمرين الذين أسروا ثوريان في إيطاليا ؛ جورجياس البيونثينى ، السوفسطائى .
- ٤٤٢ - - - - - أنتيجون لسفكليز ، ميرون الإليويثرى المثال .
- ٤٤٠ - - - - - بروجوارس الأبدى ، السوفسطائى .
- ٤٣٨ - - - - - أثينة بربثوس لفدياس ، ألسنس ليوربيديز .

- ق. م. -
- ٤٣٧ - البروبيليا .
- ٤٣٥ - ٤٣٤ الحرب بين كورنثة وكرثيرا .
- ٤٣٣ - حلف أثينة وكثيرا .
- ٤٣٢ - ثورة بوتيديا ، محاكمة أسباشيا ، وفدياس : وأنكساغوراس .
- ٤٣٠ - ٤٠٤ حرب الهلوبيونيز .
- ٤٣٠ - ٤٢٤ ظهور روايات ميديا ، أندرومكي ، وهكيبا ليورديز ؛ وإلكترا لسفكليز .
- ٤٣٠ - الطاعون في أثينة ، محاكمة پركليز .
- ٤٢٩ - موت پركليز ، كليون يعول السلطة ، أوديب الملك لسفكليز .
- ٤٢٨ - ثورة متلفي ، ليورديز يكتب هبوليتوس : موت أنكساغوراس .
- ٤٢٧ - قدوم جورجياس إلى أثينة ؛ پروذكوس ، وهيباس السوفسطائيان .
- ٤٢٥ - حصار اسفكتيريا ؛ سفكليز يكتب « الأكرنيين » .
- ٤٢٤ - برسيداس يستولى على أمفيبوليس ؛ نفى توكيديس المؤرخ ، أرستغفنز يكتب رواية « الفرسان » .
- ٢٢٣ - أرستغفنز يكتب رواية « السحب » ؛ زيوكسيس المرقط ؛ وپرهسيوس الإفوسى المثالان .
- ٤٢٢ - رواية « الزناپير » لسفكليز ؛ موت كليون وبراسيداس .
- ٤٢١ - صلح نيشاس ؛ رواية « السلام » لأرستغفنز .
- ٤٢٠ - أبقراط الكوسى ؛ الطيب ؛ ديموقريطس الأپدرى ، الفيلسوف پوليقريطس السكيوفى ، المثال .
- ٤٢٠ - ٤٠٤ الإركثيوم .
- ٤١٩ - لسباس الطيب .
- ٤١٨ - انتصار اسبارطة في ماتينية ؛ رواية « أبون » ليورديز .
- ٤١٦ - ملحة ميلوس ؛ رواية « إلكترا » ليورديز (؟) .
- ٤١٥ - ٤١٣ حملة أثينة على سراقوصه .
- ٤١٥ - بترالهما ؛ سقرط ألسيديز ؛ « الطر واديات » ليورديز .
- ٤١٤ - حصار سراقوصه ؛ رواية « الطيور » لأرستغفنز .
- ٤١٣ - هزيمة أثينة في سراقوصه ؛ رواية إفيثيا في طوريس ليورديز .
- ٤١٢ - مسرحيتا هلن وأندرمدا ليورديز .
- ٤١١ - ثورة الأربمالة ؛ روايتا « ليستراتا » و « ثسموة يا زوسا » لأرستغفنز .
- ٤١٠ - عودة الديمقراطية ؛ انتصار ألسيديز في سديكوس .
- ٤٠٨ - ثيموثيوس الملطى الشاعر والموسيقى ؛ رواية « أوسيجز » . ليورديز .

- ق . ٢ . ٥
- ٤٥٦ اقتصار أثينة في أرچنوسى ؛ موت يورپديز ، وسفكليز ؛ مسرحيتا
« الباكين » و « إنيچينا في أويس » ليورپديز .
٤٥٥ - ٣٦٧ ديونيسيوس الأول طاغية في سراقوسة .
- ٤٥٥ انتصار اسپارطة في إيسپوتامى ، مسرحية « الضفادح » لأرستفانيز .
- ٤٥٤ نهاية حرب الهلويونيز ، حكم الثلاثين في أثينة .
- ٤٥٣ عودة الديمقراطية .
- ٤٥١ هزيمة فورس الثاني في كونكسا ، ارتداد العشرة الآلاف أنباع زنونون و
مسرحية أوديب في كولونوس لسفكليز .
- ٣٩٩ محاكمة سقراط وموته .

الباب الحادى عشر

بركليز والتجربة الديمقراطية

الفضل الأول

نهضة أثينة

يقول شلى Shelley إن « الفترة الواقعة بين مولد بركليز وموت أرسطو تعد بلاشك أهم فترة في تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها أو من حيث أثرها في مصائر الإنسان المتحضر من بعدها » . وكانت أثينة هي المسيطرة على هذه الفترة ، وقد نالت زلاء معظم المدن الإيجية فأمدتها هذه المدن بالأموال لأنها تزعمتها في إنقاذ بلاد اليونان من الغزو الأجنبي ، ولأن أيونيا بعد هذه الحرب قد حلت بها الفاقة ، واسبارطة قد اضطربت أحوالها بسبب تسريح جيوشها وما حدث فيها من زلازل وفتن ؛ ولأن الأسطول الأثينى قد نال من النصر في العالم التجارى ما لا يقل عن نصره الحربى في أرتميزيوم سلاميس :

ولسنا نقصد أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها نهائيا ؛ فقد استمر النزاع بين الفرس واليونان من عهد أن فتح قورش أيونيا إلى أن هزم الإسكندر دارا الثالث . وقد طرد الفرس من أيونيا في عام ٤٧٩ ومن البحر الأسود عام ٤٧٨ ومن تراقيا سنة ٤٧٦ ، وفي عام ٤٦٨ انتصر أسطول يونانى بقيادة سيمون الأثينى نصراً مؤزرأ على الفرس في البر وفي البحر عند مصب نهر يوريمدون Eurymedon (*) : وفي ذلك الوقت ألفت المدن

(*) نهر في بونفليا في جنوب آسيا الصغرى .

اليونانية في آسية وبحر إيجه اتحاد ديلوس بزعامة أثينة وتبرعت كلها بمقدار من المال أودع في هيكل أبولو في ديلوس . وأمدت أثينة هذا الاتحاد بالسفن بدل المال فلم تلبث لهذا السبب أن أصبحت لها الزعامة عليه بفضل قوتها البحرية ، ولم يلبث اتحاد الأنداد أن استحال إلى إمبراطورية أثينة .

وانضم كبار الساسة الأثينيون جميعهم ومنهم الرجل الفاضل أرسطيديز والرجل المنزه الطاهر بركليز إلى ثمستكليز الذي لا ضمير له في هذه السياسة الجديدة ، سياسة التوسع الاستعماري . ولم تكن أثينة مدينة لإنسان مآ بمثل ما كانت مدينة به لثمستكليز ، ولم يكن أحد من رجالها أكثر منه تصميماً على أن ينال جزاء ما قدمه لها ، فلما أن اجتمع زعماء اليونان ليقترحوا مكافأة أولئك الرجال الذين أظهروا كفاية ممتازة في الدفاع عن البلاد اقترح كل منهم لنفسه أولاً وثمستكليز ثانياً : وكان هو الذي سير تاريخ اليونان في الهجري الذي سار فيه بعدئذ ، وذلك بأن أقنع أثينة أن البحر لا البر والتجارة لا الحرب هما سبيل السيطرة والسيادة ، ومن أجل هذا أخذ يفلوض بلاد الفرس ويسعى إلى وضع حد للنزاع القائم بين الإمبراطورية الهرمة والإمبراطورية الفتية حتى تزول العقبات القائمة في سبيل الاتجار مع آسية ويم الرخاء أثينة . وقد حشد رجال أثينة - بل ونساءها وأطفالها - لإقامة سور حول المدينة وسور آخر حول ثغرى بيرية Piraeus ومنيشيه Muniychia ، ووضع الخطة التي نفذها بركليز لإقامة أرصفة عظيمة ، ومخازن ، ومصافق في بيرية تسهلاً للتجارة البحرية . وكان يعرف أن هذه السياسة ستثير الغيرة والحسد في نفس إسبارطة ، وقد تودى إلى نشوب الحرب بين الدول المتنافسة ، ولكنه كان يسعى لرقى أثينة وتقلعها ، وكان هذا الأمل ووثوقه بقوة الأسطول الأثيني يدفعانه إلى العمل دفعاً .

وكان في أهدافه من العظمة بقدر ما في وسائله من الانحطاط ، فقد استخدم الأسطول لإرغام جزائر سكلديس على أداء الجزية له بحجة أن هذه

الجزائر استسلمت للفرس أسرع مما ينبغي لها أن تستسلم ، وأنها أمدت خشيارشاي بالجنود ؛ ويلوح أنه أعفى بعض المدن من هذه الجزية بعد أن قدمت له الرشاش (٢) . ولهذا الاعتبار عينها أعد العدة لاستدعاء بعض المنفيين ، ويقول تيموقريون Timocreon إنه كان يحتفظ بما يقدم له من الرشاش وإن لم يفلح في إعادتهم (٣) إلى أوطانهم . ولما عهد إلى أرسنديز الإشراف على الأموال العامة وجد أن من كانوا يشرفون عليها قد اختلسوا الكثير منها ، وأن تمسكليز لم يكن أقلهم اختلاساً (٤) وتبديداً لها ، وأصدر الأثينيون حوالي عام ٤٧١ قراراً بتفويض من البلاد لأنهم كانوا يحشون مقلدته وفساد ضميره فخرج منها يريد البقاء في أرجوس . ولكن وثائق ذات بال لم تثبت أن وقعت في يد الإسبارطيين تثبت على ما يظهر أن تمسكليز دارت بينه وبين بوزنياس نائب الملك عندهم ، وكانوا قد أماتوه جوعاً لأنه اتصل بالفرس في مفاوضات تثبت عليه الخيانة لبلادهم . وانتهزت إسبارطة هذه الفرصة لإسقاط عدوها ، فأطلعت أثينة على هذه الوثائق وأرسلت أثينة من فورها أمراً بالقبض على تمسكليز ؛ فما كان منه إلا أن فر إلى كرسيرا Gorcyra ، وأبت هذه أن تحميه ، فلجأ إلى بروس حيث أقام زمناً قصيراً ، ثم أبحر منها سراً إلى آسية ، وطلب إلى خليفة خشيارشاي أن يكافئه على منعه اليونان من تعقب آثار الأسطول الفارسي بعد سلاميس ، وانخدع أرتخشتر (أزدشير) بما وعده به تمسكليز من مساعدة على إخضاع بلاد اليونان (٥) فقبضه إلى مستشاريه وخصه بموارد بعض المدن الخاضعة لحكمه . وقبل أن يستطيع تمسكليز إنفاذ الخطة التي أقضت مضجعه عاجلته المنية في مجنيزيا عام ٤٤٩ ؛ وهو في سن الخامسة والستين ، بعد أن نال إعجاب بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها واكتسب كراهيتها .

وآلت زعامة الحزب الديمقراطي في أثينة بعد تمسكليز وأستنديز إلى إفيقليز ، كما آلت زعامة الحزب الألياركي أو حزب المحافظين إلى سيمون بن

ملتياس . وكان سيمون متصفاً بمعظم الفضائل التي تنقص ثمستكيز ، ولكنه كانت تعوزه الكياسة والمقدرة اللتان لا بد منهما للنجاح في الحكم والسياسة . ولا ضاق ذرعاً بما كان يحاك في المدينة من دسائس تولى قيادة الأسطول ، وثبت دعائم الحرية في بلاد اليونان بما ناله من النصر في يوريميدون ، وعاد إلى أثينة ظافراً ولكنه فقد حب الشعب له حين أشار بتسوية النزاع مع اسپارطة . ووافقت الجمعية على كره منها أن تعهد إليه قيادة قوة أثينة لمساعدة الإسبارطيين على إخضاع الميلوتيين في إيثوى ، ولكن الإسبارطيين لم يأمنوا للأثينيين وارتابوا فيهم حتى وهم يريدون لم الخير . وبلغ من سوء ظنهم بجنود سيمون أن عادوا إلى أثينة غاضبين ، كما عاد سيمون يحمل الخزي والعار ، وسقطت مكانته بين مواطنيه . وفي عام ٤٦١ صدر قرار الجمعية ببنفيه بتحريض پركليز ، وسقطت بسقوطه منزلة الحزب الأبحركي إلى الخضيض ، لقد ظلت الحكومة ملدى جيلين في قبضة الديمقراطيين : وبعد أربع سنين من سقوطه استصدر پركليز من الجمعية قراراً باستدعائه مدفوعاً إلى ذلك بئدمه على فعلته (أو لعشق إلبنيس Elpenice أخت سيمون كما تقول الشائعات) ، ومات سيمون ميتة شريفة في معركة بحرية في جزيرة قبرص .

وآلت زعامة الحزب الديمقراطي وقتئذ إلى رجل قد يدهش القارئ إذا قلنا إنا لا نعرف عنه إلا القليل ، مع أن نشاطه هو الذي غير مجرى تاريخ أثينة ، والرجل الذي نعنيه بقولنا هذا هو إفيلتيز . وكان إفيلتيز هذا رجلاً فقيراً ولكنه طاهر اليد ، ولم يعيش طويلاً بعد أن هدأت نار الأحقاد السياسية في أثينة . وكانت الحرب قد زادت من قوة حزب الشعب لأن المواطنين الأحرار نسوا إلى حين ما كان بين طبقاتهم من شقاق وانقسام ، ولأن البليش — الذي كان يسيطر عليه الأشراف — لم يكن هو الذي كسب معركة سلاميس ، بل كسبها الأسطول ، وكان رجاله من فقراء المواطنين كما

كانت قيادته في أيدي طبقة التجار الوسطى . وحاول الحزب الأحركى أن يحفظ بامتيازاته بتركيز السلطة العليا في الأريوبجوس (مجلس الشيوخ) المحافظ ، فما كان جواب إفيليتز إلى أن قام بهجوم (*) عنيف على مجلس الشيوخ القديم ، ووجه تهماً شنيعة إلى الكثيرين من أعضاءه ، وأمر بإعدام بعضهم (٧) ، وحمل الجمعية على أن توافق على إلغاء ما كان باقياً للأريوبجوس من سلطة إلغاء يكاد يكون تاماً . وأثنى أرسطاطاليس الأرسقراطي النزعة فيما بعد على هذه السياسة المتطرفة بحجة أن « انتقال السلطات القضائية التي كانت من قبل من اختصاص مجلس الشيوخ إلى أيدي العامة كان فيما يبدو عظيم النفع لأن إرشاد العدد القليل من الناس أيسر من إرشاد العدد الكبير منهم (٨) » . غير أن المحافظين من أهل ذلك الوقت لم يؤمنوا بهذه النتيجة وهم هادئون . ولما عجزوا عن شراء ضمير إفيليتز سلطوا عليه من اغتاله في عام ٤٦١ (٩) ، وانتقلت بعد موته زعامة الحزب الديمقراطي التي تعرض من يتولاها لأشد الأخطار إلى بركليز الأرسقراطي .

(*) إن ما يقوله چروت Orote في عام ٢٨٥٠ م عن الأريوبجوس ليذكرنا ببعض ما وجه من نقد المحكمة العليا في الولايات المتحدة عام ١٩٣٧ . قال : « لقد كان الأريوبجوس وحده هو الذي تستمر سلطة أعضائه مدى الحياة ، ويبدو أنه لهذا السبب كان ذا سلطان واسع لا حد له ، وأن طول الأمد ودوام هذا السلطان قد خلعا عليه ثوبا من اقدامة ، وجعلا له في قلوب الناس إجلالا ديليا ... يضاف إلى هذا أن الأريوبجوس كان له حق الإشراف على الجمعية الشعبية : وكان يحرص على ألا تخرق شرائع البلاد بشيء من إجراءاتها . وكانت هذه السلطات واسعة مطلقة غير مقيدة ، لم يمنعه إياها الشعب بقرار رسمي منه » (٦) .

الفصل الثاني

پرکلیز

ولد قبل مرثون بثلاث سنين رجل أصبح فيما بعد صاحب السلطة العليا على جميع قوى أثينة المادبة والروحية في خلال عصر عظمتها ومجدها : وكان والده زنيثوس Xanthippus ممن حاربوا في سلاميس ، وقد تولى قيادة الأسطول الأثيني في معركة ميكالي ، واسترد مضيق الملسينت لبلاد اليونان : وكانت أجرسنتى Agariste أم پرکلیز حفيده المصلح كليستيز ، ولهذا فإن نسبه من جهة أمه يتصل بأسرة الألقميونيين القديمة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « ولما قرب يوم مولده رأت أمه في منامها أنها ولدت أسداً ، وبعد بضعة أيام ولدت پرکلیز - وكان جسمه كاملاً سوياً في كل شيء ما عدا رأسه ، فقد كان طويلاً بعض الطول غير متناسب مع جسمه (١٠) » وكثيراً ما سخر نقاده من طوله . وتعلم الموسيقى على دامون Damon أشهر معلمها في زمانه ، وعلمه فيثاغورس الموسيقى والأدب ، واستمع إلى محاضرات زينون الإيلي في أثينة ، وأصبح صديقاً وتلميذاً للفيلسوف أنكساغوراس . وثقف في أثناء نموه بثقافة عصره السريعة التما ، وجمع في ذهنه واستخدم في سياسته جميع نواحي الحضارة الأثينية - الاقتصادية ، والعسكرية ، والأدبية ، والفنية ، والفلسفية . ويبلغ علمنا أنه كان أكمل إنسان أنجبته بلاد اليونان جميعها .

ولما رأى أن مبادئ الحزب الأبحركي لا تتمشى مع روح العصر انضم من بداية حياته العامة إلى حزب « الديموس » (الشعب) أي سكان أثينة الأحرار . وكانت كلمة « الشعب » وقتئذ ، كما كانت في أمريكا إلى أيام جفرسن ، تفترض ليمن. تطلق عليه بعض القيود الخاصة بالملكية : وكان حين

ينزل ميدان السياسة بوجه عام وحين يقدم على أى عمل سياسى بوجه خاص ، يستعد له أكمل استعداد ، فلا يتردد فى أن يمضى فى أى عمل تفرضه عليه قواعد التربية الحقة ، لا يتكلم إلا قليلا ، ولا يطيل الكلام ، ويدعو الآلهة أن تمسك لسانه فلا ينطق بأية كلمة لامت بصلة قوية للموضوع الذى يتكلم فيه . وكان الناس كلهم ومنهم الشعراء الهزليون الذين يمتدون عليه ، يسمونه « الأولي » الفصيح اللسن الذى لم تسمع أثينة قبله مثل فصاحته فى قوتها وعظيم تأثيرها ، ومع هذا فالمؤرخون كلهم مجمعون على أن خطبه كانت خالية من الانفعال ، تتأثر بها العقول المستنيرة . ولم يكن نفوذه مستمداً من ذكائه فحسب ، بل كان مستمداً كذلك من صلاحه واستقامته ، ولم يكن يستنكف أن يستعين بالرشا ليحصل للدولة على أغراضها ، أما هو نفسه فكان « بلا جدال مبرأ من جميع ضروب الفساد وأكبر من أن يهتم بالمال (١١) » . ويحدثنا المؤرخون أن بركليز لم يضيف طوال حياته العامة شيئاً ما إلى ما ورثه من أبيه ، على حين أن ثمستكليز تولى المناصب العامة وهو فقير وخرج منها وهو واسع الثراء (١٢) . ومما يدل على فطنة الأثينيين وحكمتهم فى ذلك العهد أنهم ظلوا خلال ثلاثين عاماً أو نحوها بين ٤٦٧ و ٤٢٨ ينتخبونه ويجددون انتخابه - ما عدا فترات قصيرة - ليكون واحداً من الاستراتجوى أى القادة العشرة ، وكان بقاؤه فى منصبه هذه المدة الطويلة نسبياً مما جعله صاحب السلطة العليا فى المجلس العسكرى ، وأمكنه أن يجعل منصب الاستراتجوس أوتوكراتور أى القائد صاحب السلطة أعلى المناصب الحكومية شأنها وأعظمها سلطاناً . وحصلت أثينة فى أيامه على فوائد الحكم الأرستقراطى والدكتاتورى ، وإن كانت قد استمتعت أيضاً بجميع مزايا الديمقراطية . فقد بقى لها ما كان يزدان به عهد بيستراتس من حكم صالح وعمل على نشر الثقافة وتشجيعها ، واجتمع لها ما كان فى عهد بيستراتس من حسن توجيه ، وفرط ذكاء ، وسرعة البت فى الشئون العامة ، مضافة إلى رضاء المواطنين الأحرار رضاء كاملاً يظهره عاملاً بعد

عام . وكان وجوده برهاناً يثبت به التاريخ المبدأ القائل إن خير وسيلة لتنفيذ الإصلاحات القائمة على أسس الحرية وأضمن الطرق لتثبيت هذه الإصلاحات وتقوية دعائمها هي أن يتولاها زعيم حلرمعتدل ، يستمتع بتأييد الشعب ، ومن أجل ذلك بلغت الحضارة اليونانية أعلى درجاتها حين تمت الديمقراطية نمواً يكفي لأن يكسبها قوة وتعدداً في نواحي نشاطها ، وبقي فيها من الأرستقراطية ما يكسبها حسن النظام وسلامة اللوق :

وأدت إصلاحات بركليز إلى زيادة سلطة الشعب زيادة عظيمة . ذلك أن عدم أداء أجور للقضاة نظير عملهم في المحاكم كان قد أكسب الطبقات لثرية سلطاناً عظيماً فيها وإن كانت سلطتهم قد زادت من قبل في عهد صولون وكليستينز وإفيليز . وأدرك بركليز هذا ، فقرر في عام ٤٥١ أبولين obols أى ما يعادل $\frac{1}{3}$ من الريال الأمريكى لكل قاض عن كل يوم يجلس فيه للقضاء ، ثم رفع هذا الأجر بعدئذ إلى ثلاث أبولات ، وكان هذا الأجر في كلتا الحالتين يعادل وقتئذ نصف ما يكسبه الأثني العادي من عمله اليومي (١٣) . ولسنا نستطيع أن نحمل محمل الجدل قول بعضهم : إن هذه الأجر القليلة أضعفت قوة أثينة وأفسدت أخلاق أهلها ، لأن هذا لو صح لقصي من وقت بعيد على كل دولة تؤجر قضاتها أو محلفيها . ويلوح أن بركليز قرر كذلك مكافأة قليلة لمن يتخبطون في سلك الخدمة العسكرية . وقد توج كرمه الذي يعيبه عليه بعض الناس بأن خصص من مال الدولة أبولين في العام لكل مواطن من مواطنيها يؤديهما أجراً لدخوله لمشاهدة ما يعرض من المسرحيات والألعاب في الأعياد العامة ، وحقته في هذا أن هذه المسرحيات والألعاب يجب ألا تكون ترفاً تختص به الطبقات العليا والوسطى ، بل يجب أن تهدف إلى رفع مستوى الناخبين العقلي على بكرة أبيهم . على أننا يجب أن نذكر في هذا المقام أن أفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وفلو طرخس - وهم جميعاً محافظون - مجمعون على أن هذه الأجر أضرت بأخلاق الأثينيين (١٤) .

وواصل بركليز عمل إيفليز فنقل إلى المحاكم الشعبية ما كان للأركونيز وكبار الموظفين من اختصاصات قضائية ، فأصبحت الأركونية من ذلك الحين منصباً إدارياً أكثر منها منصباً يوجه سياسة الدولة ، أو يفصل في القضايا أوبصدر الأحكام والأوامر . وفي عام ٤٥٧ وسع حق الانتخاب للأركونية حتى شمل الطبقة الثالثة من الأهلين ، الزوجتاي Zeugitai ، وكان من قبل مقصوراً على الطبقات الغنية ، ولم تلبث أحط الطبقات منزلة وهي طبقة الثيتيين أن حصلت على حق الانتخاب لهذا المنصب من غير حاجة إلى إجراءات شكلية ، وذلك بأن غالت في تقدير دخلها ، وتغاضت سائر الطبقات عن هذا الخداع والتزوير لما كان لهذه الطبقة الدنيا من شأن عظيم في الدفاع عن أثينة^(١٥) . ثم اختط بركليز إلى أجل قصير خطة مغايرة لخطة السالفة الذكر فأقنع الجمعية في عام ٤٥١ بأن تقصر حق الانتخاب على الأبناء الشرعيين الذين يولدون من آباء أثينيين وأمهات أثينيات . وحرّم عقد زواج شرعي بين مواطن وغير مواطن . وكان يقصد بهذا الإجراء عدم تشجيع الزواج بين الأثينيين والأجانب والإقلال من عدد الأبناء غير الشرعيين ، ولعله كان يريد أيضاً أن يحتفظ لأهل مدينة أثينة الحريصين على حقوقهم بما يعود عليهم من هذه الحقوق الوطنية والإمبراطورية من مزايا . ولكن بركليز لم يلبث أن وجد من الأسباب ما جعله يندم على هذا التشريع الضيق المانع .

وأدرك بركليز أن أي أنواع الحكم يبدو في أعين الناس صالحاً إذا عاد عليهم بالرخاء ، وأن أحسن أنواعه يبدو لهم سيئاً إذا لم يعد عليهم به ، فوجه عنايته إلى سياسة البلاد الاقتصادية بعهد أن ثبت دعائم مركزه السياسي ، فعمل على تقليل ضغط السكان على موارد أتكال الضئيلة . بإسكان جاليات من فقراء الموظفين الأثينيين في البلاد الأجنبية ، وهياً العمل للمتعبين^(١٦) بأن جعل الدولة تستخدم من الأهلين عدداً كبيراً لم تكن له نظير في بلاد اليونان من قبل : فزاد

عدد سفن الأسطول ، وأنشأوا دور الصنعة ، وبنى في يبريه مصنعاً عظيماً لتجارة الحبوب .

وأراد أن يحمي أثينة حماية قوية من خطر الغزو عن طريق البر ، وأن يهيئ في الوقت نفسه عملاً جديداً للمتعطلين ، فأقنع الجمعية بأن توافق على صرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أميال سميت « الأسوار الطويلة » ، تصل أثينة بيبريه وفالروم Phalerum . وقد جعلت هذه الأسوار مدينة أثينة ومرافئها كنفاً واحداً حصيناً لا يتوصل إليه في وقت الحرب إلا من طريق البحر - الذى يسيطر عليه الأسطول . ونظرت اسبارطة غير المسورة إلى هذا البرنامج الواسع من برامج التسليح نظرة عدائية ، ورأى الحزب الأبحركى في هذا العداء فرصة تتيج له الاستيلاء على زمام السلطة السياسية ، فأرسل رسله إلى الاسبارطيين يدعونهم لغزو أتكا ، وتعهدوا لهم بأن يوقدوا في أثناء الغزو نار الفتنة في المدينة ، فيقضوا بذلك على الحكومة الديمقراطية ، كما تعهدوا أيضاً بهدم « الأسوار الطويلة » . ووافق الاسبارطيون على هذه الخطة ، وسبروا على أثينة جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا Tangara (٤٥٧) ، ولكن الأبحركيين عجزوا على القيام بثورتهم ، وعاد الاسبارطيون إلى البلوونيز بنحى حنين ، ينتظرون على مضض أن تتاح لهم فرصة أحسن من هذه الفرصة يقضون بها على منافستهم المزدهرة التى أخذت تنتزع منهم زعامتهم للتقليدية على بلاد اليونان :

وقاوم پركليز ما حدثته به نفسه من الانتقام من اسبارطة ، ووجه جهوده كلها بدلا من هذا إلى تجميل أثينة ، فوضع منهاجاً ضخماً يهدف إلى الانتفاع بجهود جميع عباقرة الفن الأثينيين ومن بقى فيها من المتعطلين في تزيين الأكوروبوليس ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يجعل المدينة مركز هلاس الثقافى ، وأن يعيد بناء الهياكل القديمة - التى خربها الفيرس - على نطاق واسع فخم يبعث العزة والفخار في نفس كل مواطن في المدينة ويقول فلوطرخس في هلمنا : « ولقد كانت رغبته وغابته ألا يحرم جمهور الصناعات غير

المهلبين من نصيبهم في الأموال العامة على ألا ينالوا نصيبهم هذا وهم متعطلون لا يفعلون شيئاً ، ومن أجل هذا وضع البرنامج الضخم للمنشآت العامة (١٧) : أما المال اللازم لهذه المشروعات فقد حصل عليه بأن اقترح نقل ما تجمع من الأموال في خزانة حلف ديლოს من هذه البلدة غير الأمانة بعد أن ظل فيها زمناً طويلاً لا ينتفع منه بشيء ، وأن يستخدم ما لا يحتاج إليه منه للدفاع المشترك عن البلاد اليونانية في تجميل المدينة التي يرى بركليز أنها هي العاصمة الشرعية للإمبراطورية الصالحة الجديدة .

وكان نقل خزانة حلف ديლოს إلى أثينة عملاً صالحاً في نظر الأثينيين جميعاً بما فيهم الأبرجكيون . ولكن الناخبين ترددوا في السماح بإتفاق أى قدر كبير من الأموال لتجميل المدينة — وقد يكون الباعث لهم على هذا عدم ارتياح ضباطهم إلى هذا العمل ، أو أنهم كان يجالجهم أمل خفي في أن يحصلوا بطريقة أقرب من طريقة بركليز وأيسر منها على هذه الأموال لينفقوها في قضاء حاجاتهم وفي ملذاتهم . وكان زعماء الحزب الأبرجكي مهرة في الاستفادة من هذا الشعور . فلما أن اقترب اليوم الذي سيعرض فيه هذا الأمر على الجمعية لتقرر عليه بدا أنها سترفضه لا محالة .

ويحدثنا فلوطرخس عن الطريقة الماكرة التي حول بها بركليز هذا التيار إلى صالحه فيقول : « وقال بركليز : حسن جداً ، فلتهب نفقات هذه المنشآت إلى جيبى أنا لا إلى جيوبكم ، وليتقش عليها اسمى لا اسمكم ، فلما سمعوا قوله هذا ناهوه بأعلى أصواتهم أن يتفق المال . . . وألا يقف عن الإتفاق حتى ينعذ عن آخره ، ولستأ نعرف أكان هذا لأنهم دهشوا من عظمتهم النفسية أم لأنهم أرادوا أن يكون لهم فضل القيام بهذه الأعمال » .

، بنا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق ، وكان بركليز يبسط معونته وحمائه لفدياس ، وإكتنوس Ictinus ، ونسكليز Mnescles وغيرهم من الفنانين الذين كانوا يكسحون لتحقيق أحلامه ، كان هو يناصر الأدب والفلسفة ،

وبينا مكان الشقاق بين الأحزاب . في سائر المدن اليونانية يستنفد جهود المواطنين ، وغصن الأدب يدوى ويذبل ، كانت الثروة المتزايدة في أثينة والحرية الديمقراطية تتعاونان مع الزعامة الحكيمة المثقفة على خلق عصرها الذهبي المجيد . وبيننا كان بركليز ، وأسبازيا ، وفدياس ، وانكساغوراس ، وسقراط يشاهدون مسرحيات يورپديز في ملهى ديونيسس ، كان في وسع أثينة أن تشهد هي الأخرى ذروة مجد الحياة في بلاد اليونان وكمال وحدتها - من سياسة ، وفن ، وعلم ، وفلسفة ، وأدب ، ودين ، وأخلاق ، تشهد هذه كلها وليس لكل ناحية منها حياة منفصلة عن الأخرى في صحف المؤرخين ، بل تراها وقد اندمجت بعضها ببعض فتكون منها صرح متعدد الألوان هو مفخرة تاريخ هذه الأمة .

وترددت عواطف بركليز بين الفن والفلسفة ، ولعله كان يصعب عليه أن يقول أى الرجلين يجب أكثر من الآخر : فدياس أو أنكساغوراس ؛ ولعله أيضاً قد ولى وجهه شطر أسبازيا لكي يوفق بين رغبته في الجمال وفي الفلسفة معاً . ويقال لنا إنه « كان يكن لأنكساغوراس منتهى الإجلال والإعجاب » (١٨) . ويقول أفلاطون (١٩) إن الفيلسوف هو الذى دفع بركليز إلى شئون السياسة والحكم ، ويعتقد فلوطرخس أن اتصال بركليز الطويل الأمد بأنكساغوراس هو الذى أفاد منه سمو القصد وقوة اللغة التى سميت كثيراً فوق بلاغة الغوغاء وما فيها من صنف حقير ذئب ، هذا فضلاً عما أفاده من هدوء واطمئنان ووقار في جميع حركاته ، وثبات لا يتزعزع قط مهما يحدث حوله في أثناء خطبه . ولما تقدمت بأنكساغوراس السن وانهمك بركليز في الشئون العامة نسى رجل الحكم رجل الفلسفة فلم يعد له مكان ما في حياته زمناً ما ، ولكنه لما سمع فيما بعد أن أنكساغوراس يعاني مرارة الجوع والحرمان بادر إلى معاونته ، وقبل منه في تواضع ما وجهه إليه من اللوم يقول : « إن من يحتاجون يوماً ما إلى مصباح ، يمدونه بالزيت » (٢٠) .

وقد لا يصدق الإنسان لأول وهلة أن هذا « الأولمبي » الصارم كلن مرهف

الحس بمفاتيح النساء ، وإن كان لا يرى بعد أن يعيد التفكير أن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا غبار عليها : ذلك أن سيطرته على نفسه كانت تدفعه إلى مقاومة حساسيته الرقيقة ، على حين أن متاعب المنصب قد قوت بلا ريب حنينه الشديد السوى إلى رقة الأنوثة . وكان حين التقى بأسپاز قد مضى على زواجه زمن طويل ، وكانت هي من ذلك الطراز الذي كنت تحاول خلقه في بلاد اليونان ، طراز المونسات اللاتي أصبح لهن بعد قليل شأن كبير في الحياة الأثينية . كانت أسپازيا امرأة تأتي العزلة التي يفرضها الزواج على النساء في أثينة ، وكانت تفضل أن تعيش معيشة الاختلاط الجنسي غير المشروع بل الاختلاط الجنسي المطلق إلى حد ما إذا كان هذا يمكنها من أن تستمتع بحرية الحركة وبالحرية الخلقية اللتين يستمتع بهما الرجال ، وأن تشترك معهم في الأعمال الثقافية . وليس لدينا من الأدلة ما نستند إليه إذا شئنا أن نقدر جمال أسپازيا ، وإن كان الكتاب القدامى يتحدثون عن « قدمها الصغيرة المقوسة إلى أعلى » وعن « صوتها الفضي » و« شعرها الذهبي »^(٢١) ، وإن كان أرسطينز ، وهو عدو سياسي لدود ليركليس ، لا يؤثبه ضميره لتوجيه أية تهمة له ، يصفها بأنها عاهر من ميلطس ، أنشأت بيتاً فخماً للدعارة في مجارا ، ثم جاءت في ذلك الوقت ببعض فتياتها إلى أثينة . ويشير كاتب الملامح العظيم من طرف خفي إلى أن النزاع الذي قام بين أثينة ومجارا والذي عجل إشعال نار حرب البلوپونيز كان سببه أن أسپازيا أقنعت ليركليس بأن يثار لها . من الهجاريين الذين اختطفوا بعض فتياتها^(٢٢) . لكن أرسطينز لم يكن مؤرخاً ، ولا يصح أن يوثق به إلا فيما لا يتصل بشخصه هو .

ولما وصلت أسپازيا إلى أثينة في عام ٤٥٠ افتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة ، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن ، واختلاطهن بالرجال ، وتهيئتهن تربية عالية . والتحققت بمدرسها كثيرات من فتيات الطبقات العليا ، وأرسل كثيرون من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها^(٢٣) .

وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ، ومن بينهم بركليز وسقراط ، وأكبر الظن أن أنكساغوراس نفسه ، ويورپديز ، وألسيديز ، وفدياس كانوا يستمعون إليها . ويقول سقراط إنه تعلم منها فن البلاغة^(٢٤) ، ويؤكد بعض قدماء النمامين الثرثارين أن رجل الحكم قد ورثها من الفيلسوف^(٢٥)(*) .

ووجد بركليز وقتئذ أن الفرصة الطيبة قد واثته إذ أحببت زوجته رجلاً آخر ، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته ، فرضيت بذلك ، واتخذت لها زوجاً ثالثاً^(٢٦) ، وجاء بركليز بأسبازيا إلى بيته . غير أن قانونه الذي سنه في عام ٤٥١ لم يكن يبيح له أن يتخذها زوجة له لأنها من مواليد ميليطس ، وإذا ولد له منها طفل كان هذا الطفل بمقتضى هذا القانون نفسه طفلاً غير شرعى ، لا يستطيع أن ينال حق المواطنة الأثينية : ويلوح أنه كان شديد الحب والإخلاص لها ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يهيم بها هيماً شديداً ، فلا يغادر بيته ولا يعود إليه دون أن يقبلها ، ثم أوصى آخر الأمر بكل ما يملك إلى ولدها منه ، وانقطع من ذلك الوقت عن الحياة الاجتماعية كلها خارج بيته ، وقبلها كان يغادره إلى أى مكان غير ساحة المدينة ، أو قاعة المجلس ، حتى أخذ أهل أثينة يشكون بعده عنهم . أما أسبازيا نفسها فقد جعلت بيته أشبه بالندوات الفرنسية في عهد الاستنارة تناقش فيه الفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة ، وشئون الحكم والسياسة في أثينة ، مناقشة تجمع بين هذه النواحي المختلفة وتؤثر كل منها في الأخرى . وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها ، ويعزو إليها فضل إنشاء الخطبة الجنازية التي ألقاها بركليز بعد الخسائر الأولى في حرب البلوپونيز . وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينة غير المتوجة ، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة « مثل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعن لها والتي تثير حماسهن » :

(*) يريد : رجل الحكم بركليز وبالفيلسوف سقراط . (المترجم)

وكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأهلين ، فأخذوا ينددون بـ «بركليز» لأنه يدفع اليونان لحرب اليونان كما حدث في إيجينا وساموس ، ثم اتهموه بأنه يبدد الأموال العامة ، ثم سلطوا عليه الممثلين الهزليين فأساؤوا استخدام حرية الكلام التي سادت أثينا في عهده ، فاتهمه هؤلاء بأنه جعل داره بيتاً من بيوت الفساد السيئة السمعة ، وبأن بينه وبين زوجة ابنه علاقة غير شريفة^(٢٨) . وإذا كانوا لا يخرؤون على عرض تهمة من هذه التهم علناً أمام القضاء أخذوا يهاجمونه بالكيد لأصدقائه . فاتهموا فدياس باختلاس بعض الذي عهد إليه لصنع تمثال أثينة الذهبي العاجي ، ويلوح أنهم أفلحوا في إثبات التهمة عليه . ووجهوا إلى أنكساغوراس تهمة تتعلق بالذين ، ففر الفيلسوف إلى خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز . ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى أسبازيا مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين ، وأنها جهرت بعلم تعظيمها آلهة اليونان^(٢٩) . وهجاها الشعراء الهزليون هجاء قاسياً ووصفوها بأنها ديانيرا Deianira التي أهلكت بركليز^(*) وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهر ، واتهمها واحد منهم يدعى هرميوس Hermippus بأنها تعمل لكسب المال من طريق غير شريف ، وذلك بأنها قوادة لبركليز ، تأتي إليه بالحرائر ليستمتع بهن^(٣٠) ؛ وقدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسة مائة من القضاة ، ودافع عنها بركليز دفاعاً جيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة ، بل إنه استخدم فيه ذمومه نفسها ، ورفضت الدعوى . وبدأ بركليز من ذلك الوقت (٤٣٢) يفقد سيطرته على الشعب الأثيني ، ولما وافته منيته بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كان قد أصبح رجلاً مهتماً كبير القلب والجسم .

(*) ديانيرا هي زوجة هرقل ، التي تسببت في موته بأن قدمت له ثوباً مسموماً . انظر رواية سفاكلز «النساء التراكينيات» .

الفصل الثالث

الديمقراطية الأثينية

١ - المناقشات

حسبنا هذه التهم العجيبة شاهداً على أن الديمقراطية الضيقة التي كانت قائمة تحت سلعمان دكتاتورية بركليز المزعومة كانت ديمقراطية حقة . ومن واجبتنا أن ندرس هذه الديمقراطية بعناية لأنها تجربة من أبرز التجارب في تاريخ الحكم . ولقد كان يحد منها أولاً أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي التي تستطيع القراءة ، ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أئينة من المدن القاصية في أتكا . هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصوراً على من ولد من أبوين أثينيين حريين ، وبلغ الحادية والعشرين من العمر . وكان هؤلاء وأسرههم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية . وفي داخل محيط هذه الدائرة التي تضم ٤٣٠٠٠ من الموظفين يحرصون على ألا تشمل غيرهم من سكان أتكا البالغين ٣١٥٠٠٠ ، كانت السلطة السياسية في عصر بركليز موزعة من الناحية الشكلية توزيعاً متكافئاً ، فكان كل مواطن يستمتع ، وبصر على أن يستمتع ، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفي الجمعية الوطنية ، ولم يكن « المواطن » في نظر الأثينيين هو الذي يقترح فحسب ، بل كان هو الذي يشغل بالقرعة إذا جاء دوره على مر الأيام . منصب الحاكم أو القاضي ، ويجب أن يكون حراً ، مستعداً لخدمة الدولة حين تناديه ، وقادراً على خدمتها . ولا ينبغي أنه ليس في مقدور إنسان خاضع لغيره ، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته ، أن يجد من الوقت أو من المقدرة ما يمكنه من

أداء هذه الخدمات ، ومن أجل هذا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذى يعمل بيديه غير صالح لأن يكون مواطناً أثينياً ، وإن كانت هذه الكثرة تناقض نفسها فتعترف بهذا الحق للفلاح الذى يزرع أرضه . وكان أرقاء أتكا جميعهم البالغ عددهم ١١٥٠٠٠ ، وجميع النساء ، وجميع العمال ، وجميع المستوطنين الغرباء البالغ عددهم ٢٨٠٠٠ ، وعدد كبير من طبقة التجار ، كان هؤلاء كلهم تبعاً لهذا محرومين من الحقوق السياسية (*). أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون فى أحزاب سياسية ، بل كانوا يقسمون تقسيماً غير دقيق إلى أنصار الأبركرية أو أنصار الديمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضيقها ، ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية ، وإعانة الحكومة للفقراء. من أموال الأغنياء . وكان أنشط الأعضاء فى كلتا الجماعتين ينتظمون فى نواد تسمى مجتمعات الرفقاء *hetaireiai* وكان فى أثينة نواد من جميع الأنواع - نواد سياسية ، ونواد للأقرباء ، ونواد عسكرية ، ونواد للصناع ، ونواد للممثلين ، ونواد دينية ، ونواد تجهر بأن همها هو الأكل والشرب . وكانت أقوى هذه النوادى هى النوادى الأبركرية التى يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضاً فى الشؤون السياسية والقانونية ، وتربطهم بعضهم ببعض رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التى نالت حقوقها السياسية ، والتى أخذت تنافس طبقتى الأشراف ملاك الأراضى والتجار أصحاب المال (٢١). وفى وجه هذا الحزب الأبركرى يقف الحزب الديمقراطى إلى حد ما حزب صغار رجال الأعمال ، والمواطنين الذين أصبحوا أجزاء ، وأولئك الرجال الذين يعملون بحارة على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثينى . وكان

(*) هذه الأرقام منقولة عن كتاب ا . و . جم « سكان أثينة فى القرنين الخامس والرابع

قبل الميلاد **The Population of Athens in the Fifth & Fourth Centuries B.C.**

ص ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ . وهى بلا ريب أرقام ظنية . ومجموع السكان يشمل زوجات

اطنين وأبنائهم .

هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم ، ويرفعون إلى مصاف
الزعامة في أثينة رجالا من أمثال كليون Cleon دايف الجلود ، ولسكليز
Lysicles بائع الأغنام ، ويكراتيز Eoerates بائع حبال السفن ، وكليوفون
Cleopheon صانع القيثارات ، وهيربولس صانع المصابيح . وأفلح پركليز
مدى جيل كامل في إبعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التي كانت مزيجا
من الديمقراطية والأرستقراطية ، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع كل
الاستمتاع بمستلزماته . وظل النزاع المرير قائماً بين الأبركيين والديمقراطيين
من أيام صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والاقتراع والنفي
والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية .

وكان كل ناخب يعد بهذا الوصف عضواً في الهيئة الحاكمة الأساسية -
وهي الإكليزيا أو الجمعية . وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة
نيابية . وإذ كان الانتقال فوق تلال أتكا من أشق الأمور فلم يكن يحضر أى
اجتماع من اجتماعاتها إلا عدد قليل من أعضائها ، قلما كان يزيد على ألفين
أو ثلاثة آلاف ، وكان المواطنون الذين يعيشون في أثينة أو في ثغر پيرية
يحضرون وكأنهم مصممون على أن يكون مواطنهم هو المسيطر على الجمعية ؛
وكان الديمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت
مشتتة في مزارع أتكا وضياعها . وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات في
الشهر ، تعقدها في المناسبات الهامة في السوق العامة ، أو في ملهى ديونيسس ،
أو في ثغر پيرية . أما الجلسات العادية فكانت تعقد في مكان نصف دائرى يدعى
الپنيكس Πνυξ على منحدر تل غرب الأريوبجوس ؛ وكان الأعضاء في هذه
الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للسماء وتبدأ الجلسات عند مطلع
الفجر ، ويفتح كل دور اجتماع بالتضحية بنخزير إلى زيوس . وقد جرت العادة
أن تؤجل الجلسات على الفور إذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف
أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت في رأيهم أدلة على غضب الآلهة . ولم يكن
(٢ - ج ٢ - ٢٠٤)

يصح عرض تشريعات جديدة إلا في الجلسة الأولى في كل شهر ؛ وكان العضو الذى يقترحها هو الذى يعمل على قبولها . فإذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدة الضرر كان من حق أى عضو آخر أن يلجأ خلال عام من قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية *graphe paranomon* ، فيطلب أن تفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو يعدم . وكانت هذه هى الطريقة التى تتبعها أثينة لمنع العجلة في التشريع . وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعل من حق الجمعية أن تعرض أى تشريع جديد قبل البت فيه على إحدى المحاكم لتبحثه من الناحية الدستورية ، أى من ناحية اتفاهه مع القوانين القائمة المعمول بها في البلاد^(٣٢) . هذا إلى أنه كان على الجمعية قبل النظر في مشروع قانون أن تعرضه عن مجلس الخمسة ليبحثه أولاً ، كما يعرض أى مشروع قانون يقدم إلى مجلس الأمة الأمريكى في هذه الأيام قبل بحثه في المجلس على لجنة يفترض فيها أنها ذات علم خاص بموضوع المشروع وكفاية خاصة لبحثه . ولم يكن من حق مجلس الخمسة أن يرفض الاقتراح رفضاً باتاً ، بل كان كل ما يستطيعه أن يقدم تقريراً عنه مصحوباً بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها .

وكان المعتاد أن يفتح رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها . وكانت الجمعية تستمع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم ؛ ولكن كان يجوز حرمان أى عضو من مخاطبة الجمعية إذا ثبت أنه لا يملك أرضاً ، أو أنه غير منزوج زواجاً شرعياً ، أو أهمل في القيام بواجبه نحو أبويه ، أو أساء إلى الأخلاق العامة ، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية ، أو ألقي درعه في إحدى المعارك الحربية ، أو أنه مدين للدولة بضريبة أو غيرها من المال^(٣٣) . غير أن الخطباء المدربين وحدهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل حمل الجمعية على الإصغاء للمتكلمين . فقد كانت تضحك من الخطأ في نطق الألفاظ ، وتحتج بصوت عال على الخروج

عن مرضوع النقاش ، وتعبر عن موافقتها بالصراخ الشديد ، والصنير ، والتصفيق باليدين ، وعن عدم موافقتها التامة بإحداث جلبة شديدة تضطر المتكلم إلى النزول عن المنصة^(٣٤) . وكان يحدد لكل متكلم وقت معين لا يتجاوزه يقاس مداه بساعة مائة^(٣٥) . وكانت طريقة الاقتراع هي رفع الأيدي ، إلا إذا كان للاقتراح المعروض أثر خاص مباشر في شخص ما ، وفي هذه الحال يكون الاقتراع سرياً . وكان من حق المقترح أن يؤيد تقرير المجلس على المشروع المعروض أو يعارضه أو يطلب تعديله ، وكان قرار الجمعية في هذا نهائياً . وكانت القرارات التي توجب العمل العاجل ، وهي التي تختلف عن القوانين ، تمر أسرع من القوانين الجديدة ، ولكن هذه القرارات كان يمكن أيضاً إلغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها ، فلا تتضمنها كتب القوانين الأثينية .

وكانت هناك هيئة أعظم من الجمعية منزلة ولكنها أقل منها سلطناً ، وهي هيئة المجلس المعروف باسم البول Boule . وكان البول في أصله مجلساً أعلى شبيهاً بمجالس الشيوخ في الحكومات النيابية . ولكن منزلته انحطت قبل عصر بركليز حتى أصبح لجنة تشريعية تابعة للإكليزيا . وكان أعضاؤه يختارون بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين ، على أن يختار خمسون منهم عن كل قبيلة من القبائل العشر ، وألا تطول مدة خدمتهم أكثر من ١٠٠ سنة ، وكان العضو في القرن الرابع يتقاضى خمس أبولات في كل يوم من أيام انعقاد المجلس . وإذا كان من المقرر ألا يعاد انتخاب أى عضو إلا بعد أن تتاح لكل عضو آخر صالح للانتخاب فرصة العمل في المجلس ، فإن كل مواطن في الظروف العادية ، كان يجلس في البول دورة على الأقل في أثناء حياته ؛ وكان يعقد جلساته في قاعة المجلس (البولتريون Bouleuterion) في الجهة الجنوبية من ساحة المدينة ، وكانت جلساته العادية علنية واختصاصاته تشريعية ، وتنفيذية ، واستشارية . فكان يفحص عن مشروعات القوانين

المعرضة على الجمعية ويعدل صياغتها ، ويشرف على أعمال موظفي المدينة الدينين والإداريين ، ويراقب حساباتهم ، ويشرف على الأموال والمشروعات والمباني العامة ، ويصدر مراسيم تنفيذية حين يتطلب العمل لإصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة ، ويسيطر على شئون الدولة الخارجية ، على أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد .

ولكى يؤدي المجلس هذه الواجبات المختلفة كان يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها من خمسين عضواً ، ونرأس كل لجنة المجلس والجمعية شهراً طوله ستة وثلاثين يوماً . وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار في كل صباح عضواً من أعضائها ليكون رئيساً لها وللمجلس في ذلك اليوم ، ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب في الدولة مفتوحاً أمام كل مواطن حين يأتي دوره في القرعة ، وكان لأثينة ثلاثمائة من هؤلاء الرؤساء في العام ؛ وكانت القرعة هي التي تحدد في آخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس في أثناء الشهر ، وأى عضو في اللجنة يرأسه في أثناء اليوم . وكان الأثينيون الفاسدون المرتشون يرجون أن يستطيعوا بهذه الطريقة أن يقللوا تطرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الأخلاق البشرية أن تصل إليه . وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الأعمال ، وتدعو المجلس إلى الانعقاد ، وتصوغ القرارات التي يصدرها المجلس في أثناء اليوم . وعلى هذا النحو كانت الديمقراطية الأثينية تؤدي وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة . أما الأريوبجوس فكانت اختصاصاته في القرن الخامس مقصورة على النظر في قضايا الحريق العمد ، والاعتصاب المتعمد ، والتسميم والقتل مع سبق الإصرار . وتغيرت شرائع اليونان تغيراً بطيئاً من شرائع مفروضة إلى شرائع تعاقدية ، ومن هوى فرد واحد أو أمر طبقة من الناس ضيقة محدودة العدد إلى اتفاق بين مواطنين أحرار بسبقه جدول ونقاش .

٢ - القوانين

يبدو أن القوانين كانت في نظر اليونان الأقدمين عادات مقدسة ارتضتها الآلهة وأوحت بها ، وكانت لفظة *themis* (*) في لغتهم تطلق على هذه العادات وعلى الآلهة التي يتمثل فيها نظام العالم الأخلاقي واثتلافه (كما يتمثل في اللو أو التين الصيني ، وفي رينا الهندية) . وكان القانون عندهم جزءاً من الدين . وشاهد ذلك أن أقدم قوانين الملكية عند اليونان كانت ممتزجة بالطقوس الدينية وقوانين المعابد (٣٦) .

ولعل القواعد التي قررتها مراسم شيوخ القبائل أو الملوك ، والتي بدأت بوصفها أوامر تفرضها القوة وانتهت بأن صارت على توالي الأيام تعاقداً وتراضياً بين الحاكمين والمحكومين ، نقول لعل هذه القواعد كانت هي الأخرى قديمة قدم هذه القوانين القديمة .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل تاريخ التشريع اليوناني هي جمع العادات المقدسة وتنسيقها على يد مشرعين *thesmothetai* أمثال زولوسوس *zaleucus* و كروندياس *chronodas* و دراكون *drako* و صولون . ولما أن دون هؤلاء الرجال وأمثالهم قوانينهم بالجلدية أصبحت العادات المقدسة *thesmoi* قوانين من وضع الإنسان *nomoi* (**). وفي هذه الكتب القانونية تحجور القانون من سيطرة الدين وازدادت على توالي الأيام صبغته الدنيوية ، وأصبحت نية الفاعل ذات شأن

(*) ومعناها « ما يوضح أو يقرر » وهي مشتقة من *ti-themi* أي أضع . قارن هذا أيضاً بكلمة *doom* الإنجليزية التي كان معناها في الأصل قانون وكلمة *duma* الروسية .

(**) وكان لفظ *thesmothetai* تسمتئى *Thesmothetai* يطلق في أثينة أيام *پركليز* على السنة الأركونين الصغار الذين كانوا يسجلون القوانين ، ويفسرونها ، ويلزمون الناس باتباعها . وكانوا في أيام *أرسطاطاليس* يتولون رياضة المحاكم الشعبية .

كبير في الحكم على فعله ، وحلت التبعة الفردية محل الالتزامات العائلية ،
واستبدل بالانتقام الفردى العقاب القانونى على يد الدولة (٣٧) .

وكانت الخطوة الثالثة في تطور التشريع اليونانى هي نمو الشرائع المطرد
وتجمعها . ذلك أن اليونانى إذا تحدث في أيام بركليز عن قوانين أثينة كان
يقصد بهذه القوانين شرائع دراكون وصولون والقرارات التي أصدرتها
الجمعية والمجلس ولم تبلغ بعد صدورها ، وإذا تعارض قانون جديد مع قانون
قديم ، استلزم هذا إلغاء القانون القديم . ولكن البحث عن هذا التناقض
وتقصي القوانين المتعارضة قلما كانا بحثاً وتقصيماً كاملين ، ومن أجل هذا نجد
في بعض الأحيان قانونين متعارضين تعارضاً مضحكاً . وكان يحدث في
أوقات الارتباكات التشريعية الشاذة أن تختار بطريق القرعة من المحاكم الشعبية
لجنة من مقرري القوانين nomethetai لتقرر أى القوانين يجب الإبقاء عليها
وأياها يجب إلغاؤها . ويعين في هذه الحال محامون ليدافعوا عن القوانين القديمة
ضد من يقترحون إلغاؤها . وقد نقشت شرائع أثينة بإشراف أولئك المقررين
على ألواح من الحجارة في « باب الملك » بعد أن صيغت في عبارات بسيطة
سهلة الفهم ، وبهذه الطريقة لم يكن يسمح لأى حاكم أن يفصل في مسألة
بالاستناد إلى قانون غير مكتوب .

والتشريع الأثيني لا يفرق بين القانون المدني والقانون الجنائي إلا في أنه
يحتفظ للأريوبجوس بحق الفصل في جرائم القتل ، وفي أنه يترك للمدعى في القضايا
المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرار المحكمة . فلا تتقدم الدولة لمعونه إلا إذا لقي
في هذا التنفيذ مقاومة (٣٨) . وكان القتل قليل الحدوث لأنه بعد خطيئة دينية
وجريمة قانونية في وقت واحد ، ولأن الخوف من الانتقام يظل قائماً إذا عجز
القانون عن الاقتصار من القتال . وقد بقي القصاص المباشر حتى القرن الخامس
قبل الميلاد مباحاً في أحوال خاصة ، من ذلك أن الرجل إذا وجد أمه أو زوجته ،
أو محظيته ، أو أخته أو ابنته ترتكب الفحشاء كان من حقه أن يقتل من

يرتكبها معها من الرجال على الفور^(٣٩) . وكان يجب التكفير عن جريمة القتل سواء ارتكبت بقصد أو بغير قصد لأنها عندهم تدينس لأرض المدينة ؛ وكانت . اسم التطهير معقدة صارمة صرامة مؤلمة . وإذا ما عفا القاتل بعد موته عن قاسه ، لم يكن يجوز تقديم القاتل للقضاء . وكانت هناك تحت الأريويجوس ثلاث محاكم للنظر في جرائم القتل ، تختلف باختلاف طبقة القاتل وأصله ، واختلاف نوع الجريمة ، هل كانت متعمدة أو غير متعمدة ، وهل هي مما يجوز التسامح فيه أو لا يجوز . وكانت محكمة رابعة تنعقد في فريتس phrcattys على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل خطأ ؛ ثم اتهموا بعدئذ بجريمة القتل المتعمد . ذلك أنهم قد دُنِّسوا بارتكاب الجريمة الأولى لا يسمح لهم بأن تطأ أقدامهم أرض أنكا ، ولهذا يدافع المدافعون عنهم وهم في قارب بجوار شاطئ البحر .

وقانون الملكية صارم لا هوادة فيه ، فالتعاقد واجب التنفيذ ؛ وكان يطلب إلى القضاة أن يقسموا بأنهم « لن يطلبوا إلغاء الديوان الخاصة ، أو توزيع الأراضي أو المساكن التي يملكها الأثنيون » . وكان كبير الأركونين حين يتولى منصبه في كل عام يكلف منادياً بأن يؤذن في الناس أن « كل مالك سيبقى له ما يملك وسيظل صاحبه المطلق التصرف فيه »^(٤١) . وكان حق الوصية لا يزال مقيداً بقيود شديدة ، فإذا كان للمالك أبناء ذكور ؛ فإن الفكرة الدينية القديمة عن الملك ، والتي تربطها بتسلسل الأسرة وبالعبادة بأرواح السلف ، تتطلب أن ينتقل هذا الملك من تلقاء نفسه إلى الأبناء الذكور ؛ ذلك أن الوالد إنما كان يحتفظ بالملك وديعة لديه للأموال من الأسرة والأحياء منها ولمن يولدون من أبنائها . وكان الملك في أثينة يقسم بين الورثة الذكور ، كما هي الحال في فرنسا إلى حد كبير ، وكان أكبرهم سناً ينال نصيباً أكبر بعض الشيء من سائر الورثة^(٤٢) ، ولم يكن الأثينيون كالإسبانيين القدماء والإنجليز في هذه الأيام يقعون الملك من غير تقسيم ويعطونه أكبر الأبناء الذكور . وترى الزارع من عهد هزيود وبعده يحدد

عدد أبنائه كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام حتى لا تنقسم أملاكه بين أبنائه انقساماً يقضى عليها آخر الأمر^(٤٣) ؛ ولم تكن للأرملة أن ترث ملك زوجها ، بل كان كل ماتناله من هذا الملك هو أن تسترد بائنتها . وكانت الوصايا معقدة في أيام پركليز تعقدها في أيامنا هذه ، وكانت تصاغ في لغة شبيهة إلى حد كبير بلغة هذه الأيام^(٤٤) ؛ والتشريع اليوناني في هذا كما هو غيره من المسائل ، أساس التشريع الروماني الذي أصبح فيما بعد الأساس القانوني للمجتمع الغربي .

٣ - القضاء

إصلاح القضاء آخر ما تفعله الديمقراطية ، ولقد كان أعظم إصلاح قام به إفلينز وپركليز هو نقل الحقوق القضائية التي كان يمارسها الأركونون والأريوبجوس إلى الهيئية أى المحاكم الشعبية . وكان إنشاء هذه المحاكم هو الذي وهب أئينة ذلك النظام القضائي الذي أخذت عنه أوروبا نظام المحلفين والذي عاد عليها بالخير العميم . وكان الهيئية^(*) تتألف من ستة آلاف محلف يختارون بالقرعة من سجل المواطنين . وكان هؤلاء الآلاف الستة يوزعون على عشرة سجلات يحتوي كل سجل على خمسمائة اسم تقريباً ، ويترك الباقي للمناصب التي تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة . وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل فيها ثلاثون محلفاً يزورون مقاطعات أتكاً في مواسم معينة . وإذا كان كل محلف لا يبقى في منصبه أكثر من عام واحد في كل مرة ، وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور ، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة في الغالب لأن يكون محلفاً مرة في كل ثلاث سنين : ولم يكن مفروضاً عليه أن يؤدي هذا العمل ، ولكن الأجر المقر له وهو أوبلتان - ثم ثلاث أوبلات فيما بعد - كل يوم كان يجتذب

(*) الهيئية بمعناها الدقيق هي اسم المكان الذي كانت تجتمع فيه المحاكم ، وقد سميت بهذا الاسم (المشتق من هيلوس أى الشمس) لأن الجلسات كانت تعقد في الهواء الطلق .

نحو مائتي محلف أو ثلاثمائة في كل دور. أما القضايا الهامة كقضية سقراط مثلا، فكانت تنظرها محاكم ضخمة مؤلفة من ألف ومائتي رجل. ولكي يتقص الأثينيون الرشوة والفساد في القضاء إلى الحد الأدنى كان أعضاء المحكمة الذين يوكل إليهم النظر في قضية ما يختارون بطريق القرعة في آخر لحظة، وإذا كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها أكثر من يوم واحد، فإننا لا نسمع كثيراً عن الرشوة في المحاكم؛ ذلك أن الأثينيين أنفسهم كانوا يجلبون صعوبة في إرشاء ثلاثمائة رجل في لحظة واحدة.

وكانت القضايا تراكم في أئنة على الرغم من سرعة إجراءاتها، شأنها في هذا شأن المحاكم في جميع أنحاء العالم، وسبب ذلك أن الأثينيين كانوا كثيرى التقاضى ولكى يقللوا من هذه الحمى كانوا يختارون محكمين بطريق القرعة من بين سجلات أسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين، وكانوا الطرفان المتنازعان يعرضان نزاعهما وأوجه دفاعهما على أحد هؤلاء المحكمين، يختار كالقضاة بطريق القرعة في اللحظة الأخيرة: وكان كل طرف يؤدي إليه أجراً قليلاً؛ فإذا عجز عن الصلح بينهما فصل في النزاع بعد أن يحلف اليمين. وكان لكلا الطرفين بعدئذ أن يستأنف الحكم إلى المحاكم، ولكنها كانت ترفض عادة القضايا الصغرى التي عرضت للتحكيم. فإذا قبلت المحكمة أن تنظر في القضية كتب كلا الطرفين حجته وأقسم اليمين على صحتها، وكتب الشهود شهادتهم وأقسموا بأنهم صادقون، ثم تقدم كل هذه الأقوال مكتوبة إلى المحكمة. وكانت توضع في صندوق خاص وتختتم، ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية، وتصدر الحكم فيها هيئة تختار بالقرعة. ولم يكن عند الأثينيين مدع عموى، فقد كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة. ومن هنا نشأت طائفة من «النمامين» ديلنهم وعلمهم اتهام الناس، وقد تطورت مهنتهم هذه على أيديهم حتى أصبحت فناً من فنون اغتصاب أموال الناس لكف الأذى

عندهم . وكانوا في القرن الرابع يكسبون المال الكثير برفع القضايا - أو على الأصح بالتهديد برفعها - على الأغنياء لاعتقادهم أن المحاكم الشعبية لا تميل إلى تبرئة من يستطيعون أداء الغرامات الكبيرة (*). وكانت نفقات المحاكم تغطيها في الغالب الغرامات التي تفرض على من يدانون من المتقاضين . كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن إثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم ؛ فلماذا لم يتالوا خمسة على الأقل من أصوات القضاة كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالضرب بالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ ألف درخمة (نحو ألف ريال أمريكي) . وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته ، وكان عليه أن يعرض بنفسه قضيته للمرة الأولى . فلما أن تعقدت الإجراءات القضائية ، وتبين المتقاضون تأثير القضاة بعض الشيء ببلاغة الألفاظ ، نشأت عادة استخدام خطيب أو رجل بليغ متضلع في القانون ، يؤيد المدعى أو المدعى عليه ، أو يحضر باسم من يستخدمه وبالنيابة عنه خطبة يستطيع المتقاضى نفسه أن يقرأها أمام المحكمة ومن هؤلاء المدافعين البلقاء نشأ المحامون . وفي وسعنا أن نتبين قدم المحاماة في بلاد اليونان من عبارة في أقوال ديوجين ليرتيوس Diogenes Laertius وهي أن باياس Bias ، حكيم بريني Priene كان محامياً بليغاً في القضايا ، وأنه كان على اللوام يحتفظ بمواهبه لمن كان الحق في جانبه . وكانت المحاكم تستخدم بعض هؤلاء المحامين ليشرحوا لها القانون exegetai ، وذلك لأن الكثيرين من القضاة لم يكونوا أكثر علماً بالقوانين من المتقاضين أنفسهم . وكانت الأدلة تقدم عادة مكتوبة ، ولكن كان على الشاهد أن يحضر بنفسه ويقسم بأن ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كاتب الجلسة أو الجراماتيوس

(*) اتد شيكاكريتو Crito أحد أصدقاء سقراط الأغنياء من أن الذي يرغب في أن يعيش حياة هادئة مماثلة في أثينا يلتق في ذلك معاء كبيراً ، ويقول : « يوجد في هذا الوقت بالذات الناس يرفعون قضايا على ، وليس ذلك لأن ظلمهم ، بل لأنهم يظنون أن أفضل أداء مبلغ من المال لم عن تحمل معاء الإجراءات القانونية » (٤٤٩) .

grammateus شهادته على القضاة : ولم يكن الشهود يناقشون ، وكانت شهادات الزور كثيرة إلى حد يجعل المحكمة في بعض الأحيان تقضى بما يناقض الشهادة التي أقسم الشاهد على صدقها . ولم تكن شهادة النساء والقاصرين تقبل إلا في قضايا القتل ، أما الأرقاء فلم تكن تقبل شهادتهم إلا إذا انتزعت منهم بالتعذيب ، فقد كان من المسلم به عند الأثينيين أنهم سيكذبون إذا نجوا من التعذيب : وتلك وصمة في جبين الشرائع اليونانية ووحشية شاءت الأقدار أن تزداد قسوة في السجون الرومانية ، وفي حجرات محاكم التفتيش ، ولعلها لا تقل عما يحدث في الحجرات السرية التابعة لمحاكم الشرطة في وقتنا الحاضر؛ وكان تعذيب المواطنين محرماً في عصر پركليز ، وكان كثيرون من ملاك الرقيق لا يسمحون أن يستخدم أرقاؤهم شهوداً في القضايا ولو كانت قضاياهم هم أنفسهم ، وكان الحكم فيها لمصلحتهم موقوفاً على أداء شهادتهم . وكانوا بلزمون من يتسبب في إحداث عاهة مستديمة لأحد الأرقاء بتعويضه عنها^(١٦) .

وكانت العقوبات المقررة هي الضرب ، والغرامة ، والحرمان من الحقوق السياسية ، والكي بالنار ، ومصادرة الأموال ، والنفي ، والإعدام ، وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن ، وكان من المبادئ المقررة في القانون اليوناني أن يعاقب العبد في جسمه ، وأن يعاقب الحر في ماله . ونرى في رسم على إحدى المزهريات عبداً معلقاً من ذراعيه وساقيه يضرب بالسياط ضرباً خالياً من الرحمة^(١٧) . وكانت الغرامات هي العقوبة التي تفرض عادة على المواطنين . وكانت تقدر بدرجات تعرض الديمقراطية الأثينية لأن تتمم بأنها كانت تملأ خزائنها بالمال عن طريق الأحكام الظالمة . على أنه كان يسمح في كثير من الحالات للمحكوم عليه هو وصاحب الحق أن يقدرأ بأنفسهما الغرامة أو العقوبة اللتين يريان أنهما عادلتان ، ثم تختار المحكمة إحدى العقوبتين المقترحتين ؛ وكان القتل ، وانتهاك حرمة المعابد ، وخيانة الوطن ، وبعض الجرائم التي تبدو في نظرنا جرائم صغيرة ،

يعاقب عليها بمصادرة الأموال والإعدام معاً ؛ ولكن كان من المستطاع عادة تجنب الحكم بالإعدام قبل صدوره ، بانئفى الاختيارى وترك الأملاك . وإذا رأى المتهم أن الحرب يزرى به ، وكان مواطناً ، نفذ فيه الإعدام بأقل الوسائل لإيلا ما له ، وذلك بأن يقدم له عصير الشوكران ، وهو العقار الذى يندرد الجسم تدريجياً ابتداء من القدمين . إلى أعلى أجزاء الجسم ، ثم يقضى على من يتعاطاه حين يصل إلى قلبه . أما الأرقاء فقد كانت عقوبة الإعدام تنفذ فيهم أحياناً بالضرب الوحشى (٤٨) . وكان يحدث أحياناً أن يلقى المحكوم عليه قبل إعدامه أو بعده من فوق صخرة عالية إلى حفرة تعرف عندهم باسم البرثرون barathron . وإذا ما صدر الحكم بإعدام قاتل نفذ بحضور أقارب المقتول استجابة لعادة الانتقام القديمة فى مظهرها وروحها .

ولم تبلغ الشرائع الأثينية ما كنا نتوقعه لها من الاستنارة ، وهى لا تسمو كثيراً عن شرائع حمورابى ؛ وعيها الأساسى أنها تقصر الحقوق القانونية على الأحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سبع السكان ، وحتى النساء والأطفال كانوا خارجين عن نطاق المواطنين أصحاب الحقوق . ولم يكن فى وسع النزلاء ، أو الأجانب ، أو الأرقاء أن يرفعوا الدعاوى إلى المحاكم إلا عن طريق مواطن يأخذهم فى كنفه . وكان ابتزاز المال بطريق الإرهاب ، وتعذيب العبيد المتكرر ، والحكم بالإعدام فى كثير من الجرائم الصغرى ، والشتم الشخصية فى المناقشات القضائية ، وتشتت التبعة القضائية وإضعافها بسبب هذا التشتت ، وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية ، وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بماضى القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة ، كان هذا كله وصمة لنظام أثينة القضائى ، الذى كانت تحسدها عليه سائر بلاد اليونان لئنه وعدالته إذا قيس إلى غيره من النظم القضائية ، والذى كان نظاماً عملياً موثقاً به إلى حد أمكنه أن يبسط حمايته على الحياة وعلى الأملاك ، وهى الحماية التى لا غنى عنها للنشاط الاقتصادى والرقى الأخلاقى . وفى وسعنا أن نقسر ما كان للقانون الأثينى من شأن عظيم إذا عرفنا



(شكل ٢٥) اصطاف مروس لايت من القامدة الغربية لميكل زبوس ، متحف أولبيا

ما كان يشعر به كل أثيني تقريباً من احترام عظيم له ، فقد كان القانون في اعتقاده هو روح المدينة ، ومصدر سعادتها وقوتها . وخير ما نحكم به على شرائع أثينة هو تهافت غيرها من دول اليونان على استعارة الجزء الأكبر منها ، وفي ذلك يقول إيسقراط Isocrates : « ليس ثمة من ينكر أن شرائعنا مصدر كثير من الخير العظيم في حياة البشرية »^(٤٩) . ففى أثينة نجد للمرة الأولى في التاريخ حكم القوانين لا حكم الناس .

وقد ظل القانون الأثيني منتشراً في جميع أنحاء الإمبراطورية الأثينية التي يبلغ عامرها مليونين من الأنفس ما دامت هذه الإمبراطورية قائمة ، أما في خارج دائرة هذه الإمبراطورية فلم يكن لبلاد اليونان نظام قضائي واحد تخضع بأله جمعها . وإن الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن القانون الدولي في أثينة القرن الخامس لتبلغ من الضعف ما تبلغه صورة هذا القانون في عالم هذه الأيام . لكن التجارة الخارجية تتطلب بعض الأنظمة القانونية . ويقول دمستين إن المعاهدات التجارية قد بلغت في أيامه درجة من الكثرة أصبحت معها القوانين التي تخضع لها المنازعات التجارية « واحدة في كل مكان »^(٥٠) ؛ وكانت هذه المعاهدات تنص على التمثيل القنصلي ، وتضمن تنفيذ العقود ، وتجعل الأحكام الصادرة في إحدى الدول الموقعة على المعاهدة في سائر الدول الموقعة عليها^(٥١) . على أن هذا لم يقض على القرصنة ، فقد كانت تنتشر إذا ما ضعف الأسطول المسيطر على البحار ، أو تراخى في مراقبتها . ولقد كانت هذه اليقظة الخارجية الثمن الذي يشتري به الأهليون الأمن والنظام والحريية جميعاً ؛ وكانت الفوضى رابضة كالذئب حول كل دولة مستقرة ، تربص بها ، وترقب ثغرة من الضعف تنفذ منها إليها . وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة أن توجه الحملات لتنهب أملاك غيرها من المدن وأهلها ، إذا لم تكن ثمة معاهدة تنص صراحة عن تحريم هذه الحملات^(٥٢) ، وقد أفلح الدين في تحريم الاعتداء على الهياكل ما لم تتخذ قواعد حربية ، وفي

نحماية الوفود والحجاج الذاهبين إلى مشاهدة الأعياد اليونانية الجامعة ، وفي فرض صدور إعلان رسمي بالحرب قبل بدء القتال ، وفي قبول الهدنة إذا طلبها أحد الطرفين المتقاتلين لإعادة من يقتلون في المعارك إلى بلادهم ودفنهم . وكانت الأسلحة المسمومة لا تستعمل بحكم العادة المألوفة ، وكان الأسرى عادة يتبادلون أو يفتدون ، وكان الفداء المعترف به ميناين - ثم أصبح مينا واحد (نحو مائة ريال أمريكي) - لكل أسير (٥٣) . وكانت المعاهدات كثيرة العدد ، وكان المتعاهدون يقسمون الأيمان المغلظة على احترام نصوصها ، ولكنها كانت تخرق على الدوام تقريباً . وكانت المحالفات كثيرة ، وكانت تؤدي أحياناً إلى إيجاد أحلاف دائمة كحلف دلفي الاثني عشرى (الأمفكتيونى) في القرن السادس والحلفين الآخى والإيتولى في القرن الثالث . وكانت مدينتان في بعض الأحيان تجامل كلتاها الأخرى بأن تمنح أحرار أختها حقوق المواطنين فيها . وكان التحكيم الدولى يحدث أحياناً ، ولكن كان في وسع الطرفين المحتكين أن يرفضوا نتيجته أو يتجاهلها . ولم يكن اليونانى يشعر بأى التزام أدبى نحو الأجانب أو بأى التزام قانونى إلا إذا كان بلدهما مرتبطين بمعاهدة ، وكان هؤلاء في عرفه بربارة (barbaroi) (*) . ولم يكن اليونان يقصدون بذلك أنهم « همج » barbarian ، بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذا اللفظ بالضبط ، بل كانوا يفهمون منه « الأجانب » - أو الغرباء الذين يتكلمون لغة غريبة غير مألوفة . ولم ترق بلاد اليونان الرق الذى ندرك به وجود قانون أخلاقى يشمل الجنس البشرى بأكمله إلا على يد الفلاسفة الرواقيين في العصر الذى اصطبغت فيه بلاد الشرق الأدنى بالصبغة اليونانية العالمية .

(٥) هذه الكلمة وثيقة الصلة بكلمة بربرة barbara السنسكريتية وكلمة بلجوس balbus اللاتينية ، وكلتاها تعنى التثمة أو التلثم في النطق . قارن أيضا لفظ babble الإنجليزى . وكان اليونان يفهمون من لفظ بربروس barbaros غرابة الحديث أكثر مما يفهمون منه نقص الحضارة ، ويستعملون لفظ بربرزموس barbarismos في المعنى الذى نستعمل فيه نحن تقليداً لهم لفظ barbarism أى تشويه الأجنبى أو نصف الأجنبى للمصاحبات اللغوية عند إحد الأمم .

٤ - النظام الإدارى

حلت القرعة منذ عام ٤٨٧ أو قبله محل الانتخاب فى اختيار الأركونين ، ذلك أنه كان لا بد من إيجاد طريقة ما لمنع الأغنياء من أن يجدوا سبيلهم إلى هذا المنصب بالمال ؛ ومنع السفلة أن يصلوا إليه بالملق والدخان . وأرادوا مع هذا ألا يجعلوا الاختيار وليد المصادفة المحضة ، فكانوا يفرضون على جميع من تقع عليهم القرعة أن يجتازوا قبل القيام بواجباتهم اختباراً صارماً فى الأخلاق (Dokimasia) أمام المجلس أو الحاكم . فكان على الطالب أن يثبت أنه من أبوين أثينيين ، وأنه سليم من العيوب الجسمية والخلقية ، يكرم أسلافه ويقوم بواجباته العسكرية ، ويؤدى الضرائب كاملة . وكانت حياته كلها فى هذه المناسبة عرضة للاتهام من أى مواطن . وما من شك فى أن التعرض لهذين الفحوض والاتهام كان يرهب أدنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب . فإذا اجتاز الأركون هذا الاختبار كان عليه أن يقسم بأنه سيضطلع بأعباء منصبه على خير وجه ، وبأنه سيقدم للآلهة تمثالاً من الذهب بالحجم الطبيعى إذا قبل هدية أو رشوة^(٥٤) من أحد . على أن ما كان للمصادفة من أثر كبير فى اختيار الأركونين التسعة ليدل على ما آل إليه هذا المنصب من الصغار بعد أيام وصولون ، فقد أصبحت اختصاصاته فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تعدو العمل الإدارى الرتيب ، ولم يكن الأركون باسليوس الذى يحمل لقب الملك من غير أن يؤدى عمله أكثر من كبير الموظفين الدينيين فى المدينة . وكان على الأركون أن يحصل على اقتراع بالثقة من الجمعية ، وكان فى وسع أى إنسان أن يعرض أعماله ويستأنف أحكامه إلى البول أو الهيلية ؛ وكان فى مقدور أى مواطن أن يتهمه بسوء استخدام سلطته ، وإذا انتهت مدة توليه منصبه بحثت أعماله الرسمية ، وحساباته ، ووثائقه ، لجنة من المحاسبين مسئولة أمام المجلس ، وكان معرضاً لأشد العقاب ، الذى كان يصل (٤ - ج ٢ ، مجلد ٢)

أحياناً إلى الإعدام ، إذا تبين أنه أساء العمل أيام توليه منصبه . أما إذا نجا من هذا الإرهاب الديمقراطي فإنه يصبح بعد انتهاء العام الذى تولى فيه منصبه عضواً فى الأريوبجوس ، ولكن هذه العضوية أضحت فى القرن الخامس منصباً فخرياً عديم القيمة لأن هذه الهيئة فقدت وقتئذ كل ما كان لها من سلطان .

ولم يكن الأركونون إلا هيئة من هيئات كثيرة تشترك كلها فى تصريف شئون المدينة الإدارية تحت إشراف الجمعية والمجلس والمحاكم . ويذكر أرسطاليس خمساً وعشرين من هذه الهيئات المختلفة ، ويقدر عدد الموظفين الإداريين فى المدينة بسبعائة موظف . وكان هؤلاء كلهم تقريباً يختارون كل عام بطريق القرعة ، ولم يكن فى وسع أى إنسان أن يكون عضواً فى لجنة بعينها أكثر من مرة واحدة ، ولذلك كان كل مواطن يأمل أن يشغل منصباً كبيراً فى المدينة عاماً على الأقل فى أثناء حياته ، ذلك أن أئينة لم تكن تؤمن بطريقة الحكم على أبدى الخبراء الإحصائيين .

وكانت المناصب العسكرية أكثر أهمية فى نظرهم من المناصب المدنية ، ولذلك لم يكن القواد Strategoi العشرة يختارون بالقرعة بل كانوا ينتخبون انتخاباً علنياً فى الجمعية ، وإن كانوا هم أيضاً لا يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد وإن كانوا عرضة لأن يفحص عن أعمالهم وأن يعزلوا من مناصبهم فى أى وقت من الأوقات . وكانت الكفاية لا حب الشعب هى السبيل إلى التقدم والرقى فى هذه المناصب . وقد برهنت الإكليزيا فى القرن الرابع على حسن إدراكها للأمور باختيارها فوشيون Phocion قائداً خمساً وأربعين مرة ، على الرغم من أنه كان أبغض الناس للجمهور الأثينى ، وأنه لم يكن يخفى احتقاره للجاهل . وزادت مهام القواد بازدياد العلاقات الدولية ، حتى أصبحوا فى أوائل القرن الخامس لا يشرفون على شئون الجيش والأسطول فحسب ، بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الأجنبية ويشرفون على إيرادات المدينة ونفقاتها . ومن أجل هذا كان

القائد الأعلى المعروف باسم الاستراتيجوس أو توكراتور Strategos Autokrator أقوى رجال الحكومة ؛ وإذ كان من المستطاع انتخابه لهذا المنصب أروماً متتالية ، فقد كان في وسعه أن يخلع على سياسة الدولة استمراراً في الأهداف لم يكن دستورها ليتمكن منه لولا هذا المنصب الدائم . وبفضله استطاع بركليز أن يجعل أثينة مدى جيل كامل ملكية ديمقراطية ، حتى استطاع توكيديس أن يقول عن السياسة الأثينية إنها ديمقراطية بالاسم . ولكنها حكومة يسيطر عليها أعظم مواطن في المدينة .

وكانت الخدمة في الجيش ملازمة لحق الانتخاب ، فقد كان على كل مواطن أن يعمل في الجيش ، وكان معرضاً حتى يبلغ الستين من عمره لأن يجند للقتال في أية حرب تستمر ناراها . ولكن الحياة الأثينية لم تكن حياة عسكرية ، فلم يكن هناك تدريب عسكري يستحق الذكر بعد الفترة الأولى التي يقضيها الشاب في هذا التدريب ، ولم يكن فيها اختيال بالحلل الرسمية أو تدخل من قبل الجند في أعمال السكان المدنيين . وكان الجيش في الميدان يتألف من فرق المشاة الخفيفة ، وكانت أكثرهم من المواطنين الفقراء يحملون الرماح والمقاليع ، وفرق المشاة الثقيلة أو الهيليت ، وتتألف من المواطنين الأغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والتروس والحراب ؛ ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوي الدروع والخوذ ، حملة الرماح والسيوف ، وكان اليونان يفوقون الآسيويين في النظام العسكري ، ولعل ما أحرزوه من انتصارات عسكرية مجيدة يرجع إلى أنهم جمعوا إلى الطاعة في الميدان محافظتهم الشديدة على استقلالهم في الشؤون المدنية . غير أنه لم يكن عندهم مثل إياميننداس وفليب ما تستطيع أن تسميه علم حرب ، أو معرفة بفنونها وحرركاتها العسكرية . وكانت مدنهم مسورة في العادة ، وكان الدفاع عند اليونان - كما هو عندنا اليوم - أعظم أثراً من الهجوم ؛ ولولا هذا لما كانت للإنسان حضارة يستطيع تسجيلها . وكانت الجيوش المحاصرة تأتي بكتل خشبية ضخمة معلقة بسلاسل ، يشلون بها الكتل إلى وراء ثم يدفعونها نحو

السور ، وهذا هو كل ما حدث من التطور في آلات الحصار قبل عصر أرنهيمس . أما الأسطول فكانت طريقة الاحتفاظ به أن يختار في كل عام أربعمائة من الأغنياء امتيازهم الخاص أن يجندوا بحارة السفن ، ويهتوا السفينة ذات الثلاثة الصنوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة ، على أن يؤديها هم نفقات بنائها وإنزالها في البحر والمحافظة عليها من العطب . وبهذه الطريقة كانت أثينة تحفظ وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو ستين سفينة^(٥٥) .

وكانت نفقات الجيش والأسطول تستنفد الجزء الأكبر من مصروفات الدولة . وكانت مصادر الإيراد هي المكوس ، وعوائد المرائ ، وضريبة مقنارها اثنان في المائة على الواردات والصادرات ، وضريبة الفرضة ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الأجانب ، ونصف درخمة على كل معتوق ورقين ، وضريبة العاهرات ، وضريبة البيوع ، والرخص ، والغرامات ، والأموال المضادة ، والجزية التي تؤديها الولايات . وقد ألغت الديمقراطية الضريبة التي كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية والتي استمدت منها أثينة ، واردة في أيام بيبستراتس لأنها رأت أن هذه الضريبة تحط من كراهة الزراعة . وكانت جناية معظم الضرائب يناط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولة ويحتفظون لأنفسهم بنصيب منها . وكانت الدولة تحصل على إيراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية . وكانت في أثناء الأزمات تجبى ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الأملاك . وقد جمع الأثينيون بهذه الطريقة في عام ٤٢٨ مثلاماتي وزنة (تالنت) تبلغ قيمتها بنقود هذه الأيام مليون ريال أمريكي وماتى ألف ريال لتسد بها نفقات حصار متلينى . كذلك كان الأغنياء يدعون لأداء بعض الخدمات العامة Lelurgiai كتحديد ما يلزم من المعدات للسفراء الذاهبين في مهام إلى خارج البلاد ، وإعداد بعض السفن للأسطول ، أو أداء نفقات المسرحيات ، أو المياريات الموسيقية ، والألعاب ، وكان بعض الأغنياء يتطوعون لأداء هذه

الخدمات ، ويلزم الرأي العام غيرهم بأدائها . وكان مما يضاعف متاعب الأغنياء أن كان في وسع أى مواطن يطلب إليه أداء إحدى هذه الخدمات العامة أن يفرضها هو نفسه على أى مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته إذا أثبت أن هذا المواطن الآخر أغنى منه . وكان الحزب الديمقراطي كلفاً قوى سلطانه يجد مناسبات وأسباباً مطردة الزيادة لاستخدام هذه الوسيلة ؛ وكان المليون ، والتجار ، والصناع ، وملاك الأراضي في أتكا نظير هذا جادين في البحث عن أحسن الطرق لإخفاء ثروتهم والوقوف في وجه الجباة ، وتدبير الثورات .

وقد بلغت إيرادات أئينة في أيام بركليز نحو أربعائة وزنة (٢٤٠٠ ر ١٠٠٠ ريبال أمريكى) في العام لا تدخل فيها هذه الهدايا والقرائض ، ويضاف إليها سبائة وزنة ترد من البلاد الخاضعة لها ومن أحلافها . وكان هذا الإيراد يتفق من غير أن توضع له ميزانية توزع بنوده وتخصصها لأبواب النفقات المختلفة . وقد زاد المتجمع في خزانة الدولة من الفرق بين الإيرادات والنفقات في أيام بركليز ، وبفضل إدارته الاقتصادية الحكيمة ، وبالرغم من نفقات الدولة الكثيرة التي لم يسبق لها مثيل ، زاد هذا المتجمع زيادة مطردة حتى بلغ في عام ٤٤٠ ق م ٩٧٠٠ وزنة (نحو ٥٨٢٠٠ و ١٠٠٠ ريبال أمريكى) وهو احتياطي يعد ضخماً في أية مدينة في أى عصر من العصور ، كما يعد وجوده في بلاد اليونان نفسها أمراً عجبياً لأننا لا نكاد نجد فيها ولا نجد في الهلوبيونيز كلها مدينة أخرى تزيد فيها إيراداتها على نفقاتها (٥٦) .

وكانت المدن القليلة التي يتجمع فيها هذا الاحتياطي تودعه عادة في هيكل إله المدينة ، فكانت أئينة بعد عام ٤٣٤ تودعه في البارثنون . وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطي وبذهب التماثيل التي تقيمها لإلهها . وقد بلغ مقدار هذا الذهب في تمثال أئينة برثونوس أربعين وزنة (٤٢٠ ر ١٠٠ ريبال أمريكى) ؛ وقد وضع في التمثال بحيث يستطيع إزالته

عنه (٥٧) . وكانت المدينة تحفظ في الهيكل أيضاً بالمال الذى تؤديه للمواطنين ليشاهدوا به المسرحيات والألعاب المقدسة .

تلك هى الديمقراطية الأثينية - أضيقت الديمقراطيات وأكملها فى التاريخ . لقد كانت أضيقتها لقلة عدد من يشركون فى امتيازاتها ، وأكملها لأنها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشئون الإدارية . وتتكشف عيوب هذا النظام واضحة على مر الأيام ، بل إن الناس قد أخذوا يتحدثون بها فى أيام أرسطوفان . وكان من أظهر هذه العيوب التى كفرت عنها أثينة بخصوعها لاسبارطة ، وفيليب ، والإسكندر ، ورومة ، أن قامت فيها جمعية لا تسأل عما تفعل ، تدفعها عواطفها ، فتقرر أمراً ما فى أحد الأيام ، لا يعوقها عائق من سابقة أو مراجعة ، ثم تعود فى اليوم الثانى فتندم أشد الندم على ما فعلت ؛ وهى بتدورها هذا لا تعاقب نفسها بل تعاقب من أضلواها ؛ ومنها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الإكليزيا ، وتشجيع الزعماء المهرجين ، ونفى القادرين من الرجال نفياً أقعد المدينة عدداً كبيراً من خبرة كبارها ، وملء المناصب العامة بالقرعة والدور ، وتغيير الموظفين فى كل عام ، وإشاعة الفوضى فى الأداة الحكومية ، ومنها نزاع الأحزاب الذى لم ينفك يحدث الارتباك فى توجيه أعمال الدولة وشئونها الإدارية .

ولكن ما من حكومة إلا وهى ناقصة ، منهكة ، مقضى عليها آخر الأمر . وليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الملكية أو الأرستقراطية كانت تستطيع أن تحكم أثينة خيراً من حكومتها هذه ، أو أن تحفظ عليها حياتها أطول مما حفظتها الديمقراطية ؛ ولعل هذه الديمقراطية المختلة بالنظام ، دون غيرها من أنواع الحكم ، هى التى استطاعت أن تطلق تلك الطاقة التى رفعت أثينة إلىسمى مقام بلغته أمة أخرى فى التاريخ . ذلك أن الحياة السياسية ، داخل نطاق المواطنة ، لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده ،

ما بلغته فيه من القوة والابتكار . وأقل ما يقال في هذه الديمقراطية الفاسدة العاجزة أنها كانت مدرسة : لقد كان المقترح في الجمعية يستمع إلى أقدر الرجال في أثينة ، وكان ذهن القاضي في المحكمة يشهد باطلاعه على الأدلة ووزنها واستخراج ثمينها من غثها ، وكان الموظف يصوغه ويشكله ما يلقي عليه من تبعة وما يكسبه من تجارب ، فينضج عقله وفهمه وقلوته على الحكم . وفي هذا يقول سمنيدس « إن المدينة معلمة الرجال » (٤٨) . ولعل هذه الأسباب هي التي جعلت أثينة تقدر رجالا من طراز إيسكلس ، ويوربديز ، وسقراط ، وأفلاطون . لقد كان تقديرها لرجل من هذا الطراز هو الذي أوجدتهم فيها : وفي الجمعية ودور القضاء تكوّن نظارة دور التمثيل ، وكانت هذه الدور على استعداد لاستقبال خير هؤلاء النظارة . ولم تكن هذه الديمقراطية الأرستقراطية نظاما يفسح الطريق لكل إنسان ليفعل ما يحلو له كما أنها لم تكن رقيبا عتيدا على الأملاك والنظام فحسب ، بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليونانية وتشيد البارثون ، وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ، وتهيئ له الفرص التي لا تمكنه « من أن يعيش فحسب ، بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه » . ومن أجل هذا فإن التاريخ لا يجد حرجا من أن يصنف عن جميع خطاياها :

الباب الثاني عشر

العمل والثروة في أئينة

الفضل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذي يقوم عليه صرح هذه الديمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكسحون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الديمقراطية والثقافة في كل مكان .

وعماد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح في أتكا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية : ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التي يفلحونها ؛ وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك في أتكا ، كما هي الآن في فرنسا وأيرلندا ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

في الديمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة - بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجورا عالية أو أرباحاً كبيرة في مجال الصناعة - كانت نار هذه الحرب شديدة الاستعار في أتكا بنوع خاص . وبيننا كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التي تزرى بصاحبها في نظر المواطن الأثني ، كانت الأعمال الزراعية في اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القوي ، والخلق الشخصي القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء^(١) .

وتربة أتكا غير خصيبة : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠ر١٠٠٠ فدان إنجليزى غير صالح للزراعة ، والثلاثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانجباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الخصبة السطحية • ولم يكن الفلاحون في أتكا يدخرون جهداً - يبذلونه هم أو أرقاؤهم - للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم في خزانات ويقيمون الجسور حول الجارى المائية للسيطرة على فيضاناتها ، ويحففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويحفرون الآلاف من قنوات الرى لتحمل إلى حقولهم الظمأى قطرات الماء من النهرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيئة إلى بيئة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بورا مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كبرونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين^(٢) . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التي كانت

تصبب كلها في مجرى كبير متصل بخزان عام خارج ديليون Dipyion ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان في قناة مبنية بالأجر إلى وادي نهر سفسوس Cephisus^(٣) . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكي تتغذى منها التربة ؛ وكانت الأعمال المتصلة بحرث الأرض وتمهيدها ، وبنو البذور أو غرس النبات ، تجري كلها في فترة الخريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل في شهر مايو ، وأما فصل الصيف الجاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧٠٠٠ بشل من الحبوب في كل عام لاتكاد تكفي ريع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أئينة پركليز جوعاً ؛ وكان هذا هو الذي دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعويض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب . فدرجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرص أغصان الكروم بأنبائها لتزيد بذلك ثمارها^(٤) . وكانت أشجار الزيتون تغطي كثيراً من الأراضي في بلاد اليونان في أيام پركليز ، ولكن الفضل في نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لاتؤتي أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراع من إعانات لما نمت تلك الشجرة في أرض أتكا . ولقد كان إتلاف بساتين الزيتون في حرب الپلوپونيز من الأسباب التي أدت إلى اضمحلال أئينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليوناني ، فعصرته الأولى تمده بالزيت يأكله ، والثانية تمده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضيء به بيته ؛ وما بقي منه بعدئذ يتخذ وقوداً^(٥) . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا في عصر بركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الجيوب : وكانت تحرم تصدير التين تحريماً باتاً ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وترعرع حتى في التربة الجلباء ، وجلورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد في التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلاً عن هذا فإن زراع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المزرعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد في الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الجيوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعنب ، والنبيد ، أهم المواد الغذائية في أتكا . ولم تكن تربية الماشية مورداً للطعام خليقاً بالذكر ؛ وكانت الخيول تربي لتستخدم في السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز للبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربي بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله في عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا في أيام الأعياد ، وقد اختفت العهد الذي نتحدث عنه مادب الأبطال التي كانت تقام في العصر الهومري . أما السمك فكان طعاماً عادياً وممتعة في آن واحد ؛ كان الفقير يبتاعه مملحاً ومجففاً ، والغني يستمتع بلحم « القرش » و « ثعبان البحر » طازجاً (١٦) . وكانت الجيوب تطعم سليقة ، وخبزاً ، وكعكاً ، وكثيراً ما كانت تخلط بعسل النحل . وقبلها كان الخبز والكعك يسويان في المنزل ؛ بل كان كلاهما يشتري من بائعات جاثلات أو من حوائيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والخضر - وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس .

والخس ، والبصل ، والثوم . وكانت الفاكهة قليلة ؛ ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان النُّقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشتري به العبيد من داخل البلاد ؛ وكانوا يصفون العبد الرخيص بأنه « مملح » والعبد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بتارزيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبتول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا في بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والجبن - وبلغ من جهم للكعك المحشو بالجبن أن دججوا كثيرا من الوسائل القيمة في وصف هذا الفن الخفى (٧) . وكان الماء شرابهم العادي ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيذ ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنهات . وكانوا يحتفظون في الأرض بالتلج والخليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ في أشهر القيظ (٨) ؛ وكانوا يعرفون البجة في عصر يركليز ولكنهم كانوا يحتقرونها . واليوناني بوجه عام مقتصد في طعامه يقتنع بوجبتين في اليوم ، ويقول أبقراط : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطبقوا ثلاث وجبات كاملة في اليوم إذا تعودوا هذا (٩) » .

الفصل الثاني

الصناعة

كانت أرض أتكا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهليون يضيفون بيوتهم بمصاييح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج - أو بالشموع . وكانوا يدفون بالحشب الجاف أو الفحم الخشبي ، يحرقونه في مواقد متنقلة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أصبحت البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الحشب الذي تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجري فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين في بلاد اليونان الحصول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكا غنية بالرخام ، والحديد ، والحارصين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة ، لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل مات التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أي ٦٠٠٠ ريال أمريكي) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من ثلثها في العام (١١) . ولما اكتشفت أولى العروق المربحة في لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا تلك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Nicias التقي ، الذي ساعد بحرافاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالاً أمريكياً في اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغلي المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة (بيليه من الزبال الأمريكى) لكل منهم في اليوم ، وما أكثر الثروات التي جمعها الأثينيون بهذه الطريقة ، أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد في المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون في نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل يتقطع ليلاً أو نهاراً ، فإذا ما تباطأ العبد أو استراح أُلهب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صُفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وأُلقي القبض عليه كويت جبهته بالحديد الحمى^(١٢) . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمتعب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستقلون على ظهورهم^(١٣) . وكانت الخمامات بعد تكسيها تنقل في سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ، لأن المبررات لشدة ضيقها لا تسمع لائنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التي تجنى من هذه المناجم غاية في الضخامة . وحسبنا دليلاً على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت في عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) - وهي ثروة رزقتها أثينة من حيث لا تحتسب واستطاعت أن تنشئ بها أسطولا تنقذ به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ؛ فلما أن استولى الإسبارطيون على لوريوم في حرب البلوبونيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نصب معين المناجم في القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة في اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرض أتكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقدم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق في مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يجرها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدي الصلابة ، ثم تغريل ويؤخذ ما ينزل من ثقب الغريال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناخذ مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رقيقة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شوبوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثى بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزيئات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى في أفران للصهر مجهزة بمنافخ ترفع حرارتها . وفي قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق بواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذلك للهواء . وبهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال في عمليتي الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ في المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب في أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح قفراء جدداء يغطيها التراب والرماد^(١٤) .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ؛ وفي أتكا الآن كثير من هذه الصناعات غير المجهدة ، وهي وإن كانت صغيرة في حجمها دقيقة شديدة التخصص في نوعها ، فقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجرها ، وتصنع آلافاً من أشكال الأنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود في مدايغ كبيرة كالتي يمتلكها كليون منافس بركليز وأنيثس الذي وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناء السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والحدادون ، وكان من صانعي السروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الحدادين من اقتصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء^(١٥) . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجلدران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصايح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون - وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو المملة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج في المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأسرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعهدن الأنوال ومن ينحنين أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشترى من المصانع أو تستورد من خارج البلاد - فالأقمشة التيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارتم ؛ والأقمشة الصوفية المصبوغة من سراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ؛ وتعلمت نساء كوس في أواخر القرن الرابع حل شرائق دود القز وغزل خيوط الحرير^(١٦) . وأتقنت النساء في بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكن يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين في بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ؛ وكن يستعن بمن يساعدهن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هي الخطوة الأولى في سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل في عصر پرکلیز ، وكان پرکلیز نفسه ، كما كان ألسبيديز ، يمتلك مصنعا^(١٧) ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان في الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ؛ وكان رخص القوة العضلية سبباً في انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة في أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن في أكبرها ، وهو حانوت صنع الدروع الذي يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملاً ، وكان في دار صنع الأحذية التي يمتلكها تمركوس Timarchus عشرة عمال ، وفي مصنع دمستين للأساس عشرون ؛ وفي مصنعه للعدد الحربية ثلاثون (١٨) . ولم تكن هذه الحوانيت في بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيما بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير في آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن في البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل في كثير من الأحيان إلى جانب عييده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعنى الأثينيين من رعاية آباءهم في شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها (١٩) . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة في وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم في كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التي واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تفلت منه . وكانت أحسن طرقها البرية هي الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمرور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان البحر المألوف هو الثور وهو حيوان أوتي من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغني التاجر الذي يعتمد عليه في نقل متاجره . وكانت العربات هشة تتحطم على الدوام أو تتعطل عن السير في الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلاً ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترسل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل^(٢٠) . وكانت في أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مأوى محببة للصوّص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس في إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التي هي أقل من غيرها بقا^(٢١) » .

وكان النقل البحري أقل كلفة من النقل البري وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل في العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان في وسع الأسرة أن تنتقل من يريه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درخمتين (أى ريالين أمريكيين^(٢٣)) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شيء لنقل البضائع أو لشن الحرب أو لهذا الغرض أو ذاك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هي قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت في عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون : وأنزل أهل كورنثة في البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال في الساعة^(٢٣) .

وكانت ثاني مشاكل التجارة هي العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص في الموازين والمقاييس ، وعملتها التي لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد النخوم التي تكاد تبلغ المائة عدداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر في هذا التبديل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها^(٢٤) . وفي ذلك يقول يوناني لم يشأ أن يُعرف اسمه « كان التجار في معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن في وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لهم في أى مكان آخر (٢٥) » . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، وينافس بعضها بعضاً في إنقاص ما في هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ البوم إلى أثينة » هو المثل اليوناني المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى (*) نيوكاسل (٢٦) » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درختها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحمل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية في جزائر بحر إيجه ، وكان الذهب في هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار ؛ ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا في حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١ (٢٧) . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة - وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابهتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخمة أى الحفنة ؛ والدرختان تكونان استاتر Statar والمائة درخمة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخمة في النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى في القرن (***) العشرين (٢٨) . ولم يكن في أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفخ للأسهم والسندات .

(*) والمقابل للمثل العربى اقالل « كبائع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة في هذا المجلد مساوية في قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءاً من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة في عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخمة ريالاً وقيمة الوزنة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبي بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتعاج طوال اتاريخ اليوناني . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثبتة كان فيها مصارف مالية لاقت صعاباً شديدة في توطيد دعائمها لأن الدين لم تكن بهم حاجة إلى القروض ينددون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة في هذا الحكم . وكان الأثيني العادى فى القرن الخامس ممن يكتزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه فى المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نذير فائدة تراوح بين ١٦ ، ١٨ فى المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير رهون بفائدة إلى أصدقائهم ، أو يودعونها فى خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بفائدة معتدلة ، وكان هيكىل أبلو فى دلتى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقرض من الأفراد ، ولكن الدول كانت فى بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفى القرن الخامس بدأ مهبل النقود الجالس أمام منضدته (طربزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد تراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ فى المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنضدة trapezite) . وقد أخذ أساليه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوروبا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع ثمستكلز سبعين وزنة (٤٢٠٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم فى هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد فى

(*) ليس الفلاسفة والدين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد فى هذه الأيام يرون فيه أضراراً كثيرة تزيد على منافعه وهم يفتدون برأيهم هنا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتستينز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التي أصبحت في عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التي يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسر راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذي قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثيني . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان في حاجة إلى وساطة السوق التي كانت وظيفتها شراء السلع وتخزينها حتى يستعد المستهلك لشراؤها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعي التجزئة يعرضون بضائعهم في شوارع المدن ، أو في مؤخره الجيوش ، أو في الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع في حوانيت أو « أكشاك » في الأماكن المزدهمة أو غير المزدهمة في المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساوموا التجار ويتاعوا ما يحتاجه البيوت . وكان من أقسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، في أثينة أن العادات لم تكن تبيح لمن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها في إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلاً لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية لطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه في حانوته ويبيعها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة في قرن واحد من الاقتصاد المنزلي - الذي يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً - إلى الاقتصاد الحضري - الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما يحتاجه تقريباً - ثم إلى الاقتصاد الدولى - الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تؤدى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى پمپى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة يبرية ، ومخازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير : وسرعان ما أضحى هذا الثغر النشط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب . وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يتناع الإنسان فى أئينة جميع ما يصعب عليه أن يحده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »^(٣) . ويقول توكيديدس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »^(٤) . وكان التجار يحملون من يبرية ما تذاجه حقول أتكا وحوانيتها من الخمر ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والخزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى يبرية بالحبوب من بيزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والخبز من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسماك من البحر الأسود ؛ والنقل من بفلاجونيا ، والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر الهنتس ؛ والذهب من ثاسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصبغ من فينيقية ، والثوابل من قورينث ؛ والسيوف من خلقيديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز وميليطس ؛ والأحذية

والبرونز من إتروريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والطور والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوديا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت في القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التي كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروبنتس وكاريا أيام الحرب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حلثا محلها وأصبحت بلادهما ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفي وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجه الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة في المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية و وارداتها قد بلغت في عام ٤١٣ ألفاً ومائتي وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكي في ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حوصها على السيطرة على مضيق الملسينت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة في طريقها إلى المضائق ، وحملتها المشتومة على مصر في عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية في عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذي أغراها بتحويل حلف ديولوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسبارطيون الأسطول الأثيني في مضيق الملسينت عام ٤٠٥ ، كان لا بد أن تعاني أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدبير . غير أن هذه التجارة هي التي جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطورتها عماد رقبها الثقافي ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، وبعقول متيقظة
متفتحة ؛ وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها
القيود القديمة والحمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من
طابع الأرسطراطية الرينية نزعة فردية تقدمية هي طابع الحضارة التجارية .
وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه
المألوفة العتيقة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد
الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحى أثينة أكثر مدن
زمانها حيوية ونشاطاً .

افضل الرابع الأحرار والعييد

ومنذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنين : أسرهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لابد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والنحت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة ذنيئة(*) » . وهاهو ذا زنوفون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزدى بصاحبها وهى محقة فى نظرتة هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فيهم العمال ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالاً أمام الأفران .

(*) بركليز تأليفت لوطرخس ؛ ويرى زمرمان فى كتابه « عمارة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ وفرجسون Ferguson فى كتاب « الاستعمار اليونانى » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيراً ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تمل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمي يصحبه على الدوام ضعف نفسي ، وفوق هذا وذلك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحفيرة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه في مطالب الصداقة أو الدولة (٣٣) :

وكان ينظر إلى التجارة هذه النظرة نفسها ، فكان اليوناني الأرستقراطي النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ؛ وهي في رأى هذا وذلك لا تثبني خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراؤها رخيصة وبيعها غالية ؛ ولهذا لما من مواطن خليق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليوناني إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما في ذلك ، إن استطاع ، العناية بأمواله وأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذي يترك له الوقت الكافي للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليوناني ، ذوق راق ، ولن يكون في البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ؛ ذلك أن من يعمل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمديناً بحق .

وكان الغرباء الأحرار ، الذين ولدوا في بلاد أجنبية واتخذوا أئينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدون في أئينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب الحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء في أئينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجموالم في البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبدل

الجهود ، وهذه أهم في نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية - خارج نطاق التعدين - ملكاً لهؤلاء الغريباء الأحرار ، فصناعة الخبز بأكملها كانت في أيديهم ، وكانوا يوجدون كل ما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميمهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزيمهم بأن يودوا خدمات شخصية للدولة ، وتخدمهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة الفرضة ؛ ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم في حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنقل لهم عقودهم ، وتترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمي أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباحة مميحة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والفنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو ينشئون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفي المسرحيات الهزلية في القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا في القرن الثالث هم المثال المحتذى في آداب المجتمع المهنسي . وكان حرمانهم من حقوق المواطنة يؤلمهم ويحز في نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أئينة ويفخرون بانتسابهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التي تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ؛ وكانت هي عماد الإمبراطورية الأئينية ، وبفضلها احتفظت أئينة بتفوقها التجاري على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغريباء في الحرمان من بعض الحقوق السياسية ، وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أي الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل في الحرية حافز اقتصادي قوي للعبيد الشاي وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل في العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعقدهم . كذلك كان العبد يعتقد إذا افتداه أهله أو أصدقائه كما حدث لأفلاطون ؛ أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها في الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يلدخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، في الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلاً هو المشرف على مصنع الأسلحة الذى يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغنى رجال المصارف في أثينة . وكان أهم الأعمال التى تظهر قيمة العبد المحرر هى الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذى نشأ في ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث - طبقات المواطنين والغرباء والمعائيق - عبيد أتكا البالغ عددهم ١١٥٠٠٠ عبد (*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقلدوا وهم معرضون في العراق ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم في بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهليني يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى في استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

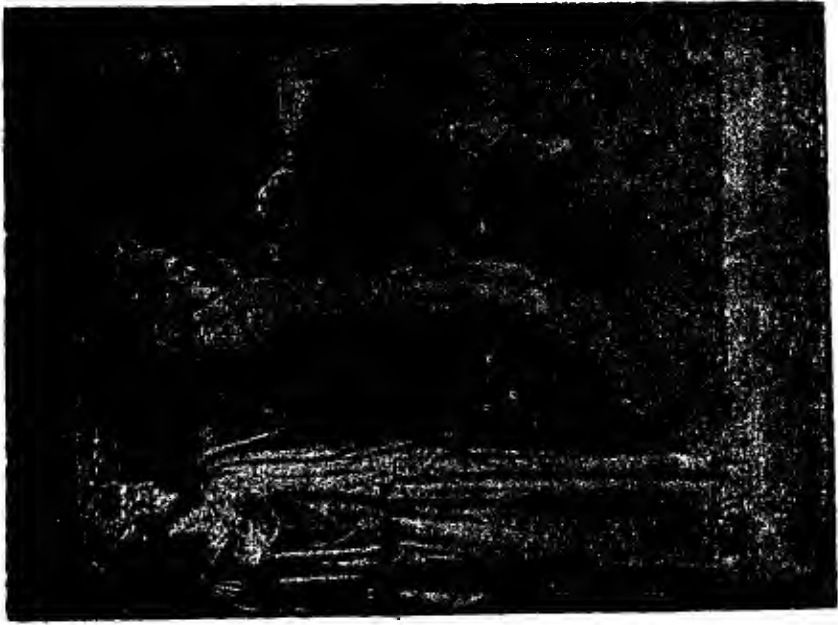
(*) ومرجعنا في هذا الرقم هو جم Gomme . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيراً : فسويداس Suidas يقدر عدد العبيد الذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفاً (٣٤) . وهذا في تقديره هذا على خطبة معزوة إلى هيريدس ألقيت في عام ٣٣٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه موثوقاً بصحتها . ويقول أنثيوس ، وهو من لا يعتمد كثيراً على أنوالهم ، إن تعداد سكان أتكا قديمى أجزاء دمتريوس فاليريوس حوالى عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفاً ، والغرباء بمشيرة آلاف ، والمحربين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيمپوس حوالى عام ٣٠٠ عبيد كورنثة بأربعمائة وستين ألفاً ، ويقدر أرسطر حوالى عام ٢٤٠ عبيد إيجينا بأربعمائة وسبعين ألفاً (٣٥) . ولعل السبب في ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد اللذين كانوا معرضون للبيع عرضاً مؤقتاً في أسواق الرقيق القائمة في كورنثة ؛ وإيجينا وأثينة .

العقل ؛ لكنه كان يغضبه أن يُسرق يوناني . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، ويعرضونهم للبيع ، في طشيوز ، وديلوس ، وكورنث ، ولبيجينا ، وأثينة ، وفي كل مكان يجدون فيه من يشتريهم . وكان النخاسون في أثينة من أغنى سكانها الغرباء ؛ ولم يكن من غير المألوف في ديلوس أن يباع ألف من العبيد في اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريمدون عشرين ألفاً من الأسرى في سوق الرقيق (٣٦) . وكان في أثينة سوق يقف فيه العبيد متاهين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم في أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالاً أمريكياً إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم في العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينة الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يوجروهم للعمل في البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ في المائة (٣٧) . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبيدين ؛ ويبرهن إسكينز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم في بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين (٣٨) ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم في الأعمال الكتابية وفي خدمة الموظفين ، وفي المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى « مكافأة » يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما في الريف فكان العبيد قليلي العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخاديات في البيوت . ولم يكن الأهليون في شمالي بلاد اليونان وفي معظم البالوبونيز في حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد في كورنث ، ومجارا ، وأثينة ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت البحواري يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون



(شكل ٢٦) لوحة دستخط آبي



(شكل ٢٧) مرقل وأطلس بن ميكل زيوس في صنف أولبيا

بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية في الصناعة ،
والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التي تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم
بها الأحرار والمحررون ، والغرباء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى
فيما بعد في العصر الهلنستي وفي رومة ، وقبلها كان يسمح للعبد بأن يكون له
أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب
ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حر لم يكن له أن
يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد
الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ،
وكان يلتقى من الضمانات ؛ ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون
عبيداً في بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ،
أو لم يجد عملاً يقوم به ، لا يلتقى به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر
في رعايته . وإذا كان وفيّاً وعامل معاملة الخادم المخلص الأمين التي تكاد
تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن
يقوم بعمل خارجي على شريطة أن يؤدي لسيده بعض ما يكسب من هذا
العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شيء في
ثيابه يميزه من الحر في أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا
« الأبحركي القديم » يشكو في نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبا
لا يفسح الطريق في الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بجزئية ، ويتصرف
في كل صغيرة وكبيرة كأنه كفاء للمواطن^(٣٩) . واشتهرت أثينة بحسن
معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد في أثينة الديمقراطية أحسن
حالا من الأحرار الفقراء في الدويلات الأبحركية^(٤٠) ، وكانت ثورات
العبيد نادرة في أتكا وإن كانت مما يخشى وقوعه القائمون بالأمر فيها^(٤١) .

ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق في بلدهم ،
وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون في وضوح لا يكاد
(٦ ج - ٢ - مجلد ٢)

يقول عن وضوح من ينددون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاقي قد جعلها أرقى من نصمها الاجتماعية . فها هو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة^(٤٢) . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيقى في صورة ما حتى يحل اليوم الذي تؤدي فيه الآلات التي تلور بنفسها جميع الأعمال الحقةرة^(٤٣) . وليس لدى اليوناني العادي فكرة ما عن الطريقة التي يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع. لثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليوناني رجيا بعبيده ؛ فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً في آرائهم ، فالفلاسفة الكليون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم في هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً في حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يورپديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوتسطنائي بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو في ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس في العالم أحراراً ، ولم تجعل الطبيعة أحد الناس عبداً^(٤٤) » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله .

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان في أثينة وطيبة أقل قسوة منه في اسبارطة ورومة ؛ ولكنه كان على أية حال استغلالاً يؤدي الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار في أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان في مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة في الحياة ، ولم يكن فيها تمييز ظائفي شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا في المناجم ؛ أما في غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التعارف الشخصي بين الاثنين يفل من حدة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصناع خيماً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل في كل يوم من أيام العمل^(٤٥) ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات في اليوم (نصف ريال أمريكي^(٤٦)) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان في وسع المفاوض أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات في اليوم^(٤٧) . وفي وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان في بلاد اليونان بأمثالها في بلادنا^(*) ، لقد كان البيت والضيعة في عام ٤١٤ يباعان معاً بألف ومائتي درخمة ، وكان المنمنوس Mendimmus أى البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة في القرن السادس ، وبخمس درخمتين في أيام الإسكندر ، وكان الخروف يباع بدرخمة في أيام صولون ، وبعشر درخمتين أو عشرين في القرن

(٤) يريد في أمريكا . (المترجم)

الخامس^(٤٨) . وكانت النقود المتداولة في أثينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع في آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت في بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠^(٤٩) .

وكان في وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة^(٥٠) (١٢٠ ريال أمريكي) في الشهر ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذي كان يكسب ثلاثين درخمة في الشهر ويعول أسرة . ولسنا ننكر أن الدولة كانت تبادر إلى معونته في الأزمات الشديدة فتمده بالحبوب بضمن اسمي ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة في أثينة كانت تمكن القوى من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى في ظلها^(*) فقيراً^(٥١) .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة ؛ ولذلك كان المهرة الحاذقون في أثينة ، كما كانوا في غيرها من الدول ، يحصلون من الروة كل ما يستطيعون تحصيله ؛ ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التي لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها في الأسواق ثم التحكم في أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند اليونان الأقدمين تمد متواضعة إذا درت بمعايير هذه الأيام ، فقد قيل إن كلياس أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتي وزنة و١٢٠٠٠ ريال أمريكي) وإن نيشياس كان يمتلك مائة وزنة^(٥٢) .

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التي يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترفون يبينون للفقراء ما في توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة في كفايتهم من الناحية الاقتصادية ، وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينه ثراء المثرين يحس بفقره ويطلب التفكير في ميزاته التي لا يجزى عليها الجزاء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهي الحرب التي استمرت نازها في جميع الدول اليونانية ، والتي كانت أشد هولاً من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسبارطة .

وبدأت هذه الحرب في أتكا بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضي الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها في ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها^(١) . (فلم يكن السيديز الثرى مثلاً يملك أكثر من سبعين فداناً) . وكان مالك الأرض في معظم الأحوال يعمل بنفسه في أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويعتمد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التي كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة في النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت في المدينة لتستمتع بما في العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن في أن يعشن في أثينة ، ليتصيدن لهن أزواجاً أثرياء ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الحليلات ويقيموا المآذب المرحية كما يفعل الأغنياء المحدثون . وإذ لم يكن في مقدور الأشراف ملاك الأراضي أن ينافسوا التجار والصناع في ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين في أن يتسمنوا ذرى

المجدد مستعدين للبدل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء
بمالهم وتكوين طبقة عليا أحرورية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويغضبها
الإقراط في الديمقراطية وتخشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذى أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل
حرب الطبقات - أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين
من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يباهون مثل ألسبيديز بثرائهم
ولأن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا « جمهرة
الكادحين » بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان
الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة
منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى القرص والمكانة السامية من دائرتهم
الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالآراء
الجديدة ويستهوهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم إليهم (٥٤) .
ولم يكونوا يتنادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء
الديون وإعادة توزيع الأراضي على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن
الحركة المتطرفة التى قامت فى أئينة فى القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من
لهم حتى الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم فى هذه المرحلة بتحرير العبيد ،
أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التى تطالب بإعادة توزيعها . وكان
الزعماء يتحدثون عن الماضى الذهبى حين كان الناس جميعاً متساوين فيما
يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن تؤخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن
عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المزسومة فى أذهانهم صورة
مجتمع اشتراكى أرستقراطى - لا ينطوى على تأميم الأرض بل ينطوى على
توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة فى الحقوق
السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية

المطرودة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسي لحمل الجمعية على أن تضع في جيوب المحتاجين - بالقراملت ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة^(٥٥) - بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء^(٥٦) . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين في مستقبل الأيام^(٥٧) .

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألفوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون -- رغم نزعه الشيوعية - « الوحش الضاري » الكامن في نفوس الغوغاء المستنفرين الجلياع^(٥٨) . وانتظم العمال الأحرار أيضاً - وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله - في نواد (لرانوى ، ثياسوى *eranoi, thiasoi*) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعمالين في العاج أو الفخار ، والسماكين ، والمشكين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضواً في نادى المئالين^(٥٩) (*). بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ، فكان أعضاءها مجتمعون في أماكن لهم يسمونها بجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً في حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة في ميدانى الأدب والسياسة ، فشرع مصدرى النشرات أمثال « الأبحركى القديم » يصدرن النشرات ينددون فيها بالديمقراطية أو يدافعون عنها . وإذا كانت مسرحيات الشعراء الهلديين تطالب أراى الأغنياء

(٥) انتظم المثالون والمهندسون المعاريون في بلاد اليونان و «دانة» لهم هى طائفة البنائين كانت لها شمالها الدينية الخلفية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة البنائين الأحرار (المليون) التى قامت فى أوروبا فيما بعد .

لإخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوى المال ، وشرعوا يصبون قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين وعلى دولهم المثالية . قترى أرسطوفان يقدم لنا فى مسرحية الإكلزيانزوسى Ecclesiazusae (٣٩٢) السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلقى خطبه تقول فيها : « أريد أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شئ ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛ فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يجنى محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة بشارك فيها جميع الناس على السواء وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بليپروس Blepyrus : « ولكن العمل من يقوم به ، فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهأة أخرى هى ملهأة بلوتوس Plutus (٤٠٨) يجيز أرسطوفان للملكية المهتدة بالانقراض أن تدافع عن نفسها بقولها إنها هى الحافظ الذى لا بد منه للكدر البشرى والمغامرة . « أنا السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد على دون غيرى ومنذا الذى يجب أن يطرق الحديد ويبنى السفن ، ويخيط الثياب ، ويخرط الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض النيل ، ويدبغ الجلود ، ويشق الأرض بالمحراث ، ويجنى ثمار دمر إذا كان فى وسعه أن يعيش بغير عمل محزرا من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيع أن تنهى فى سرير ، لأن الأسرة فى هذه الحال لن يصنع منها شئ بعد ، ولن تفسج بسطاً ، وهل فى الناس من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟ (١٠) » .

وكانت إصلاحات إفيلتيز وبركليزيا كورة ثمار الثورة البعقراطية . وكان بركليز

رجلا منزلاً في أحكامه معتدلاً في أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم ويأقدهمهم على الأعمال النافعة بتخفيف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات في عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الديمقراطي الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الأبركسي معه إلا أن يأتمر مرة أخرى مع اسبارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة في عام ٤١١ ومرة أخرى في عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة في أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سبباً في وقف تيار ثورتهم إلى حين ، ولهذا كانت حرب الطبقات في أثينة أهدأ منها في غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات في أثينة أساساً صالحاً تقيم عليه أساس التراضي فيما بينهما . ففي ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم في عام ٤١٢ ، وأعدموا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم (٦٦) ، وأقاموا اجتماعاً آخر شبيهاً بالاجتماع الذي قضاوا عليه . وفي ليونتينى طرد العامة في عام ٤٢٢ الأقلية المثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفي كورسيرا اغتالت الأقلية المثرية الحاكمة ستين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الديمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف في السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى الحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدموا الخمسين كلهم في التو والساعة ؛ ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم أنفسهم ، وحوصر الباقون منهم في هيكل المدينة الذي لجأوا إليه حتى هكأوا من الجوع . ويصف توكينديدس حرب الطبقات في بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات في جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كورسيرا سبعة أيام طوال يذبسون من مواطنيهم من يرون أنهم

أعداء لم ، ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الديمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية . ومنهم من قتلهم المديونون لم ليتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا أنتشر الموت في البلد بجميع أشكاله ، وحدث في هذا الوقت ما يحدث في أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان الأثليون بالميكال يسحبون على وجوههم من فوق مذبح القربان أو يقتلون . . . وهكذا جرت الثورة في مجراها منتقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التي وصلت إليها في آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيها ارتكبه من الفظائع في انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التي تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجري في هذه الأماكن السابقة . . . وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في تلك الجرائم ، . . . وفي حروب الانتقام التي بلأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا في حياتهم بالعدالة في المعاملة . . . بل لم يلاقوا من بحكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول في الحقد الظالم الذي تنطوي عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلي صدورهم طمعاً فيما في أيدي جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذلك للإفراط في الوحشية والقسوة التي اندفع إليها بعواطفهم النائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفية بل بروح حزبية . . . وفي عمار هذه الفوضى التي تردت فيها الحياة في المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التي تثور دائماً على القانون والتي أصبحت الآن سيدة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة عليا . . . وأصبحت المرأة والواقحة في نظر الناس شجاعة تُرتضى من حليف وفي ، كما أصبح التردد الحكيم جبناً مومهاً ، وأضحى الاعتدال

في نظر الناس ستاراً يخفي وراءه خور العزيمة ؛ والقذوة على رؤية جميع نواحي
مسألة من المسائل عجزاً عن العمل في واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الشذوذكها هو الجرى وراء السلطان المنبث من
الشهه والطمع . . . واندفع الزعماء في المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من
المنافع العامة التي يتظاهرون بالحرص عليها مستعنين على ذلك بأجمل العبارات
التي يلقونها في الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ،
وبضرورة قيام أرستقراطية معتدلة تارة أخرى ؛ ولم يكن هؤلاء يترددون في
استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع
الجرائم . . . ولم تكن نذمة من الطائفتين المقتلتين توقر الدين ، وكان
استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغليات الإجرامية هو الوسيلة
المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التي كان للشرف فيها أكبر
نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى
معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزيمه . . . وقضى بين هذين المعسكرين
على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك في الكفاح أو لأن الحسد كان
يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم المهلى كله قد زلزلت
قواعده وتصدعت أركانه (٦١) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثيني كان في قرارة نفسه
فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ؛ ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت في
تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيماً معتدلاً طريقة عملية وسطاً
بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا
التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لبائات العرائس ؛ ونفقات
الجنائز ، وملابس النساء (٦٥) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخذت منها
لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . . . ورغم ذلك
: إعاءة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تحد من دناءة

الطبيعة البشرية^(٦٦) . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، وسنت قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعاقتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ؛ وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم في الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشِلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن في عودتها حبوباً إلى ثغريرية ؛ وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتي بحمولتها إلى ييرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التي تصل إلى هذا الثغر^(٦٧) . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أثمان الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس لإثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب في مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأثمان ارتفاعاً سريعاً^(٦٨) . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذي تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمي حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفرص الكسب ، لاعتقادها أنها هي الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعي والتجاري ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدته

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة في أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة في أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامي ٤٨٠ و ٤٣١ عدد المواطنين ذوى الدخل الذى يمكنهم من العيش الرضى^(٦٩) ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت في أى عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعى والتجارى ، والفنى ، والفكرى ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبى من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التى خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .

الباب الثالث عشر أخلاق الأثينيين وآدابهم

الفصل الأول

الطفولة

كان ينتظر من كل مواطن أثيني أن يكون له أبناء ، وقد اجتمعت
تخوى الدين ، والملكية ، والدولة ، كلها لمقاومة العقم . فإذا لم يكن للأسرة
أبناء من نسلها كان التبنى هو العادة المتبعة ، وكانت تؤدي مبالغ طائلة
للحصول على الأبناء الأيتام ، لكن القانون والرأى العام كانا في الوقت
نفسه يبيحان قتل الأطفال ويريان فيه وسيلة مشروعة للحد من زيادة
النسل ومنع تقسيم الأرض الزراعية تقسماً يؤدي إلى الفاقة ، فكان في
وسع كل أب أن يعرض طفله للموت بجمحة أنه يشك في صحة انتسابه
إليه أو أنه ضعيف أو مشوه . وقلما كان يسمح لأبناء الأرامل أن
يعيشوا ، وكانت البنات أكثر تعريضاً للموت من الأولاد ؛ لأن البنات
يجب أن تعملن بائنة ، ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت اللين وجوها ومن
خلعتهم إلى خلعة من لم تكن لهم في تربيتها يد . وكانت الوسيلة للمتبعة لتعريض
الطفل للموت أن يترك في إناء من الفخار بجوار هيكل أو مكان آخر حيث
يستطاع إنقاذه بعد وقت قليل من تركه إذا رغب أحد في تبنيه . وكان حتى
الآباء في تعريض أبنائهم للموت سبباً في غلظة قلوب اليونان ، وكان هو
والانتخاب الطبيعي الصارم عن طريق المنافسة ومعاناة صعاب الحياة ، كان
هذا وذاك من الوسائل التي جعلت اليونان شعباً سليماً قوياً ؛ ويكاد فلاسفة

اليونان يجمعون على تجميد تحديد النسل : فأفلاطون ينادى بتعريض جميع الأطفال الضعفاء ومن يولدون من أبوين منحطين أو طاعنين في السن^(١) إلى الجحيم القارسي ، وأرسطاطاليس يدافع عن الإجهاض بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يولدوا^(٢). ولم يكن قانون أبقراط الطبي يسمح للطبيب أن يجهض الحامل ، ولكن القابلة اليونانية كانت تحمق هذه العملية ، ولا تجد قانوناً يحول بينها وبين^(*) ممارستها^(٣) .

وكان الطفل يقبل في دائرة الأسرة رسمياً في اليوم العاشر بعد مولده أو قبله ، ويقام لذلك احتفال ديني خاص في البيت حول موقد النار ، يتلى فيه الهدايا ويسمى باسمه . ولم يكن لليوناني عادة إلا اسم واحد مثل سقراط أو أرخميدس ؛ ولكن كان من عادتهم أن يسموا أكبر الأبناء باسم جده لأبيه ، ولهذا كثير تكرار الأسماء ، واختلط التاريخ اليوناني لكثرة ما ورد فيه من أسماء زنوفون ، وإسكينز ، وتوكيديدز ، وديوجين ، وزينون ، فكانوا يحاولون التغلب على ما فيها من غموض بإضافة اسم الأب أو اسم مسقط الرأس إلى الشخص فيقولون « كيمون ملتبادو » أي كيمون بن ملتبادس ، أو ديودورس صقلوس Diodorus Siculus أي ديودور الصقلي ، أو يحلون المشكلة بإضافة أحد ألقاب السخرية المضحكة مثل كليميدون Callimedon أي السرطان .

فإذا ما قبل الشخص في الأسرة بهذه الطريقة لم يكن القانون يجد تعريضه للجحيم ، بل كان يربي محوطاً بكل ما يحيط به الآباء أبنائهم من العناية في جميع العصور ، فترى ثمستكليز مثلاً يصف ابنه بأنه حاكم أثينة الحقيقي ، لأنه (ثمستكليز) وهو أعظم رجال أثينة نفوذاً تحمكه زوجته ، وهذه الزوجة يحكمها ولدهما^(٤) . وفي وسعنا أن نستدل على هذا الحب الأبوي من كثير من المقطوعات الشعرية ذات المغزى الأدبي في دواوين الشعراء .

« لقد بكيت حين ماتت ثيونو Theonoe ، ولكن الآمال التي كنت أعلقها

(٥) وليس لدينا شواهد على أن اليونان كانوا يلجأون إلى وسائل لمنع الحمل^(٤).

على طفلنا خففت أحزاني ، ثم أبَت الأقدار الحسودة إلا أن تحرمني من هذا الوالد أيضاً ، فواحسرتا ! لقد سُلبت مني يا ولدي ، وأنت كل ما كان ياقباً لي من سلوى ؛ ألا فاستمعي يا پرسفوني إلى النداء المنبعث من قلب أب حزين ، وضعي الطفل فوق صدر أمه الميتة^(٧) .

وكانت الألعاب كثيرة تخفف مآسى المراهقة ، وسوف تبقى هذه الألعاب بعد أن ينسى الناس بلاد اليونان ، فترى على وعاء عطر صنع لكي يوضع في قبر طفل ، صورة ولد صغير يأخذ عربته الصغيرة معه إلى الدار الآخرة . وكان للأطفال الرضع خشائش من الطين المحروق في داخلها عدد من الحصا ؛ وكان للنبات دمي يحتفظن بها في البيت ، وكان الغلمان ينازلون جنوداً وقواداً من الطين في مواقع عظيمة ؛ وكانت المربيات يورجنن الأطفال على الأراجيح ؛ وكان الأولاد والبنات يدفعون الأطواق ، ويطيرون الطائرات ، ويدبرون الخدروف الخشبي ، ويلعبون لعبة الاستخفاء أو الغميضاء ، أو شد الحبل ، أو يتبارون في مئاث الأنواع من المباريات بالحصا . والبندق ، والنقود والكرات . أما « بلي » العصر الذهبي فكان هو القول الجاف يدفع بالأصابع أو الحجارة الملساء تطلق مسافات بعيدة أو تقلد في داخل دائرة لتزحزح حجارة العدو من أماكنها وتستقر في أقرب وضع مستطاع إلى مركز الدائرة . فإذا اقترب من الأطفال من « سن العقل » — أي السنة السابعة أو الثامنة من عمرهم — لعبوا لعبة الترد ولذلك برى الكعاب (Astragali) المربعة ، وتعد أعلى رمية لست كعاب أحسن لعبة^(٨) . ألا إن ألعاب الصغار قديمة قدم خطايا آباؤهم .

الفصل الثاني

التعليم

أنشأت أئينة ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية ، وكان لها بعض الإشراف القليل على المدرسين ، ولكن المدينة لم يكن فيها مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة ، بل ظل التعليم فيها في أيدي الأفراد ونادى أفلاطون بأن تنشئ الدولة مدارس^(١٠) ، ولكن يلوح أن أئينة كانت تعتقد أن المنافسة حتى في التعليم نفسه كفيلة بأن تثمر أحسن الثمرات . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة يرسل إليها أبناء الأحرار في سن السادسة . ولم يكن لفظ بيدجوجوس Paidagogos يطلق عندهم على المعلم ، بل كان يسمى به العبد الذي يصاحب الغلام كل يوم في ذهابه إلى المدرسة والعودة منها ، ولم نسمع قط عن وجود مدارس داخلية . وكان التلميذ يبقى في المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، وإلى ما بعد السادسة عشرة إن كان من أبناء الأغنياء^(١١) . ولم يكن في المدارس أدراج بل كان يكتب فيها بالمقاعد ؛ فكان التلميذ يضع على ركبته الملف الذي يقرأ منه ، أو الصحيفة ، أيا كانت مادتها ، التي يكتب عليها ؛ وكانت بعض المدارس تزدهن بتأثيل لأبطال اليونان وآلهتهم ، وهي عادة انتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً ؛ وكان عدد قليل منها يمتاز بأثاثه الظريف . وكان المدرس يدرس كل المواد ، ويعنى بالأخلاق كما يعنى بالعقول ويستخدم النعال للتأديب^(*)(١٢) ؛

(*) نرى في إحدى الصور المنقوشة على جدران ممهي ، ولعلها منقولة عن صورة يونانية ، تلميذاً محمولا على كتف تلميذ آخر ، ويمسكه تلميذ ثالث من عقبيه ، والمدرس ينال عليه ضرباً^(١٣) .

وكان منهج الدراسة ينقسم ثلاثة أقسام - الكتابة ، والموسيقى ، والألعاب الرياضية ؛ وأضاف المجددون الحريصون على التجديد في أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير^(١٤) . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب ، وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة ، وكان الكثير من مواد الدراسة يصاغ في عبارات شعرية وموسيقية^(١٥) . ولم يكونوا يضيعون شيئاً من الوقت في تعليم أية لغة أجنبية ، بله اللغات الميتة ، ولكنهم كانوا شديدي العناية بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم في مدارس الألعاب ، ولم يكن أثنيي يعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع .

أما البنات فكان يدرسن في منازلهن وكان تعليمهن يقتصر في الغالب على علم « تدبير المنزل » ، ولم يكن للبنات في غير اسبارطة حظ من الألعاب الرياضية العامة . وكانت أمهاتهن يعلمنهن القراءة والكتابة والحساب ، والغزل والنسيج والتطريز ، والرقص والغناء ، والعزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليماً عالياً ، ولكنهن في الغالب من الموثنسات ، أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الابتدائية حتى أغرت أسبازيا Aspasia عدداً قليلاً منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . وكان الرجال يتعلمون التعليم العالي على يد علماء البلاغة والسوفسطائيين ، يلقنونهم فن الخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة والتاريخ . وكان هؤلاء المدرسون المستقلون يستأجرون قاعات للمحاضرات بالقرب من مدارس الألعاب الرياضية ، وكان يتألف منهم ومن قاعاتهم هذه في أثينة قبل أفلاطون جامعة متفرقة . وكان ذوى الثراء وحدهم هم الذين يتعلمون على أيديهم ، لأنهم كانوا يتقاضون أجوراً عالية ، ولكن ذوى الطموح من الشبان غير ذوى اليسار كانوا يعملون ليلاً في المصانع أو الحقول حتى يستطيعوا أن يحضروا في النهار دروس هؤلاء المعلمين المتنقلين .

فإذا بلغ الأولاد السادسة عشرة من عمرهم ، كان ينتظر منهم أن يعتنوا عناية خاصة بالتربية البدنية التي تعدهم بعض الإعداد إلى الأعمال الحربية ، وكانت ألعابهم العادية نفسها تعدهم من طريق غير مباشر لهذا الغرض عينه ؛ فقد كانوا يدرّبون على العدو ، والقفز ، والمصارعة ، والصيد ، وسوق المركبات ، وقذف الحراب . وإذا بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم بدءوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية (الطفولة ، والشباب ، والرجولة ، والكهولة pais ، ephebos ، auer ، Geron) ، وفيها ينخرطون في صفوف شبان أثينة المجندين المعروفة بمنظمات الشباب epleboi^(٥) . وكانوا في هذه المرحلة يدرّبون مدى عامين على أيدى « مدربين » ، يختارهم لهم زعماء قبائلهم ، على القيام بالواجبات الوطنية والعسكرية . فكانوا يعيشون ويأكلون مجتمعين ، ويلبسون حلالاً رسمية ذات روعة وبهاء ، ويخضعون بالليل والنهار لرقابة خلقية . وكانوا ينظمون أنفسهم تنظيمًا ديمقراطياً على نمط نظام المدينة ، فيجتمعون في جمعية وطنية ، ويصدرون قرارات ، ويسنون قوانين يتقيدون بها ، ويكون لهم منهم حكام ، وزعماء ، وقضاة^(٦) . وكانوا في السنة الأولى يخضعون لنظام صارم من التدريب الرياضي ، ويتلقون محاضرات في الآداب ، والموسيقى ، والهندسة النظرية ، وعلوم البلاغة^(٧) . وفي التاسعة عشرة من عمرهم يرسلون للحماية الحدود ويعهد إليهم مدى عامين حماية المدينة من الغزو الخارجي والاضطراب الداخلي . وكانوا في هذه المرحلة يقسمون أمام مجلس الخسائة ، وأيديهم ممتدة فوق مذبح الهيكلي في أرجولوس Argaulos ، يميناً مخلطة هي يمين الشباب الأثيني :

« لن أجلل بالعار الأسلحة المقدسة ، ولن أتخلى عن الرجل الذي إلى جانبي

(٥) ليس في دستنا مع هذا ترجيح بتاريخ هذه المنظمات إل ما قبل عام ٢٣٦ ق. م.

أيا كان ، وسأقدم المعونة إلى طقوس المدينة ، وإلى الواجبات المقدسة ، بمفردى ومع الكثيرين غيرى . ولن تكون بلادى حين أسلمها إلى من يأبى بعدى أقل مما كانت حين تسلمتها ، بل ستكون أكبر وأحسن مما كانت وقتئذ . وسأطبع من يتولون القضاء حيناً بعد حين ، وأخضع للقوانين المسنونة ، ولكل ما يضعه الأهلون من أنظمة ؛ وإذا ما حاول أحد أن يفسد هذه القوانين ، فلن أسمح له بذلك العمل ، بل أدفعه بمفردى وبمعونة الجميع ؛ وسأكرم دين السلف (١٨) .

وكان للشباب مكان خاص في دار التمثيل ، وكان لهم شأن ظاهر في مواكب المدينة الدينية ؛ ولعل هؤلاء الشبان هم الذين نرى صورهم الجميلة منقوشة على طنف البارثون يمتطون صهوة الجياد . وكانوا في أوقات معينة يعرضون ما يتحلون به من صفات في مباريات عامة ، وبخاصة في سباق التتابع بالمشاعل من پيريه إلى أثينة . وكانت المدينة على بكرة أيها تخرج لمشاهدة هذا المنظر الجميل ، فيصطف أهلها على طول الطريق البالغ أربعة أميال ونصف ميل . ويجرى السباق ليلاً ، والطريق غير مضاء ، فلا يرى الناس من العدائين إلا أنوار المشاعل التي يحملونها وتقفز من يد إلى يد على طول الطريق . وبعد أن يتم تدريب الشباب في الحادية والعشرين من عمرهم ، يتحررون من سلطان الآباء ، وينتظمون رسمياً في سلك مواطنة المدينة الكاملة .

هذه هي التربية التي تنشئ المواطن الأثيني ، أساسها الدروس التي تلقاها في المنزل وفي الطريق . وهي مزيج صالح بجميل من التدريب الجسمى ، والعقلى ، يقوى في الشاب حاسة الجمال ، ويفرض الرقابة في سن الشباب ، ويعطيه حريته إذا ما نضج . وقد أخرجت في أحسن عهودها شباناً لا يفوقهم شبان آخرون في التاريخ كله . فلما انقضى عصر پركليز كثرت النظريات حتى طغت على الناحية العملية في هذه التربية ، فاحتمد النقاش بين الفلاسفة حول

أهداف التربية ووسائلها ؛ هل يوجه المدارس أكبر همه إلى التربية العقلية أو الخليقة ، وهل يعنى أكبر العناية بتنمية الكفاية العملية ، أو بتعليم العلوم النظرية البحتة . لكنهم مجمعون على أن مكانة التربية هي أسمى مكانة في البلاد ، ولما أن سئل أرسطيس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجموح » ؛ وأجاب أرسطاطاليس عن هذا السؤال نفسه بقوله : « يمتاز به الحى على الميت » ، ويضيف أرسطيس إلى قوله السابق : « حسب التعليم فضلا على التلميذ أنه حين يشهد التمثيل لن يكون حجراً فوق حجر » (١٩) .

الفصل الثالث

المظهر الخارجي

كان مواطنو أثينة في القرن الخامس رجالا متوسطى القامة ، أقوياء البنية ، ملتحمين ؛ ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فدياس في فرسانه . وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم ، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسلانا ذوات وقار ، وهن في التماثيل بارعات الجمال . أما نساء أثينة في حقيقة أمرهن فكن يضارعن في الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا يفقهن قط ، وقد كانت عزلتهن التي تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سببا في نقص نموهن العقلي . واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم ، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه ، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال في هذه الناحية ، ولهذا تراهن يزدن طولهن بنعال عالية من الفلين ، ويصلحن ما في أجسامهن من العيوب بالحشاي ، ويضغطن ما زاد فيها بالأربطة ، ويرفعن ثداءهن بحاملات من القماش(*) (٢٠)

وشعر اليونان أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب . وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبته هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن ، وكان بعض الرجال يحذون حذوهن في هذا (٢٢) . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يدهنون رؤوسهم بالزيت ، يستعينون به على نماء شعرهم ووقايته من تأثير الشمس ؛ وكانت النساء يخلطن الزيت ببعض العطور

(*) يقص فلوطرخس قصة طريفة يقول فيها إن موجة من الانتحار سرت بين نساء ميليطس ، ولكن هذه الموجة قصى عليها قضاء تاما فجائيا أمر أصدرته الحكومة يقضى بأن تحمل من تنتحر عارية الجسم إلى قبرها مارة بالسوق العامة (٢١) .

ويقلدهن في ذلك بعض الرجال (٢٣) . وكانوا جميعاً رجالاً ونساء في القرن السادس قبل الميلاد يطيلون شعرهم ويجدلونه غدائر حول الرأس أو خلفها ، فلما كان القرن الخامس أخذت النساء يصفقن شعرهن ويعقصنه وراء رقابهن ، أو يتركه ينوس على أكتافهن ، أو يطوينه حول الأعناق وفوق الصدور . وكان النساء يجبن ربط شعرهن بأشرطة رمادية اللون تزدان بجوهره فوق الحبهة (٢٤) ثم أخذ الرجال بعد مرثون يقصون شعرهم ، كما أخذوا بعد الإسكندر يخلقون شواربهم ولحاهم بأمواس من الحديد على شكل المنجل . ولم يكن اليوناني يطيل شاربه من غير أن يطيل لحيته ، وكان يعنى بنسوية لحيته حتى تنتهى عادة بطرف رفيع . ولم يكن عمل الحلاق مقصوراً على قص الشعر أو حلق اللحية أو تسويتها ، بل كان يعنى إلى ذلك بتدريم الأظافر وتجميل من يتقدمه إليه في أعين الناس ، وكان إذا فرغ من عمله قدم إليه مرآة كما يفعل الحلاقون في هذه الأيام (٢٥) . وكان للحلاق جانوته ، وكان هذا الجانوت « مجمعاً لغير الخموزين » (كما يسميهم ثيوفراسطس) يتناقلون فيه أخبار الناس . ومعابهم ، ولكنه كان في كثير من الأحيان يقوم بعمله خارج حانوته في العراء . وكان الحلاق ثرثاراً بحكم مهنته ، ويروى أن حلاقاً سأل الملك أركلوس كيف يجب أن يقص شعرة فأجابه الملك « في صمت » (٢٦) . وكانت النساء أيضاً يخلقن الشعر من بعض أجزاء جسمهن ، ويستخدمن في هذا أمواساً أو أدهانا مصنوعة من الزرنيخ والجبر .

وكانت العطور - المصنوعة من الأزهار مخلوطة بالزيت - تعد بالئات ، ويشكو سقراط من كثرة استعمال الرجال لهذه العقاقير (٢٧) . وكان لكل سيدة راقية عدة كبيرة من المرايا ، والدبايبس العادية والإنجليزية ، ودبايبس الشعر ، والملاقط ، والأمشاط ، وقنينات العطور ، وأواني الأصباغ الحمراء ؛

والأدهان . وكن يصبغن خدودهن ، وشفاههن بعضى من السلقون وجلور الشنجار(*) . أما الحواجب فكانت تصبغ بسناج المصابيح أو بمسحوق الإثمد ، وتلون الجفون بالإثمد ، وتسود الرموش ثم تطل بمزيج من زلال البيض والأشقي(**) . وكانت الأدهان ومعاليل الغسل تستخدم لإزالة التجاعيد والنمش والبقع من الوجه والجسم ، وكانت بعض الأدهان الموثلة تبقى على الجسم ساعات طويلا لكي تظهر المرأة في أعين الناس جميلة إن لم تكن جميلة بطبيعتها . وكان زيت المصطكي يستخدم لمنع العرق ، وكانت مراهم مبطرة خاصة توضع على أجزاء مختلفة من الجسم . وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبها وشعرها بالبردقوش ، وعنتها ، وركبتها بمخلصة الصعتر ؛ وذراعها بمخلصة النعناع ، وساقها وقدامها بالمُر(٢٨) . وكان الرجال يحتجون على هذه الأسلحة المغربية ، ولكن احتجاجهم لم يكن له من النتائج أكثر من احتجاج أمثالهم في أى عصر من العصور . من ذلك أن إحدى الشخصيات في مسلاة أثينية تعبر سيده بتعداد ما تستخدمه من الأدهان والأصبغ الكثيرة فتقول : « إذا خرجت في الصيف تحذر من عينيك سخطان أسودان ، وجرى نهر أحمر من خديك إلى عنقك . وإذا مس شعرك وجهك أبيض من الرصاص الأبيض »(٢٩) . إن النساء كما هن لأن الرجال لا يتغيرون .

وكانت المياه قليلة فكانت النظافة تتطلب وسائل أخرى غير المياه ، فأما الأغنياء فكانوا يستحمون مرة أو مرتين في اليوم ، ويستخدمون في استحمامهم صابوناً مصنوعاً من زيت الزيتون معجوناً بمادة قلوية ، ثم يتعطرون .

(*) الشنجار بالكسر معرب شنكار وهو نفس الحمار ويسمى الكحلاد ، والحميراء ، ورجل الهندامة ، وهو نبات لاصق بالأرض مشوك له أصل في غلظ إصبع ، أحمر كالدّم يصبغ اليد إذا مس ، وينبته الأرض الطيبة الترية (المحيط) ، واسمه بالإنجليزية alkanet . (المترجم)

(**) الأشقي كسكر ويقال : وشق وأشج صبغ نبات كالثناء شكلا gum Ammoniac عن المحيط . (المترجم)

وكان البيت الراقى يشتمل على حمام مبلط ، به حوض كبير من الرخام يحمل إليه الماء عادة باليد ، وكانت المياه أحيانا تنقل في أنابيب وقنوات إلى البيت محترقة جذران الحمام ، ثم تندفع من صنوبر معدنى فى صورة رأس حيوان ، وتسقط على أرض الحمام الرشاش وتجرى بعدئذ إلى الحديقة (٣٠) .

وأما الكثيرون من الأهلين الذين لا تتوافر لديهم المياه للاستحمام فكانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ثم يزيلونه بمكشط هلالى الشكل كما نرى ذلك فى تمثال أپكسيمنس Apoxyomeon للمثال ليسبس Lysippus ولم يكن اليونانى شديد الحرص على النظافة ، ولم تكن أهم وسائله للمحافظة على صحته هى العناية بها داخل المنزل ، بل كان أهمها الاقتصاد فى الأكل والحياة الخارجية النشيطة . وكان يتندر أن يجلس داخل الدور والملاهى والمعابد والأبهاء المغلقة الأبواب ، وقلما كان يعمل فى المصانع أو الحوانيت المقللة . وكانت مسرحياته وعباداته ، وحتى حكومته فى ضوء الشمس ، وكان فى وسعه أن يخلع عن جسمه ملابس البسيطة التى يصل منها الهواء إلى جميع أجزائه ، ولا يكلفه خلعها أكثر من التلويح بذراعه ، للقيام بجولة مصارعة ، أو التمتع بحمام شمس .

وكانت ملابس اليونانى تتكون من قطعتين مربعتين من القماش ملفوفتين فى غير إحكام حول الجسم ، وقلما كانتا تفصلان لتوأمًا لابساً بعينه . وكانتا تختلفان فى بعض تفاصيلهما الصغرى فى المدن المختلفة ، ولكنها ظلتا بحالهما عادة أجيال . وكان أهم رداء للرجال فى أثينة هو القباء Tuuc ، وأهمه للنساء هو المئزر peplos ، المصنوعين من الصوف . فإذا كان الجو يتطلب التدفئة غفلياً بعباءة أو برنس معلق مثلهما من الكتفين يتدلى فى غير كلفة فى تلك الشايات الطبيعية التى تسرع العين حين تقع عليها فى التمايل اليونانية . وكانت الملابس فى القرن الخامس يبيضها اللون فى العادة ، غير أن النساء ، وأغنياء من الرجال ، والشبان المتأنقين ، كانوا يعمدون إلى تلوينها ، ولم يكونوا يستكفون من لبس الثياب القرمزية أو الحمراء الداكنة ، أو ذات الخطوط

المختلفة الألوان والحواشى المطرزة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يتمنطقن بمناطق ملونة . ولم تكن القبعات مرغوباً فيها لأنها كانت فى رأيهم تمنع رطوبة الجوع عن الشعر فيشيب قبل الأوان^(٣١) ، ولم يكن الرأس يغطى إلا فى أثناء السفر ، والقتال ، أو العمل فى أشعة الشمس الحارة . وكانت النساء فى بعض الأحيان يغطين رؤوسهن بمناديل أو عصابات ملونة ، وكان العمال فى بعض الأوقات يغطون رؤوسهم بقلنسوات ويتركون سائر الجسم عارياً^(٣٢) . أما الأحذية فكانت أخفافاً (صنادل) ، ونغلاً طويلة أو قصيرة تصنع عادة من الجلد ، سوداء اللون للرجال وملونة للنساء . ويقول دسياركس Dicaerchus إن نساء طيبة يمتدنين أحذية قصيرة أرجوانية ذات شرائط تظهر منها القدم العارية^(٣٣) . وكان معظم الأطفال والعمال لا يمتدنون شيئاً مطلقاً ، ولم يكن أحد يعنى بلبس الجوارب^(٣٤) .

وكان الأهلون ، رجالاً ونساءً ، يخفون دخولهم أو يعلنونه للناس بالحلى والجواهر ، فكان الرجل يلبس عدة خواتم^(٣٥) . وكانت عصى الرجال تنتهى فى أعلاها بكريات من الفضة أو الذهب . وكانت النساء يتملحن بالأساور ، والقلائد والأكاليل من الجواهر ، والأقراط ، ودبابيس الصدر ، والعقود ، والمشابك ذات الجواهر ؛ وكان هن فى بعض الأحيان أربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن . وكانت الطبقات التى تسرف فى الترف فى هذه البلاد هى الحديثة الثراء كما تفعل أمثالها فى جميع البلاد التى تسودها الثقافات التجارية . وكانت أسوارته تحدد أنواع أغطية الرأس لنسائها ، كما كانت أثينة تحرم على النساء أن يأخذن معهن فى أسفارهن أكثر من ثلاث مجموعات من الثياب^(٣٦) . غير أن النساء كن يسخرن من هذه القيود ، ويتهربن منها دون أن يستعن على ذلك الهرب بالحامين . ذلك أنهن كن يعرفن أن قيمة المرأة عند معظم الرجال وعند النساء إنما تقدر بملابسها ؛ وكان مسلكهن فى هذه الناحية يكشف عن حكمة تجمعت هن فى خلال آلاف من القرون الطوال .

الفصل الرابع

المبادئ الأخلاقية

لم يكن الأثينيون في القرن الخامس مثلاً طيباً في حسن الخلق ، وذلك لأن ارتقاء عقولهم قد أحل الكثيرين منهم من تقاليدهم الأخلاقية ، وجعل منهم أفراداً يكادون لا يكونون لا خلاق لهم . نعم إنهم قد اشتهروا بعلمهم القضائي ، ولكننا قلنا نراهم يوثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم ، وقلما يشعرون بوخز الضمير ، أو يفكرون قط في أن يجربوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم . وتختلف آدابهم باختلاف طبقاتهم ، ففي محاورات أفلاطون نرى الحياة تجملها للرقعة الخلابة أما في ملامى أرسطوفان فالآداب لا وجود لها قط ؛ وفي الخطب العامة نرى السباب الشخصي هو روح البلاغة . ولقد كان « البرابرة » الذين هذبهم الدهر في مصر وفارس وبابل أرقى من اليونان كثيراً في هذه الناحية . وكانت التحيات عند الالتقاء ودية قلبية ولكنها بسيطة ، فلم يكن فيها انحناءات لأن هذا كان يبدو للمواطنين بقية من بقايا الملكية البائدة . وكان السلام باليد مقصوراً على الحلف أو الوداع ؛ أما التحية العادية فلم تكن تزيد على قولهم « ابتهج » (Chaire) تتبعها كما تتبعها عند غيرهم إشارة طريفة إلى الجوارح (٢٧) .

وقل لإكرام الضيوف بعد أيام هومر لأن الأسفار أصبحت آمن بعض الشيء مما كانت في ذلك الوقت ، ولأن النزل كانت تقدم الطعام والمأوى للمسافرين ؛ غير أن كرم الضيافة ظل مع ذلك من فضائل الأثينيين البارزة . وكانوا يرحبون بالغرباء ولو لم يقدمهم إليهم أحد ؛ فإذا جاء الغريب بخطاب من صديق له ولمن جاء إليه ، قدم له الطعام والمأوى ، وربما قدمت له عند رحيله بعض الهدايا . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصحب

معه ضيفاً غير مدعو . وكانت حرية الدخول إلى منازل الغير سبباً في قيام طائفة من الطفيليين على مر الأيام . وكانت الكلمة المستعملة في هذا المعنى paraisitoi تطلق في الأصل على الكهنة الذين يأكلون « الحب الباقي » من مقررات المعابد . وكان الأغنياء أسخياء في عطاياهم الخاص والعام . وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة اليونان فعلا واسماً ، واللفظ الذي يطلق عليها philanthropy من أصل يوناني . وكان التصدق - Charitas أى الحب - من طباعهم ، وكان لديهم هيئات للعناية بالغرباء والمرضى ، والفقراء ، والطاعنين في السن (٣٨) . وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود وتربى أيتام الحرب على نفقة الدولة ؛ ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل (٣٩) . وكانت الدولة تدفع في أوقات الجذب والحرب ، وغيرهما من الأزمات إعانة يومية قدرها أبولتان (٣٠٣ من الريال الأمريكى) للمحتاجين ؛ تضاف إلى ما كانت تعطيه كلا منهم لحضور جلسات الجمعية ، والحاكم ، ومشاهدة التمثيل . ولم تكن هذه الإعانات تخلو من الفضائح المعتادة ، فها هو ذا لىسياس يذكر في خطبة له رجلاً يتقاضى إعانة من الأموال العامة ، مع أن له أصدقاء من الأغنياء ، ويكسب مالا من عمله اليدوى ، ويركب الخيل للرياضة (٤٠) .

ولعلك كنت إذا سألت اليوناني قال لك : إن الأمانة أحسن سياسة ، ولكنه كان في حياته العملية يجرب كل الوسائل الأخرى أولاً . فترى المغنين في مسرحية فلكتيتس Philoctetes لسفكل يظهران - أعظم العطف على الجندى الجريح الذى تخلى عنه رفقاؤه ، ثم ينتهزون فرصة غفوته فيشيرون على نيوبتلموس Neoptolemus أن يغدر به ويسرق سلاحه ، ويتركه بعدئذ لمصيره . وكان كل الناس يشكون من أن بائع الأشتات الأثيني يغش بضاعته ، ويخسر الكيل والميزان ، ويتقص ما بقى للمشتري من نقود على الرغم

من مفتشى الحكومة ، وبحول مرتكز الميزان نحو الكفة التي بها الموزون^(٤٠) ، ا ،
ويكذب كلما سنحت له الفرصة ؛ وهو متهم بأخذ الودم^(*) من الكلاب^(٤١) .
ويطلق كاتب مسرحى هزلى على بائعى السمك اسم « السفاحين » ويسمى بهم
كاتب أرحم بهم منه « لصوصا »^(٤٢) . ولم يكن رجال السياسة خيرا من
هؤلاء كثيرا ؛ فلا نكاد نرى رجلا ذا شأن فى الحياة الأثنية العامة لم يتهم
بالالتواء^(٤٣) ، وإذا وجد فيهم رجل شريف مثل أرسطيديز عد من خوارق
الطبيعة يكاد يبلغ حد البشاعة ، وحتى ديوجين نفسه بمصباحه الذى يسير به
فى النهار يعجز عن أن يعثر على رجل آخر شريف . ويقول توكيديديز إن
الرجال كانوا أكثر حرصاً على أن يوصفوا بالخلق من أن يوصفوا بالأمانة ،
ويظنون أن الأمانة هى السداجة^(٤٤) . وكان من أيسر الأمور أن نجد اليونان
يخونون وطنهم . وفى ذلك يقول هوزنياس : « لم يكن ينقص بلاد اليونان فى
أى وقت من الأوقات رجال مصابون بهذا الداء داء الخيانة^(٤٥) » . وكانت
الرشوة هى السبيل المألوفة للرقى ، ولفرار المجرمين من العقاب ، ولتيل المطالب
الدبلوماسية . وحصل بركليز على مبالغ طائلة من المال للخدمات السرية ،
وأكبر الظن أنه استخدمها لتيسير أسباب المفاوضات الدولية . وكانت المبادئ
الأخلاقية قبلية الطابع إلى أقصى حد ، وينصح زونوفون فى رساله له فى
التربية بالالتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة فى معاملة أعداء البلاد^(٤٦) .
ويدافع الرسل الأثينيون الذين وفدوا إلى اسپارطة فى عام ٤٣٢ عن
إمبراطوريتهم بتلك العبارات الصريحة : « لقد كان القانون السائد على
الدوام أن يخضع القوى للضعيف . . . ولم يسمح أحد بأن تقف المطالبة
بالمعادلة فى سبيل المطامع إذا لاحت للتخلص فرصة كسب شىء ما قوة

(٥) الودم الحزة من الكرش والمصارين المقطوعة تمعد وتلوى ثم ترمى فى القدر والجمع
أودم وودوم ، وهى الودمة وجمعها ودام . (المخصص) . وقد استعملنا هذا اللفظ .
(السجق) . (المترجم) .

واقترأ^(٤٧) . ولا يبعد أن تكون هذه الفقرة هي وخطب الزعماء الأثينيين في ميلوس^(٤٨) من خيال توكيديدز الفيلسفي أثارها أقوال بعض السوفسطائيين الساخرة ؛ ومن أجل هذا فإن الحكم على اليونان من أخلاق جورجياس ، وكلكليز Callicles ، وثراسيماكوس Thrasymachus التي تخالف العرف المؤلف لا يكون فيه من العدالة أكثر مما في وصف الأوريين المحدثين بالاستناد إلى أقوال مكيفلي ، ورشفوكول ، وثنشة ، واسترنر Stirner الشاذة الغريبة . ولسنا نحب أن نقول ماذا في هذا الحكم من عدالة . وما يدل على أن اليونان يروون أنهم أرقى من أن يتقبلوا بهذه القيود الأخلاقية أن الاسبارطيين لا يترددون في موافقة الأثينيين على هذه الطائفة من نقط الخلاف الأخلاقية . ولما أن استولى فوبيداس Phoebidas اللسديموني على قلعة طيبة غلداً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبين ، وسئل أجسلوس Agesilus ملك اسبارطة عما في هذا العمل من العدالة أجاب بقوله : « ليس لك إلا أن تسأل هل هو نافع أو غير نافع ، لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح » ، وكثيراً ما كانت تحرق شروط الهدنة ، وتنقض العهود الصريحة ، وتقتل الوفود^(٤٩) ؛ على أننا نعود فنقول : إن اليونان قد لا يختلفون عنا إلا في صراحتهم لا في مسلكتهم ، ذلك أن تفوقنا عنهم في الرقة يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما تفعل .

ولم يكن للعادة والدين إلا أثر قليل في كبح جماح المنتصرين في الحرب . لقد كان من الأمور المألوفة ، حتى الحروب الأهلية ، أن تنهب المدن المفتوحة ، وأن يقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يقبض عليهم من غير المحاربين ، أو أن يتخذوا عبيداً إذا لم يفتلوا ، وأن تحرق البيوت ، وأشجار الفاكهة ، والمحصولات الزراعية ، وأن تباد الحيوانات ، وتلف البذور لكيلا تزرع في المستقبل^(٥٠) . وقد ذبح الاسبارطيون في بداية حرب البلويونيز كل من وجلدهم من اليونان في البحر

وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينة أو من المحايدين^(٥١) ، وقتل الاسبارطيون في معركة إيجسبوتامى Aegospotami التي انتهت بها هذه الحرب ، ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين^(٥٢) - ويكاد هولاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . وكانت الحرب من نوع ما - حرب مدينة ضد مدينة ، أو طبقة ضد طبقة - هي الحالة المألوفة العادية في بلاد اليونان . وعلى هذا النحو أخذت هذه البلاد التي هزمت ملك الملوك يقاتل بعضها بعضاً ، فيلقى اليوناني في ألف موقعة ، ولم يكدمضى قرن واحد على معركة مرثون حتى أخذت الحضارة اليونانية ، وهي أزهى حضارات التاريخ على الإطلاق ، تفتى نفسها بهذا الانتحار القوي الطويل الأمد :

الفصل الخامس

الطباع

إذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يخلبون عقولنا ويستندرون عطفنا ، فما ذلك إلا لأنهم يسترون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما طبعوا. عليه من قوة المغامرة والذكاء التي تبعث البهجة في النفوس . لقد كان قرب البحر من الأثينيين ، وما أتاحه لهم هذا القرب من فرص تجارية تاهرة ، وحرصهم على الحرية في حياتهم الاقتصادية والسياسية ، مما جعل الأثيني إنساناً مرن العقل والطبع ، سريع التبيج والحساسية إلى أقصى حد . ألا ما أعظم ما يتبينه الإنسان من تغير الطباع حين ينتقل من الشرق إلى أوروبا ، فهو ينتقل من الأصقاع الجنوبية الوبسنة إلى أقاليم وسطى في شتائها من البرودة ما يكفي لبعث النشاط دون ركود ، وفي صيفها من الدفء ما يطلق القوى دون أن يضعف الجسم والروح . هنا يكون الإيمان بالحياة وبالإنسان ، والتحمس للحياة تحمساً لا نجد له نظيراً قبل عصر النهضة .

من هذا الوسط المنبه المنشط تنبعث الشجاعة وتنبعث الثورة العاطفية البعيدة كل البعد عن فضيلة ضبط النفس (Saphrosyne) التي يدعو إليها الفلاسفة دون جدوى ، وعن الرصانة التي يعزوها الشاب ونكلمان Winckelmann والشيوخ جوتة إلى اليونان العاطفين القلبين . ليست المثل العليا لأمة من الأمم عادة إلا ستاراً يخفى عن الأعين الفاحصة حقيقة أمرها ، ولذلك فإن الواجب يقضى بالألا تعد من الحقائق التاريخية . إن الشجاعة والاعتدال - أو الرجولة (Andreia) وعدم الإفراط في شيء ما (Meden agan) إذا شئت الألفاظ التي نقشت على جدران معبد دلفي - شعار اليوناني ؛ وهو يحقق أولها في كثير



(شكل ٢٨) نيكى تربط سداها
من ميكل نيكى ايتروس ، في متحف الاكروبول باثينة

(٨ - ج ٢ - مجلد)

من الأحوال أما ثانيهما فلا يحققه من اليونان إلا الفلاحون ، والفلاسفة ،
والقديسون . أما الأثيني العادى فهو رجل شهوانى ولكنه رجل ذو ضمير
حى ، ولا يرى خطيئة فى ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم
الذى ينجم عليه فى فترات تفكيره ، وهو مغرم بالخمر ولا يستحى أن يسكر
منها بين الفينة والفينة ، ويجب النساء حباً جثائياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما ،
ولا يجد حرجاً فى أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنىسى
الشاذ ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها . ولكنه
رغم هذا يخفف الخمر بإضافة ثلاثة أقداح من الماء لكل قلدحين منها ، ويرى
أن تكرار السكر مخالف لمقتضيات اللوق السليم ، وهو يعظم الاعتدال بل
يعبده مخلبصاً فى عبادته إياه ، ولكنه قلما يسر عليه فى حياته العملية ،
ويصوغ مبدأ السيطرة على النفس صياغة لا تجارياً فى الوضوح صياغة أى
شعب آخر فى التاريخ لهذا المبدأ السامى .

إن الأثينيين أذكى من أن يكونوا صالحين ويسخرون من البلاء أكثر
مما يمتنون الرذيلة ، وليسوا كلهم حكماء ؛ وليس لنا أن نتصور أن نساءهم
كلهن حسان مثل نسكا Nausica ، أو أن فبن من أسباب الجلال ما فى هلن ،
كما لا يحق لنا أن نتصور أن رجالهم يجمعون بين شجاعة أجاكس وحكمة
نسطور : لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان وغفل عن ذكر بلهاتهم
(عدا نيشياس Nicias) ؛ وقد يبدو عصرنا نفسه عظيماً حين ينسى معظمنا ؛
ولا ينجوا من هذا النسيان إلا الشوامخ منا . وإذا أخرجنا من حسابنا ما بيعته
قدم العهد فى القلوب من عطف وحنان على الأقدمين ، بقى أن نقول إن
الأثينى العادى لا يقل دهاء عن الشرقى ، ولا يقل شغفاً بالحدة عن
الأمريكى ، متشوف طلعة على البدوام ، لا ينقطع عن الحركة والانتقال ،
ولا ينفك ينادى بالهدوء البرميدى(*) ، ولكنه مضطرب مهتاج مثل
هرقليطس . ولم يكن لشعب قبل الأثينيين ما كان لهم من قوة الخيال أو

(*) نسبة إلى الفيلسوف برميدس الإيلى (القرن السادس قبل الميلاد) . (المترجم)

فصاحة اللسان ؛ ولقد كان التفكير الواضح والتعبير الخلى من الغموض يبدوان للأثيني من الصفات القدسية ، فلم يكن يطبق التشويش والارتباك العلمى ، ويرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرقى متع الحضارة . ولقد كان سبب ما امتاز به التفكير وما امتازت به الحياة من غزارة وقوة ، أن اليونانى كان يرى أن الإنسان هو المقياس الذى تقلر به الأشياء جميعها ؛ فالأثيني المتعلم يعشق العقل ، ولما كان يشك فى قدرته على إدراك العالم وتصويره ؛ وكان حب المعرفة والرغبة فى الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتاته ؛ وكان شغفه بهما شغفاً مسرفاً قوياً كشفه بغيرهما . ولقد كشف فيما بعد أن للعقل الإنسانى والجهود البشرية حدوداً يقفان عندها ولا يتخطيانها ، وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل المترتب على هذا للكشف أن تنابه حالة من التشاؤم عجيبة لا تتفق قط مع بهجته ومرحه ، وحتى فى العصر الذى بلغ فيه إنتاجه الفكرى غايته ، كانت آراء أعمق مفكره - وهم كتاب المسرحيات لا الفلاسفة - تشوبها عقيدته فى أن بهجة الحياة خداعة قصيرة الأجل ، وأن الموت رابض له متربص به .

وكانت روح البحث هى التى أنشأت علوم اليونان ، كما كان الحرص على الاستحواذ منشأ حياتهم الاقتصادية والعامل المسيطر عليها . وفى هذا المعنى الأخير يقول أفلاطون مبالغاً كعادة علماء الأخلاق : « إن حب الثراء يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال ، فلا يفكرون إلا فى أملاكهم الخاصة ، التى تتعلق بها نفس كل مواطن » (٥٣) . فالأثينيون فى حقيقة أمرهم حيوانات متنافسة ، وبهذه المنافسة القاتلة التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، يحفز بعضهم بعض . وهم على جانب كبير من الذكاء ، ولا يقلون دهاء واحتيالاً عن الساميين ، وهم صلاب الرأى صلابة العبرانيين كما وصفهم التوراة ، وهم مثلهم مشاكسون ، معاندون ، متكبرون ، كثيرو اللجاج والمساومة

في البيع والشراء ، لا يتركون نقطة في حديثهم من غير جدل ومناقشة ؛ إذا عجزوا عن محاربة غيرهم من الأمم تحاربوا فيما بينهم . وليسوا على جانب كبير من رقة العواطف ، يعيبون على يوربديز دموعه في مسرحياته ، يشفقون على الحيوان ويقسون على الإنسان : فهم يعذبون العبيد دون ذنب ، ويخيل إلى من يراهم أنهم ينامون ملء جفونهم بعد أن يلبحوا جميع من في المدينة من غير المحاربين ، ولكنهم مع ذلك يكرمون العاجز والفقير ، ودليلنا على ذلك أنه لما علمت الجمعية أن حفيدة أرسطجيتون Aristogeiton قاتل الطغاة تعيش في لمنوس فقيرة معدمة ، أمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل به على زوج لها . وكان المظلومون المضطهدون من المدن الأخرى يجدون في أثينة ملجأ يحمهم ويعطف عليهم .

والحق أن الأثيني لم يكن يفكر في الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن ، فهو لا يأمل أن يكون له ما للصالحين من أفراد الطبقة الوسطى من ضمير ، أو ما للأشراف من شعور بالشرف ، بل يرى أن أحسن الحياة هي الحياة الكاملة ، المليئة بالصحة ، والقوة ، والجمال ، والانفعال ، والثراء ، والمغامرة ، والتفكير . والفضيلة عنده هي الرجولة (Arete) - أو الحرية كما كان معنى اللفظ في بادئ الأمر - والتفوق (Ares أي المريخ) ، وهي تقابل بالضبط كلمة viritus عند الرومان ومعناها الرجولة . والرجل المثالي عند الأثينيين هو الكلوغاتوس Kalogathos أي الذي يجمع بين الجمال والعدالة في فن من فنون العيش الراقية ، والذي يقدر في صراحة قيمة الكفاية ، والشهرة ، والثراء ، والصدقة ، كما يقدر الفضيلة وحب الإنسانية . ويرى الأثيني كما يرى جوته أن ترقية النفس هي كل شيء . ويحتفظ بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور لا نستسيغه نحن لصراحته : فالليونان لا يملون الإعجاب بأنفسهم ، ويعلمون في كل مقام تفوقهم على غيرهم من المحاربين ، والكتاب ، والفنانين ، والشعوب بأسرها . وإذا شئنا أن نعرف الفرق بين اليونان والرومان فما علينا إلا أن نوازن بين الفرثيين والإنجليز ، وإذا أحببنا أن نحس بالروح

الإسبارطية وندرك الفرق بينها وبين الروح الأثينية فما علينا إلا أن نفكر في روح الألمان وروح الفرنسيين .

وقد اجتمعت صفات الأثينيين كلها لتقيم دولة - المدينة ، ففيها ولدت قوتهم وشجاعتهم ، ووحدة ذكائهم وألمعتهم ، وشقشقة لسانهم ، وشدة مراسهم ، ومحبتهم للكسب ، وشدة غرورهم ، ووطنيتهم ، وعبادتهم للجمال والحرية ، وفي دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات كلها وبلغت غايتها . وهم سريعو الانفعال ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى . ويجوزون التعصب الديني من آن إلى آن ، غير أنهم لا يتخذونه وسيلة للحد من حرية الفكر ، بل يتخذونه سلاحاً من أسلحة السياسة الحزبية ، ورباطاً لتجارهم الأخلاقية . أما فيما عدا هاتين الحالتين ، فهم يستمسكون بقدر من الحرية ، يندهش منه زوارهم الشرقيون ويبدو في نظرهم الفوضى بعينها ، ولكن حريتهم هذه ، وكون كل منصب من مناصب الدولة ميسراً لكل مواطن ، وكون كل مواطن محكوماً تارة وحاكماً تارة أخرى ، لكن هذه الأمور هي التي جعلتهم يخصصون نصف حياتهم لخدمة دولتهم . ولم يكن بينهم إلا المكان الذي ينامون فيه ، أما حياتهم فكانوا يقضونها في السوق العامة ، وفي الجمعية ، والجلس ، والمحاكم ، وساحات الأعياد الكبرى والمباريات ، وفي مشاهدة المسرحيات التي يعجلون بها مدينتهم وأهلها . وهم يعترفون بحق الدولة في أن تجندهم وتستولي على أموالهم متى احتاجت إليهم وإليها . وهم يعفون عن إرهابها إليهم واستيلائها على أموالهم ، لأن عملها هذا يتيح لهم فرصة النماء الإنساني أكبر مما عرفه الإنسان في أي عصر من العصور السابقة ، وهم يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لأنها مهد حريتهم وحارستها . وفي ذلك يقول هيرودوث : « وبهذا زاد الأثينيون قوتهم ، ويتضح كل الوضوح ، من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة ، أن الحرية من أعظم النعم ؛ ألسنت ترى أن الأثينيين ، وهم خاضعون لحكم الطغاة ، لم يكونوا يفوقون جيرانهم في الشجاعة أدنى تفوق ، ولكن لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى صاروا أشجع الشجعان بلامنازع » (٥٤) .

الفصل السادس

العلاقات الجنسية قبل الزواج

تبدو أثينة إبان مجدها شرقية أكثر منها أوربية في أخلاق أهلها ، كما تبدو كذلك في حروفها المعجائية ، وفي مقاييسها وموازينها ، وسكتها . وملابسها ، وموسيقاها ، وفلكها ، وطقوسها الصوفية : ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافاً صريحاً بأن العلاقة الجنسية هي أساس الحب ، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذي تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض أفلاطونية خالصة . لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج ، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية ، بعد أن يبلغوا الحلم ، إلا القليل من القيود الخلقية . وقد كانت الأعياد الكبرى ، وهي دينية في أصلها ، صهومات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة ؛ فكانوا في هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود في العلاقات الجنسية لاعتقادهم أن هذا ييسر لهم فيما بقي من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة . ولم يكن الأثينيون يرون أن في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار ، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات ، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة (٥٨) . وكانت أثينة تعترف بالبغاء رسمياً وتفرض ضريبة على البغايا .

وأصبح العهر في أثينة ، كما أصبح في معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة الرواد ، ذات فروع مختلفة لكل فرع إحصائيات . وكانت السبيل ميسرة أمام ذات الكفاية للترقي في هذه المهنة كما كانت ميسرة للترقي في غيرها من

المهن في تلك المدينة . وكانت أسفل طبقة من العاهرات هي طبقة البرنای pornai ، ويسكن معظم افرادها في بيرية في مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب بريابوس المعلقة عليها . وكان رسم الدخول في هذه المواخير أوبلة واحدة ، وكان الداخل يجد فيها البنات في أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً ، ولذلك يسمين الجمنای (أى العاريات) ، وكن يجزن لمن يرون ابتياعهن أن يختبروهن كما تختبر الكلاب في بيوتها . وكان في وسع الرجل إن يعقد الصفقة التي يريدتها الزمن الذي يبتغيه ، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتا تعاشره أسبوعا ، أو شهرا ، أو سنة . وكانت البنت أحيانا توجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين في وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية^(٦١) . وتلى هذه الطبقة عند الأثينيين طبقة العازفات على القيثارة ، وأولئك يستخدمن ، كما تستخدم المسامرات في اليابان ، في الليالي « الحمراء » يمرحن ويعزفن ، ويرقصن رقصا فنيا أو خليعا مثيرا للشهوات ، ثم يبتن مع من يريدهن من الرجال^(٦٢) . وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن عن أنفسهن شر الفاقة بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازفات ، يعلمنهن كيف يجملن أنفسهن ، ويسرن عيوب أجسامهن ، ويسلن الرجال بالعزف على الآلات الموسيقية ، كما يعلمنهن كيف يتصنعن الحب والدلال . وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلا بعد جيل ، احتفاظ الإنسان بأثمن تراث ، بالطرق التي يلهن بها القلوب ، كالتظاهر بالحب بعقل وروية ، وإطالة أمدته بتصنع الدلال والإباء ، والحصول به على أكبر أجر مستطاع^(٦٣) . لكن بعض العازفات ، إذا صدقنا ما قاله عنهن لوشيان بعد ذلك العصر ، كانت لمن قلوب رحيمة رقيقة ، وكن يعرفن الحب الحقيقي ، ويضحجن بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامي Camille . إن قصة العاهر الشريفه قصة قديمة شاب قرناها وخلع عليها طول الزمن شيئاً من الجلال والتبجيل .

وكانت ارقى طبقات العاهرات الأثينيات هي طبقة الهتايراي *hetairai* ومعناها الحرفى الرفيقات . ولم تكن هؤلاء الرفيقات مثل طبقة الپورناى تتكون فى الغالب من نساء شرقيات المولد ، بل كانت تتألف فى العادة من بنات المواطنين اللاتى سقطن لسبب من الأسباب ، أو فررن من العزلة المفروضة على العذارى والنساء الأثينيات . وكن يعشن مستقلات بأنفسهن . ويستقبلن فى بيوتهن من يغوين من العشاق . وكانت كثرتهن سمراوات بطبيعتهن ، ولكنهن كن يصبغن شعرهن باللون الأصفر لاعتقادهن أن الأثينيين يفضلون الشقراوات ، وكن يميزن أنفسهن بلبس أثواب منقوشة بالورد ، ولعل هذه الثياب كان يفرضها عليهن القانون^(٦٤) . وكان بعضهم يحصلن على قدر لا بأس به من التعليم بالقراءة المستقلة من حين إلى حين ، وبالاستماع إلى المحاضرات ، وكن يسلين روادهن المثقفين بمحدثهن المنطوى على قدر من العلم والثقافة . وقد اشتهرت منهن تاييس *Thais* وديوتيا *Diotima* وثارجليا *Thargelia* ، وليونتيوم *Leontium* ، كما اشتهرت أسپازيا ، بمناقشاتهن الفلسفية ، واشتهرن أحيانا بأساو من الأدبى المصقول^(٦٥) . وذاعت شهرة الكثيرات منهن بفكاهتهن الحساسة ، وفى الآداب الأثينية لمن مجموعة من المقطوعات الشعرية الفكاهية^(٦٦) . وكانت العاهرات على اختلاف طبقاتهن محرومات من الحقوق المدنية ، لا يجوز لمن أن يدخلن هيكلًا من الهياكل عدا هيكل إلههن أفرديو ، بندموس *Aphrodite Pondenos* ، ولكن قلة مصطفاة من الهتايراي كانت لمن منزلة عالية فى مجالس الرجال الاجتماعية فى أثينة ، ولم يكن أحد من الرجال ستحي أن يثرى فى محبتهن ، وكان الفلاسفة يتبارون فى كسب ودهن ، ومن المؤرخين من يروى تاريخهن بنفس الخشوع والإجلال الذى يرويه به فله طرخس^(٦٧) .

وبهذه الطرق خلدت بعضهم اجماعهم . فمن هؤلاء كلبيسندرا التى سميت كذلك لأنها كانت تخرج ، شاقها من عندها بعد ساعات محددة تحصىها بساعة

رملية ؛ ومنهن ثرجيليا Thargelia متا هارى Maia Hari (*) زمانها ، التي
خدمت الفرس بأن ضاجعت أكبر عدد مستطاع من ساسة أثينة (٦٨) ؛
وثيوريس Theoris التي خففت عن سفكليز متاعب شيخونخته ، وأرشبي
Archippe التي خلفتها في هذا العمل حوالى العقد التاسع من حياة هذا الكاتب
المسرحي (٦٩) ؛ ومنهن أركيانسا Archeanassa التي كانت تسلى أفلاطون (٧٠) ،
ودانى Danae وليونتيوم Leontium اللتين علمتا أبيقور فلسفة اللذة ؛ ومنهن
تمستونوى Themistonee التي ظلت تمارس مهنتها حتى فقدت آخر سن
من أسنانها وآخر خصلة من شعرها ؛ ومنهن نايننا Onathena التي كانت
تطلب ألف درخمة (ألف ريال أمريكي) ثمناً لمضاجعة ابنتها ليلة واحدة ،
لأنها قضت وقتاً طويلاً في تدريبها وإعدادها لهنتها (٧١) . وكان جمال فرينى
Ithyne حيث أثينة كلها في القرن الرابع ، وذلك لأنها لم تكن تظهر أمام
الناس إلا وهي محبجة من رأسها إلى قدمها ، وانكها في عيى لاوزيا
ويسدونيا تخلع ثيابها أمام الناس كلهم وتسدل شعرها على جسمها وتنزل
البحر لتستحم (٧٢) ، وقد عشقت بركستيليز المثال ؛ ووقفت أمامه لينحت
على صورتها تماثيل أفرديتى . وعلى صورتها أيضاً نحت أبلز تمال أفرديتى
أناديومونى Anadyomone (٧٣) . وأثرت فرينى من عشاقها
إثراء أمكنها من أن تعرض استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق
الطيبيون على نقش اسمها على هذه الأسوار ، ولكنهم أصروا على رفض
هذا الغرض . ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس Euthias من أجر لها ، فثار
لنفسه منها باتهامها بالإلحاد ؛ وانك أحد أعضاء المشككة كان من زبائها ، كما
كان هيريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها ؛ ودافع عنها هيريدز ولم يستخدم
في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل بشق أمام الحكمة جلبابها وكشف عن صدرها .
ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤها من تهمة الإلحاد في الدين (٧٤) . ويقول أثينيوس

« يبدو أن لثيس Laïs الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين » (٧٥) . وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل في عددها عن المدن التي تتنازع شرف انتساب هومر إليها . ويتوسل إليها المثلثون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تماثيلها أو يصوروها ، ولكنها تتمنع حياء وخجلا ، ثم يتغلب عليها ميرون Myron العظيم في شيخوخته فتقبل طلبه ، حتى إذا خلعت ثيابها نسي وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة ، فتبسمت ضاحكة من قوله ، وهزت كتفها المستديرتين ، وتركته دون أن ينحت التمثال . وفي صباح اليوم الثاني اشتد به الوجد ، وعادت إليه نشوة المراهقة ، فصفف شعره ، وحلق لحيته ، وارتنى ثوباً رمزى اللون ، وتمنطق بمنطقة ذهبية ، وتقلد قلادة ذهبية ، وتختم في جميع أصابعه ، وحرر خديبه ، وعطر ثيابه وجسمه ، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لثيس ويعلن إليها أنه متيم بها . فنظرت إلى صورته المسوخة وعرفت من هو ، ثم أجابته بقولها : « أيها الصديق المسكين ، إنك تطلب ما أبيته على أهلك بالأمس » (٧٦) . وجمعت لثيس من مهنتها ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن تمنع نفسها عن فقراء العاشقين من ذوى الجمال ، وقد أعادت دمستين القبيح الصورة إلى الفضيلة ، بأن طلبت إليه عشرة آلاف درخمة أجر ليلة واحدة (٧٧) . واكتسبت من أرسطبس الثرى من المال ما أفزع خادمه (٧٨) ، أما ديجين المعلم فكانت تسلم نفسها إليه بأقل أجر ، لأنها يسرها أن يجثو الفلاسفة أمام قدميها . وقد أنفقت ثروتها في سخاء في تشييد المعابد والمباني العامة ، وعلى الأصدقاء ، ثم عادت آخر الأمر ، كما يعود معظم من على شاكلتها ، فقيرة كما كانت أيام شبابها ، وأخذت تمارس مهنتها صابرة إلى آخر أيام حياتها ، فلما قصمت نجيباً أقيم لها قبر فخم تكريماً لها ، لأنها كانت أعظم غازية منتصرة عرفها اليونان طول تاريخهم (٧٩) .

الفصل السابع

المصداقة اليونانية

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين في غير حياء بالانحراف الجنسي . فلقد كان أكبر من يتنافس العاهرات هم غلمان أثينة ، وكانت العاهرات اللاتي يسربلهن العار من قمة رعوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن ينددن بما في عشق الذكور للذكور من فساد خلقي شنيع . ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعهم لمن يدفع فيهم أعلى الأثمان ، وكان هؤلاء يستخدمونهم في أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء^(٨٠) . ولم يكن من بين الذكور في المدينة إلا أقلية ضئيلة تعتقد أن ثمة عيباً في أن يثير الشباب المختشون أبناء الأشراف في المدينة شهوة شيوخها ويشبعوا هذه الشهوة . ولم تكن اسبارطة أقل استهتاراً من أثينة في هذا الشذوذ الجنسي ، وشاهد ذلك أن ألكمان حين أراد أن يثني على بعض الفتيات ساهن « أصدقاؤه — الغلمان الإناث^(٨١) » . وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية^(٨٢) ، ولكن الرأي العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويجيزها وهو هازل فكه ؛ ولم يكن أهل اسبارطة أو كريت ينظرون إليها نظرة الاستنكار^(٨٣) . وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكري . وكان هرمديوس وأرستجيتون ، وهما أعظم بطلين تعز أثينة بذكراهما ، من قتلة الطغاة وعشاق الغلمان وكان ألسبيديز أحب الناس إلى الشعب الأثيني في أيامه ، وكان يفتخر بكثرة من عشقه من الرجال . ولقد ظل « العشاق اليونان » إلى أيام أرسطاطاليس يعلنون ولاءهم لمعشوقهم عند قبر أيولوس رفيق هرقل^(٨٤) ؛ ويصف أرسطيس زونوفون قائد الجيوش الذي اشتهر

بأنه من أشد رجال العلم صلابة وعناداً ، بأنه مشغوف بحب الفتى كلينياس Cleinias^(٨٥) . وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام مثله في بلاد اليونان ، جميع مظاهر الغرام الروائي - من عاطفة جياشة ، وحب عذرى ، ونشوة ، وغيرة وعزف وغناء تحت نوافذ المشوقين ، وطول تفكير ، وتوجع وأنين ، وسهاد طويل^(٨٦) . وإذا تكلم أفلاطون في الفدروس Phaedrus عن الحب الإنساني ، فإنما يتكلم عن الحب الجنسي بين الذكران ، ويتفق الجادلون في محاوراته في نقطة واحدة - هي أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة^(٨٧) . ونرى هذا الشذوذ نفسه بين النساء ، ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل سوفو Sopho ، وكثير بين العاهرات ؛ فالعاهرات المسامرات مثلاً يحب بعضهن بعضاً أكثر من حبهن من يعشن في كنفهم من الرجال ، وعاهرات الموائير تروى عنهن أعجب القصص في عشق بعضهن بعضاً^(٨٨) .

نرى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان ؟ فأما أرسطاطاليس فيفسره بخوفهم أن تزدحم بلادهم بالسكان^(٨٩) ، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة ، ولكن لا جدال في أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة في أثينة من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى ، فقد كان الأولاد في أثينة في عصر بركليز يوثخون من أجنحة الحرير في البيوت حيث تقضى النساء المحصنات حياتهن ، وينشئون عادة في صحبة أولادهم أو رجال ، وقلما تتاح لهم فرصة في طور تكوينهم وفي الفترة التي لم يشعروا فيها بعد برجولتهم ، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوى . كذلك كانت حياة الغلمان الجلحاءة في اسبارطة ، واشترآكهم في الطعام ، واجتماعهم في الأسواق العامة ، والملاعب الرياضية ، وفي مدارس الألعاب في أثينة ، وحياة منظمات الشباب ، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور . وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوى قبل عهد بركستاييز . وقلما كان

الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية ، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموا أزواجهم من الحصول عليها . ولم يكن البيت للمواطن الأثيني حصنه وملجأه ، بل كان مكان نومه . وكان في كثير من الحالات يقضى النهار كله من مطلع الشمس إلى مغيبها في المدينة ، وقل أن تكون بينه وبين النساء المحترمات عدا زوجه وبناته أية صلوات اجتماعية . لهذا كان المجتمع اليوناني مقصوراً على أحد الجنسين ، يعوزه الحيوية ، والظروف ، والحاملة ، والاستثارة ، وهي الصفات التي اكتسبتها من روح النساء وسحرهن إيطاليا في عهد النهضة وفرنسا في عهد الا تنارة .

الفصل الثامن

الحب والزواج

الحب الروائي موجود بين اليونان ولكنه قلما يكون سبب الزواج ؛
ولسنا نجد إلا القليل منه في شعر هومر حيث يذكر أجمنون وأخيل
كريسيس Chryseis ، وبريسيس Briseis ، ويذكران أيضاً كسنديرا
التي لا تستجيب لهما في عبارات تتم عن الشهوة الجسمية ؛ لكن في
قصة نسكا ما يجلدنا من أن نعمم هذا الحكم ، ودليلنا على هذا ما نجده
من القصص التي لا تقل في قدمها عن عصر هومر نفسه مثل قصة هرقل بط
وأبولو ، وقصة أورفيوس وبورديس . كذلك يتحدث الشعراء الغنائيون
حديثاً لمويلا عن الحب ، ويعنون به في العادة الرغبة في إشباع الشهوة ؛
والقصص التي تروى أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد ، كالقصة التي
يروها استسكورس ، نادرة أو تكاد تكون معدومة ، ولكننا حين نرى
ثينو Theano زوجة فيثاغورس تصصف الحب بأنه « مرض النفس
المشتاقة^(٩١) » نحس بقوة الحب الروائي الحقيقية . ولما زادت مشاعر اليونان
رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسم ، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة ،
وأصبح طول الفترة التي تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح
للخيال فرصة يتخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول . وقد ظل إيسكلس نفسه
هومري النزعة في معاملته للنساء ، ولكننا نستمتع في سفكل عن « الحب الذي

يحكم الآلهة بإرادتها(*)» (٩٢) ، وفي شعر يوربديز مقطوعات كثيرة في وصف قوة إيروس Eros إله الحب . وكثيراً ما يصف المتأخرون من كتاب مسرحيات شاباً يهيم بحب فتاة (٩٣) ، ونستشف من أقوال أرسطاطاليس الصفة الحقيقية للعشق الروائي حين يقول « إن المحبين ينظرون إلى أعين أحبائهم ، حيث يستكن الخفر (٩٤) » .

وكانت هذه الشئون وأمثالها في عصر اليونان الزاهر تؤدي إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدي إلى الزواج نفسه . ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائي صورة من « تميم الشيطان للجسم » أو من الجنون ، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدى بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة (٩٥) . وكان الزواج عادة يتفق عليه والدا الزوجين كما كان يحصل على اللوام في فرنسا القديمة ، أو بين خطاب محترفين (٩٦) ، أكبر ما يهتمون به فيه البائئات لا الحب . فقد كان ينتظر من والد الفتاة أن يهيئ لابنته بائنة من المال ، والثياب ، والجواهر ، ومن العبيد في بعض الأحيان (٩٧) .

(*) قارن هذا بما ورد في أفتجون :

إذا اشتبك الحب في نزاع

كسب المهكة لا محالة ،

والحب يسلب الأغنياء متاعهم |

وهو يبيت سهران طول الليل

بخديه الناعمين على وسادة العذراء ،

يبحث عن فريسته على متن البحار ،

ويتنقب عنها بين ملاجئ الرعاة ،

وليس في وسع الآلهة أن تقر من سلطانه ،

وهي التي وهبت الخلود ،

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم

فما أجن العقل الذي ينطوي عليه (٩٨) |

وكانت هذه البائنة تبقى على الدوام ملكاً للزوجة ، وتعود إليها إذا افرقت عن زوجها - وهو نظام يقلل من احتمال طلاقها منه . فإذا لم يكن للبنت بائنة فقلما تجد لها زوجاً ، ومن أجل هذا كان أقاربها يجتمعون ليعلموها لها إذا عجز الوالد نفسه عن إعدادها . وبهذه الطريقة انقلب الزواج بالشرء الذى كان كثير الحدوث فى أيام هومبر ، فصارت المرأة فى عهد بركليز هى التى تشتري زوجها ؛ ومن هذا الوضع تشكو ميديا فى إحدى مسرحيات يورپديز . فلم يكن اليونانى إذن يتزوج لأنه يجب ، ولا لأنه يرغب فى الزواج (فهو كثير التحدث عن متاعبه) ، بل ليحافظ على نفسه وعلى الدولة عن طريق زوج جاءته ببائنة مناسبة ، وأبناء بردون عن روحه الشرور التى تصبىها إذا لم تجد من يعنى بها . ولقد كان رغم هذه المغريات كلها يتجنب الزواج ما دام يستطيع تجنبه . ولقد كانت حرفية القانون تحرم عليه أن يبقى عزباً ، ولكن القانون لم يكن ينفذ دائماً فى أيام بركليز ؛ ولما انقضى عهده زاد عدد العزاب حتى صار مشكلة من المشاكل الأساسية فى أثينة^(٩٩) . أما أكثر الأمور التى تدهش الإنسان فى بلاد اليونان ! وكان الذين يرضون بالزواج من الرجال يتزوجون متأخرين ، فى سن الثلاثين عادة ، ثم يضرون على الزواج من فتيات لا تزيد سنهن على خمسة عشر عاماً^(١٠٠) . وفى ذلك تقول إحدى الشخصيات فى مسرحية ليورپديز : « إن زواج الشاب من زوجة شابة شر مستطير^(*) ، وسبب ذلك أن قوة الرجل تبقى طويلاً ، أما نضرة الجمال فسرعان ما تنارق صورة المرأة^(١٠١) .

فإذا تم اختيار الزوجة ، واتفق على بائنتها ، تمت خطبتها رسمياً فى بيت والدها ؛ ويجب أن يحضر هذه الخطبة شهود ، ولكن حضور الفتاة نفسها لم يكن ضرورياً . فإذا لم تتم هذه الخطبة الرسمية ، لم يعترف القانون الأثينى

(*) لعله يـد أن الرجل يجب ألا يتزوج صغيراً . (المترجم)

بالزواج ، فكانت هذه الخطبة والحالة هذه هي العمل الأول في مراسم الزواج المعقد . وكانت الخطوة الثانية التي تتبع هذه الخطوة الأولى بعد أيام قلائل هي إقامة وليمة بهذه المناسبة في بيت الفتاة : وكان الزوج والزوجة قبل أن يحضرا هذه الوليمة يستحان كل منهما في بيته استحماما يتطهران به رسمياً ، ثم تقام الوليمة ويجلس رجال الأسرتين في جانب من جوانب الحجرة ، نساؤها في جانب آخر ، ثم يأكل الجميع كعكة العرس ويشربون الكثير من والخمر ، ثم يأخذ العريس بيد عروسه المحجبة ذات الثوب الأبيض - ولعله لم يكن قد رأى وجهها من قبل - ويسير بها إلى عربة تقلها معه إلى بيت أمه في موكب من الأصدقاء ومن الفتيات العازفات على القيثارة ، ويضاء لها الطريق بالمشاعل ، وتنشد لها أناشيد الزواج . فإذا وصلا إلى البيت حملها وتحطى بها عتبة الدار ، كأنه يمثل بذلك أسرها في العهد القديم ، ويحيي أبوا الزوج الفتاة ، ويستقبلانها استقبالا دينياً ويدخلانها في دائرة الأسرة وفي عباد آلهما ؛ ولم يكن للكاهن دور ما في مراسم الزواج كلها . ثم يرافق الضيوف الزوجين إلى حجرتهما ، وهم ينشدون أنشودة غرفة الزواج ، ويتلكؤون صاحبين عند بابها حتى يعلن لهم العريس أنه قد جنى ثمرة الزواج .

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له فضلا عن زوجته خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج . وفي ذلك يقول دمستين : «إنا نتخذ العاهرات للذة ، والتحليلات لصحة أجسامنا اليومية ، والأزواج ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعين ببيوتنا عناية تنطوي على الأمانة والإخلاص» (١٠٢) ، وفي هذه الحملة الواحدة العجيبة جمع دمستين رأى اليونان في المرأة إبان عصرهم الذهبي . وتبيح قوانين دراكون التسرى ، ولما أن قضت الحروب على العدد الكبير من المواطنين بعد الحملة التي سيرت على صقلية سنة ٤١٥ ق . م ، ولم تجد كثيرات من البنات أزواجا لهن ، أباح

القانون صراحة الزوج بائنتين ، وكان سقراط ويورپديز من بين من استجابوا لهذا الواجب الوطني^(١٠٣) . وكانت الزوجة عادة تقبل التسرى وتصبر عليه صبر الشرقيات ، لأنها تعرف أن « الزوجة الثانية » متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت في واقع الأمر جارية في المنزل ، وأن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين . ولم يكن الزنى يؤدي إلى الطلاق إلا إذا ارتكبه الزوجة ، وكان الزوج في هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين Keroesses^(*) ، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته^(١٠٤) . وكان القانون يعاقب الزانية ، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة ، بالإعدام ؛ ولكن اليونان بلغوا من التساهل في الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد في تنفيذ حكم هذا القانون ؛ فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزانى بالطريقة التي يختارها -- فتارة يقتله في حالة التلبس ، وتارة يرسل له عبداً يقتله ، وتارة يكتفى بأن يأخذ منه تعويضاً^(١٠٥) .

وكان من السهل على الرجل أن يطلق زوجته ، وكان في وسعه أن بطردها من بيته متى جاء من غير أن يبدي لذلك سبباً . وكانوا يرون عقم الزوجة سبباً كافياً لطلاقها ، لأن الفرض من الزواج عندهم هو إنجاب الأبناء . أما إذا كان الرجل نفسه عقيماً فقد كان القانون يجيز ، والرأى العام يحبل ، أن يستعين الزوج في هذه المهمة بأحد أقربائه . وكان الطفل الذي يولد نتيجة لهذا الاتصال ينسب للزوج نفسه ، وعليه أن يعنى بروحه بعد وفاته . ولم يكن يباح للزوجة أن تترك زوجها متى شاءت ، ولكن كان في وسعها أن تطلب إلى الأركون أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها أو

(٥) وهذا المصطلح نفسه موجود في اللغة العربية فالقرنان معاً هم الدبوث ، وإن كانت المعاجم العربية تقول إن اللدغ مأخوذ من القرينة لأن القرن ، ويقولون في الإنجليزية to grow horns (المترجم)

تجاوز حد الاعتدال في شتونه^(١٠٦) ، وكان الطلاق يباح أيضاً إذا تراضى الزوجان ؛ وكان هذا التراضى يعبر عنه عادة بإعلانه رسمياً إلى الأركان . وإذا اقترق الزوجان بقي الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه^(١٠٧) . وجملة القول أن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال^(١٠٨) ، وهي تمثل النكوص^(١٠٩) عن المستوى الذى وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر هومر ، وتميل بالمجتمع الأثيني ناحية الشرق .

الفصل التاسع

المرأة

من الأمور التي لا تقل دهشة الإنسان منها عن دهشته من أى شيء آخر في هذه الحضارة ، أنها ازدهرت من غير أن يكون لها عون أو حافز من المرأة . لقد قام عصر الأبطال ، بفضل معونة النساء ، بجلائل الأعمال وبهذه المعونة أنتج عصر الطغاة روائع الشعر الغنائى ، ثم اختفت النساء المتزوجات من تاريخ اليونان بين يوم وليلة ، كأن الأقدار قد أرادت أن تدحض حجة القائلين بأن ثمة ارتباطاً بين مستوى الحضارة في بلد ما ومركز المرأة فيه . فبينما نرى المرأة في تاريخ هيرودوت في كل مكان ، إذ لا نراها في تاريخ توكيديلز في أى مكان ، وترى الأدب اليونانى من سمينيدز الأمرجوسى Semonides of Amorgos إلى لوشان يكرر أخطاء النساء تكريراً تشمئز منه النفس ، وفي آخر هذا العصر يكرر فلوطارخس الرحيم نفسه قول توكيديلز (١٠٨) : « يجب أن يحبس اسم السيدة المصونة في البيت كما يحبس فيه جسمها (١٠٩) » .

وهذه العزلة النسائية لا وجود لها عند الدورين ، وأكبر الظن أنها جاءت من الشرق الأدنى إلى أيونيا ، ثم انتقلت من أيونيا إلى أتكا ، فهى جزء من تقاليد آسية . ولعل لاختفاء نظام التوارث عن طريق الأم ، ونشأة الطبقات الوسطى ، وسيطرة النظرة التجارية إلى الحياة ، لعل لهذه الأمور أثرها في هذا التغيير : ذلك أن الرجال في هذه الأحوال ينظرون إلى النساء نظرة نفعية ، فيجدون أكثر فائدة لهن في البيت . وتتفق الصبغة الشرقية التي اصطبغ بها الزواج اليونانى مع نظام العزلة الأتكية (Attic) ، فهذا الزواج

يقطع الصلة بين العروس وأقاربها ، فتذهب لتعيش عيشة لا تكاد تختلف عن عيشة الخدم في بيت غير بيتها ، تعبد فيه آلهة غير آلهتها . ولم يكن في مقدورها أن تتعاقد على شيء أو أن تستدين أكثر من مبلغ تافه أو أن ترفع قضايا أمام المحاكم . ومن شرائع صولون أن العمل الذي يقوم به إنسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانوناً^(١١٠) ؛ وإذا مات الزوج لم ترث زوجته شيئاً من ماله . وحتى العيب الفسيولوجي في أمور التناسل يعد سبباً مشروعاً لإخضاعها للرجل ؛ فبينما كان جهل الرجل في الأزمنة البدائية بدوره في 'أمور التناسل' يؤدي إلى رفع شأن المرأة ، نرى النظرية السائدة في عصر اليونان الزاهر ترفع من شأن الرجل بتقريرها أن قوة التناسل يختص بها الرجل وحده ، وأن المرأة لا تعدو أن تكون حاملاً للطفل ومرضعاً له^(١١١) . وكان كبير سن الرجل عن المرأة وقت الزواج من أسباب خضوع المرأة ، فقد كانت سنه في ذلك الوقت ضعفي سنها ، وكان في وسعه إلى حد ما أن يشكل عقلها حسب آرائه وفلسفته في الحياة . وما من شك في أن الرجل كان يعرف ما يتمتع به الرجال من حرية في المسائل الجنسية في أثينة معرفة تمنعه أن يجازف بإطلاق الحرية لزوجته أو ابنته ، فهو يختار الحرية لنفسه على أن يكون ثمنها عزلة زوجته أو ابنته . ولقد كان في وسعها إذا تحجبت الحجاب اللائق بها ، وصحبها من يوثق به ، أن تزور أقاربها وأخصاءها ، وأن تشترك في الاحتفالات الدينية ومنهم من شاهد التمثيل ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان ينتظر منها أن تقب في منزلها وألا تسمح لأحد أن يراها من النافذة . وكانت تقضى معظم وقتها في جناح النساء القائم في مؤخرة الدار ، ولم يكن يسمح لزائر من الرجال أن يدخله ، كما لم يكن يسمح لها بالظهور إذا كان مع زوجها زائر .

وكانت وهي في البيت تكرم وتطاع في كل ما لا يتعارض مع سلطة زو الأبوية . فهي تدبر شئون البيت أو تشرف على تدبيرها ؛ وهي تدبر

الطعام ، وتمشط الصوف وتغزله ، وتخيظ ثياب الأسرة وتصنع فراشها .
ويكاد تعليمها أن يكون مقصوراً على الفنون المنزلية ، لأن اليونان كانوا
يعتقدون مثل يورپديز أن ذكاء المرأة يعوقها عن أداء واجباتها^(١١٢) . وكانت
نتيجة ذلك أن نساء أثينة المحصنات كن أكثر تواضعاً ، وأكثر « فتنة »
لأزواجهن من مثيلاتهن في اسبارطة ، ولكنهن كن في الوقت نفسه أقل منهن
ظرفاً ونضوجاً ، عاجزات عن أن يكن رفيقات لأزواجهن ، لأن عقول
هؤلاء الأزواج قد امتلأت وانصقلت بتجارب الحياة المختلفة ، ومن أجل
هذا أفاد الأدب اليوناني كثيراً من اليونانيات في القرن السادس ولم يفد شيئاً
من نساء أثينة في عصر بركليز .

وقامت في أواخر هذا العصر حركة تهدف إلى تحرير المرأة . فترى يورپديز
يدافع عن النساء في خطب جريئة وغمزات خفيفة ، أما أرسطوفان فيسخر
منهن بألفاظ وقحة صاحبة . وتنزل النساء إلى الميدان في حركة التحرير ويحترن
أقوى سلاح فيبدأن ينافسن الهيتميراي ويحملن أنفسهن بكل ما يمدهن به تقدم
الكيمياء من معونة . وشاهد ذلك سؤال تسأله كليونيكا Cleonica في مسرحية
ليستراتا Lysistrata لأرسطوفان : « أى شيء معقول نستطيع أن نقوم به
نحن النساء ؟ إننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نجلس جماعات بأدهاننا ،
وأصباغ شفاهنا ، وأثوابنا الشفافة وما إلى ذلك »^(١١٣) . وتصبح أدوار النساء
من عام ٤١١ أكثر شأناً في المسرحيات الأثينية مما كانت من قبل ، وهي
تكشف عن خروج المرأة شيئاً فشيئاً من العزلة التي كانت مفروضة عليها ،
على أن سلطان المرأة الحقيقي على الرجل يظل قائماً في خلال هذا التغيير كله ،
ويجعل خضوعها للرجل خضوعاً غير حقيقي إلى حد كبير . إن اشتياق الرجل
للمرأة أكثر من اشتياق المرأة للرجل يكسب المرأة في اليونان كما يكسبها في غيرها
من البلاد ميزة كبرى عليه . وفي ذلك يقول صمويل چنسن : « سيدى ؛ لقد
وهبت الطبيعة المرأة من القوة ما لا تستطيع الشرائع أن تزيد عليه شيئاً »^(١١٤)

وقد يضاعف من هذه السيادة الطبيعية أحياناً باثنتها الكبيرة ، أو لسانها السليط ، أو حب زوجها لها حباً يجعله خاضعاً ذليلاً لها . وأكثر ما يقوم عليه سلطانها وجمالها ، أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم ، أو انصهار روحها وروح زوجها في بوتقة التجارب والواجبات المشتركة ، إلا أن عصرأ يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتجوني ، والسستيس ، وإفجينيا ، وأندرمكي ، ويصور بطلات مثل هكيبا ، وكسندرا ، وميديا ، إن عصرأ يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهد أسمي ما في المرأة وأعمق ما فيها . لقد كان الأثيني العادي يحب زوجته ، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب ، وإن الألواح الجنائزية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهم في داخل جدران المنزل ، وهو في كلتا الحالين حنو يثير الدهشة . وفي دواوين الشعر اليونانية كثير من الشعر الغزلي الواضح الصريح ، ولكن فيه أيضاً كثيراً من المقطوعات الشعرية المؤثرة التي تخاطبها الرفيقة المحبوبة ! . انظر مثلاً إلى هذه القبرية : « في هذا الحجر وارى مرثونيز Marethonis نيقوبوليس Nieopolis ، وروى صندوقها الرخامي بعبراته ، ولكن هذا لم يجده نفعاً . وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقت زوجته ، وبقي هو وحيداً على ظهر الأرض ؟ » (١١٥)

الفصل العاشر

المنزل

وكانت الأسرة اليونانية ، كالأسر الهندوسية بوجه عام ، تتكون من الأب والأم ، « الزوجة الثانية » أحياناً ، ومن بناتها غير المتزوجات ، وأبنائهما ، وعبيدهما ، وزوجات أبنائهما وأطفالهم ، وعبيدهم . وقد بقيت هذه الأسرة إلى آخر تاريخ اليونان أقوى الأنظمة في الحضارة اليونانية ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادي وأداته في الزراعة والصناعة على السواء . وكان للأب في أتكا سلطان واسع في أسرته ، ولكنه كان أقل من سلطان الأب في رومة ؛ فقد كان في وسعه أن يعرض الطفل الحديث للولادة للموت ، ويبيع عمل أبنائه القاصرين وبناته غير المتزوجات ، ويزوج بناته لمن يشاء ، ويختار زوجاً آخر لأرملته بعد وفاته في بعض الظروف المعينة^(١١٦) . ولكن القانون الأثيني لم يكن يجيز له أن يبيع أبنائه أنفسهم ، وكان كل ولد من أولاده إذا تزوج يخرج عن سلطان أبيه ، ويفشى لنفسه بيتاً خاصاً ويصبح عضواً مستقلاً في العشيرة :

ولم يكن البيت اليوناني على شيء من الفخامة . فقلاً كان بناؤه الخارجي يزيد على سور سميك خال من الزينة ذي مدخل ضيق ، وهو شهادة صامتة على ما كان يكتنف الحياة اليونانية من أخطار . وكانت مادة البناء هي الستوك Stucco ، واللبن في معظم الأحيان . وكانت بيوت المدينة تتجمع في شوارع ضيقة ، وترتفع في الغالب طابقين ، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لعدة أسر ، ولكن كل مواطن كان يمتلك في الغالب بيتاً مستقلاً . وظلت المساكن صغيرة في أثينة حتى ضرب السيديز لأهلها مثلاً في الفخامة ؛ ذلك

أن الزعة الديمقراطية ، يقويها الحذر الأرستقراطي ، كانت تحول بين الأهلين وبين التفاهم والتظاهر ، وكان تعود الأثيني قضاء أكثر وقته في الهواء الطلق يصرفه عن أن يكون للبيت نفسه من المعنى ومن الإعزاز ما له في المناطق الباردة . وكان لبيت الأثيني الغنى في بعض الأحيان مدخل ذو عمد مواجه للشارع ، ولكن هذا كان من المظاهر الشاذة النادرة . كذلك كانت النوافذ ترفاً نادر الوجود ، وإذا وجدت اقتصر على الطابق الأعلى ، ولم تكن لها ألواح زجاجية ، ولكنها كانت تغلق بمصاريع خشبية ، أو تكون مشبكة لنحجب أشعة الشمس . وكان الباب الخارجى يتكون عادة من مصراعين يدوران على محورين ينفذان في إسكفة الباب وعتبته . وكانت أبواب الكثير من بيوت الأغنياء مطرقة معدنية تتخذ في أغلب الأحيان صورة حلقة في فم أسد (١١٧) . وكان يمتد من مدخل الدار - إلا في دور الفقراء - ممشى يؤدي إلى فناء مكشوف يسمى الأول Aule يرصف عادة بالحجارة ، ويحيط به أحياناً رواق وعمد ، وقد يكون في وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما ، مزدان أحياناً بالعمد ، ومرصوفة أرضيته بالفسيفساء . ويدخل أكثر الهواء وضوء الشمس إلى البيت من هذا الفناء ، لأن الأبواب جميع حجراته تفتح فيه ، وكان لا بد لمن يريد الدخول من حجرة إلى حجرة أن يدخل الرواق أو الفناء . وكانت الأسرة تقضى معظم حياتها ، وتقوم بأكثر أعمالها ، في ظلال الرواق والفناء وخلوتها .

وكانت الحوادث نادرة في المدينة ، وتقتصر على مساحات صغيرة في فناء البيت أو خلفه ، أما حوادث الريف فكانت أكثر من حوادث المدينة عدداً وأوسع رقعة ؛ ولكن قلة الأمطار في الصيف وتكاليف الإرواء قد جعلتا الحوادث في أثنائها ترفاً لا يستمتع به إلا القليلون . ولم يكن اليوناني العادي مرهف الحسى بالطبيعة كروسو Rousseau ، وكانت جبال بلاده لا تزال من أسباب متاعبه ، ولهذا لم تكن في نظره جنابة جميلة ، وإن كان شعراء اليونان

ينظمون القصائد التي يتغنون فيها بجمال البحر رغم أخطاره الشديدة . ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه ، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية ، فهو يملأ الغابات ومجاري المياه في بلاده بالآلهة والأشباح ، وإذا فكر في الطبيعة لم يكن تفكيره في جمال مناظرها ، بل في أنها مكان تنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا في الميدان . وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها ، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صوراً رمزية للآلهة التي تبعث فيها الحياة حسب ما تحدته ديانته الشعرية ، أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة . ولم يذشي اليوناني لنفسه حقيقة أو « جنة » ينعم بها ، وظل كذلك حتى عادت إليه جيوش الإسكندر بأساليب الفرس وذهبهم . ومع هذا فقد كانت الأزهار محبوبة في بلاد اليونان كما كانت محبوبة في غيرها من البلاد ، وكانت الحدائق تنبتها ، وبائعات الأزهار تمدم بها ، طوال العام . فكانت الفتيات البائعات يتنقلن من بيت إلى بيت يبعن الورد ، والبنفسج ، والزنبق والزرجس ، والسوسن والآس ، والليلق ، والزعفران ، وشقائق النعمان . وكانت النساء يزين شعرهن بالأزهار ، والشبان المتأنقون يضعونها خلف آذانهم ؛ وكان الرجال والنساء يخرجون في الأعياد وحول رقابهم عقود من الأزهار (١١٨) .

وكان البيت من داخله غاية في البساطة . فأما الفقراء فكانت أرض بيوتهم طيناً جف وتصلب ، فلما زاد دخل هؤلاء أخذوا يغطون هذه الطبقة الأرضية بالحصباء أو يرصفونها بحجارة مستوية ، أو بقطع منها صغيرة في أرضية من الأسمنت . كما كان أهل الشرق الأدنى يفعلون من أقدم الأزمان . وكانوا أحياناً يغطون هذا بالحصر أو الأبسطة . وكانت الجدران المقامة من الآجر تطل بالحص أو بالحير . وكانوا يدفنون أنفسهم على مواقد من نحاس يخرج دخانها من أبواب الحجرات إلى فناء الدار ، ولم يكونوا يحتاجون إلى هذه التدفئة أكثر من ثلاثة أشهر في العام . وتكاد البيوت أن تكون خالية من

الزينة ، لكن الأغنياء في أواخر القرن الخامس أخذوا يزينون بيوتهم بالأبهاء ذات العمدة ، وجدرانهم بقطع من الرخام أو بطلاء يجعلها شبيهة بألواح الرخام ، ويلقون على هذه الجدران صوراً ملونة أو قطعاً من القماش المزركش ، ويحلون سقفها بنقوش على الطراز العربي . وكان الأثاث قليلاً في البيوت العادية — فلم يكن يزيد على بضعة كراسي وصناديق ، وقليل من النضد ، وسرير . وكانت الوسائد توضع على الكراسي بدل المقاعد المنجدة ، ولكن كراسي الأغنياء كانت تزين في بعض الأحيان بنقوش محفورة فيها بعناية فائقة ، أو تطعم بالذهب أو بأصداف السلاحف ، أو العاج . وكانت الصناديق تتخذ أصونة ومقاعد معاً ، وكانت النضد صغيرة ، تقف عادة على ثلاث أرجل ، وهذا هو سبب تسميتها « بالطرايزات » أى ذات الأرجل الثلاث . وكان يوتى بها مع الطعام ثم ترفع بعده ، وقلما كانت تستخدم في غير هذا الغرض ، فقد كانوا يكتبون على ركبهم . وكانت الأرائك والأسرة من وسائل الزينة المحبوبة ، وكانوا يعنون كثيراً بحفرها وتطعيمها وكانت لهم حشايا ووسائد وأغطية للفرش مطرزة ووسائد للرأس مرتفعة وكانت المصاييح تعلق من السقف أو توضع على قواعد ، أو تتخذ شكل مشاعل جميلة النقش .

وكان المطبخ مجهزاً بكثير من الأواني المختلفة المصنوعة من الحديد ، والبرنز ، والخزف . أما الزجاج فكان من مواد الترف النادرة . ولم يكن يصنع في بلاد اليونان . وكان الطعام يطهى فوق نار في اجراء ، أما المواقد فكانت بدعة اخترعت في البلاد التي اصططغت بالصبغة اليونانية . وكانت الوجبات الأثينية بسيطة . مثلها في ذلك مثل الوجبات الاسبارطية ، وتختلف كثيراً عن الوجبات البوئية ، والكورنثية ، والصقلية ؛ فإذا كان الأثينيون ينتظرون قدوم ضيف يريدون تكريمه استخدموا في العادة طاهياً محترقاً ، وكان دائماً من الرجال . وكان الطهو فناً راقياً ألفت فيه

كثير من الكتب واشتهر به كثير من الأبطال ، فمن الطهارة اليونان من لا تقل شهرتهم لدينا عن شهرة آخر الأبطال الفائزين في الألعاب الأولمبية . وكان الأثينيون يعدون من يأكل منهم بمفرده جلفا غير مهذب ، وكانت آداب المائدة عندهم دليلا على ارتفاع الحضارة . وكان الأولاد والنساء يجلسون حول موائد صغيرة ، أما الرجال فكانوا يتكثون على آرائك تتسع الواحدة لرجلين . وكانت الأسرة تأكل مجتمعة إذا لم يكن عندها غرباء ؛ فإذا كان لديها ضيوف من الرجال انسحبت نساء الأسرة إلى جناح الحريم . وكان الخدم يخلعون نعال الضيوف أو يغسلون لهم أقدامهم قبل أن يتكثوا على الأرائك ويقدمون لهم الماء ليغسلوا به أيديهم ؛ وكانوا في بعض الأحيان يدهنون لهم رؤوسهم بالزيت المعطرة ؛ ولم يكونوا يستخدمون السكاكين أو الشوك ، ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق ، ويتناولون الطعام بالأصابع . وكانوا في أثناء الطعام ينظفون أصابعهم ببقايا من الخبز ، ويغسلونها بعدئذ بالماء . وكان الخدم يملئون قدح كل ضيف قبل تناول الحلوى من آنية تحتوي على خمر مخفف بالماء . وكانت الصحف من الخبز ، ثم ظهرت الصحف الفضية في آخر القرن الرابع ؛ وبدأ المتأنقون في الطعام والشراب يزداد عددهم في القرن الرابع ؛ ومن هؤلاء رجل يدعى بيثلس Pithyllus صنع لسانه وأصابعه أغطية يستطيع بها أن يأكل الطعام مهما كانت حرارته (١١٩) . وكان منهم بعض من يقتصرون على الخضر ، وكان ضيوف هؤلاء يسخرون منهم ويشكون كعادة الضيوف مع أمثالهم . من ذلك قول أحدهم : « إنه هرب من وليمة لا تقدم فيها إلا الخضر خشية أن تكون حلواها هي الدريس » (١٢٠) .

ولم يكن الشراب أقل شأنا عندهم من الطعام ، فكان الغذاء (الديپتون deipnon) يتلوه الشراب الجماعي symposion . وكان في اسبارطة وأثينة

أندية للشراب تتوثق العلاقة بين أعضائها توثقا تصبح معه هذه الأندية أدوات سياسة عظيمة القوة .

وكانت الإجراءات التي تتبع في الولايم كثيرة التعقيد ، وكان الفلاسفة أمثال زنوكراتس Xenocrates وأرسطاطاليس يرون أنه يحسن بهم أن يضعوا لها قوانين (١٢١) .

وكانت الأرض التي يلتق عليها ما لا يؤكل من الطعام تنظف بعد الانتهاء من تناوله ، ويطوف عليهم الخدم بالروائح العطرية والخمر الكثير . ثم يرقص الضيوف إذا شاءوا ، ولكنهم لم يكونوا يرقصون أزواجاً أو مع النساء (لأن الرجال وحدهم هم الذين كانوا يدعون عادة إلى الولايم) بل جماعات ، أو كانوا يلعبون ألعاباً كالكتوموس* ، أو يتقارضون الشعر ، أو يتبادلون الملح ، أو الألبان ، أو يشاهدون ألعاباً يقوم بها رجال محترفون ونساء محترفات ، كالبهاوانة التي يحدثنا عنها زونوفون « مقالاته الدورية » ، والتي تقلد اثني عشر طوقاً دفعة واحدة ثم ترقص رقصة الانقلاب في الهواء في داخل طوق ، « أحيط من جميع جوانبه بالسيوف القائمة » (١٢٥) . وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمام الضيوف بنات يعزفن على القيثارات ، ويغنين ، ويرقصن ، ويغازلن غزلاً دبر أمره من قبل . وكان الأثينيون المتعلمون يفضلون عن هذا أن يجتمعوا ليتناقشوا نقاشاً ينظمه لهم رئيس منهم يختارونه بقذف الررد . وكان الضيوف يحرصون على ألا ينقسم المجلس إلى طوائف صغيرة . لأن معنى هذا الانقسام في العادة أن كل طائفة تتحدث مستقلة ، بل كانوا يحرصون على أن يكون الحديث عاماً ،

(*) وكانت هذه اللعبة تتكون من قذف السائل من قذح بحيث يصيب جسماً صغيراً على

وكانوا يصغون إلى كل متحدث إذا جاء دوره بالأدب والعطف الذى يسمح به ما هم فيه من مرح . وما من شك فى أن الحديث الطريف الذى يقصه علينا أفلاطون من نسيج خيال هذا الفيلسوف النابه ؛ ولكن أكبر الظن أن أثينة قد شهدت محاورات لا تقل حيوية عن محاورات أفلاطون ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن المجتمع الأثينى هو الذى أوحى إلى أفلاطون بمحاوراته ، وهذا المجتمع هو مرجعها وموضوعها . وفى وسط هذا الجو المنعش المنبه جو النابهين الأحرار تكونت العقلة الأثينية .

الفصل الحادى عشر

الشيخوخة

لقد كان اليونانى يحب الحياة ويكره الشيخوخة ويندبها . على أن هذه الشيخوخة نفسها كان فيها ما يذهب ببعض أحزانها ، فقد كان يعزى الشيخ الهرم أن يرى قبل أن يبلى جسمه حياته الجديدة فى صورة أبنائه وأحفاده فيخدع نفسه ويظنه مخلداً ، كأنه درهم بال عاد إلى دار الضرب ليصهر ويسك من جديد . لسنا ننكر أن فى تاريخ اليونان أمثلة من إهمال الشباب للشيخ أو إساءة معاملتهم إهمالاً وإساءة مبعثهما الأثرة المقوتة ، وسبب ذلك أن المجتمع الأثينى مجتمع تجارى ، فردى النزعة ، مجدد غير محافظ ؛ وكل هذه عوامل تجعله ينزع إلى عدم الشفقة على الشيخ ، لأن احترامهم من خصائص المجتمع الدينى المحافظ مثل مجتمع اسپارطة ؛ أما الديمقراطية فإن ما فيها من حرية يجعل عرى الصلوات ، ويركز اهتمام الناس بالشباب ، ويفضل الجديد على القديم . ولهذا نجد فى تاريخ الأثينيين أمثلة عدة لأبناء يستولون على ملك آبائهم فى حياتهم ، وإن لم يثبت العتة على هؤلاء الآباء (١٢٣) ، ولكن سفكليز ينجى نفسه من هذا المصير ، ولا يكلفه هذا أكثر من أن يقرأ للمحكمة أن تنظر فى أمره فقرات من آخر مسرحية له . غير أن الشرائع الأثينية تأمر الأبناء أن يعولوا آباءهم المعجزة أو الطاعنين فى السن (١٢٤) ، والرأى العام ، الذى يحشاه الناس على الدوام أكثر مما يحشون القانون ، يفرض على الشباب أن يبجلوا الكبار ويتواضعوا أمامهم . ويروى أفلاطون أن من الأمور المسلم بها أن يظل الشباب الحسن التربية صامتاً فى حضرة الكبار إلا إذا طلب إليه الكلام (١٢٥) : وفى الآداب الأثينية صور كثيرة للشباب المتواضع ، منها المحاورات الأولى لأفلاطون

ومتها مقالات زنونون الدورية ، وفي هذا الأدب قصص مؤثرة عن وفاة الأبناء للآباء ، كوفاء أرمنتيز لأبمنون ووفاء أنتجونى لأوديب .

فإذا حانت منية الشيخ حرص الأحياء أشد الحرص على أن يحبوا روحه كمل ما يستطيعون أن يحبوها من الآلام . فالجسم يجب أن يدفن أو يحرق ، وإلا فإن الروح تهم قلقة مضطربة حول العالم ، وتثار لنفسها من أبناء الشيخ المهملين . فقد تظهر مثلاً في صورة طيف ، وتصيب النبات والإنسان بالأمراض والكوارث . وكان إحراق الموتى أكثر انتشاراً في عصر الأبطال ودفنهم أكثر انتشاراً في العصر الذهبي . والدفن عادة مأخوذة عن المسيحيين وقد بقيت إلى العصر المسيحي ، ويبدو أن عادة إحراقهم جاءت إلى بلاد اليونان مع الأخيين والدورين . لأن عاداتهم البدوية لا تمكنهم من أن يعنوا العناية الواجبة بالقبور . وجملة القول أن الدفن أو الإحراق واجب يلزم به الأثينيون ، وقد بلغ من حرصهم عليه أن القواد المنتصرين في أرجونوس قد أعدوا مسرفة حالت بينهم وبين استعادة جثث موتاهم ودفنها .

وأبقت عادات الدفن اليونانية الأساليب القديمة إلى ما بعد عصرها بزمن طويل . من ذلك أ ، الجثة كانت تغسل بالماء ، وتدهن بالعطور ، وتكفل بالأزهار ، وتلبس أحسن ما تستطيع الأسرة أن تبتاعه لها من الثياب ، ثم توضع أبله بين أسنانها لتؤديها أجراً لكارون صاحب القارب الأسطوري الذى ينقل الموتى في نهر أستيكس إلى مقرهم الأخير (*) . وتوضع الجثة في تابوت من الفخار أو الخشب . وكان من أمثال اليونان الأقدمين قولهم « إن إحدى قديس الشخصى في التابوت » ويعنون بذلك ما نعينه نحن بهذا المثل

(*) لقد كان من عادة اليونان أن يحملوا اللثة في أفواههم .

نفسه(*) . ويتخذ الخزن على الموتى عدة مظاهر مقررة : منها لبس الثياب السود ، وقص الشعر كله أو بعضه ليقدم هدية للميت . وفي اليوم الثالث بعد الموت تحمل الجثة في نعش ويطوف موكب الجنازة بشوارع المدينة ، والنساء من خلف الجثة يبكين ، ويضربن صدورهن ، وقد تستأجر نادبات محترفات يندبن الميت : وتصب الخمر على التراب الذى يغطى القبر لتروى به روح الميت غليلها ، وقد تذبح بعض الحيوانات لتكون طعاماً لها . ويضع مشيعو الجنازة على القبر أكاليل من الأزهار أو ورق السرو(١٢٧) ، ثم يعودون إلى منزل الميت ليحتفلوا بالجنازة . وإذا كان من معتقداتهم أن روح الميت تشهد هذا الاحتفال ، فقد كان من عاداتهم المقدسة « ألا يذكروا عن الميت إلا الخير(**) » . وقد كانت هذه العادة منشأ قانون قديم يفرض على الأحياء ألا يذكروا إلا محاسن الموتى ، ولعلها هى أيضاً منشأ ما يكتب على شواهد القبور من مديح . وكان أبناء الميت يزورون قبور أسلافهم في مواسم معينة ، ويقدمون لهم الطعام والشراب « وقد تعهد أهل بلاتية بعد المعركة المسماة باسم مدينتهم والتي قتل فيها عدد من اليونان من مختلف المدن ، تعهدوا أن يقيموا لجميع الأموات وليمة سنوية ، وكانوا لا يزالون يوفون بوعدهم هذا بعد أن مضت على المعركة ستة قرون كاملة .

وكانت الروح تنفصل من الجسم بعد الموت وتصبح طيفاً غير مادي يسكن في الجحيم . ويستفاد من أقوال هومر أن الأرواح التي ارتكبت ذنوباً شنيعة - أو مرقت من الدين هى وحدها التي تعذب في تلك الدار ، أما سائر الأرواح

(*) ويقابل هذا قول حامة مصر « إن رجله في القبر » .

(**) تارن هذا بقولنا : « اذكروا محاسن موتاكم » . (المترجم)

بعدئذ ، سواء كانت أرواح قديسين أو مذنبين ، فكان مصيرها كلها أن تطوف إلى أبد الدهر حول مملكة بلوتو المظلمة . وقد نشأ في التاريخ اليوناني على تعاقب الأيام اعتقاد جديد بين الطبقات الفقيرة مضمونة أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم ؛ ويصور إسكلس زيوس وهو يحاسب الموتى في ذلك المكان ، فيعاقب المذنبين ، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثانة الصالحين (١٢٩) . ولسنا نسمع إلا القليل عن الجزائر المباركة أو الحقول الإليزية مواطن السعادة الأبدية التي ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال . فالتفكير فيما ينتظر جميع الأموات من مصير محزن نكد ينجم على الأدب اليوناني ويجعل الحياة اليونانية أقل بهجة وانشراحاً مما يجب أن تكون عليه الحياة تحت هذه السماء الصافية .

الباب الرابع عشر

الفن اليونانى فى عصر پركليز

الفصل الأول

زينة الحياة الدنيا

تقول إحدى الشخصيات فى كتاب « الاقتصاد » لزنوفون : « جميل أن ترى الأحذية مرتبة فى صف حسب أنواعها ؛ وجميل أن ترى الثياب والأغطية مقسمة حسب منافعها ؛ وجميل أيضاً أن ترى أواني الطبخ مرتبة بلدوق وتنسيق ، وإن سخر من ذلك الثرثارون المتفهبون . أجل إن الأشياء جميعها بلا استثناء يزداد جمالها إذا نسقت ووصفت بانتظام . فهذه الأواني كلها تبدو حينئذ كأنها مجموعة متناسقة يكمل بعضها بعضاً ومركزها المتكون منها جميعاً يخلق فيها جمالا يزيد به بعد القطع الأخرى من المجموعة .

هذه الفقرة التى كتبها قائد حربى تكشف عن مدى إحساس اليونان بالجمال ، وعن بساطة هذا الإحساس وقوته . وهذا الإحساس بأهمية الشكل والتناسق ، وبالبدقة والوضوح ، وبالتناسب والنظام ، هو العامل الأساسى فى الثقافة اليونانية ؛ وتراه واضحاً فى شكل كل وعاء ومزهريّة ونقشهما ، وفى كل مؤلف يونانى فى العلم والفلسفة . إن الفن اليونانى هو العقل مجسماً واضحاً والتصوير اليونانى هو منطق الخطوط ، والنحت اليونانى هو عبادة التناسب ، والعمارة اليونانية هى الهندسة الرخامية . ليس فى الفن



(شکل ۲۹) چکال نیکی ایتروس و مدینه

البركليزي مغالاة في العواطف ، ولا شذوذ في الشكل أو محاولة تهدف إلى التجديد عن طريق الغريب غير المؤلف(*) ؛ ولبس الغرض الذي يرى إليه هو تمثيل ما في الحقائق الواقعية من الخلط وعدم التناسق ، بل الغرض من هذا الفن هو الاستحواذ على جوهر الأشياء الذي ينيرها ، وتصوير إمكانات الناس المثالية . ولقد استحوذ السعى للحصول على الثراء والجمال والمعرفة على عقول الأثنيين فشغلهم عن التفكير في التقى والصلاح ، وفي ذلك يقول أحد المدعوين إلى وليمة عند زونوفون : « قسما بالآلهة جميعهم أنى لو أعطيت كل ما للملك الفرس من سلطان لفضلت عليه الجمال »(٣) .

ولم يكن اليوناني ، مهما تكن الصورة التي يرسمها له الروائيون في العصور التي هي أقل من عصره رجولة ، عابداً مخنثاً للجمال ، أو إنساناً يستخفه الطرب ويتغنى بأسرار الفن حباً في الفن ، بل كان يُخضع الفن في فكره للحياة ، ويفكر في الحياة على أنها أعظم الفنون على الإطلاق . وكان ذا نزعة نفعية تميل به عن الجمال الذي لا نفع فيه ، وكان النافع والجميل والطيب مرتبة كلها في تفكيره ارتباطها في فلسفة سقراط(**) ، وكان يرى أن الفن هو قبل كل شيء تجميل طرق الحياة ووسائلها . فكان يتطلب أن تكون آنيته ومصايحه ، وصناديقه ونضده ، وسرره وكراسيه نافعة وجميلة معاً ، وألا تبلغ من الرشاقة والجمال حداً يفقدها صلابتها . وكان وضوح « إدراكه للدولة » يوحد بينه وبين قوة المدينة وعظمتها ، فاستخدم من ثم آلاف الفنانين لتجميل أماكنها العامة ، وتعظيم أعيادها ، وإحياء تاريخها . وأهم من هذا كله أنه كان يحرص على أن يكرم آلهته ، ويستجلب عطفهم ورضاهم ، ويعبر عن شكره لهم لما وهبوه من حياة أو نصر . وكان يهدى إليهم التلور من الصور والتماثيل ، وهب الهياكل الشيء

(*) يقول توكيديز على لسان هركليز : « نحب الجمال دون إسراف »(٢) .

(**) يقول استندال Stendhal : « ليس الشيء الجميل عند الأقدسين إلا صور راتمة

لشيء النافع »(٤) .

الكثير من ماله ، ويستأجر الفنانين لينحتوا صور آلهته أو موتاه في الحجارة .
ومن أجل هذا لم ينشأ الفن اليوناني ليوضع في المتاحف فيتردد عليها الناس
ليتأملوه في اللحظات القليلة التي يشعرون فيها بالرغبة في إشباع حاسة الجمال ،
لكنه نشأ لكي يخدم مصالح الناس ومتروعيهم الحقيقية ، ولم يكن ما صاغه
من تماثيل لأهلوا قطعاً متينة من الرخام تصف في معرض للفن ، بل كانت
صوراً تمثل أرباباً محبوبية ، ولم تكن المغايب أماكن يعجب بها الزائرون . ،
بل كانت مواطن لهذه الأرباب الحية ، ولم يكن الفنان في المجتمع الأثيني
ناسكاً يعزل الناس مفلساً عاكفاً في مرسمه ، يعبر عما في نفسه بلغة
لا يفهمها المواطن العادي ؛ بل كان في حقيقة أمره صانعاً ماهراً ، يشتغل
مع عمال من جميع الدرجات بعمل عام يفهمه جميع الناس . وقد جمعت أثينة
من جميع أنحاء اليونان طائفة من الفنانين ، ومن الفلاسفة والشعراء ،
أكبر مما جمعتها أية مدينة أخرى في العالم إذا استثنينا رومة في عهد النهضة .
وكان هؤلاء الناس يتنافسون أشد التنافس ويتعاونون فيما بينهم في ظل
حكم مستنير ، وبفضل هذين التنافس والتعاون حققوا إلى حد كبير
أحلام بركليز .

والفن يبدأ في المنزل وبشخص الفنان . فالناس يصورون أنفسهم قبل
أن يصوروا شيئاً آخر ، ويزينون أجسامهم قبل أن يزينوا بيوتهم ،
فالخلى ، كأدهان الزينة ، قديمة العهد قدم التاريخ نفسه . ولقد برع اليوناني
في قطع الجواهر ونقشها ، وكان يستخدم في هذا العمل آلات بسيطة من
البرنز ، كالمثاقب البسيطة والأنبوية ، وحجر الجليخ ، ومادة للصقل مكونة
من (الصنفرة) والزيت (٥) . ولكن عمله مع هذا كان يبلغ من الدقة والإتقان
درجة يحتاج إنجاز دقائقها ، في أكبر الظن ، إلى منظار مكبر ، وإلى هذا المنظار
بلاريب لتتبع هذه الدقائق (٦) . ولم تكن النقود على درجة كبيرة من الجمال
في أثينة حيث كانت صورة البومة الكثيية هي التي تنقش على معظم النقود ،

وكانت إليس صاحبة الزعامة على جميع مدن اليونان الأصلية في هذا الميدان ، ثم أصدرت سرقوسة في أواخر القرن الخامس قطعة ذات عشر درخمت لم تفقها قط قطعة أخرى في جمالها الفني . وقد احتفظ فنانو كلسيس بزعامة المدن اليونانية في النقش على المعادن ، وكانت كل مدينة في حوض البحر الأبيض المتوسط تعمل للحصول على أدواتها الحديدية ، والنحاسية ، والفضية . وكانت المرايا اليونانية أبعث للسرور مما تستطيعه معظم المرايا بطبيعتها ، ذلك أن الإنسان وإن لم يكن في وسعه أن يرى خياله واضحاً كل الوضوح في سطح من البرنز المصقول ، فإن المرايا نفسها كانت على أشكال مختلفة جذابة ، وكثيراً ما كانت منقوشة نقشاً متقناً بديعاً ، وكانت تحملها تماثيل الأبطال ، أو النساء الحسنات ، أو الآلهة .

وظل الفخريون يمارسون صنع الأشكال ويتبعون الأساليب التي كانت لديهم في القرن السادس محتفظين بهزلهم ومنافساتهم التقليدية . وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها كلمة حب يوجهونها إلى غلام ، وقد جرى فدياس نفسه على هذه العادة حين حفر على لإصبع الصورة التي صنعها لزيوس : « إن بنتاركس جميل » . وفي النصف الأول من القرن الخامس وصل طراز العمود الحمراء ذروته في مزهرية أخیل وپنثيسيليا ، وكأس إيسوب والتعاب المحفوظ في متحف الفاتيكان ، وصورة أرفيس بين التراقيين المحفوظة في متحف برلين . وأجمل من هذه كلها قوارير الدهن البيضاة التي صنعت في منتصف ذلك القرن . وتأتت هذه القوارير الرفيعة نصنع لاء في خاصية وتدفن معهم عادة ، أو تأتي فوق تكومة الخشب التي تحرق ما أجزامهم التي يمزج ما فيها من الزيت المعطر بلهب الخشب . وحاول ناقسو المزهريات أن ينحزوا مستقلين فردين في عملهم ، وكانوا أحياناً ينقشون على الآنية قبل إحراقها موضوعات لو رأها فنانو العصر القديم اخافتهم لأنثارت دهنتهم . من ذلك أن مزهرية رسمت عليها صورة شبان يعانقون بعض عشيقاتهم بلا حياء ، ورسم على مزهرية أخرى

رجال يتقايئون وهم خابرجون من وليمة ؛ وعلى مزهزبانقتخير هذه وتلك صور تمثل كل ما يستطيع عمله في شئون التربية الجنسية (٨). وقد ترك صناع المزهريات في عصر پركليز - بريجوس Brygus . وسوتاديز ، وميدياس - الأساطير القديمة واختاروا لهم مناظر من حياة الناس في عصرهم ، وأكثر ما كانوا يسرون منه حركات النساء الرشيقة . ولعب الأثقال الطبيعي . وكانوا أصدق في رسمهم من سابقهم : فكانوا يظهرن من الجسم منظره الجانبي أو يظهرن ثلاثة أرباع منظره الكامل ؛ وكانوا يبينون الضوء والظل باستعمال محلول للطلاء الزجاجي خفيف أو غليظ ، ويرسمون الصور بحيث تبين الخطوط الخارجية والعمق وثنايا أثوابه السيدات . وكانت كورنثة وجيللا الصقلية مركزين لطلاء المزهريات الدقيقة التي كانت تصنع في ذلك العهد ، ولكن أحداً لم يكن يشك في تفوق الأثينيين على كل من عداهم في هذه الناحية . ولم يكن الذي أنتزع السيادة من فخرفاني السرمكس (حتى الفخرفانيين في ضواحي أثينة) هو منافسة غيرهم من الفخرفانيين ، بل كان قيام فن النقش المنافس لفنهم هذا . وحاول رسامو المزهريات أن يردوا هذا الهجوم بتقليد موضوعات الناقدشين على الجدران وطرزهم ، ولكن أذواق العصر لم تكن معهم ، وأخذ فن الفخرفاني يتحول شيئاً فشيئاً في خلال القرن الرابع من فن جميل إلى صناعة تسد حاجة الناس .

الفصل الثاني

نشأة فن التصوير

- اجتاز تاريخ التصوير اليوناني خمس مراحل ، ففي القرن السادس كان معظمه يهدف إلى تزيين الخزف وبخاصة المزهريات ؛ وفي القرن الخامس كان أهم ما يعنى به العمارة وبخاصة طلاء المباني العامة والتماثيل بالألوان المختلفة ؛ وفي القرن الرابع كان يحوم حول المنازل والأفراد فيزين المسابكن ويرسم الصور ؛ وفي العصر الذي اصطبغت فيه البلاد الخارجية بالصبغة اليونانية كان معظمه فردياً يخرج صوراً يتباع لمن يرغب فيها من الأفراد . وقد بدأ فن التصوير حين تفرع من الرسم العادي وبقي إلى آخر مراحلہ رسماً وتخطيطاً في أساسه وجوهره ؛ وقد استخدم في تطوره ثلاث طرق : طريقة المظلمات أو التصوير على الجص الطرى ، وطريقة الطلاء المائي أو التصوير على الأقمشة أو الألواح المبللة بألوان ممزوجة بزلال البيض ، وطريقة تثبيت الرسوم بالحرارة وذلك بمزج الألوان بالشمع المذاب ؛ وكانت هذه الطريقة الأخيرة أقرب ما صل إليه الأقدمون إلى طريقة التصوير بالزيت . ويؤكد لنا بلني - وهو الذي لا يقل أحياناً عن هيرودوت رغبة في تصديق كل ما يسمع - أن فن التصوير قد تقدم في القرن الثامن تقديماً جعل كندولس Candaules ملك ليدية يبتاع صورة من صنع بولاركس Bularchus بمثل وزنها ذهباً^(٩) . لكن بداية كل الأشياء غامضة . وفي وسعنا أن ندرك ما كان لهذا الفن من الشهرة في بلاد اليونان إذا علمنا أن بلني قد خصه من صفحاته بأكثر مما نخص به النحت . ويبدو أن الرسوم الجيدة التي أنتجها عصر اليونان الذهبي كانت موضع النقاش من التقاد وموضع

الإجلال من الشعب وأنها لم تكن تقل في هذين عن أعظم نماذج فن العمارة والنحت (١٠) .

ولم يكن بولخوتوس Polygnous الثاسوسى أقل شهرة في بلاد اليونان في القرن الخامس من إنكتينس Inctinus أو فدياس . ونجد هذا المصور في أثينة في عام ٤٧٢ ؛ ولعل سيمون الثرى هو الذى توسط له فكلف بتزيين عدة مبان عامة ورسم صور على جدرانها(*) . وقد صور في ذلك العهد على الاستوا Stoa ، التى سميت من ذلك الحين البوسيلي Boecile أو الرواق المصور ، التى اشتق منها بعد ثلاثة قرون اسم فلسفة زينون(**) ، صور عليها منظر نهب طروادة - ولم يكن ذلك المنظر منظر المذبحة الرهيبة التى حدثت في ليلة النصر ، بل كان منظر السكون الرهيب الذى ساد المدينة في صباح اليوم الثانى ، والمنتصرون قد هدأ من سورتهم ما يحيط بهم من الخراب ، والمغلوبون ملقون على الأرض هادئين . وقد رسم على هيكل الديسكورين صورة اغتصاب اللوسبيديات . وكان تصويره النساء في أثواب شفافة سابقة احتذاها من جاء بعده من الفنانين . ولم تثر هذه البدعة ثائرة المجلس الأمفكتيونى ، بل إن هذا المجلس دعا بولخوتوس إلى دلفى حيث صور في اللسكى Lesche أو ردهة الاستراحة صورة أوديسيوس في الجحيم وصورة أخرى لانتهاج طروادة . وكانت هذه الصور كلها مظلمات كبيرة خالية من المناظر الطبيعية أو الخلفيات ، مزدحمة بصور الأشخاص إلى حد كان لا بد معه أن يستعان بعدد كبير من المساعدين ليرسموا بالألوان ما بين الخطوط الخارجية التى خططها المصور بعناية فائقة . أما الصورة الجدارية التى تمثل طروادة فكان فيها بحارة متلوس على أهبة الإبحار عائدين إلى بلاد اليونان ؛ وكانت هلن تجلس في وسط الملاحين ، ومعها كئيرات غيرها من النساء ولكنهن كن جميعاً يهرهن جمالهن الفتان ،

(*) وقد جازى سيمون على عمله هذا بأن أحب أخته إينيس ورسم صورة لها تمثل لورديسيا بين الطرواديات(١١) .

(**) لفظة stoa أى رواق مشتقة من stoa كما اشتقت اللفظة العربية من رواق .

ووقفت أندرمكى في إحدى الزوايا محتضنة أستياناكس ؛ ووقف في زاوية أخرى غلام صغير يتعلق بمذبح من شدة الخوف ، وعلى بعد من البحارة كان جواد يتمرغ على رمال الشاطئ^{١٢٠} . في هذه الصورة كانت مسرحية « الطرواديات » قبل أن يكتبها يوربديز بنخمسين عاماً . وأبي بولخنوتس أن يتقاضى أجرأ على عمله هذا ، ووهب الصور لأثينة ودلفى كرمأ منه وثقة بقدرته ومواهبه . وأعجبت بلاد اليونان كلها بعمله ، ومنحته أثينة مواطنتها . وقرر المجلس الأثينكيون أن يحل ضيفاً على حساب الدولة في كل مدينة يونانية ينزل بها (كما كان يريد سقراط لنفسه) ، ولم يبق من آثاره كلها إلا قطعة صغيرة من اللون على جدار في دلفى تذكرنا بأن الخلود الفنى ليس إلا لحظة عابرة في حساب الأزمنة الجيولوجية .

وفي عام ٤٧٠ ق . م أقامت دلفى وكورنثة مباريات دورية في التصوير تعقد كل أربع سنين لتكون جزءاً من الألعاب البيئية والبرزخية . وتقدم الفن وقتئذ تقدماً أمكن بانينس شقيق فدياس (أو ابن أخيه) أن يرسم صوراً لقواد الأثينيين والفرس في واقعة مرثون يمكن تمييز أشخاصهم فيها . ولكنه كان حتى ذلك الوقت لا يزال يضع الأشخاص المصوّرين جميعهم في مستوى ويجعل طول قامتهم كلهم واحداً ؛ ولم يكن يمثل البعد بتصغير حجم الأشخاص شيئاً فشيئاً وبتنظيم الضوء والظل ، بل كان يمثل بالخطوط المنحنية التي تمثل الأرض الواقفين عليها . ثم تقدم الفن في عام ٤٤٠ خدولة هامة . ذلك أن أجاتارذس Agatharchus ، الأثيني استخدمه إسكلس وسفكليز ليرسم مناظر مسرحية ما تبين أن ثمة علاقة بين الضوء والظل من جهة والبعد من جهة أخرى . وكاتب رسالة في فن المنظور بوصفه وسيلة لإيجاد الخداع المسرحي . وعالج أنكساغوراس ودمقريطس الفكرة من الناحية العلمية ، فلما أوشك القرن دلى نهايته اشتهر ابودورس Apollodorus الأثيني باسم اسكياجرافوس Skiagraphos أثني مصور الظلال ، لأنه رسم صوراً استخدم

فيها الضوء والظل ، ولذلك قال عنه بليني إنه كان « أول من رسم الأشياء كما تبدو حقاً » (١٤) .

على أن المصورين اليونان لم يفيدوا من هذه الاستكشافات فائدة تامة ؛ فكما أن صولون كان يسخر من الفن المسرحي ويعتقد أنه خداع ، فكذلك يبدو أن الفنانين كانوا يرون أنه لا يليق بهم وأنه يحط من كرامتهم أن يظهروا السطح المستوي بمظهر الجسم ذي الثلاثة الأبعاد . ولكن فن المنظور وتوزيع الضوء والظل هما اللذان رفعا من شأن زكسيس Zeuxis تلميذ أبلودورس وجعلاه أعظم المصورين في القرن الخامس . وقد قدم زكسيس من هرقلية (بنتيكا Pontica ؟) إلى أثينة حوالي ٤٢٤ ق . م ، وعد مجيؤه إليها حادثاً تاريخياً خطيراً رغم ضجيج الحرب القائمة وقتئذ . وكان « شخصاً » جريئاً مغروراً بنفسه ، يصور تصوير المغرورين . وكان في الألعاب الأولمبية يتبختر في قباء ذي مربعات طرز عليه اسمه بالذهب ؛ وكان في مقدوره أن يكون له مثل هذه القباء لأنه كان وقتئذ قد جمع « من عمله ثروة طائلة » (١٥) . ولكنه كان يعمل بعناية الفنان العظيم وإخلاصه ، ولما أن أخذ اجثاركس Agatharchus يزدهى بسرعته في التصوير رد عليه زكسيس في هدوء : « إني أحتاج إلى وقت طويل » . وتخلّى عن عدد كبير من روائع صورته بحجة أنها لا تقدر بثمن مهما عظم ، وكان الملوك يعدون أنفسهم سعداء حين يحصلون عليها ، ولم تكن المدن أقل حرصاً على اقتنائها من الملوك .

ولم يكن في جيله إلا منافس واحد هو پرهسيوس Parrhasius الإفسوسى الذى لا يكاد يقل عنه في عظّمته ، ولم يكن بالتأكيد أقل منه عجباً بنفسه . وكان پرهسيوس يضع على رأسه تاجاً من الذهب ويلقب نفسه « أمير المصورين » ، ويقول إنه أوصل الفن إلى درجة الكمال (١٧) . وكان يعمل هذا كله في مرح ومزاح ويغنى وهو يرسم (١٨) . وتقول الشائعات إنه اشترى عبداً وعذبه لكي يدرس عليه ما يبدو على وجهه من مظاهر الألم فيستطيع أن يرسم صورة پروميثيوس (١٩) . وما أكثر القصص متى يتناقلها الناس عن الفنانين . وكان

پرهسيوس واقعياً مثل زكسيس . وقد بلغ من صدق صورة العداء وإتقانها أن الناظرين إليها كانوا يتوقعون أن يروا العرق يتصبب من الصورة ، وأن يروا العداء نفسه يسقط من فرط الإسياء . ومن صورته صورة كبرى على جدار ، هنى صورة أهل أثينة يمثلهم فيها قساة ورجاء ، متكبرين وأذلاء ، متوحشين وجبناء ، متقلبين وكريهين ؛ ويبلغ من أمانته في هذه الصورة أن الجمهور الأثيني - على ما تقول الرواية - أدرك لأول مرة ما في طباعه من تعقيد وتنافس (٢٠) .

وأدى التنافس الشديد بينه وبين زكسيس Zeuxis إلى اشتراك الرجلين في مباراة عامة . ذلك أن زكسيس رسم بعض عناقيد العنب رسماً بلغ من إتقانه ومشابته للعنب الطبيعي أن الطيور حاولت أكله . وأعجب المحكمون أشد الإعجاب بهذه الصورة ، ووثق زكسيس من الفوز وثوقاً جعله يأمر پرهسيوس أن يزيح الستار الذى يحنى وراء الصورة التى رسمها الفنان الإفسوسى ؛ فلما تبين أن الستار جزء من الصورة ، وأن زكسيس نفسه قد خدع اعترف في غير حقد بهزيمته . ولم يفقد زكسيس بهذا شيئاً من شهرته ، فقد اتفق في كرتونا على أن يرسم صورة لهن توضع في معبد هيرا اللسينية Lacinian Hera ، على شريطة أن تقف أمامه عاريات أجمل خمس نساء في المدينة ، ليختار من كل واحدة منهن أجمل ما فيها ، ثم يجمع مما أخذه منهن صورة ثانية لربة الجمال (٢١) . وحيث بتلبي بفضل تصويره حياة جديدة ، ولكن أكثر ما كان يعجب به من صورته صورة رياضى كتب تحتها يقول إن الناس يمدون نقه أيسر عليهم من مجاراته . وكانت بلاد اليونان كلها تسر من غروره وتتحدث عنه بقدر ما تتحدث عن أى كاتب مسرحى ، أو حاكم سياهى ، أو قائد حربى . ولم يكن أحد أوسع منه شهرة إلا المتبارون لنيل الجوائز الرياضية .

الفصل الثالث

أساتذة النحت

١ - أساليهم

على أن التصوير بقي رغم هذا التفوق^{١٤} غريباً على العبقريّة اليونانية التي كانت تحب الشكل أكثر مما تحب اللون ، والتي جعلت تصوير العصر الذهبي (إذا حكمنا عليه بأقوال الناس فيه) دراسة في الجهاد للخطوط والتصميم لا إداركاً حسيّاً لألوان الحياة . أما ما كان يولع به الرجل اليوناني ويسر منه فهو منتجات النحت ، ولذلك كان يملأ بيته ، وهايكاه ، وقبوره ، بتماثيل صغيرة من الطين المحروق ، ويعبد آلهته بتصويرها في الحجارة ، ويقم على قبور موتاه ألواحاً منقوشة تعد من أكثر منتجات الفن اليوناني وأوقعها في النفس . وكان العمال الذين ينقشون هذه الألواح من الصنّاع غير ذوى الخلق ، ينقشون ما حفظوه عن ظهر قلب ، ويكررون ألف مرة الموضوع المألوف ؛ موضوع فراق الأحياء للأموات فراقاً هادئاً وأبدى الأحياء مقبوضة . غير أننا يجدر بنا أن نذكر أن في هذا الموضوع من النبل ما يحتمل التكرار . لأنه يظهر ما انصف به خلائق العصر الذهبي من ضبط للنفس في أحسن صوره ، ويعلم النفس المرهفة الحس أن الشعور يبلغ أقصى قوته حين يعبر عن نفسه بصوت هادئ منخفض . وتظهر هذه الألواح الموقى ، أكثر ما تظهرهم ؛ يعماون عملا من أعمال الحياة الدنيا - كطفل يلعب بالطوق ، وبنت تحمل إبريقاً ؛ ومحارب يعجب بعدته الحربية ، وفتاة تفخر بحليها ، وغلّام يقرأ كتابه وكلبه راقد تحت مقعده .

راض بموضعه ولكنه يرقب سيده . وتظهر هذه الألواح الموت مظهر الحادث الطبيعي ، وهو لذلك عندهم شيء يمكن العفو عنه ، وعدم الحقد عليه .
وأكثر من هذه الألواح تعقيداً ما خلفه هذا العصر من نقوش محفورة هي أرق ما وجد من نوعها ؛ ويمثل أحدها أرفيوس يلتقي نظرة وداع طويلة على يورديس Eurydice التي استردها هرمس إلى العالم السفلي (٢٢) . وفي نقش ثان نرى ديمتر تعطى تريتولوس الحية الذهبية التي يتحدث بها فن الزراعة في بلاد اليونان ؛ ولا يزال بعض اللون في هذا النقش لاصقا بالحجر ، يوحى بما كان عليه النقش اليوناني في العصر الذهبي من روعة وصدق تعبير (٢٣) . وأجمل من هذين النقشين مولد أفرديتي الذي حفره على أحد أوجه « عرش لدفيزي » (*) حفار غير معروف لعله تدرب على فنه في أيونيا . وترى فيه إلهتان ترفعان أفرديتي من البحر ، وثوبها الرقيق المبلل ملتصق بجسمها ، يظهر كل ما فيه من روعة الأنوثة الناضجة . ورأسها شبيه بعض الشبه برءوس الأسبويات ، ولكن أثواب من يرافقتها من الإلهات ووقفتهن الرشيقية الجميلة عليهما طابع العين واليد اليونانيتين الحساستين . وعلى جانب آخر من جوانب العرش نقشت فتاة عارية تعزف على القيثارة المزدوجة ، وعلى جانب ثالث امرأة مقنعة تعد مصباحها لتضيء به ظلمة المساء ؛ ولعل وجه هذه المرأة وأثوابها أقرب إلى الكمال مما على الجانب الرئيسي للعرش .

ويدهش الإنسان حين يرى رقى مثالي القرن الخامس عن أسلافهم . ففي هذا القرن لم يعد المثالون يظهرون المنظر الأمامي ، وفيه يصبح فن المنظور عظيم الأثر إذ يمثل الأشياء كأنها بارزة نحو الناظر إليها ؛ وتحل فيه الحركة محل

(٥) هي كتلة من الرخام عثر عليها في رومة حين دهم قصر لدفيزي الصغير . والحجر الأصل في متحف ترمي Muse delle Terme برومة ، وتوجد نسخة جيدة منه في متحف الفن بنويورك .
(١١ - ج ٢ - مجلد ٢)

السكون ، والحياة محل الجحود . والحق أن المثال اليوناني حين يخرج على العرف القديم ويصور الإنسان يتحرك إنما يحدث ثورة في الفن . ذلك أننا قلما نعتز قبل ذلك العهد ، في مصر أو في الشرق الأدنى أو في بلاد اليونان نفسها قبل مرثون ، على مثال ينحت إنساناً يتحرك . وكان من أهم أسباب هذا التطور ما أمتازت به الحياة اليونانية بعد سلاميس ، حيوية جديدة ونشاط لم يكن لها من قبل ، ولكن أكبر الفضل فيه إنما يرجع إلى دراسة الفنان وتلاميذه للتشريح الحركي في صبر وأناة أجيالا طويلا .

انظر إلى سؤال سقراط المثال الفيلسوف : « أليس الذي يجعلك تظهر تماثلك كأنها أشخاص حية هو أنك تنحتها على مثال الكائنات الحية نفسها ؟ . . . » وإذا كانت مواقفنا المختلفة تؤثر في بعض عضلات أجسامنا غيرتفع بعضها وينخفض البعض الآخر ، وبذلك ينقبض بعضها وينبسط البعض ، وتلتوى هذه وترتخي تلك ، إذ كان هذا يحدث أليس تعبيرك عن هذه الجهود هو الذي يجعلك تظهر ما تنحته صادق التعبير عن الحقيقة ؟ (٢٤) .

لقد كان المثال في عهد پركليز عظيم الاهتمام بكل جراحة من جوارح الجسم لا تقل عنايته بالبطن عن عنايته بالوجه ، يعبر أدق تعبير عن حركات اللحم المرن على الهيكل العظمي المتحرك ، وعن انتماخ العضلات ، والأوتار ، والأوعية ، وعمما في تركيب اليدين والأذنين والقدمين من عجائب تجل عن الحصر ، ويفتن بما يليق من الصعاب في تمثيل أطراف الجسم . ولم يكن في غالب الأحيان يستخدم نماذج حية تقف أمامه في مَبْتَحَتِهِ ، بل كان يكتفي في أكثر الأوقات بملاحظة الرجال عارين نشطين في مدارس الألعاب ومبادينها ، وملاحظة النساء يمشين في وقار في المواكب الدينية أو ينهمن كآ طبيعياً في أعمالهن المنزلية . ولهذا السبب ، لالحياثة ، نراه يركز دراسته للتشريح على الرجال دون النساء ، ونراه في تصويره للنساء يستبدل بدقة التشريح الجسمي تمثيل دقائق الثياب أحسن

مثيل - وإن كان يجعل الملابس شفاقة إلى أبعاد حد تمكنه منه جرأته . وكان هذا الفنان قد مل رؤية أنصاف الثياب السفلى الجامدة التي يشاهدها على تماثيل مصر واليونان في عهدهم الأقدم ، فتاقت نفسه إلى إظهار ملابس النساء يلعب بها النسيم لأنه في هذا الوضع أيضاً قد أدرك خصائص الحركة والحياة .

وهو لا يكاد يترك أية مادة تقع في يده ويستطيع استخدامها في ذهنه إلا استخدمها - من خشب ، وعاج ، وطين محروق ، وحجر جبرى ، ورخام ، وفضة ، وذهب . وهو يستخدم أحياناً الذهب لصنع الثياب ، والعاج لصنع الجسم ، كما فعل فدياس في تماثيله الذهبية العاجية . وكان البرنز هو المادة المحببة لمثال الهلويونيز ، لأنه يعجب بألوانها القائمة التي تصلح كل الصلاحية لتمثيل أجسام الرجال الذين لوحتهم الشمس وهم عراة ، وكان لجهله بجشع الإنسان يظن أنه أبقى على الدهر من الحجارة . أما في أبونيا وأتكا فكان يفضل الرخام ، لأن ما يلقاه فيه من صعوبة يستثير همته ، ولأن ما فيه من صلابة يمكنه من أن ينحته بإزميله وهو آمن ، وكان نعومته ونصف شفافيته قد خلقا لتمثيل لون النساء الوردى ورقة أجسامهن . وقد كشف المثال بقرب أثينة رخام جبل بنتلكس Pentelicus ، ولاحظ أن ما فيه من حديد ينضجه طول الزمان والعوامل الجوية فيبدو للرأى وكأنه عرق من الذهب ، تتلأأ وسط الحجر ، وأفلح بفضل ما وهب من الصبر ، وهو نصف العبقرية ، في أن ينحت على مهل من المهاجر تماثيل حية . ومثال القرن الخامس حين يعمل في البرنز يستخدم طريقة الصب الأجوف بالعملية المعروفة بعملية الشمع المفقود *cire perdu* ، وذلك بصنع نماذج من الجبس أو الصلصال للتمثال الذى يريد صبه ، ثم يغطيه بطبقة رقيقة من الشمع ، ويغطي هذا كله بعدئذ بقالب من الجبس أو الصلصال مسنن في عدة مواضع ، ويضعه في تنور تذيب حرارته الشمع فيخرج من الثقوب ، ثم يصب ذوب البرنز في القالب من أعلاه حتى يملأ المعدن جميع المسافة التي كان يشغلها الشمع قبل

أن يدبوب : ثم يبرد الشكل كله ويزيل عنه القالب الخارجى ، ويردمه ويصقله ، ثم يطلى البرنز بالك أو يلونه أو يذهب حتى يتخذ صورته النهائية . فإذا فضل الرخام بدأ بالكتلة غير المشكلة ، غير مستعين بأى نظام من نظم التوجيه(*) ، ويعمل من غير قواعد موضوعة ، مسترشداً في أكثر الأحيان بعينه لا بالآلات (٢٠) ؛ ويزيل من الحجر بضرباته المتتالية ما لا حاجة له به ، ويوالى هذه الضربات حتى تتشكل من الحجر التكررة الكاملة الى سورها لنفسه في ذهنه ، وحتى تصبح المادة غير المنتظمة صورة وشكلا على حد قول أرسطاطاليس .

أما موضوعاته فتختلف من الآلهة الى الحيوانات ، ولكن أيا كان الموضوع ، فإنه يجب أن يكون من حيث الجسم خليقاً بالإعجاب ، ولم يكن الضعفاء أو العقليون ، أو الأصناف الشاذة غير السنوية ، أو العجائز أو الشيوخ ، لم يكن هؤلاء يجدون لهم مكاناً عنده ؛ وكان يجيد نحت تماثيل الخيل ، ولكنه لم يكن شديد العناية بغيرها من الحيوان ، وكان أكثر إبداعاً في نحت تماثيل النساء ؛ ومن آياته الفنية التي لا تمثل نساء بعينهن كتمثال الفتاة المستغرقة في أفكارها والمسككة بثوبها فوق ثلبيها المحفوظ بمتحف أثينة ، ما يبلغ درجة من الجمال الهادئ تعجز اللغة عن وصفه . وخير ما يجيده على الإطلاق تماثيل اللاعبين الرياضيين ، لأنه يعجب هؤلاء إعجاباً لا حد له ، ولأنه لم يكن يحول بينه وبين مراقبتهم حائل . وكنت تزاه من حين إلى حين يبالغ في إظهار قوتهم ، ويصور على بطونهم عضلات لا وجود لها عليها ، ولكنه كان يسعه رغم هذا الخطأ أن يصب تماثيل من البرنز كالتماثيل الذى وجد في البحر قرب أنتيسثرا Anticythera وللذى يقال إنه تمثال إفيبوس Epebos تارة وتارة يقال إنه تمثال پرسوس Perseus الذى أمسك

(*) المراد بالتوجيه هنا بيان العمق الذى يجب أن يصل إليه النحات في قطع الكتلة الحجرية التي يريد صنعها قبل أن يبدأ الفنان عمله فيها . وكان يده استخدام هذه الطريقة في تزيين التماثيل اصطفت بالصيغة اليونانية (٢٠) :-

بيده في وقت ما رأس مدوزا Medusa وشعره المكون من الأفاصي . وكان في بعض الأحيان يصوره شاباً أو فتاة منهمة في عمل بسيط تقوم به من تلقاء نفسها ، كتمثال الغلام الذي يخرج شوكة من قدمه(*) ، غير أن أساطير بلاده كانت أهم ما يوحى إليه بموضوعات فنه . ولم يكن ذلك النزاع الرهيب الذي قام بين الفلاسفة والدين ، والذي يبدو في تفكير القرن الخامس كله ، نقول لم يكن ذلك النزاع قد بدا على الآثار بعد ، فهنا كانت الآلهة لا تزال صاحبة السيادة العليا ؛ وحتى لو كانت قد أخذت في الاضمحلال فقد كانت تنتقل أنبل انتقال وأعظمه إلى شعر الفن . ترى هل كان المثال الذي يشكل في البرنز زيوس أو تمزيوم القوي يعتقد بحق أن يصور شريعة العالم(**) ؟ وهل كان الفنان الذي بنحت تمثال ديونيسس الظريف الحزين المحفوظ في متحف دلفي ، هل كان هذا الفنان يعرف في أعماق إدراكه الذي لا تعب عنه الألفاظ أن ديونيسس قد طعنته سهام الفلسفة طعنة نجلاء ، وأن الملامح المتواترة للمسيح خليفة ديونيسس قد وجدت في هذا الرأس من قبل أن يولد المسيح .

٢ - المدارس

إذا كان فن النحت اليوناني قد أخرج هذا القدر كله في القرن الخامس ، فقد كان من أسباب ذلك أن كل مثال كان ينتمي إلى مدرسة بعينها ، وأن له مكاناً في ثبت طويل من الأساتذة والطلاب ، يتوارثون حلق فنهم هذا ، ويقاومون تطرف الفردية المستقلة ، ويشجعون مواهبهم الخاصة ، ويسيطرون عليها ويهدبونها بالتضلع في فنون الماضي وما أخرجته من بدائع ،

(*) في متحف الكمبرلين ببرومة ؛ وأكبر الفن أنه صورة من تمثال نيرفان أصل نحت في القرن الخامس .

(**) في متحف أثينة ، وهناك صورة منه في المتحف الفن بلجيكا .

وتشكيلها بتفاعل هذه الأعمال مع القواعد الجديدة حتى أصبحت فناً أعظم مما تبتدعه في العادة العبقريّة المنعزلة المتحررة من القواعد والقوانين : إن الفنانين العظام يكونون في الغالب نتاجاً لتسامى التقاليد الماضية وارتقاها إلى ذروتها أكثر مما يكونون نتيجة للخروج عليها . ومع أن التأثيرين على التقاليد الماضية يكونون بطبيعتهم منشقين على تاريخ الفن الطبيعي ، فإن أسلوبهم الجديد لا ينتج شخصيات فذة سامية إلا بعد أن تثبتت الوراثة ويطهره الزمن .

وقد قامت بهذا العمل خمس مدارس في بلاد اليونان في عهد بركليز : مدارس رجيوم ، وسكيون ، وأرجوس ، وإيجينا ، وأتكا . وفي عام ٤٩٦ أو حواليه استقر في رجيوم فيثاغورس آخر من ساموس وصب تماثلاً لفلكليتيس أذاع شهرته في بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أظهر في وجوه تماثيله من علائم الانفعال ، والألم ، والشبحوخة ما هز مشاعر المثاليين اليونان بأجمعهم حتى قرر المثالون في العصر الذي انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلادهم الأصلية أن يحاكيه في تماثيلهم . وفي سكيون واصل كيناكس Canackus وأخوه أرسطكليز Aristoteles العمل الذي بدأه قبلهما بمائة عام ديونس Dipoenus وسليس Scellis من فناني كريت . ورفع كلون Callon وأناتس Onatas مقام إيجينيا بين المدن اليونانية بما أظهرها من حلق في صب البرنز ، ولعلهما هما اللذان صنعا قواصر إيجينيا . وفي أرجوس نظم أجلداس مراحل انتحال فن النحت في مدرسته وبلغت ذروة مجدها على يد بليكليتيس . جاء بليكليتيس من أرجوس وذاعت شهرته فيها حين وضع حوالي عام ٤٧٢ تضميماً لتمثال من الذهب والعاج لهيرا إلهة المدينة ليوضع في معبدها : وكان العصر الذي صنع فيه يرى أنه لا يفوقه في دقته غير تماثيل فدياس الضخمة العاجية الذهبية(*) .

(*) ولعلنا نجد صدقاً لمظنة التماثيل في رأس هيرودور العظيم المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي يقال عنه إنه مصنوع على مثال رؤوس تماثيل بليكليتيس .

واشترك في إفسوس في مباراة مع فدياس ، وكرسلاس Cresilas وفردمون Phradmcn لصنع تمثال لامرأة محاربة يوضع في هيكل أرتميز . وعين الفنانون الأربعة قضاة للحكم في هذه المباراة . وتقول الرواية المتواترة إن كلا منهم حكم بأن تمثاله خير التماثيل جميعها ، وأن تمثال بليكليس ثانياً ، وبناء على هذا الحكم منح الفنان السكيوني الجائزة(*) (٢٧) . لكن بليكليس كان يجب الرياضيين أكثر مما يجب النساء أو الآلهة ؛ ولما أراد أن ينحت تمثاله الشهير لديادمنوس Diadumenos (وهو الذي توجد أحسن نسخة منه في متحف أثينة) مَثَّل هذا الظافر في اللحظة الذي كان يربط حول رأسه العصابة التي يضع القضاة فوقها إكليل الغار . ويرى الناظر إلى صدر التمثال وبطنه عضلات أكثر وأضخم مما يصدق العقل ، ولكن الجسم يرتكز ارتكازاً واضحاً على قدم واحدة ، وملامح التمثال تعبر عما امتاز به العصر الذهبي من تناسق أصدق تعبير . لقد كان بليكليس يهيم بهذا التناسق بل يكاد يعبد ، وكان همه في حياته أن يضع قانوناً أو قاعدة لتحديد النسبة الصحيحة بين كل جزء وجزء في التمثال ؛ فكان والحالة هذه هو فيثاغورس النحت ، ينشد الرياضة القدسية في التناسب والشكل ؛ وكان يظن أن أبعاد أى جزء من أجزاء الجسم الكامل يجب أن تتناسب تناسباً محددًا معروفةً مع أبعاد أى جزء آخر كالسبابة مثلاً . وكان قانون بليكليس هذا يستدعى أن يكون الرأس مستديراً ، والكتفان عريضتين ، والجلد ممتلئاً قصيراً ، والعجيزتان واسعتين ، والساقان قصيرتين ، وكل هذه تجعل التمثال مظهرًا للقوة لا للرشاقة . وأولع الفنان بقانونه ولعاً حمله على أن يؤلف رسالة يشرحه فيها وأن يوضحه بتمثال من صنعه : ولعل هذا التمثال هو تمثال الدوريفوروس Doryphoros أو حامل الرمح الذي توجد نسخة رومانية منه في متحف نابلي . وفيه يرى مرة أخرى الرأس القصير

(*) لعل تمثال المحاربة المحفوظ في اغاتيكان نسخة رومانية من هذا التمثال .

العريض الجمجمة ، والكفزان القويتان ، والجذع القصير ، والعضلات المتغضنة المسدولة على الحقو . وأجل من هذا تمثال إفيوس Ephesos المحفوظ في المتحف البريطاني ، وفيه تظهر أحاسيس الغلام كما تظهر عضلاته ، ويبدو أنه منهمك في تفكير هادئ لطيف في شيء آخر غير قوته . وأضحت قواعد بليكليتس بفضل هذه التماثيل القانون الذي يتقيد به المثالون في البلوونيز ؛ وقد تأثر به فدياس نفسه ، وظلت له السيادة على النحاتين حتى قضى عليه بركسيثس وأحل محله ذلك القانون الآخر المناقض له والذي يجعل الجسم طويلاً ، نحيلاً ، رشيقاً ، وقد بقي هذا القانون الأخير ظاهر الأثر في التماثيل الرومانية في أوروبا المسيحية .

وكان ميرون Myron يمثل المرحلة الوسطى بين المدرستين البلوونيزية والأتكية . وقد ولد هذا المثال في إلوثيرا Eleuthera ، وعاش في أثينة ، ودرس وقتاً ما (كما يقول بلني^(٢٨)) مع أجلاذاس Ageladas ؛ فعلم كيف يجمع بين الرجولة البلوونيزية والرشاقة الأيونية . وكان ما أضافه إلى مدارس الفن جميعها هو الحركة : فهو لم ير اللاعب الرياضي كما يراه بليكليتس قبل المباراة أو بعدها ، بل يراه في أثنائها ، وقد حقق ما رآه في البرنز تحقيقاً فاق به كل مثال آخر حاول تصوير جسم الرجل في أثناء العمل . وصب حوالي عام ٤٧٠ أشهر تماثيل صنعها للاعبين وهي تماثيل رماة القرص (disocobolo)^(٢٩) . وفيها بلغت عجائب أجسام الرجال غايتها ؛ فقد درس الجسم دراسة دقيقة في جميع حركات المفاصل ، والأوتار ، والعظام ، التي يتطلبها القيام بعمل ما ، وانحنت الساقان والذراعان وانحنى

(*) في متحف ترمي Museo dell Terme جلع رخامى هو نسخة من هذا التمثال صنعته يد فنان رومانى وفى معهد الأحياء المائية بميونخ نسخة برنزية من هذا التمثال صنعت في عصر متأخر ، وفى المعهد الفنى بنيويورك نسخة تجمع بين جلع كاللى في متحف الفاتيكان ورأس كالرأس الذى في قصر لانسلوتى Lancelotti .

لجذع لكي تكسب الرمية أعظم قوتها ؛ ولم يتلو الوجه ويشوه بسبب ما يبذله
الراى من جهد ، بل ظل منبسطاً ، والراى هادئاً واثق من قدرته ؛ وليس
الرأس ثقيلاً أو وحشياً ، بل هو رأس رجل من لحم ودم ورقة وتهذيب ، في
وسعه أن يؤلف الكتب إذا نزل إلى مستوى من يكتبونها . ولم تكن هذه
الآية الفنية إلا عملاً واحداً من أعمال ميرون الكثيرة ، وقد أعجب بها
مواطنوه ، ولكنهم أعجبوا أكثر من ذلك بتمثال أثينة ومزسياس (*) وتمثال
لاداس . وتمثال أثينة هذا أجمل مما يتطلبه الغرض الذى صنع من أجله ،
فليس في مقدور أى إنسان ينظر إليه أن يظن أن هذه العذراء المحتشمة ترقب
وهى هادئة راضية صاحب الناي يسليخ . أما تمثال مزسياس فأشبهه بتمثال
ليرنارد شو أدركه الفنان في وضع مغيب ولكنه مفتح بليغ . ويصور هذا
التمثال عازف القيثارة وقد عزف عليها آخر مرة ، وأدركه الموت ولكنه
يأبى أن يموت من غير أن يتكلم . ولم يكن لاداس لاعباً رياضياً نحات
قواه لأن النصر أنهك جسمه ، بل إن ميرون قد صورته تصويراً بليغ من
واقعيته أن صاح يونانى قديم حين رآه : « لقد صاغك لاداس من النحاس
بالصورة التى كنت عليها في الحياة ، تخرج روحك اللاهثة من صدرك
مع أنفاسك ، وأسبغ على جسمك كله حرصك على تاج النصر » ، وقال
اليونان عن عجلة ميرون إنها تستطيع أن تفعل كل شيء عدا الحوار (٣٠) .
وأضافت المدرسة الإتيكية أو الأثينية إلى البلوونيزيين وإلى ميرون ما تهبه
النساء للرجال : جمالا ، ورقة ، ورشاقة ، وظرفاً ؛ وكانت وهى تفعل هذا
تحتفظ من عناصر الرجولة بالقوة . فقد وصلت إلى مستوى عال قد لا يصل
إليه المثالون مرة أخرى . وكان كلميس Calamis لا يزال وقتئذ محتفظاً ببعض
الشيء بطابعه العتيق ، ولم يكن نسيوتيز Nesiotés وكريتيوس Critius
وهما يصبان طائفة أخرى من تماثيل قتلة الطغاة قد تحررا من البساطة الجامدة

(*) في متحف نيويورك الفن نسخة جميلة من النسخة اللاتينية .

التي كانت تسود تماثيل القرن السادس . وقد حذر لوثران الخطاب من أن يكون مسلكهم كمسلك هذه التماثيل العديمة الحياة . فلما أن نحت بيونيوس Paeonius من أهل مندى Mende المقدونية للمسيحين تمثال النصر بعد أن درس فن النحت في أثينة أظهر فيه من الرقة والرشاقة والجمال ما لم يظهره أحد غيره من الفنانين اليونان إلى عهد پرکستيليز ؛ وحتى پرکستيليز نفسه لم يفقه في تمثيل طيات الثياب المنسدلة على الجسم أو في تمثيل نشوة هذه الحركة(*) .

٣ - فدياس

كان فدياس وأعوانه بين عامي ٤٤٧ ، ٤٣٨ منهمكين في نحت تماثيل البرتنون وحفر نقوشه . وكما كان أفلاطون كاتباً مسرحياً قبل أن يصير فيلسوفاً مسرحياً ، كذلك كان فدياس في أول الأمر مصوراً ، تتلمذ بعض الوقت على بولجنوتس . ويلوح أنه أخذ عنه أساليب التصميم والتأليف بين الوحدات المختلفة والجمع بين الأشكال لإحداث الأثر الكلي للصورة . ولعله أخذ عنه أيضاً ذلك « النمط العظيم » الذي جعله أعظم مثال في بلاد اليونان بأجمعها . ولكنه لم يجد في التصوير ما يشبع كفايته لأنه كان في حاجة إلى أبعاد أوسع ، فأنجبه إلى النحت ، ولعله درس فن أجلا داس في صب البرنز وظل يمارسه في صبر وأناة حتى برع في كل فرع من فروعه .

وكان حين فرغ من نحت تمثال أثينة پارثنون في عام ٤٣٨ قد أصبح شيخاً طاعناً في السن ؛ وشاهد ذلك أنه صور نفسه على درعه شيخاً أصلع به طائف

(*) لقد فسدت أجزاء هذا التمثال بعد أن عثر عليها الألمان في أولمبيا عام ١٨٩٠ ، وهو الآن في متحف أولمبيا . ولا تكاد تقل عنه جمالا تماثيل غور البمر التي عثر عليها من غير رؤوس بين أنقاض أحد الأبنية القديمة في زنتوس الليشية Lycian Xanthus وهي الآن في المتحف البريطاني . لقد نقلت الروح اليونانية إلى آسية غير اليونانية .

الحزن . ولم يكن أحد ينتظر منه أن ينحت يديه مئات التماثيل التي امتلأ بها فضاء البارثنون ، وإفريزه ، وقواصره ، وكان حسبه أن يشرف على جميع أبنية بركليز ويضع خططها يزينها من التماثيل ، ثم يعهد إلى تلاميذه ، وخاصة إلى الكيمينز ، أن يقوموا هم بتنفيذها . على أنه هو نفسه قد نحت ثلاثة تماثيل لإلهة المدينة تقام في الأكروبوليس . وقد كلفه بنحت واحد منها المستعمرون الأثينيون في لمنوس ، وكان هذا التمثال من البرنز أكبر قليلا من الحجم الطبيعي ، وبلغ من دقته أن كان النقاد اليونان يعدون تماثيل أثينة اللمنوسية أجمل تماثيل فدياس كلها بلا استثناء(*) (٣٠) ، وثاني هذه التماثيل تماثيل أثينة بروماكوس وهو تماثيل برنزي ضخم يمثل الإلهة في صورة المدافعة الحربية عن المدينة . وقد أقيم بين البروبليا Propylaea والإركتيوم Erchtheum ، وكان ارتفاعه هو وقاعدته سبعين قدماً ، وكان دليلا للملاحين وتحذيراً لأعداء المدينة(**) . وأشهر هذه التماثيل الثلاثة تماثيل أثينة بارثنوس ويبلغ ارتفاعه . ثمانى أقدام وثلاثين قدماً ، وكان مقاما في داخل البارثنون ويمثل أثينة العذراء إلهة الحكمة والعفة . وكان فدياس يريد أن يتجت هذا التمثال الأخير من الرخام ، ولكن الشعب أبى إلا أن يكون من العاج والذهب . فاستخدم الفنان العاج للأجزاء الظاهرة من الجسم كما استخدم أربعين وزنة (٢٥٤٥ رطلا) من الذهب لصنع الثياب (٣٢) ، ثم زيته بالمعادن الثمينة والنقوش المتقنة البديعة على الخوذة ، والجلد ، والدروع . وقد وضع هذا التمثال بحيث تقع أشعة الشمس مباشرة في يوم عيد أثينة على الثياب الجميلة وعلى وجه العذراء الشاحب بعد

(٥) لم تبق منه نسخة صادقة .

(٥٥) وقد نقل هذا التمثال إلى القسطنطينية حوالى عام ٣٣٠ م ؛ ويروج أنه دمرفد

أفندل شطب قام فيها عام ١٢٠٣ (٣٦) .

خولها من أبواب المعبد العظيمة(*) .

ولم يكن إتمام هذا التمثال من أسباب سعادة فدياس ، لأن بعض ملاقدم له من الذهب والعاج لصنعه قد اختفى من مُحْتَرَفِه ولم تعرف أسباب اختفائه . وانهز أعداء بركليز هذه القرصة السانحة : فاتهموا فدياس بسرقة الذهب والعاج وأدانوه(**) . ولكن أهل أولمبيا شفَعوا له وأدوا الكفالة المطلوبة منه وقدرها أربعون ؟ وزنة على شريطة أن يذهب إلى أولمبيا ويصنع فيها تمثالاً من الذهب والعاج لمعبد زيوس^(٣٤) . وسرهم أن يقدموا له من العاج والذهب أكثر مما قدم له قبل . وبنوا له ولمساعدته مصنعاً خاصاً بجوار حرم الهيكل ، وكلف أخوه بانينوس Panaenus أن يزین بالصور العرش الذي يجلس عليه التمثال وجدران الهيكل^(٣٥) . وإذا كان فدياس مولعاً بالضخامة ، فقد جعل ارتفاع تمثال زيوس الجالس ستين قدماً ، ولما أن وضع في مكانه في الهيكل شكوا النقاد من أن الإله سيخترق سقفه إذا ما بدا له أن يقوم واقفاً . ووضع فدياس على « جنيني » الإله الراعد « القائمين » و « غدائره المعطرة » تاجاً من الذهب في صورة أغصان شجر الزيتون وأوراقه . ووضع في يد الإله اليمنى تمثالاً للنصر صغيراً مصنوعاً من الذهب والعاج ، وفي يده اليسرى صوبلحاناً مطعماً بالأحجار الكريمة ، وألبسه ثوباً ذهبياً نقشت عليه الأزهار ، ووضع في قلميه خفين من الذهب المصمت . أما عرشه فكان من الذهب ، والأبنوس ، والعاج . وكان عند قاعدته تماثيل صغيرة للنصر ، لأپلو ، وأتميز ، ونپوبي ، ولصبيان من طيبة اختطفهم أبوالمول^(٣٧) . وكان الأثر الذي يبعثه في النفس هذا التمثال وتوابه رائعاً قوياً

(*) لو أننا حكنا على هذا التمثال من أنموذجي « لنورمانت Lenormant » و « فارفاكا Varvaka » المحفوظين في متحف أثينة لما عطينا كثيراً به . فأول هذين الأنموذجين ضخمتان متفتحتا الوجه ، وصدر الثاني تزحف عليه كثير من الأفاعي المقلسة . (**) حوالي ٤٣٨ ؛ وهذا التاريخ مشكوك فيه كثيراً ، ومثل هذا يقال عن تعاقب الحوادث في الستين الأخيرة من حياة فدياس .

إلى حد جعل الناس ينسجون حوله كثيراً من الخرافات والأساطير . فن قائل إنه عندما أتمه فدياس طلب أن تطلع عليه السماء آية تدل على رضاها عن عمله ، فأرسلت صاعقة نزلت على الأرض غير بعيد عن قاعدة التمثال - وهي آية كمعظم الآيات السماوية تقبل عدة تفاسير مختلفة(*) ، وعد التمثال من عجائب الدنيا السبع ، وكان يحج إليه كل من استطاع الحج ليشاهد الإله المتجسد فيه . ولما فتح إيميليرس پولس Aemilius Paulius القائد الروماني بلاد اليونان ورأى هذا التمثال الضخم استولى عليه الرعب ، واعترف أن ما شاهده بعينه قد فاق كل ما كان يصوره له خياله(٢٨) . ووصفه ديوكريسوتوم Dio Chrysotom بأنه أجمل تماثيل على وجه الأرض ، وأضاف إلى قوله هذا ما قاله بيتوفن في الموسيقى : « إذا وقف أمام هذا التمثال إنسان قد تراكت عليه الهموم ، وتجرع في حياته كأس المصائب والأحزان حتى التمثالة ، وطار النوم الحلو من أجفانه ، نسي كل ما يصيب الإنسان في حياته من متاعب وأحزان(٢٩) » . وقال فيه كونتليان Qutntilian : « إن جمال التمثال قد أضاف بعض الشيء إلى دين البلاد ، ولقد كان جلاله خليقاً بالإله الذي يمثله(٤٠) » .

ولسنا نعرف عن أواخر أيام فدياس شيئاً موثقاً به . فن القصص ما يرى أنه عاد إلى أثينة حيث قضى نحبه في السجن(٤١) ، ومنها ما يقول إنه أقام في إليس Elis ، وإن هذه المدينة نفسها قد قتلته في عام ٣٢٢(٤٢) . وليست إحدى هاتين القصتين اللتين تتحدثان عن خاتمة فدياس أصدق من أختها ، وواصل تلاميذه عمله ، وبرهنوا على نجاحه معلماً بما أخرجوه من آيات فنية لا تكاد تقل روعة عن آياته هو . فقد نحت أجركريتس Agoracritus أحب تلاميذه إليه تمثالاً لنميسيز Nemesis طبقت شهرته الآفاق

(*) لم يبق من تمثال زيوس هذا إلا قطع صغيرة من قاعدته .

ونحت الكينز تمثالا لأفردينى إلهة الحدائق كان لوشان يضيقه فى مصاف
أرقى ما أخرجته المثالون من آيات (*) فنية (٢٣). وكانت خاتمة مدرسة فدياس
فى نهاية القرن الخامس ، لكنها تركت فن النحت اليونانى أرقى كثيراً مما كان
حين بدأت حياتها الفنية ؛ فقد أشرف الفن بفضل فدياس وأتباعه على الكمال
فى اللحظة التى بدأت فيها حرب البلووينز تنزل بأثينة الخراب . لقد أتقنت
هذه المدرسة أصول الفن وقواعده ، وفهمت تشريح الجسم ، وصبت الحياة
والحركة والرشاقة فى البرنز والحجر صلباً ؛ ولكن العمل الجليل الذى يميز
فدياس من غيره من المثالين هو ما أخرجته من طراز فى النحت جديد عجز
عنه أصدق تعبير ، ذلك الطراز السامى أو « الطراز العظيم » كما يسميه
ونكلان . وهو طراز يجمع بين القوة والجمال ، والتهور والإحجام ، والحركة
والسكون ، واللحم والعظم مع الروح والعقل . وفى هذا الطراز تمثل الفنانون
عل الأقل بعدما بذلوا من جهود دامت خمسة قرون ذلك « الصفاء » الذائع
الصيت الذى يعزوه المؤرخين بنجالهم إلى اليونان ، وكان فى وسع الأثينيين
ذو العاطفة الثائرة الجياشة إذا ما تدبروا تماثيل فدياس أن يروا كيف
يقترب الآدميون من الآلهة ، وإن يكن ذلك فيما أبدعوا من تماثيل فحسب .

(*) وقد يكون تمثال فينوس المكسورة المحفوظ فى متحف الوثرنسطة من هذا التشاك

الفصل الرابع

البناءون

١ - ارتقاء فن العمارة

تمت سيطرة الطراز الدورى فى العمارة على بلاد اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ولم يبق إلى الآن من الهياكل اليونانية التى شيدت فى ذلك العصر الزاهر إلا قليل من الأضرحة الأيونية وأهمها الإركثيوم وهيكلى نيكى أبتروس Nike Opteros المقام على الأكروبولس . وبقيت أتكا فى ذلك العهد محافظة على الطراز الدورى ، فلم تخضع للطراز الأيونى إلا حين كانت تستخدمه فى العمدة الداخلىة للبروپيلىا ، وفى صنع إفريز حول التسيوم والبارثنون . ولعل ما يشاهد من نزعة ذلك العصر إلى إطالة العمود وتقليل سمكه عما كان من قبل يدل على أثر آخر من آثار الطراز الأيونى .

وفى آسية الصغرى أشرب اليونان حب الشرقين للتحلية الدقيقة وعبروا عن هذا الحب بتنميق الدعامات الأيونية المرتكزة على العمدة تنميماً فيه كثير من التعقيد ، وبإيجاد طراز جديد من هذه الدعامات أكثر زخرفاً من الطراز الأيونى يعرف بالطراز الكورنى . وحدث حوالى عام ٤٣٠ (حسب رواية فيروفىوس Vitruvius) أن استلقت نظر مثال أيونى يدعى كالمكس Callimachus ، سلة لتقديم النذور مغطاة بقرميدة ، تركتها مريية على قبر تسيديتها ؛ وقد نبئت شجيرة أكتنوس (*) حول السلة والقرميدة . وأعجب المثل بالصورة الطبيعية التى أوحى بها إليه السلة وما حولها فعدل

(*) جنس من الأشباب الأوربية تعرف أيضاً بالكتكر ، وطابة الشوك ، وشوك اليهود . (المترجم)

تيجان العمدة الأيونية في هيكل كان يشيده في كورنثة بأن أضاف أوراق الأكتوس إلى الحل اللولبية^(١٤). ونحن نرجح أن هذه القصة خرافة لا أصل لها ، وأن سلة المربية كان أثرها في نشأة الطراز الكورنثي أقل من أثر تيجان العمدة المصرية المحلاة بسعف النخل وأوراق البردي. ولكتنا نستطيع أن نقول واثقين إن الطراز الجديده لم ينتشر انتشاراً واسعاً في بلاد اليونان في عصرها الذهبي ، وإن كان اكتينس قد استخدمه في عمود منفرد في ساحة هيكل أيوني في فيجاليا Phigalea ، وإن كان قد استخدم أيضاً حوالي آخر القرن الرابع في هيكل أقيم تخليداً للدكربي لسكارتز Lysicartes . ولم يبلغ هذا الطراز الدقيق أرقى صورة له إلا على يد الرومان المتأثنين في عهد الإمبراطورية .

وكان العالم اليوناني كله يشيد الهياكل في ذلك العهد ، وأوشكت المدن أن تنافسها لإقامة أجمل التماثيل وأكبر الأضرحة ، وأضافت أيونيا إلى مبانيها الضخمة في ساموس وإفسوس هياكل أيونية جديدة. في مجنيزيا ، وتيوس وپريني ، وأقام المستعمرون اليونان في أسوس Assus من أعمال بلاد اليونان الطروادية مزاراً لأثينة لا يكاد طرازه يختلف في شيء عن الطراز الدوري العتيق ، وشادت كروتونا في الطرف الآخر من بلاد هلامى حوالي عام ٤٨٠٠ ق . م بيتاً دورياً واسعاً لم يزل باقياً إلى عام ١٦٠٠ م حين ظن أحد الأساقفة أن في مقدوره أن يستخدم حجارته في غرض أنفع من الغرض الذي كانت تستخدمه فيه^(١٥) . وأقيمت في القرن الخامس أعظم هياكل بسلونيا (بسم Paestum) ، وسجستا Segesta ، وسلبنس ، وأكرجاس ، وفيه أيضاً أقيم معبد أسكليبيوس Asclepius في إندورس . ولا تزال تشاهد في سرقوسة عمدة هيكل شاده جيلون الأول Gelon لأثينة ، وقد بقي بعض هذا الهيكل لأنه حول إلى كنيسة مسيحية ؛

واختط لإكتنيس في باسيا بالقرب من فيجاليا من أعمال الپلویونیز هيكلًا لأبلو يختلف اختلافًا عجيبًا عن البارثنون آيته الفنية الأخرى . ذلك أن صفوف الأعمدة الدورية تحيط بفضاء يشغله محراب صغير وهو مكشوف كبير تحيط به أعمدة أيونية . وحول هذا البهو الداخل في مقابل الوجه الداخلي للعمد الأيونية يمتد لإفريز لا يقل في رشاقتة عن لإفريز البارثنون نفسه ، ويمتاز عنه في أنه ظاهر تراه العين(*) .

وشاد ليون Libon المهندس الإيلی في أولبيا قبل أن يشاد البارثنون بجبل من الزمان مزاراً لزيوس دورى الطراز يضارع البارثنون نفسه . وقد أقيمت في كل طرف من أطرافه ستة أعمدة ، وثلاثة عشر عموداً في كل جانب من جانبيه ، ولعلها قد بلغت من الضخامة حداً لا يتفق مع جمال الشكل ، كما أن المادة التي صنعت منها كانت غير خليقة بهذا الأثر الجليل - فهي من الحجر الخشن المطلى بالمصيص ؛ أما السقف فقد صنع من القرميد البنينى Pentelie (**). ويحدثنا پوسنياس(٤٦) أن بيونيوس Paenionis والكنيز قد نحتا للقواصر أشكالا قوية (+) تمثل على الجانب الشرقى من السقف سباق المركبات بين بليس وإينوماؤوس Aenomaus ، وعلى الجانب الغربى منه صراع اللپثيين والقناطرة(++). واللپثيون ، كما تروى الحرفات اليونانية قبيلة جبلية تقيم في تساليا ؛ ولما أن تزوج ملكها پريثوس Pirithous بهوداميا Hippodameia ابنة إينوماؤوس ملك بزأ إحدى مدائن إليس Elis ، دعا القنطرة إلى وليمة العرس . وكانت القناطرة تسكن الجبال المحيطة بيليون ويصورها الفن اليونانى مخلوقات نصفها خيل ونصفها آدميون ، ولعلمهم

(*) ولا تزال ثمانية وثلاثون عموداً من أعمدته وجدران محرابه وأجزاء من العمدة الداخلية باقية إلى الآن . وفي المتحف البريطاني قطع من الإفريز .

(**) وصف لرخام وجد في جبل بنتلكس Pentelicus بالقرب من أثينة .

(+) وهي الآن في متحف أولبيا .

(++) جمع قنطروس Centaur وهو حيوان خرافى يونانى نصفه حصان ونصفه ثور .

أرادوا بهذا أن يدلوا الناس على طبيعة أولئك الأقوام الوحشية غير المروضة أو يوحوا بأن القنطرة كانوا فرساناً مهرة إلى حد يجبل معه إلى من رأهم أن الفارس هو وفرسه حيوان واحد . وسكر أولئك الفرسان في أثناء الوليمة وحاولوا أن يحتطفوا النساء اللبيثيات ، لكن اللبيثيين دافعوا عن نساتهم دفاع الأبطال وهزموا القنطرة (ولم يمل الفنانون اليونان تصوير هذه القصة ، ولعلمهم كانوا يرمزون بها إلى تنظيف الغابات من الحيوانات البرية وإلى الكفاح القائم بين طبيعتي البشر الإنسانية والحيوانية) . والأشكال المصورة على القوصرة الشرقية عتيقة الطراز جامدة ساكنة أما التي على القوصرة الغربية فإن من أصعب الأمور أن يعتقد الإنسان أنها عملت في نفس هذا العصر ، ذلك بأنها نشيطة تنبض بالحياة ، وتدل على تمكن ناضج من التأليف بين الجامع . وإن كان بعضها فجاً ، وإن كان الشعر قد مثل على النمط الذي جرى به العرف في الزمن القديم . أما العروس فذات جمال بارع يثير الدهشة ، فهي امرأة نحيفة في غير ضعف ، كاملة النمو ، جميلة الحيا ، جمالا لا نعجب إذا قامت بسببه الحرب بين الطائفتين المتقاتلتين . ونرى قنطروساً ملتجئاً يطوق خصرها بلراعه ، ويضع إحدى يديه على صدرها ، ويوشك أن يحتطفها من دار عرسها ، ولكن الفنان مع هذا يصورها هادئة الملامح ساكنة سكوتاً يظن الإنسان معه أنه قد قرأ لسنج Lessing أو نكلمان ، أو أنها ككل الغواني يغرها الثناء عليها والرغبة فيها . وأقل من هذه الصور شائناً وأصغر منها حجماً ، وإن كانت أحسن منها صقلاً ، الأجزاء الباقية من جنبه الهيكل ، وهي التي تروى بعض أعمال هرقل الأسطوري ، فتصور بعضها هرقل يرفع العالم الأطلس . وقد أجاد الفنان في هذا كل الإجادة ، فليس هرقل هنا جباراً شاذاً مخالفاً للمألوف ، مقتول العضلات المحيطة بجسمه كأنها قدت من الحجر الصلد ، بل هو رجل كامل النمو ، متناسق الجسم ، وقد وقف أمامه أطلس له رأس لو أنه وضع على كفي أفلاطون لزانهما .



(شكل ٣١) تاج عمود من الأركثيوم
المصنف البريطاني



(شكل ٣٠) سائق مركبة دلي من مصنف داني

وإلى يسارها وقفت إحدى بنات أطلس مكتملة النمو بارعة الجمال الطبيعي
الذى أكسبها إياه صحتها وكمال أنوثتها .

ولعل المصور كان يرمز إلى صبورة مرسومة في ذهنه حين صورها تساعد
في رقة وظرف الرجل القوي على حمل العالم . إن في مقدور الفنان الإخصائي
أن يعثر على بعض أغلاط في التنفيذ وفي التفاصيل الدقيقة عندما يتأمل هذه
الجهة نصف المخربة ، لكن الملاحظ الهاوي إذا نظر إلى العروس . وإلى
هرقل ، وابنة أطلس ، يرى أن هذه المجموعة تقرب من الكمال قرب أية
مجموعة أخرى في تاريخ النحت البارز .

٢٠ - إعادة بناء أثينة

تفوق أتكا سائر بلاد اليونان في كثرة ما أقيم فيها من أبنية في القرن
الخامس ، وفي حسن هذه الأبنية . فهنا نرى الطراز الدوري ، الذى يبدو
في غيرها متفخفاً ضخماً ، قد اكتسب الكثير من الرشاقة والانسجام
الأيونيين ، وأضيف اللون إلى الخطوط ، والتحلية إلى التناسب . ولقد أقام
الذين خاطروا بركوب البحر معبد الإيسيدن على رأس شديد الخطر عند
سنيوم Sunium ، بقى منه الآن أحد عشر عموداً . واختط إكتينس في
إلوسيس هيكلاً رجباً لدمتر وقدمت أثينة بناء على نصيحة بركليز ما يلزمه
من المال لجعل هذا المعبد خليقاً بالحفلات الإلوسيسية . وفي أثينة نفسها شجع
الفنانين على مواصلة عملهم وجود الرخام الجيد بالقرب منها في جبل بنتلكس
وفي پاروس ، لأنه أجل مواد البناء على الإطلاق . وقلما استطاعت الديمقراطية
أو رغبت في عهد من العهود ، قبل حلول الكارثات الاقتصادية في أيامنا
هذه أن تنفق المال بمثل هذا السخاء على إقامة المباني العامة . فلقد تكلف
البارثون سبعمائة وزنة (٢٠٠٠٠٠ رyal أمريكي) ، وتكلف تمثال أثينة
پارثنوس (وقد كان تمثالا ومستودعاً للذهب في آن واحد) ما قيمته

٤٤٧ ، ٤٣١ نحو ٥٧٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي للمنشآت العامة والتماثيل والتصوير^(١٧) ، وكان توزيع هذا المبلغ الضخم بين الصناع ، والفنانين ، والمنفذين لأعمالهم ، والأرقاء ، أثر كبير في الرخاء الذي عم أثينة في عهد بركليز .

وفي وسعنا أن نرسم في مخيلتنا صورة غامضة للعوامل التي كانت تسند إليها هذه المغامرة الفنية الجريئة . ذلك أن الأثينيين ، بعد أن عادوا من سلاميس ، وجدوا أن الفرس لم يكادوا يبقون على شيء من المدينة في أثناء احتلالهم إيها ، فقد أحرقوا كل بناء ذي قيمة فيها ، وتلك كارثة ، إذ لم تقبض على السكان كما تقبض على المدينة ، تزيد السكان قوة وصلابة ؛ كما أن هذه النيران تطهر المدينة من الأحياء القذرة والمباني غير الصالحة للسكنى ، وبذلك تعمل المصادفات ما يحول عناد الإنسان دون عمله ؛ وإذا ما وجد الأهلون الطعام في خلال هذه الأزمنة استطاعوا بجهودهم وعبقريتهم أن ينشئوا مدينة أجمل من المدينة المخربة . ولقد كان الأثينيون بعد الحرب الفارسية أغنياء بجهودهم وعبقريتهم ، وضاعفت روح النصر من قوة إرادتهم ومن رغبتهم في الإقدام على جلائل الأعمال ، فلم يمض جيل واحد حتى أعيد بناء أثينة ، فأقيم فيها بناء جديد لمجلسها ، وشيدت فيها دار جديدة للبلدية ، ومنازل جديدة ، وأروقة جديدة ذات أعمدة ، وأسوار جديدة لصدد المغيرين ، وأقيمت أرصفة ومخازن في مرفأها جديد . ذلك أن هودامسر Hippodamus الملطي أشهر من خططوا المدائن في الزمن القديم وضع أساس فرضة جديدة مكان بيرية ، ووضع هذا الأساس على طراز جديد ، فقام استبدال الحواضر القديمة وبالأزقة الملتوية التي كانت تشق في المدينة على

غير نظام شوارع واسعة مستقيمة تتقاطع متعامدة . وشاد فنانون مجهولون على ربوة تبعد عن الأكروبوليس بميل واحد ذلك البارثنون الأصغر المعروف بالثسيوم أو هيكل ثسيوس(*) . وملاً المثلون قواصر البناء ووجهاته بالنقوش المحفورة . وأنشئوا له إفريزاً فوق الأعمدة الداخلية القائمة على جانبيه . وطلّى الرسامون (الكرائيش) والخروز ، والواجهات والإفريز ، كما طلّوا بالألوان الزاهية الجدران من الداخل التي لا يدخل إليها إلا قليل من الضوء . ينفذ في المربعات الرخامية(**) .

وكان خير ما قام به البناؤون في عصر بركليز هو الأكروبوليس ، الحاضرة القديمة لحكومة المدينة ودينها ؛ وقد بدأ تمسكليز تجديده ، فاخترت هيكلًا طوله مائة قدم سمي لهذا السبب « ذا المائة قدم » Hecatompedon . فلما سقط تمسكليز وقف العمل في بنائه لمعارضة الحزب الأبحركمي في ذلك ، بحجة أنه إذا أريد إقامة بيت للإلهة أثينة لا يكون شوهاً على المدينة وجب أن يقام هذا البيت في موضع الهيكل القديم هيكل أثينة بولياس (أثينة المدينة) الذي دمره الفرس . لكن بركليز ، الذي لم يكن من طبعه أن يعنى بهذه الأوهام ، رأى أن يقيم البارثنون في موضع الهكتميلدون وسار في العمل وفقاً لهذه الخطة رغم احتجاج الكهنة . وشاد فنانونه على منحدر تل الأكروبوليس الجنوبي الغربي جهواً للموسيقى (أوديوم Odeum) يمتاز عن جميع أمهات أثينة

(*) وهذه التسمية خاطئة لأن هذا الهيكل الذي أقيم في عام ٤٢٥ لا يمكن أن يكون هو الثسيوم الذي جاء إليه سيمون في عام ٤٦٩ بمظلم ثستوس المزهومة ؛ لكن الزمن يفسق القدامى على الخطأ كما يغفها على المارقة ، ولهذا بقيت هذه التسمية التقليدية متداولة لأننا نموزنا التسمية المؤكدة الصحيحة .

(**) والثسيوم هو خير ما احتفظ به من المباني اليونانية القديمة ، ولكنه رغم العناية به تنقصه مريماته الرخامية ، وما كان حل جدرانه من الصور وبداخله من التماثيل ، وعلى قواصره من نقوش ، كما تنقصه جميع ألوانه الخارجية تقريباً . وقد لحقت أضرار كثيرة بواجهاته جعلت تمييز النقوش في حكم المستحيل .

بقبته المخروطية الشكل . وقد أتاح هذا البناء لهجائي بركليز المستمسكين بالتقديم فرصة اعتمموها فأخطوا من ذلك الحين يسمون رأس بركليز المخروطى « أودينه Odeion أى بهو غنائته » وأقيم معظم الأوديوم من الخشب فلم يلبث إلا قليلا حتى عدا عليه الدهر . وكانت تقام فيه الحفلات الموسيقية ، ويتدرب فيه الممثلون على تمثيل مسرحيات ديونيسس ، وتجربى فيه كل عام المباريات التى أنشأها بركليز فى الموسيقى الصوتية والوترية . وكثيراً ما كان هذا السياسى الذى نبغ فى كثير من الأعمال يقوم بالحكم فى هذه المباريات .

وكان الطريق الموصل إلى قمة التل فى الأيام القديمة ملتقياً متدرجاً ، على جانبيه تماثيل وقرابين الشكر للآلهة . وكان بالقرب من قمة التل مجموعة من الدرج الرخامية العريضة الفخمة تستند إلى بروج على كلا الجانبين . وشاد كلكراتيز فوق البرج الجنوبى أنموذجاً مصغراً لهيكل أيونى لأثينة فى صورة نيكى أبتروس Nike Apteros أو النصر غير ذى الجناح(*) . وكانت نقوش جميلة (لا يزال بعضها محفوظاً فى متحف أثينة) تزين الحاجز ذا العمدة الصغيرة هى وطائفة من التماثيل تمثل النصر المجنح وتحمل لأثينة الغنائم التى جاءت بها من أماكن قاصية . وقد صنعت هذه التماثيل على صورة أجمل تماثيل فدياس ، وهى أقل قوة وعنفاً من تماثيل الإلهيات الضخمة التى فى البارثنون ، ولكنها أكثر منها رشاقة فى حركتها ، وأرق أهنها وأقرب إلى الطبيعة فى شكل ملابسها ؛ وتمثال النصر الذى يربط خفيه خليقاً باسمه لأنه نصر خق للفن اليونانى .

وأقام نيسكليز Mnesicles فى أعلى سلم الأكربوليس مدخلا ذا خمس

(٥) كثيراً ما كانت تماثيل نصر تصنع من غير أبنية حتى لا تستطيع مدبرة المدينة . وقد هدم الأتراك هذا المعبد فى عام ١٦٨٧ م ليقصروا مكانه حصناً . واستطاع لورد إلجين Lord Elgin أن ينقل من المطب بعض قطع من الإفريز ويرسلها إلى المتحف البريطانى وفى عام ١٨٣٥ أعيدت أحجار الهيكل وأعيد بناؤه فى مكانه الأصل ، ووضع قوائم من الصلصال المحروق فى موضع الأماكن المفقودة من الإفريز التى أصابه كثير من الدمار .

فتحات أمام كل واحدة منها رواق ذو عمد دورية من طراز الأبواب الميسينية ، ولكنها أكثر منها إحكاماً . ومن هذه العمد أخذ الاسم الذى أطلق على البناء كله فيما بعد وهو البروبليا Propylaea أى ما أمام الأبواب . وكان لكل رواق إفريز ذو واجهة منحززة ، من فوقه قوصرة . وكان فى داخل الممشى طائفة من العمد الأيونية لم يتحرج من شادوها أن يضعوها داخل هذا المحيط الدورى . وزين داخل الجناح الشمالى برسوم من صنع بولخنوتس وغيره من الفنانين ، ووضعت فيه لوحات نذور من الأحمر أو الرخام ؛ ومن أجل ذلك سميت الهناكثكا Pinakotheka أى بهو الرخام . وبقى جناح صغير فى الجهة الجنوبية ناقصاً ، فقد تعطل العمل فيه بسبب الحرب أو بسبب الانتقاص على پركليز ، فترك مدخل البارثون مجموعة مشوهة من القطع الصغيرة المتفرقة الجميلة .

وكان إلى يسار الداخل من هذه الأبواب مزار الإركثيوم ذو الطراز الشرقى العجيب . وهذا أيضاً قد أدركته الحرب فلم يتم أكثر من نصفه حين وقعت أثينة فى مخالب الفوضى والفاقة على أثر نكبة إيجسپتامى Aegospotamai . وقد بدئ العمل فيه بعد موت پركليز بإيعاز المحافظين الذين كانوا يخشون أن يعاقب البطلان القديمان إركثيوس Erectheus وسكرپس Cecrops هما وأثينة ساكنة الضريح القديم ، والأفاعى المقلسة التى كانت تأوى إلى هذا المكان ، نقول كانوا يخشون أن تعاقب هذه كلها مدينة أثينة لأنها شادت البارثون فى مكان غير مكانه الأول . وكانت الأغراض المختلفة التى شيد من أجلها البناء هى التى عينت شكله ، وقضت على وحدته . فقد خصص أحد أجنحته لأثينة پولياس (أثينة المدينة) ، ووضعت فيه صورتها القديمة ، وخصص جناح آخر لإركثيوس وپسیدن ، ولم يكن يحيط بالحراب أو جسم المعبد رواق بين أعمدة بضم أجزاءه المتفرقة ، بل كان يستند إلى ثلاثة أرواق متفرقة . وكان المدخلان الشمالى والشرقى تسندهما عمد أيونية رفيعة لا تفوقها

في جمالها أية عمد أخرى من نوعها(*) . وكلن المدخل الشمالى بابا كامل البناء مزيتاً بأزهار مجفورة في الرخام . ووضع في المحراب تمثال أئينة الخشبي البدائي الذي هبط ، في اعتقاد الصالحين ، من السماء . وهناك أيضاً كان المصباح العظيم الذي لا تنطفئ ناره أبداً ، والذي صاغه كلمكس ، سلبيني Cellinus زمانه ، من الذهب المصفى وزينه بأوراق الأكتوس كتيجان الأعمدة الكورثية . وكان المدخل الجنوبي هو باب القداري أو الكورثيات Caryatids (***) الدائع الصيت . وأكبر الظن أن تلك النساء الصابرات كن من نسل حاملات السلال الشرقيات . وفي تراليس Tralles من أعمال أسية الصغرى عمود قديم في صورة امرأة لا يترك مجالاً للشك في أن هذا الطراز من العمود شرقي الأصل ، وأكبر الظن أنه بابلي . والثياب التي تغطي أجسام العذارى فاخرة ، ويدل انحناء الركبة عن أنهن مستريحات في وقفتهن ، ولكن أولئك الفتيات أنفسهن لا يشعرن الإنسان بأن فيهن من القوة ما يعينهن على حمل ذلك البناء ، كما يشعر الإنسان حين ينظر إلى أجمل أنواع الأبنية . لقد كان هذا انحرافاً في الذوق أكبر ظننا أن فدياس لم يكن يجيزه قط .

(*) لقد كانت هذه العمدة ، لا عمد البارثون ، هي التي أقيمت على مثالها العمدة التي أنشئت فيما بعد . وكان أسفل كل عمود يتصل بصف الأعمدة « بقاعدة أنكية » مكملة من ثلاثة أجزاء مربوطة بمصاهات شبكية أو أربطة . ويتدرج أعلى العمود حتى يصل إلى تاجه اللولبي برياط من الأزهار . وكان للدعامة المرتكزة على العمود حلقة عليها نقوش ، وإفريز من الحجر الأسود ، ومن تحت الطنف طائفة من النقوش البارزة . ولم تكن عناية الفنانين بحفر الحليات المكونة من أزهار البياضية ، والقنان ، والياسمين البري ، أقل من عنايتهم بالتأثيل نفسها . وقد نال الفنانون على كل قدم من هذه الحليات مثل ما نالوه من الأجر على كل صورة في الإفريز .

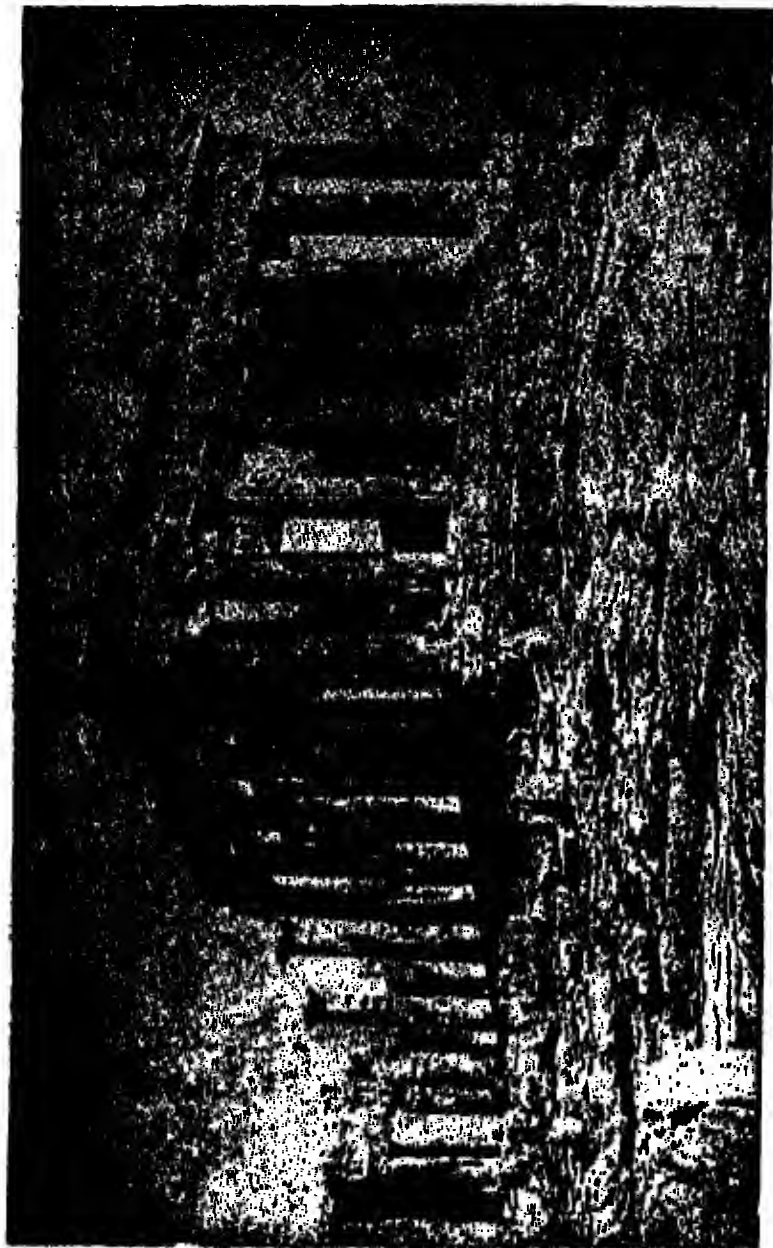
(**) كان المهندس الروماني قترونيوس Vitruvius هو الذي أطلق هذا الاسم على هذه الأشكال ، وقد أخذ من الاسم الذي كان يطلق على كاهنات أرتميس في مدينة كرية Caryae من أعمال لكونيا Loconia . أما الأثينيون فلم يسموهم بأكثر من كوراي Karai أي العذارى .

٣ - البارثنون

في عام ٤٤٧ بدأ إكتنوس ينشئ هيكلًا جديدًا. لأثينة پارثنوس يساعده ذلك العمل كلكراتيز Callicrates ويشرف عليها فدياس وبركليز. إشرافاً عاماً . وأنشأ في الطرف الغربي من البناء حجرة لكاهناتها العذارى سماها حجرة « العذارى » ton parthenos ، ثم استعير هذا الاسم على توالى الزمن فأطلق على البناء كله : واختار إكتنوس لبناء الهيكل رخام جبل بنتكلوس الأبيض المشوب بحبيبات حديدية ، ولم يستخدم في بنائه ملاطاً ، بل نحتت كتل الحجارة وصقلت بحيث تلمس كل كتلة في التي تليها كأن الاثنتين كتلة واحدة ، وثقبت صفحات الأعمدة ووضعت في ثقب الصفحة قطعة من خشب الزيتون تصل كلا منها بالأخرى وتدور على التي تحتها حتى سوى السطحان المتقابلان ويصقلان فلا يكاد يرى فارق بينهما^(٤٩) . وكان طراز البناء دورياً خالصاً وبسيطاً بسطة أبنية العصر الذهبي ؛ أما شكله فكان رباعياً لأن اليونان لم تكن تعجبهم الأشكال المستديرة أو المخروطية ، ومن أجل هذا لم تكن في العمارة اليونانية عقود وإن يكن المهندسون اليونان على علم بها من غير شك . ولم تكن أبعاد البناء كبيرة فهي ٢٢٨ × ١٠١ × ٦٥ قدماً ، وأكبر الظن أنه كان يسود البناء كله تناسب معين كالتناسب التي يفرضه قانون بليكليتس ، فكانت جميع مقاييسه تتناسب تناسباً معيناً مع قطر العمود^(٥٠) . ففي بسدونيا كان ارتفاع العمود أربعة أمثال قطره ، أما هنا فكان الارتفاع خمسة أمثال القطر ؛ وكان هذا المخطط الجديد وسطاً بين المئانة الاسبارطية والرشاقة الأتكية . وكان قطر كل عمود يزداد قليلاً من قاعدته إلى وسطه (نحو ثلاثة أرباع البوصة) ثم ينقص كلما علا ؛ ويميل نحو مركزه هو الأعمدة . وكان سمك كل عمود في ركن البناء يزيد قليلاً على سمك سائر الأعمدة ، وكل خط أفقى من قاعدة كل صف ومن الدخامة

المرتكزة عاياه ينحى إلى أعلى نحو وسط حتى إذا نظر إليه الإنسان من أحد طرفي هذا الخط الذى يظنه مستقيماً لم يستطع رؤية طرفه الثانى البعيد عنه . ولم تكن واجهات البناء كاملة الترتيب ، ولكنها خططت بحيث تظهر لمن ينظر إليها من أسفل كأنها مربعة . ولم تكن هذه الانحناءات كلها إلا تصحيحاً دقيقاً للخداع البصرى ، وأولها لبدت قواعد صفوف الأعمدة منخفضة فى وسطها مائلة نحو الخارج . وما من شك فى أن هذا الضبط يتطلب قدراً كبيراً من العلم بالرياضيات والبصريات ، وأنه كان من المظاهر الهندسية الآلية التى جعلت الهيكل صرحاً يجمع بين العلم والفن . فقد كان كل خط مستقيماً فى البارثون ، كما هو فى علم الطبيعة ، خطاً منحنياً ، وكان كل جزء من البناء ينسحب نحو الوسط ، كما هو الشأن فى التصوير ، انسحاباً دقيقاً بارعاً . وقد نشأ من هذا كله نوع من المرونة والرشاقة يخيل إلى الإنسان معه أنه يخلع على الحجارة نفسها حياة وحرية .

وكان فوق العارضة البسيطة (العارضة الراكزة على الأعمدة) سلسلة من الحزوز والأجنبة (ما بين الحزوز) تلى كلتاها الأخرى . وقد نقشت على الأجنبة الاثني والتسعين نقوش بارزة تقص مرة أخرى كفاح « الحضارة » و « الوحشية » فى حروب اليونان والطوراديين ، واليونان والأمزونيّات ، والليثيين والقناطره (Centaurs) ؛ والجبابرة والآلهة . ولا شك فى أن هذه الألواح من صنع فنّانين سبرين يغتازون فى مهارتهم ، فهى لا تعادل النقوش البديعة التى على إفريز المذاب وإن كانت بعض رؤوس القناطرة لا تقل دقة وجمالاً عن صور رمبرانت Rembrandt ، وإن كانت هذه الرؤوس قد صنعت من الحجارة . وكان فى قواصر السقف المرمى طائفة من التماثيل المقامة من حجارة منحوتة كبيرة الحجم ، وفى القوصرة الشرقية المقامة فوق المدخل . كان يسمح للزائر أن يشهد مولد أثينة



(شكل ٣٢) البارودية

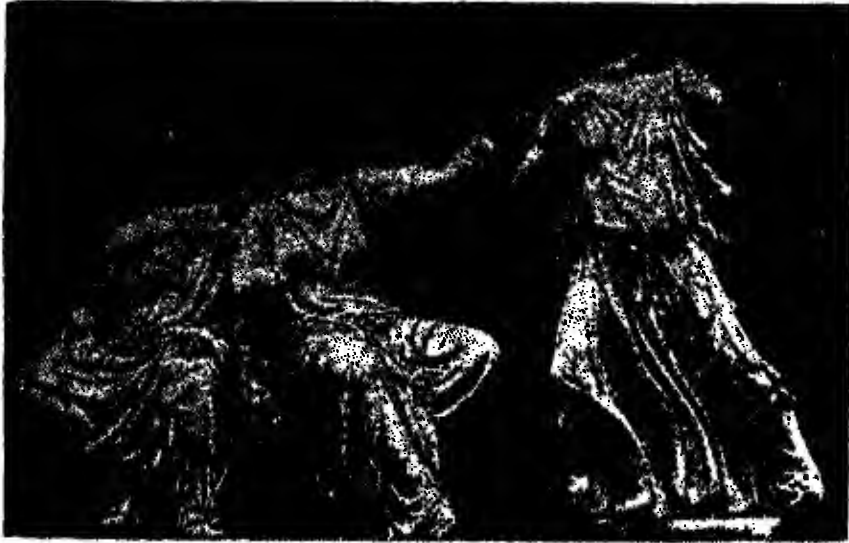
من رأس زيوس . وفي هذا المكان يشاهد تماثلاً متكثراً لثيوس (*) قوى
الجسم جياراً ، قادراً على تفكير الفلاسفة وسكون المتحضرين ، وتماثلاً جميلاً
لإيريس Iris (وهي هرمس في صورة نسوية) في ثياب ملتصقة بجسمه
ولكنها تلعب بها الريح ، لأن فدياس كان يرى أن الريح التي لا تلعب
بالثياب تثير سوء .

وهناك أيضاً كان تماثل فخم لهبي Hebe إلهة الشباب التي كانت تصب .
الرحيق في كؤوس الآلهة الأولمبية ، وثلاثة تماثيل رائعة « للأقدار » . وكان
في الركن الأيسر أربعة رؤوس جياذ - تشرق أعينها ، وتنخر مناخيرها ،
وتزيد أفواها وهي مسرعة في علوها ، تعلن شروق الشمس . وكان الركن
الأيمن يسوق القمر للمغيب عربته ذات الجياذ الأربعة والرؤوس الثمانية أجمل
رؤوس للخيل . في تاريخ النحت كله . وفي القوصرة الغربية نرى أثينة تنازع
بسيدين السيادة على أتكا . وهناك أيضاً كانت خيول ، كأنها وضعت لتكفر
عن سخافات الإنسان الكثيرة ، وكانت هناك تماثيل لأناس متكئين تمثل في
فخامتها غير الواقعية نهيرات أثينة الصغيرة . ولعل تماثيل الرجال كانت
كثيرة العضلات فوق ما يجب ، ولعل تماثيل النساء كانت أكبر مما ينبغي ،
ولكننا نشاهد تماثيل قد تجمعت بحالتها الطبيعية التي تجمعت بها هنا ، وقلما
نرى تماثيل بهذه الكثرة قد نسقت في ذلك المكان الضيق من قوصرة البناء .
وبصفتها كنوفا Canova وصفاً لا نشك أنه قد غالى فيه فيقول : « إن سائر
التماثيل من حجارة أما هذه فمن لحم ودم » .

وأجمل من هذه وأكثر منها جاذبية صور الرجال والنساء التي في الإفريز ،
فهنا نشاهد أشهر النقوش كلها على الإطلاق تمتد إلى مدى ٥٢٥ قدما في أحد
الجدران الخارجية للمحراب ، وفي داخل الرواق . وأكبر الظن أن هذه

(٥) إن الأسماء التي نطلقها على التماثيل القائمة في البارثونون ظنية في أكثر الأحيان .

النقوش تمثل فتيان أتكا وفتياتها يقدمن الهدايا وفروض الطاعة للإلهة أثينة
في يوم الاحتفال بألعاب الجامعة الأثينية ، فترى جزءاً من الموكب يتحرك
بمحاذاة الجانبين الغربي والشمالي ، وجزءاً آخر يتحرك بمحاذاة الجانب
الجنوبي ، ثم يلتقيان في الواجهة الشرقية أمام الآلهة ، وهي تقدم في فخر
وكبرياء هدايا المدينة وجزءاً من مغانمها إلى زيوس وغيره من الآلهة الأولمبية .
وهناك أيضاً فرسان حسان تتمثل فيهم المهابة والرشاقة فوق خيول أجل
منهم ، وعربات تقل طائفة من كبراء المدينة تتبعهم جماعات من العامة تبدو
عليهم مظاهر السعادة وهم يسرون في الموكب رجلاً . ونرى فتيات حسناً ،
وشيوخاً هادئين يحملون أغصان الزيتون وصحاف الكمك ، ونرى الخلم
وعلى أكتافهم أباريق من الخمر المقدسة . ونساء موقرات يحملن إلى الإلهة
الأثواب الخارجية التي نسجتها وطرزتها استعداداً لهذا اليوم المقدس وقبل أن
يحل بزمن طويل . وترى الأضحية تمشي لتلاقي مصيرها وهي صابرة
كالأثوار أو غاضبة عارفة بما ينتظرها من بلاء ، وعذارى الطبقات الراقية
يأتين بآنية الطقوس والتضحية ، وموسيقيين يعزفون على القيثارات أناشيد
خالدة لا تسمع لها نغماً . وقلما نرى حيوانات أو أناسي قد بذل في تكريمها
من الفن مثل ما بذل في هذه النقوش ، فقد استطاع المثلون بما رسموا وظللوا
فيها لا يزيد على بوصتين ونصف بوصة من النقش البارز أن يخدعوا العين
فيخيل إليها أن جواداً أو فارساً بعيداً عن آخر ، وإن كان أقربها لا يرتفع
عن خلفية الصورة أكثر من سائر النقوش^(٥١) . ولربما كان من الخطأ أن
يكون هذا النقش البديع عالياً لا يستطيع الناظر إليه أن يتأمله في يسر وراحة
ويستوعب كل ما فيه من رونق وجمال ، وما من شك في أن فدياس كان
يتعلم عن هذا وهو يغمز بعينه بحجة أن الآلهة كانت تستطيع رؤيته ؛
ولكن الآلهة كانت تحتضر وهو ينقش هذه النقوش .



(شكل ٣٣) إلامات و « إيزيس »
القوسرة الشرقية لپارثون (المتحف البريطاني)



(شكل ٣٤) سكريس وابنته
القوسرة الغربية لپارثون (المتحف البريطاني)

وكان مدخل الهيكل الداخلى تحت الآلهة الجالسة المنقوشة فى الإفريز . وكان داخل هذا الهيكل صغيراً نسبياً لأن معظم الفراغ كانت تشغله صفوف من الأعمدة الدورية التى تحمل السقف وتقسّم المحراب إلى صحن ومسيب ، وفى الطرف الغربى كان سنا أبواب أئينة الذهبية يذهب بأبصار عبادها ، وكان رجبها ودروعها وأفاعها توقع الرعب فى قلوبهم . وكان من خلفها حجرة العذارى تزينها أربعة أعمدة دورية الطراز . وكان فى الألواح الرخامية التى تغطى السقف من الصفاء ما يسمح بتفاد بعض الضوء إلى صحن المحراب ، ومن العتمة ما يكفى لمنع الحرارة عنه ؛ هذا إلى أن التقي ، كالحب ، يصد عن المتقين حر الشمس . وكانت الطنف منقوشة نقشاً دقيقاً بذل فيه كثير من العناية ، وكانت تعلوها وقايات من الآجر ركبت فيها ميازيب لإزالة مياه الأمطار . وكانت أجزاء كثيرة من الهيكل مظلّية بالألوان الزاهية الصفراء والزرقاء والحمراء . فأما الرخام فقد طلى باللونين الزعفرانى واللبنى ، وكانت الحروز وبعض النقوش زرقاء ، وكذلك كانت أرضية الإفريز . أما الواجهة فكانت حمراء ، وكان كل ما فيها من الصور ملوناً (٥٢) . وقد فضل اليونان الألوان الناصعة على الألوان الهادئة لأنهم شعب اعتاد جو البحر الأبيض المتوسط ولأن فى طاقته أن يتحمل الألوان البراقة ، بل هو يفضلها عن الألوان الخفيفة الهادئة التى توائم جو شمال أوروبا القائم . والآن وقد تجرد البارثنون من ألوانه فإنه يبدو أجمل ما يكون فى الليل حين تظهر من الفراغ الذى بين العمود مناظر السماء المتغيرة ، أو منظر القمر معبود الأقدمين ، أو أضواء المدينة النائمة مختلطة بتألاً النجوم (*) .

(*) لقد كان الذى أبقى على البارثنون ، كما أبقى على الإركثيوم والتسيوم ، هو أن هذه الهياكل حولت إلى كنائس ؛ ولم تكن هذه المبانى تحتاج فى هذا التحويل إلى تغيير كبير فى أسماها . لأنها فى كلتا الحالتين مخصصة للدرام . وحول البارثنون بعد أن احتل الترك البلاد فى عام ١٤٥٩ إلى مسجد وأقيمت فيه مثذنة . ولما حاصر البنادقة مدينة أئينة فى عام ١٦٨٧ استخدم الأتراك الهيكل ليخزنوا فيه كل يوم ما تحتاجه مدينتهم من الباد . ولما أبلغ هذا =

لقد كان الفن اليوناني أعظم ما أبدعه اليونان ؛ ذلك أن روائحه ، وإن لم تقو على مقاومة عوادي الأيام ، قد بقي من صورتها وروحها ما يكفي لأن يجعلها نبراساً تهتدى به كثير من الفنون ، ووحياً يلهمها مدى كثير من الأجيال وفي كثير من البلدان . ولقد كان في هذا الفن أخطاء ، شأنه في هذا شأن كل عمل يعمله الإنسان ؛ ولقد كانت التماثيل تعنى بالجسم فوق ما يجب أن تعنى به ، وقلما كانت تنفذ إلى الروح ؛ فهي تحملنا على الإعجاب بكاملها ، لا بالشعور بما فيها من حياة . وكان شكل المباني وطرازها محصورين في حدود ضيقة ، وظلت هذه المباني مدى ألف شكل منشئة بالشكل الرباعي البسيط الذي أخذته عن المباني الميسينية(*) ، ولم تكن تبتدع شيئاً في غير ميدان الدين ؛ ولم تحاول إلا طرق البناء السهلة ، وتجنبت الأساليب الصعبة كالأقواس والقباب ، ولعلمهم لو أقدموا عليها لوجدوا فيها

= الخبير لقائد البنادقة أمر بأن تطلق نيران مدافعه على البارثون ، واختزقت قلبه سفك الهيكل ونسف البارود وغرقت نصف البناء . ولما استول. مروسيني Morosini على المدينة حاول أن يهيب تماثيل اقواسر ، ولكنها سقطت من عماله وهم ينزلونها من أماكنها وتحملت . وفي عام ١٨٠٠ م حصل لورد إلجين ، سفير بريطانيا في تركيا ، على إذن من الباب العالي وأن يتولى بعض التماثيل والنقوش إلى المتحف البريطاني حيث تكون ، على حد قوله ، أكثر أمناً من تقلبات الجو وخطر الحروب . وكان من بين ما ضمنه هذه الطريقة اثنا عشر تماثلاً ، وخمسون لوحة من لوحات الواجهة ، وست وخمسون قطعة من الإفريز . وأشار خبير لنت في المتحف البريطاني بعدم شراء هذه الآثار ، ولم يوافق المتحف على أداء ١٧٥٠٠٠ ريال أمريكي ثمناً لما إلا بعد مفاوضات دامت عشرين سنة . وكان هذا المبلغ أقل من نصف ما أنفقه لورد إلجين في الحصول عليها ونقلها (٥٣) . إلى إنجلترا؛ وأطلقت المذبح مرتين على الأكر بوليس في أثناء حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ - ١٨٣٠) بعد بضع سنين من ذلك الوقت ودمر بذلك جزء كبير من هيكل الإركثيوم (٥٤) . ولا تزال بعض أجزاء من جهة البارثون في أماكنها ، وبعض ألواح من الإفريز في متحف أثينا ، وعد قابل غيرها في متحف اللوفر . ولقد شاد سكان ناشفيل ، وتنتي ، نماذج البارثون بأبعاده الأصلية ومن نفس المواد التي استخدمت في بنائه ؛ ومبلغ علمنا أنها زيت ولوننت بنفس الزينات والألوان . ويحتوى المتحف الفنى بنينوبورك على نموذج ظني لدخول الهيكل .

(*) وفي مقدور الإنسان أن يلحظ أيضاً عدم النظام في الإبنية المقامة على الأكر بوليس وفي الأبنية المقدسة بألمانيا . ولكن يصعب عليه أن يحكم هل كان عدم النظام هذا ناشئاً من فساد في اللوحة أو أنه كان مصابفة من مصادفات التاريخ .



(شكلى ٢٠) فورسان من الإبريق الكبري الجارثون في كنهف كبريضان

حيادين للعمل واسعة . وكانوا يقيمون سقفهم بالطريقة غير الحميلة طريقة العمد الداخلية المقامة بعضها فوق بعض . وكانوا يزحون داخل هياكلهم بالتأثيل التي لا يتناسب حجمها مع حجم البناء الكلي ، وكانت زيتها تنقصها البساطة والتحفظ اللذين يتوقع الإنسان وجودهما في طراز أبنية العصر الذهبي . على أنه مهما تكن أغلاط ذلك الفن فإنها لا ترجح تلك الحقيقة الماثلة في الأذهان ، وهي أن الفن اليوناني قد خلق على طراز أبنية العصر الذهبي . وجوهر هذا الطراز — إذا سمح لنا أن نذكر مرة أخرى موضوع هذا الفصل قبل أن نختمه . — من حيث نظامه وشكله هو : التوسط والاعتدال في التخطيط والتصميم والتغيير . والتزيين ، والتناسب بين الأجزاء ، والوحدة التي تشملها كله ، وعلو سلطان العقل دون أن يفضى بذلك على الشعور ، والكمال الهادي الذي يقنع بالبساطة ، والسمو الذي لا يدين بشيء إلى انضمامه . ولم يكن لطرز من الأبنية اللهم إلا الطراز القوطي ، من الأثر مثل ما كان لهذا الطراز ، والحق أن التأثيل اليونانية لا تزال هي المثل الأعلى في فنها ، وقد ظلت العمدة اليونانية حتى أمس القريب هي المسيطرة على فنون العمارة تحول دون قيام طرز أخرى أجمل منها وأوقع في النفس . وإن من الخير أننا قد أخذنا نتحرر من سيطرة الفن اليوناني لأن كل شيء ، حتى الكمال نفسه ، يصبح ثقيلابغيضاً إذا لم يتغير . ولكننا بعد أن يتم تحريرنا بزم من طويل سنجد علما وحافزاً في هذا الفن الذي كان حياة العقل ممثلة في ذلك الطراز ، وهو خير ما أهدهته بلاد اليونان إلى بني الإنسان .

الباب الخامس عشر

تقدم العلوم

لقد ظهر النشاط الثقافي في عصر بركليز في ثلاثة أشكال رئيسية - هي الفن والتشيل والفلسفة : وكان الدين الملهم لأولها ، وميدان القتال الملهم لثانيها ، والتضحية هي الملهمة لثالثها . وإذ كان تنظيم الجماعة الدينية يتطلب وجود عقيدة مشتركة . مستقرة ، لأن كل دين لا بد أن يتعارض عاجلاً أو آجلاً مع تيار التفكير الديني السائد المتبدل الذي نطلق عليه بحق اسم تقدم المعرفة . ولم يكن هذا التعارض في أثينة ظاهراً للعين على الدوام ، ولم يؤثر في جمهرة الشعب تأثيراً مباشراً ، فقد كان العلماء والفلاسفة يواصلون عملهم دون أن يهاجموا العقائد الدينية للشعب مهاجمة صريحة ، وكثيراً ما كانوا يخففون من حدة النزاع باتخاذ المصطلحات الدينية القديمة رموزاً أو استعارات لعقائدهم الجديدة ، ولم يظهر هذا النزاع سافراً ويصبح مسألة حياة أو موت إلا في فترات متفرقة كما حدث حين وجهت التهم إلى أنكساغوراس ، وأسازيا ، وديوجراس الميلوسى Diogaras of Melos ويوربديز ، وسقراط . ولكن النزاع رغم خفائه كان موجوداً بحق ، وكان تياره يسرى في عصر بركليز ، وكان من الموضوعات الكبرى التي تشغل الأذهان ؛ كما كان يظهر في صور وأشكال مختلفة قوياً تارة وضعيفاً تارة أخرى . وأوضح ما كان يسمع في أحاديث السوفسطائيين المتشككة ، وفي آراء دمقريطس المادية ، وكانت أصداؤه الخفية تتردد في آراء إسكلس الصالحة التقية ، وفي زندقة يوربديز وحتى في أقوال أرسطوفان المحافظ المليئة بالهزل وقلة الاحتشام . وظهرت مرة أخرى قوية في محاكمة سقراط وموته . ذلك هو الموضوع الذي تدور حوله الحياة العقلية لأثينة في عصر بركليز .

الفصل الاول

علماء الرياضة

كان العلم الخالص في بلاد اليونان في القرن الخامس لا يزال يسير في ركاب الفلسفة ، وكان يدرسه ويعمل على ترقيته رجال فلاسفة أكثر منهم علماء : ولم تكن علوم الرياضة العليا في نظر اليونان أداة عملية بل كانت منطقية ، تهدف إلى التركيب الذهني للعالم المعنوي أكثر مما تهدف إلى السيطرة على البيئة المادية الطبيعية .

ويكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكون علماً بدائياً لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهديب(*) ، فكان يرمز لرقم ١ بشرطة عمودية ولرقم ٢ بشرطتين ، وبثلاث شرط لرقم ٣ وبأربع لرقم ٤ ، وكانت الأعداد ٥ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التي تسمى بها هذه الأعداد وهي : بنتي pente ، وديكا deka ، وهكتون hekalon ، وكليوي chilioi ، مريوي myrioi . ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزاً للصفر . وبما يدل على أن علم الحساب اليوناني كعلم الحساب عندنا ، مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشري فكان اليونان يعدون بالعشرات ، وأنه أخذ عن البابليين في علمي الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثني عشرية والسنتينية فكانوا يعدون في هذين العلمين بالاثني عشرات والسنتينات ، ولا يزال نحن نستخدم هذه الطريقة في الساعات وعلى الكرات الأرضية والخرائط

(٥) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هي كتابة الأرقام الحسابية بعد ذلك العهد ليقدر الفصل الأول من الباب الثامن والعشرين (ولعل ما جاء به ينطبق على عصر بركليز أيضاً)

الجغرافية . ولعل العامة كانوا يستعينون بمعداد لإجراء عمليات الحساب السهلة . أما الكسور الاعتيادية فكانت تسبب لهم عناء شديداً ، فكانوا إذا أجروا عملية حسابية تحتوي على كسر اعتيادي بسطه أكبر من ١ حولوا هذا الكسر إلى عدة كسور بسطها كلها ١ فالكسر الاعتيادي $\frac{1}{3}$ مثلاً كان يقسم $\frac{1}{3} + \frac{1}{6} + \frac{1}{6}$ (٢) (*)

وليس لدينا معلومات مدونة عن الجبر عند اليونان قبل التاريخ المسيحي . أما الهندسة النظرية ، فكانت من الدراسات المحبة إلى الفلاسفة ، ولم تكن تدرس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها اللغوية النظرية . وما فيها من استدلال منطقي خلاب ، وما فيها من دقة ووضوح ، وتفكير متتابع يبنى بعضه على بعض : وكانت ثلاث مسائل بوجه خاص تسترعى انتباه هؤلاء العلماء الرياضيين الباحثين فيما وراء الطبيعة ، وما يدل على ما أصبح للمشكلة الأولى من شأن عندهم أن شخصية من شخصيات مسرحية الطيوز لأرسطوفان تمثل ميتون Meton تأتي إلى المسرح بمسطرة وقرطاس وتعلن أنها سترى النظارة كيف « تحول الدائرة إلى مربع » أي كيف يرسم مربع مساحته تساوي مساحة دائرة معلومة . ولعل هذه المسائل وأمثالها هي التي جعلت الفيثاغوريين المتأخرين يضعون قواعد الأعداد الصماء والكميات غير المناسبة (**). كذلك كانت دراسات الفيثاغوريين لقطع المكافئ ، والقطع الزائد ، والقطع الناقص هي التي مهدت السيل إلى مونتف

(*) لقد كان كتبة الدوائر الزراعية إلى عهد قريب يقولون مثلاً : نصف وربع وثلث . يدل $\frac{1}{3}$ وفي « سورة القدان » أمثلة كثيرة من هذه الطريقة . (لترجم)

(**) الأعداد الصماء هي الأعداد التي لا يمكن التعبير عنها بعدد كامل ، أو كسر من عدد كالجذر التربيعي للعدد ، والكميتان غير المتناسبتين هما الكميتان اللتان لا يمكن إيجاد كمية ثالثة بينها وبينهما نسبة يمكن التعبير عنها بعدد غير أصم ، كضلع المثلث وقطره ، ونصف قطر الدائرة ومحيطها .

أبولونيوس الپرجى Appolonius of Perga فى القطاعات المخروطية ، وهو المؤلف الذى كان عظیم الشأن فى تاریخ العلوم الرياضية^(٢). وفى عام ٤٤٠ ق.م. نشر أبقرات الطشيبوزى (وهو غير أبقرات الطيب) أول كتاب معروف فى الهندسة النظرية وحل مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين^(*). وفى عام ٤٢٠ أفلح هيلياس الإليائى Hippias of Elis فى تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى ، وحوالى عام ٤١٠ أعلن دمقريطس الأبدرى على الملأ قوله : « لم يفقنى أحد قط ولا المصريون أنفسهم فى رسم خطوط حسب شروط معلومة »^(٤) ؛ وكاد يفلح فى تبرير هذا الازدهاء بتأليف أربعة كتب فى الهندسة النظرية ، ووضع قوانين لمعرفة مساحتى المخروط والمهرم^(٥). وملاك القول أن براعة اليونان فى الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضعفهم فى الحساب . وكان للهندسة شأن عظیم فى جميع نواحي نشاطهم ، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالاً كثيرة للحل المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم ، وحددت النسب بز أجزاء البارثون ومنحنياته .

(*) هو شكل ملال يحدث من تقاطع قوسى دائريين .

الفصل الثاني

أنكساغوراس

كان من مظاهر النزاع القائم بين الدين والعلم أن حرمت الشرائع الأثينية دراسة علم الفلك في الوقت الذي بلغ فيه عصر بركليز أعلى درجاته^(٦). وكان هذا العلم قد خطا خطواته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن أنبادوقليس في أكرجاس أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى^(٧). ثم خطا خطوة ثانية حين أعلن بارمنيدس في إيليا Elea أن الأرض كرية الشكل ، ثم قسم هذا الكوكب الأرضي إلى خمس مناطق ، وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام^(٨). ثم قام فيلولوس Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزله منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التي تطوف حول « نار تتوسطها » جميعاً^(٩) : وجاء لوقيبوس Leucippus تلميذ فيلولوس. فقال إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد « تندفع في مجرى الحركة العالمية للدوام الدائرية » ومن تجمع هذه المواد وتركزها^(١٠). وقام في أبلرا دمقريطس تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية ، فوصف الحجر بأنها مكونة من عدد لا يحصى من النجوم الصغرى ، ولخص التاريخ الفلكي بقوله إنه تصادم دوري وتحطيم لعدد لا يحصى من العوالم^(١١). وفي طشيوز كشف إينوبديز انحراف منطقة البروج^(١٢) وجملة القول أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكاد يكون خلواً من الآلات العلمية .

فلما حاول أنكساغوراس أن يقوم بمثل هذه الأعمال في أثينة وجد أن مزاج الأهلين ومزاج الجمعية معاديان للبحث الحر بقدر ما كانت صداقة بركليز

مشجعه له . وكان أنكساغوراس قد أقبل على أثينة من كلزميني *Chlazomenae* حوالى عام ٤٨٠ ق . م . وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وحبب إليه أنكسيمانس *Anaximenes* دراسة النجوم إلى حد جعله يقول جواباً عن سؤال وجهه إليه بعضهم عن الغرض من الحياة : « هو البحث عن حقيقة الشمس والقمر والسماء (١٢) » . وأهمل العناية بالثروة التى خلفها له والده وصرف وقته فى رسم خريطة للأرض والسماء ، وحلت به الفاقة فى الوقت الذى رحبت فيه الطبقات فى أثينة بكتابه فى الطبيعة وعدته أعظم الكتب العلمية التى ظهرت فى ذلك القرن .

وكان هذا الكتاب حلقة من سلسلة البحوث العلمية التى قامت بها المدرسة الأيونية ، وفيه يقول أنكساغوراس إن العالم كان فى بادئ الأمر فوضى أوعاء مكونة من بلور مختلفة الأنواع (*spermata*) ، يسرى فيها فكر (*nous*) أو عقل مادى ، لطيف ، قوى الصلة بأصل الحياة والحركة فى الآدميين ، وكما أن العقل يصدر الأوامر إلى الفوضى التى تسود أعمالنا ، فكذلك أصدر العقل العالمى أمره إلى البنور الأولية فبعث فيها دوامة رحوية(*) ، وهداها إلى طريق نشأة الأشكال العضوية(١٣) . وقسم هذا الدوران البنور إلى الأركان أو العناصر الأربعة - النار ، والهواء ، والماء ، والأرض - وقسم العالم طبقتين دوارتين طبقة خارجية مكونة من « الأثير » وأخرى داخلية مكونة من الهواء . وبسبب هذه الحركة الدوارة العنيفة انتزع الأثير النارى الملتف حول الأرض حجارة من الأرض وأضاءها فكانت نجوماً(١٤) . والشمس والنجوم فى رأيه كتلة من الصخور حمراء متوهجة أكبر من الهلويونيز مراراً كثيرة(١٥) . وحين تضعف حركتها الدائرية تسقط أحجار الطبقة الخارجية على الأرض فتكون شهباً(١٦) .

(*) هذه هى الدوامة التى يسخر منها أرسطوفان فى كتابه « السحب » سخريه لازمة ويقول إن سقراط قد استبدل بها زيوس .

والقمر جسم صلب متوهج ، في طححه سهول وجبال وأخاديد (١٧) ، يستمد ضوءه من الشمس ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض (١٨) .
« ويخسف القمر إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس كما تكسف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين كالأرض (١٩) » . وربما كانت بعض الأجرام السماوية مسكونة عليها خلائق الأرض ؛ وعليها « يتكون أناس وتتكون حيوانات أخرى ذات حياة ؛ ويسكن الناس المدن ، ويزرعون الأرض كما نزرعها نحن (٢٠) » . وقد نشأ من التكثف المتتابع للطبقة الداخلية أو الغازية من طبقتي كوكبنا سحب ، وماء ، وتراب ، وحجارة . وتنشأ الرياح من رقة الجوالناشئة من حرارة الشمس كما « ينشأ الرعد من تصادم السحب والبرق من احتكاكها (٢١) » ، وكية المادة ثابتة لا تتغير ، ولكن الأشكال جميعها تبدأ ثم تزول ، وستصبح الجبال في مستقبل الأيام بحاراً (٢٢) .
وينشأ كل ما في العالم من أشياء وأشكال يتجمع أجزاء متماثلة homoimeria وفقاً للنظام يزداد تحديداً على مدى الأيام (٢٣) . وقد ولدت جميع الكائنات العضوية في بادئ الأمر من التراب ، والرطوبة ، والحرارة ، وبذلك نشأ بعضها من البعض الآخر (٢٤) . وقد تطور الإنسان أكثر مما تطورت سائر الحيوانات لأن قامته المعتدلة أطلقت يديه فاستطاع بهما أن يمسك الأشياء (٢٥) ..

وأصبح أنكساغوراس بفضل ما حققه من النتائج وهي وصفه أساس علم الظواهر الجوية ، وتفسير الكسوف والخسوف تفسيراً علمياً صحيحاً ، ووضع فرض معقول لتكوين الكواكب السيارة ، وإدراكه أن القمر يستمد نوره من الشمس ، وقوله بتطور الحياة الحيوانية والبشرية - أصبح بفضل هذه النتائج كوبرنيقي ذلك العصر ودارونه معاً . ولعل الأثينيين كانوا يعفون عن هذه الآراء لو أن أنكساغوراس لم يهمل تفسير منشأ عقله ومواهبه فيما فسر من حوادث طبيعية وتاريخية ؛ ولعلمهم ظنوا أنه

لجأ إلى هذا الصمت ، كما :^{٢٧٠} . بيديز في إحدى تمثيلياته إلى « آلة إسقاط الآلهة من السماء » لينجو بها من غضب مواطنيه . ويقول عنه أرسطاطاليس إنه كان يبحث عن العلل الطبيعية لكل شيء . من ذلك أنه جرى لبركليز بكبش ذى قرن واحد في وسط جهته وقال أحد العرافين إنه نذير من نذر الآلهة ، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان وأظهر للحاضرين أن مخه قد نما في مقدم الجبهة بدل أن يملأ جانبي الجمجمة كلها ، فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد^(٢٧١) . وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب على أساس القوانين الطبيعية ، وأرجع كثيراً من الشخصيات الأسطورية إلى تجسيم المجرذات العقلية^(٢٧٢) .

وصبر عليه الأثينيون وداروه إلى حين ، وكل ما فعلوه به أن أطلقوا عليه لفظ nous (الفكر - العقل)^(٢٧٣) . فلما لم يجد كليون Cleon الذى كان يناقش بركليز في تزعم الشعب وسيلة أخرى يضعف بها خصمه اتهم أنكساغوراس بالإلحاد لأنه وصف الشمس (وكانت لا تزال في نظر الشعب إلهاً من الآلهة) بأنها كتلة من الحجارة المحترقة ، ولم يترك وسيلة يستعين بها على تأييد دعواه إلا اتبعها . وأدين أنكساغوراس رغم دفاع بركليز المجيد عنه^(*) . ولم يكن أنكساغوراس راغباً في تعاطي عصبر الشوكران السام ، ففر إلى لمبسكوس Lampasacus على مضيق الهلسينت ، وأخذ يكسب عيشه بتدريس الفلسفة^(**) . ولما تراءى إليه أن الأثينيين حكموا عليه بالإعدام قال : « لقد قضت الطبيعة عليهم وعلى هذا الحكم من زمن بعيد^(٢٧٤) » . ومات بعد بضع سنين من ذلك الوقت في الثالثة والسبعين من عمره .

(*) حوالى ٤٣٤؛^(٢٧٠) . وفي رواية أخرى أن المحاكاة حدثت في عام ٤٥٠؛^(٢٧١) .
(**) وفي رواية أخرى أنه سجن في أثينة ، وظل ينتظر أن يسق كأس السم ولكن بركليز دبر له أمر هروبه

ويرى تأخر الأثينيين في علم الفلك واضحاً في تقويمهم ؛ ذلك أنه لم يكن لليونان تقويم عام بل كان لكل دولة تقويم خاص بها ، وكانت كل نقطة من النقاط الأربع التي يصح اتخاذها بداية للسنة الجديدة متبعة في مكان ما من بلاد اليونان ؛ وحتى الشهور نفسها كانت تتغير أسماؤها في الدويلات المختلفة ، فكان تقويم أتكا يحسب الشهور بمنازل القمر والسنين بأبراج الشمس^(٣٤) . وإذا كان في كل اثني عشر شهراً قمرياً ٣٦٠ يوماً^(*) فقط ، فقد كانوا يزيدون شهراً على كل سنتين لكي يتفق حساب السنة مع حساب الشمس والفصول^(٣٥) . وهذا الحساب نفسه يجعل السنة تطول عشرة أيام فوق ما يجب أن تكون ، ولذلك وضع صولون النظام الذي يقضى بأن تكون أيام الشهور القمرية ٣٠ يوماً و ٢٩ بالتناوب مقسمة إلى ثلاثة أسابيع (ديكاوى) في كل أسبوع عشرة أيام (أو تسعة في بعض الأحيان)^(٣٦) . وتبقى بعد هذا أربعة أيام صححها اليونان بحذف شهر من كل ثمان سنين ؛ وبهذه الطريقة الملتوية التي لا يكاد يدركها العقل وصل اليونان آخر الأمر إلى اجتساب السنة ٣٦٥ يوماً و ربيع يوم^(**) .

وحدث في هذه الأثناء تقدم قليل في علم الجغرافية . فقد فسر أنكساغوراس فيضان النيل السنوي تفسيراً صحيحاً بقوله إنه ينشأ من ذوبان جليد بلاد الحبشة في فصل الربيع ومن سقوط الأمطار فيها^(٣٨) . وفسر علماء طبقات الأرض اليونان وجود مضيق جبل طارق بأنه نتيجة لتشقق الأرض من أثر زلزال ، كما فسروا وجود جزائر بحر إيجه بأنه ناشئ من انخفاض قاع البحر^(٣٩) . وقال زثنوس اللبدي Zainhus of Lydia حوالى ٤٩٤ إن البحرين الأبيض المتوسط والأحمر كانا في الزمن القديم متصلين أحدهما بالآخر عند السوس ، وسجل إسكلس ما كان

(*) ليست السنة القمرية ٣٦٠ يوماً بل هي حوالى حوالى ٣٥٤ . (المترجم) .
(**) يشر هيرودوت إلى فضل التقويم المصرى على التقويم اليونانى . وقد أخذ اليونان من المصريين للزولة وأغلوا من آسية المائة واتخذوها وسهلين لحساب الزمن .

يعتقده أهل زمانه من أن صقلية قد انفصلت من إيطاليا نتيجة لاضطراب
في القشرة الأرضية^(٤٠) . وارتاد إسكيلاكس الكارى Scylax of Caria
(٥٢١ - ٤٨٥ ق . م) جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود .
ويبدو أن أحداً من اليونان لم يجازف بالقيام برحلة استكشافية كالرحلة التي
قام بها هنر Hanno القرطاجي بأسطول مؤلف من ستين سفينة ، اخترق به
مضيق جبل طارق وسار به نحو ٢٦٠٠ ميل بإزاء الساحل الغربي لإفريقية
(حوالى ٤٩٠ ق . م) . وكانت خرائط عالم البحر الأبيض المتوسط منتشرة
في أثينة في أواخر القرن الخامس . أما الطبيعة فبلغ علمنا أنها لم تتقدم على
أيدي اليونان وإن كانت منحنيات البرثنون تدل على أنهم كانوا يعرفون
الكثير عن البصریات . غير أن الفيثاغورين أعلنوا حوالى عام ٤٥٠ أبق
الفروض العلمية اليونانية ، وهو التركيب الذرى للمادة . كذلك وضع
أنبادوقليس وغيره من العلماء نظرية نشوء الإنسان وارتقائه من صور للحياة
أدنى منه ، ووصفوا رقيه البطيء من الهمجية إلى الحضارة^(٤١) .

الفصل الثالث

أبقراط

لقد كان أهم الحوادث في تاريخ العلوم اليونانية في عصر بركليز نهضة الطب القائم على العقل لاعلى الخرافة . ذلك أن الطب اليوناني قبل ذلك الوقت حتى في القرن الخامس نفسه كان وثيق الارتباط بالدين إلى حد كبير ، وكان كهنة هيكل أسكليبيوس Asclepius لا يزالون يقومون بعلاج المرضى . وكان العلاج في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية ، والطقوس المؤثرة الرهيبة ، والرق السحرية التي تؤثر في خيال المريض وتطلقه من عقاله ، وليس بعيد أنهم كانوا يلجأون أيضاً إلى التنويم المغنطيسي وإلى بعض المخدرات^(٤٢) . وكان الطب الديني ينافس الطب الديني ويحاول أن يتغلب عليه . وكان أنصار هذا وذلك يعززون منشأ علمهم إلى أسكليبيوس ، ولكن الأسكليبيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين في عملهم ، ولا يدعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات ، وقد أفلحوا شيئاً فشيئاً في إقامة الطب على قواعد العقل .

وتطور الطب الديني في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس في أربع مدارس كبرى : في كوس ونيديس من مدن آسية الصغرى ؛ وفي كرتونا بإيطاليا ، وفي صقلية . وفي أكرجاس اقتسم أنبادوقليس - وهو نصف فيلسوف ونصف رجل معجزات - مفاخر الطب مع أكرون Acron الطيب المفكر المنطقي^(٤٣) . وقد وصلت إلينا أبناء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى دمسديز Democedes ولد في كرتونا ، ومارس مهنة الطب في إيجينا ، وساموس ، وسوسة ، وعالج دارا والملكة أتسا Atossa ، ثم عاد ليقضى آخر أيامه في مسقط رأسه^(٤٤) . وفي كرتونا أيضاً أخرجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرة قبل أبقراط ،

وتعنى به ألقميون Alcmaeon الذى يلقبونه الأب الحق للطب اليونانى^(٤٥) . ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا اسماً متأخراً فى ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الدينيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ . وقد نشر هذا الطبيب فى أوائل القرن الخامس كتاباً فى الطبيعة Peri physeos - وكان ذلك هو العنوان المألوف فى بلاد اليونان لأى بحث عام فى العلوم الطبيعية . ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدد من اليونان موضع العصب البصرى وقناة أستاخيوس(*) ، وشرح الحيوانات ، وفسر فسلجة النوم ، وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عملية التفكير ، وعرّف الصحة تعريفاً فيثاغوريا فقال إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة^(٤٦) . وكان أكبر رجال الطب فى تيدس هو يوريفرون Euryphron الذى كتب فى الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences ، وقال عن التهاب البلورة إنه مرض من أمراض الرثتين ، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض ؛ وذاع صيته لنجاحه فى عمليات التوليد^(٤٧) . وقامت حرب مشثومة بين ملرستى كوس ونيدس لأن النيديين لم يكونوا يحبون ولع أبقرات فى أن يقوم « التشخيص » على معرفة طبائع الأمراض ، ومن ثم أصروا على وجوب العناية بتصنيف الأمراض كلها تصنيفاً دقيقاً ، وعلاج كل مرض منها بطريقته الخاصة . وتسرب فى آخر الأمر ، بنوع من العدالة الفلسفية ، كثير من الكتابات النيدية إلى المجموعات الطبية الأبقراطية .

ويبدو أبقرات ، كما نراه فى سيرته الموجزة التى كتبها سويداس Suidas ، أعظم أطباء زمانه بلا منازع . وقد ولد فى جزيرة كوس فى السنة التى ولد فيها دمقريطس ، وأصبح الرجلان صديقين حميمين بالرغم من بعد موطنيهما ، ولربما كان « للفيلسوف الضاحك » نصيب فى توجيه الطب وجهة دنيوية . وكان

(*) المؤصلة من الطلبة إلى المعلم . (المترجم)

أبقراط ابن طيب ونشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس « لأخذ الماء من عيونها الساخنة » . ووضع له معلمه هيروذكس السلمبري Herodicus of Selymbria الأساس الذي بنى عليه فنه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية . وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل پردكاس Perdiccas ملك مقدونية ؛ وأردشير الأول ملك الفرس ؛ وفي عام ٤٣٠ ق . م . استدعته أثينة ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها وأخجله صديقه دمقريطس بأن عاش من العمر مائة عام كاملة ، على حين أن الطبيب العظيم مات في الثالثة والثمانين من عمره .

وليس في كل ما كتب في الطب وفي كل ما يمكن أن يكتب فيه . ما هو أكثر اختلافاً وأقل تجانسا من مجموعة الرسائل التي كانت تعزى في القديم إلى أبقراط . ففيها كتب مدرسية للأطباء ، ونصائح لغير رجال الطب ، ومحاضرات للطلبة ، وتقاريرات ، وبحوث ، وملاحظات ، وتسجيلات سريرية (كلينيكية) (*) لحالات طريفة ، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيات العلمية والفلسفية في الطب . وكانت الاثنان والأربعون سجلا سريريا هي السجلات الوحيدة من نوعها في السبعة عشر قرناً التي أعقبت ذلك العهد ، وكانت أعلى الأمثلة في الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت في ستين في المائة من الحالات (٤٨) . وأربعة لا أكثر من هذه المؤلفات هي التي انعقد لإجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط : وهي « الحكم » و « الأدلة » و « تنظيم التغذية والعوائد في الأمراض الحادة » ، ورسالته « في جروح الرأس » . أما ما عدا هذه الأربعة من المؤلفات المعزوة إلى أبقراط فن وضع مؤلفين مختلفين عاشوا في

(*) مأخوذة عن سرير المريض . (المترجم)

أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد^(٤٩). وفي هذه المجموعة قدر غير قليل من السخف والهذيان ، ولكن أكبر الظن أنه ليس أكثر مما سيجده علماء المستقبل في رسائل هذه الأيام وتواريخها . وكثير من المعلومات التي في هذه الكتب والرسائل شذرات متفرقة ، موضوعة في صورة حكم وقواعد مفككة تقترب بين الفينة والفينة من الغموض الذي يلزم كتابات الفيلسوف هرقلطس . ومن بين « حكم أبقرات » تلك العبارة الدائنة الصيت : « الفن طويل ، ولكن الوقت يمر مر السحاب »^(٥٠).

وأكبر فضل لأبقرات وخلفائه أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة . نعم إنهم يشيرون في بعض الأحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء ، كما نرى ذلك في كتاب « التنظيم » ولكن النغمة السارية في صفحات المجموعة كلها هي وجوب الاعتماد الكلي على العلاج الطبي . وتهاجم رسالة « المرض المقدس » صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الآلهة ، ويقول مؤلفها إن للأمراض جميعها عللا طبيعية بما في ذلك الصراع نفسه الذي يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض : « وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الآلهة ، لعجزهم عن فهمه . . . ويتورى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجحاً لهذا الداء ، ومن أجل هذا يطلقون عليه اسم المريض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح^(٥١) » . وكانت روح العصر البركليزي تتمثل أوضح تمثيل في عقلية أبقرات . فقد كان واسع الخيال ولكنه واقعي ، يكره الخفاء ، ولا يطبق الأساطير ، يعترف بقيمة الدين ولكنه يكافح لفهم العالم على أساس العقل والمنطق . وإنا لنحس بأثر السوفسطائيين في الحركة التي تهدف إلى تحرير الطب ، والحق أن الفلسفة قد أثرت في طرق العلاج اليونانية تأثيراً بلغ من قوته أن قام النزاع بين العلم والفلسفة كما قام بينه وبين العقبات التي يضعها الدين في سبيله . ويقول أبقرات ، ويصر

على قوله ، إن النظريات .سنسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه ، وإن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة^(٢٥) وعلى تسجيل كل حالة من الحالات وكل حقيقة من الحقائق تسجيلاً دقيقاً ، ولسنا ننكر أنه لم يدرك كل الإدراك قيمة التجارب العلمية ، ولكنه كان يصر على أن يهتدى في جميع أعماله بالخبرة والتجربة العملية .

وفي وسعنا أن ندين ما تلوث به الطب الأبقراطي في منشئه من عدوى الفلسفة بالنظر إلى عقيدة « الأخلاط » المشهورة . يقول أبقراط : إن البدن يتكون من الدم ، والبلغم ، والصفراء ، والصفراء السوداء ، وإن الإنسان يستمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت فيه هذه الأركان (العناصر) بنسبها الصحيحة ، وإن الألم ينشأ من نقص بعض هذه « الأخلاط » أو زيادتها أو انفصالها عن الأخلاط الأخرى^(٥٣) . وقد بقيت هذه النظرية وعاشت بعد زوال جميع الفروض الطبية القديمة ، ولم يتخلى عنها الناس إلا في القرن الماضي ، ولعلها لا تزال باقية في صورة أخرى هي عقيدة الأنوار (الهرمونات) أو إفراز الغدد ، التي يقول بها الأطباء في هذه الأيام . إذ كان اليونان يعتقدون أن سير هذه الأخلاط يتأثر بالجو والطعام ، وإذ كانت أكثر الأمراض انتشاراً في بلاد اليونان هي أمراض البرد ، وذات الرئة ، والملاريا ، فقد كتب أبقراط (؟) رسالة موجزة في « الأهوية ، والمياه ، والأماكن » وعلاقتها بالصحة ، وفيها يقول « في وسع الإنسان أن يعرض نفسه للبرد وهو واثق من أنه لن يصيبه منه سوء ، إلا إذا فعل ذلك بعد الأكل أو الرياضة . . وليس من الخير للجسم ألا يتعرض لبرد الشتاء^(٥٤) » . وليس لنا أن نستخف بأقوال أبقراط وأتباعه هذه لأن من واجب الطبيب العلمي ، أياً كان مستقره ، أن يدرس الرياح والفصول ، وموارد ماء الشرب ، وطبيعة الأرض ، وأثر هذه العوامل كلها في السكان .

والتشخيص أضعف الثقط في طب أبقراط . فقد يبدو أنه لم يكن يعنى

بقياس النبض ؛ وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة . وكان يؤمن بالعدوى في أحوال الحرب ، والرمد ، والسل (٥٥) وفي كتابه عن (الجسم Corpus) صور إكلينيكية كثيرة للصرع ، والتهاب الغدة النكفية الوبائي ، وحمى النفاس ، والحمى اليومية ، وحمى الثلث ، وحمى الربع . ولم يرد في المجموعة ذكر للجدرى أو الحصباء ، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهري ، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود (٥٦) . وتوزع رسائل : « التنظيم » نحو الطب الوقائي بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره - وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل (٥٧) . وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب في الطب ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة ، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى . ويقول إن معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إما عليها وإما على المريض ذاته ، وإن تقديره الحسابي - الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيشاغورى - الذي يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية . وهو يقول في هذا المعنى إنه إذا استطاعت حرارة الجسم في هذه الأزمان أن تتغلب على سبب العلة وتطرده من الجسم شفى المريض . ويقول إن الطبيعة - أى قوى الجسم وبنيته - هى أهم علاج لكل مرض أيا كان نوعه وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلل أو يزيل العقبات القائمة في طريق هذين الدفاع والشفاء الطبيعيين . ولهذا فإن الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير في العلاج إلا قليلا ، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقي ، والمقيثات ، والأقماع ، والحقن الشرجية ، والحجامة ، والإدعاء ، والكمادات ، والمرام ، والتدليك ، والمياه المعدنية . ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليونانى جد صغير يتكون معظمه من المسهلات . وكانت أمراض الجراد تعالج بالحمامات الكبرى ، وبالتدليك يدهن كبد

الدلفين^(٥٨) ويسدى أبقرات للناس هذه النصيحة : « عش عيشة صحية تنج من الأمراض إلا إذا انتشر في البلد وباء أو أصابك حادثة . وإذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء^(٥٩) » . وكثيراً ما كان يوحى بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأننا « كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى^(٦٠) » . ويمكن القول بوجه عام إن « الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إذا كانت معدته شديدة الجفاف^(٦١) » .

وكان تقدم علمي التشريح ووظائف الأعضاء في بلاد اليونان بطيئاً ، وكان أكبر العوامل فيما أحرزاه من تقدم هو الفحص عن أحشاء الحيوانات في عمليات العرافة . وفي المجموعة الأبقراطية كراسة صغيرة « في القلب » تصف البطينين ، والأوعية الكبرى ، وصماماتها . وكتب سينيوس Syennesis القبرصي ودبوجين الكريتي يصفان الجهاز الدموي ، وعرف دبوجين أهمية النبض^(٦٢) . كذلك عرف أنبادوقليس أن القلب مركز الجهاز الدموي ، ووصفه بأنه العضو الذي « يحمل النيوما Pneuma أو الهواء الحيوي (الأكسجين؟) من الأوعية الدموية إلى جميع أجزاء الجسم^(٦٣) » . وفي كتاب الجسم Corpus يحذو أبقرات حذو القميون فيجعل المخ مركز الشعور والتفكير ويقول : « وبه تفكر ، ونبصر ، ونسمع ، ونميز التبيح من الجميل والغث من الثمين^(٦٤) » .

أما الجراحة فكانت لا تزال في معظم الأحوال عملاً لا يتخصص فيه الطلاب ، ويشغل به كبار الأطباء ، وإن كان من الموظفين في الجيوش جراحون^(٦٥) . وتصف مؤلفات أبقرات عمليات الترتبة ، والطريقة التي تصفها لعلاج انخلاع الكتف أو الفك « حديثة » في كل شيء عدا استخدام المخدرات^(٦٦) .

وقد وجدت في هيكل إسكليبوس بأثينة لوحة نذور نقش عليها عابرة تحتوي مباحث ذات أشكال مختلفة^(٦٧) . ويحتفظ متحف أثينة الصغير بعدد من

الملاقط ، والمساطر ، والمباضع والقناطر ، والنظارات الطبية القديمة لا تختلف في جوهرها عن أمثالها المستحدثة في هذه الأيام . ويبدو أن بعض ما هنالك من تماثيل هي نماذج أعدت لشرح الوسائل التي تتبع لرد الخلع في مفاصل العجز^(٦٨) . وفي رسالة أبقراط « في الطب » تعليمات مفصلة لتحضير حجرة العمليات الجراحية وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعي وصناعي ، وتنظيف اليدين ، والعناية بآلات الجراحة وطريقة استخدامها ، وموضع المريض ، وتضميد الجروح وما إلى ذلك^(٦٩) .

ويتضح من هذه الفقرات وغيرها أن الطب اليوناني في عهد أبقراط قد تقدم تقدماً عظيماً من الناحيتين الفنية والاجتماعية . لقد كان الأطباء اليونان قبل أيامه ينتقلون من مدينة إلى أخرى كلما دعتم الحاجة إلى هذا الانتقال ، شأنهم في هذا شأن السوفسطائين في أيامهم والوعاظ في أيامنا نحن . أما في عهده فقد استقروا في مدنهم وافتتحوا مكاتب أو « أمكنة للعلاج iatreaia » يعالجون فيها المرضى تارة ويعالجونهم في منازلهم^(٧٠) تارة أخرى . وكثرت عندهم الطبييات ، وكن يستخدمن عادة في علاج أمراض النساء ؛ وقد كتب بعضهن رسائل في العناية بالجلد والشعر تعد حجة في موضوعاتها^(٧١) . ولم تكن الدولة تحتم على من يريد ممارسة الطب أن يؤدي امتحاناً عاماً ؛ ولكنها كانت تطلب إليه أن يقدم لها أدلة مقنعة على أنه قد تمزق أو تتلمذ على طبيب معترف به^(٧٢) . ووقفت حكومات المدن بين الطب المتأتم والطب الخاص باستخدام أطباء للعناية بالصحة العامة ، ولعلاج الفقراء . وكان أكبر أطباء الدولة هؤلاء ، أمثال ديموسيدز Democedes يتقاضون وزنيتين (١٢ر٠٠٠ ريال أمريكي) في العام^(٧٣) . وكان عندهم بطبيعة الحال دجالون كثيرون ، كما كان عندهم عدد لا يحصى من الهواة الذين يدعون العلم بكل شيء في الطب ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان . ولقد قاست المهنة في تلك الأيام ، كما تقاسى في كل جيل من الأجيال ، الأمرين من أعمال أقلية فيها نخبة اللمة ، عاجزة عن القيام

بواجبها (٧٤) ، وثار اليونان لأنفسهم ، كما ثار غيرهم من الأمم ، من علم عدم وثوقهم بأطبائهم بما كالوه لهم من السخرية والفكاهة اللاذعة ، التي لا تقل عن سخرياتهم من الزواج .

وقد رفع أبقراط من شأن هذه المهنة بتوكيده شأن الأخلاق في الطب ، ذلك أنه لم يكن طبيباً فحسب بل كان طبيباً ومدرساً معاً ، وربما كان القسم الشهير الذي يعزى إليه قد وضع لضمان ولاء طالب الطب لأستاذه* .

قسم أبقراط

أقسم بأبلو الطبيب ، وبأسكليبيوس ، وبهيجايا Hygiaea وباناسيا Panacea وبجميع الآلهة والإلهات ، وأشهدا جميعاً على ، أن أنفذ هذا القسم وأوفى بهذا العهد بقدر ما تتسع له قدرتي وحكمتي ، وأن أضع معلمي في هذا الفن في منزلة مساوية لأبوي ، وأن أشركه في مالي الذي أعيش منه ؛ فإذا احتاج إلى المال أقسمت مالي معه ، وأقسم أن أعد أسرته إخوة لي ، وأن أعلمهم هذا الفن إذا رغبوا في تعلمه ، من غير أن أتقاضى منهم أجراً أو أُلزمهم باتفاق ، وأن ألقن الوصايا والتعاليم الشفوية وسائر التعاليم الأخرى لأبنائي ، ولأبناء أستاذي ، وللتلاميذ المتعاقدين الذين أقسموا بيمين الطبيب ، ولا ألقنها لأحد سواهم . وسوف أستخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتي وحكمتي ، ولكن لا أستخدمه للأذى أو لفعل الشر . ولن أسقي أحداً السم إذا طلب إليّ أن أفعل هذا ، أو أشير بسلوك هذه السيل ، كذلك لن أعطى امرأة صوفة لإسقاط جنينها ، ولكني سأحفظ بجانتي وفتي كليهما طاهرين مقدسين ؛ ولن أستعمل المبيض ولو كنت محقاً في استعماله ، لمن يشكو حصاة ، بل أمحلي عن مكاني لمن يخلقون

(*) يقولون القسم من وضع المدرسة الأبقراطية لا من وضع أبقراط نفسه ؛ ولكن إروتيان Erotian الذي كتب في القرن الأول بعد الميلاد يعزوه إلى أبقراط (٥٧).

هذا الفن . وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان ، فسأدخله لمساعدة المرضى ، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد ، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أى رجل أو أية امرأة ، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء . ومهما رأيت أو سمعت فى أثناء قيامى بفروض مهنتى ، وفى خارج مهنتى فى خلال حديثى مع الناس ، إذا كان مما لا يجب إذاعته ، فلن أفشيه ، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقلمة . فإذا ما ألزمت نفسى بإطاعة هذا القسم ولم أحنث فيه ، فلن أرجو أن أشتهر مدى الدهر بين الناس جميعاً بحياتى وبفنى ؛ أما إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم فليحل بى عكس هذا (٧٦) .

ويضيف أبقرات إلى هذا أن من واجب الطبيب أن يحتفظ بحسن مظهره الخارجى وأن ينظف جسمه ويتأنق فى ملبسه . ويجب عليه أن يكون هادئاً على الدوام ، وأن يكون سلوكه بحيث يبعث الثقة والاطمئنان فى نفس المريض (٧٧) ويجب عليه :

« أن يعنى بمراقبة نفسه ، و وألا يقول إلا ما هو ضرورى . . . »
وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك ، وكن متحفظاً فى كلامك ، معتنياً بهندامك ، صريحاً حاسماً فى أقوالك ، موجزاً فى حديثك ، هادئاً ولا تنس ما يجب أن تكون عليه أخلاقك وأنت إلى جانب فراش المريض واضبط أعصابك ، وازجر من يقلقك ، وكن على استعداد لفعل ما يجب أن يفعل وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض ، وأن تراعى بعناية حال مريضك المالية ، وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر ؛ وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدى خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال ، فقدم له معونتك كاملة ؛ ذلك أنه حيث يوجد حيب الناس يوجد أيضاً حيب الفن » (٧٨) .

وإذا أضاف الطبيب إلى هذا دراسة الفلسفة والعمل بها ، كان هو المثل الأعلى لأبناء مهنته لأن « الطبيب الذى يحب الحكمة لا يقل عن الآلهة فى شيء » (٧٩) .

وبعد فإن الطب اليونانى لا يرقى رقىاً جوهرياً عما كانت تعرفه مصر عن الطب وعن الجراحة قبل عصر آباء الطب المختلفين بألف عام ، وإذا ما نظرنا إلى التخصص بدا لنا أن ما وصل إليه اليونان فيه أقل مما وصل إليه المصريون . على أننا يجب من الناحية الأخرى أن نجل اليونان ولا نبخسهم حقهم ، لأن الطب من ناحيته النظرية والعملية قد بقى نخبى القرن التاسع عشر عند الحد الذى أوصله إليه اليونان . وجملة القول أن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التى ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة ، ومن غير التجارب العلمية . ولولا العقبات التى أقامها فى طريقه الدين والفلسفة لكان له شأن أعظم من شأنه هذا ، فقد حدث فى الوقت الذى كان فيه كثيرون من الشبان فى أثينة يتحمسون لدراسة الفلك والتشريح المقارن ، أن حالت التشريعات الرجعية الجاهلة دون تقدم العلوم ، وكانت سبباً فى اضطهاد أنكساغوراس ، وأسبازيا ، وسقراط . وكذلك كان « تحول » سقراط والسوفسطائين عن دراسة العالم الخارجى إلى دراسة العالم الداخلى ، ومن الطبيعة إلى علم الأخلاق ، كان هذا التحول سبباً فى تحويل التفكير اليونانى من مشاكل الطبيعة والنشوء والتطور إلى مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق . وظل العلم واقفاً لا يتحرك مائة عام كاملة خضيع فيها اليونان لسحر الفلسفة ومفاتها .

الباب السادس عشر

النزاع بين الفلسفة والدين

الفضل الأول

المشاليون

كان عصر بركليز شبيهاً بعصرنا هذا في تنوع أفكاره واضطرابها ، وفي تحديه لجميع المعايير والعقائد التقليدية القديمة ؛ ولكن ما من عصر من العصور يضارع عصر بركليز في كثرة آرائه الفلسفية وعظمتها أو في غزاراتها وفي القوة التي كانت تناقش بها . فقد كانت كل المسائل التي يضطرب بها العالم اليوم تدور على ألسنة الناس في أثينة القديمة ، يناقشها الناس بجرارة وحماسة روعت جميع اليونان ما عدا شبابهم . وقد حرمت كثير من المدن - وخاصة اسپارطة - أن يبحث الجمهور المسائل الفلسفية بسبب ما كانت تثيره من « حقد ، ونزاع ، وجدل عقيم » ، على حد قول أثينوس . ولكن « بهجة » الفلسفة « العزيزة » كانت تستحوز على خيال الطبقات المتعلمة في أثينة ، فكان أغنياء المدينة يفتحون أبواب بيوتهم وأبائهم للباحثين كما كان يحدث في عهد الاستنارة في فرنسا ، وكانت الولايم تولم للفلاسفة ، والبحوث الطريفة يصعق لها كما يصفق للضربات القوية في الألعاب الأولمبية .

ولما أن أضيفت حرب السيوف إلى حرب الألفاظ في عام ٤٣٢ ، استحال هياج العقول الأثينية إلى حمى احترق فيها كل ما كانت تتصف به تلك العقول من اعتدال وحكمة . ونجبت نار هذه الحمى بعض الوقت بعد استشهاد سقراط

أوبالأحرى توزعت من أثينة على غيرها من مراكز الحياة اليونانية . وحتى أفلاطون نفسه الذى عرف ما بلغته هذه الحمى وما أدت إليه من أزمت استنفدت قواه بعد أن دامت هذه الحال الحديدية ستين عاماً كاملة ، وكان يحسد مصر على إيمانها الدينى واستقرار أفكارها وهدوئها . ولم يشهد عصر من العصور المقبلة إلى أن حل عصر النهضة ما شهده هذا العصر من حماسة فى التفكير وقوة فى النقاش .

وكان أفلاطون يمثل أعلى منزلة وصات إليها الحركة التى بدأت ببارمنيدس ، وكان لها بمثابة هجل Hegel لكانت Kant ؛ ومع أنه لم يكن يتورع عن التنديد بأراء الفلاسفة ؛ فإنه لم ينقطع يوماً ما عن تعظيم أبيه الميتافيزيقى . وفى بلدة إيليا الصغيرة القائمة على ساحل إيطاليا الغربى نشأت فى عام ٤٥٠ ق . م . الفلسفة المثالية التى أثارَت فى كل قرن من القرون المقبلة حرباً شعواء على المادية (*) ؛ وقلدت فى بوتقة التفكير الأوروبى مشكلة المعرفة الغامضة العجيبة ، ومشكلة الفرق بين الظاهر من جهة وما لا يعرف ولا يمكن أن يعرف من جهة أخرى ؛ وبين الحقيقى غير المنظور والمنظور غير الحقيقى ، وظلت هذه الأفكار تغلى أو تغطمط طوال تاريخ اليونان القديم وفى أثناء العصور الوسطى حتى انفجرت مرة أخرى فى عصر « كانت » وعلى يديه وأضححت ثورة فكرية عارمة . وكما أن هيوم Hume « أيقظ » كانت كذلك كان أكسانوفان Xenophanes هو الذى دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة ؛ ولعل عقل بارمنيدس كان واحداً من عقول كثيرة أثارها قول أكسانوفان إن الآلهة ليست إلا أساطير ، وإنه لا توجد لإلحقيقة واحدة هى العالم والله جميعاً . كذلك درس بارمنيدس مع الفيثاغوريين وسرى فيه شغفهم بعلم الفلك ، ولكنه لم يفضل فى ببداء النجوم ،

(*) ولقد واجه المنورد هذه المشكلة قبل ذلك بزمن طويل ، وبقوا بارمنيدس إل آخر عهودهم ، ولعل نزعة أيلوبانوشاد Upanishads المضادة للماتلية قد تسربت إل بارمنيدس من طريق أيوليا أو فيثاغورس .

بل كان كعظم فلاسفة اليونان يهتم بالشئون الحية ومنها شئون الدولة . وقد كلفته إيليا أن يضع لها قوانينها ، فلما وضعها أعجبت به إعجاباً جعلها تطلب إلى جميع قضاتها أن يحكموا في جميع القضايا بمقتضاها^(٣) . ولعله أراد أن يرفه عن نفسه في حياته المفعمة بالعمل فأنشأ قصيدة فلسفية في الطبيعة بقي منها إلى الآن نحو مائة وستين بيتاً تكفى لأن تجعلنا نأسف لأن پارمنيدس لم يكتب نثراً . وفي القصيدة يعلن الشاعر ، وهو يغمز بعينه ، أن إلهة قد أوحى إليه أن الأشياء جميعها وحدة ، وأن الحركة ، والتغير ، والنمو ، أشياء غير حقيقة ، فهي خيالات لمشاعر سطحية ، متعارضة ذاتها ؛ وأن من وراء هذه المظاهر وحدة ، متجانسة لا تتبدل ، ولا تنقسم ، ولا تتحلل ولا تتحرك ، وهي وحدة الكائنات ، والحقيقة التي لا حقيقة سواها ، والإله الذي لا إله غيره . لقد كان هرقليطس يقول إن كل شيء يتغير *Panta rei* أما پارمنيدس فيقول إن الأشياء بأجمعها كل واحد أبداً *Hen ta panta* . وهو في بعض الأحيان يقول كما يقول أكسانوفان إن هذا الواحد هو الكون ، ويصفه بأنه شبه كرى ومحدود ؛ وكان في بعض الأحيان حين ينظر إليه نظرة فكرية مجردة يرى أن هذا الكائن هو الفكر ويقول : « إن الفكر والكون شيء واحد^(٤) » . وكأنه يريد بهذا أن يفهمنا أن الأشياء لا وجود لها في إدراكنا ؛ وأن البداية والنهاية ، والمولد والموت ، والتكوين والتدمير ، لا تصيب إلا الأشكال والصور ، أما الواحد الحق فلا بداية له ولا نهاية ، وليس ثمة صيرورة ، وليس ثمة إلا وجود ، وأن الحركة أيضاً غير حقيقية لأنها تفترض انتقال شيء من المكان الذي هو فيه إلى مكان لا يوجد فيه شيء أى إلى الفراغ ؛ ولكن الفراغ الذي هو غير كائن لا يمكن أن يكون ، إذ ليس ثمة فراغ قط ، لأن الواحد يملأ كل ركن وكل شق في العالم ، وهو ساكن سكوناً سرمدياً^(*) .

(*) إن هذه الأقوال مجهدة للخيال ، ولكننا نكاد نفعل ما فعله پارمنيدس حين تقل إن منضدة ما في حالة سكون مع أنها (كما يقولون) تتكون من « كهارب » (الكترولونات) =

ولم يكن ينتظر بطبيعة الحال أن يستمع الناس إلى هذه الأقوال كلها وهم صابرون ، ويبدو أن السكون البارمنيدى كان الهدف الذى صوبت إليه مئآت من الهجمات الميتافيزيقية . وترجع أهمية زينون الإلبانى الحصيف تلميذ پارمنيدس إلى محاولته لإثبات أن فكرتى التعدد والحركة كانتا من الوجهة النظرية على الأقل مستحيلتين كاستحالة واحد پارمنيدس الثابت القديم والحركة - وأراد زينون أن يدرب نفسه على الضلال والمشاكسة ، وأن يسلى شبابه فى الوقت نفسه ، فألف كتاباً فى المتناقضات وصلت إلينا تسع منها ، حسبنا أن نورد منها ثلاثاً : وأولى هذه المتناقضات كما يقول زينون أن الجسم الحى يتحرك إلى نقطة أ لا بد أن يصل إلى ب وهى منتصف طريقه إلى أ ؛ ولكى يصل إلى ب يجب أن يصل أولاً إلى ج منتصف طريقه إلى ب ؛ وهكذا إلى ما لا نهاية . وإذا كانت هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الحركات تتطلب قدراً لا نهاية له من الزمن ، فإن تحرك أى جسم إلى أية نقطة فى زمن محدد أمر مستحيل . والثانية وهى صورة أخرى من الأولى أن أخيل السريع العدو لا يستطيع أن يدرك السلحفاة البطيئة . وذلك لأنه كلما وصل إلى النقطة التى كانت فيها السلحفاة ، تكون السلحفاة فى هذه اللحظة نفسها قد انتقلت من هذه النقطة . والثالثة أن السهم الطائر فى الهواء هو فى الحقيقة ساكن غير متحرك ، لأن فى كل لحظة من طيرانه لا يكون إلا فى نقطة واحدة فى الفضاء ، أى أنه يكون ساكناً ، وحركته منطقياً وميتافيزيقياً غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها واقعة فعلاً (٥٠) (٥١) .

— — — — —
= دائمة الحركة . وقد كان پارمنيدس يرى العالم كما نرى نحن المنضدة ؛ ولو قدر للتدبر أن يرى العالم لرآه كما نراها نحن .

(٥٠) وقد انتقل البحث فى هذه المتناقضات من أفلاطون (٦) إلى برتراند رسل (٧) ، وقد يعتبر مادام الناس يعتقدون خطأً أن الأسماء هى المسميات . والذى تجعل هذه الألفاظ عديدة القيمة هى التراض واضفها أن « غير مدود » شئ وليس كلمة تبدأ على عجز امقل عن أن يدرك النهاية المطلقة ، وأن الزمان والمكان والحركة كلها أشياء غير متصلة أى أنها تتكون من نقط أو أجزاء متصلة بعضها عن بعض .

وجاء زينون إلى أثينة حوالي عام ٤٥٠ ق . م . ولعله جاء إليها مع پارمنيدس وأثار نائرة المدينة السريعة التأثير بقدرته على تحويل أى نوع من أنواع النظريات الفلسفية إلى سخافات غير معقولة . وقد وصف تيمون الفليوس Timon of Phlius « لسان زينون ذى الحدين الذى يستطيع أن يبرهن على أن كل قوله يقول الإنسان غير حقيقى » (٨) .

ومن هذه النعرة قبل السقراطية (ونحن نسميها نعرة لأن جهلنا بالماضى يضطرنا إلى تسمية هذه المعانى بتلك الأسماء) كانت بداية علم المنطق كما كان پارمنيدس بالنسبة لأوروبا هو واضح علم ما وراء الطبيعة . ولقد حاكى سقراط طريقة زينون الجدلية (٩) محاكاة شديدة وإن كان قد ندد بها وشنع عليها ، وبلغ من تحمسه لهذه الطريقة أن اضطر قومه إلى قتله لكى يريحوا عقولهم من جدله . ولقد كان أثر زينون فى السوفسطائيين المتشككين حاسماً قوياً ، وكان لتشككه آخر الأمر الغلبة فى پرون Purrho وقرنيادس Carneades . وقد أصبح فى شيخوخته رجلاً « ذا حكمة عظيمة وعلم غزير (١٠) » فأخذ يشكو من أن الفلاسفة قد حملوا مزاحه العقلى فى أيام شبابه بحمل الجدل . وكان انقلابه الأخير سبب القضاء عليه . ذلك أنه اشترك فى حركة تهدف إلى خلع البلاغية نيارقيس Nearches فى إيليا ولكنه أخفق فى محاولته ، وقبض عليه ، وعذب ، وقتل (١١) ، وصبر الفيلسوف على عذابه صبر الأبطال ، وكأنما أراد بذلك أن ينضم اسمه بعد قليل من الزمن إلى أسماء أصحاب الفلسفة الرواقية .

الفصل الثاني

الماديون

لقد كان إنكار پارمنيدس للحركة والتغير بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس المائعة المزعزعة ، وكذلك كانت عقيدة وحدة الكون ثورة عنيفة على عقائد الفيثاغورين المتأخرين . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة قد حوّلوا نظرية الأعداد التي قال بها كبيرهم إلى المبدأ القائل بأن الأشياء جميعها تتكون من أعداد أي من وحدات غير قابلة للانقسام^(١٢) . واما أن أضاف فيلولوس الطيبي إلى هذا المبدأ أن « الأشياء جميعها تحدث بالضرورة والتوافق »^(١٣) كان كل شيء قد أعد لظهور المذهب اللري أو مذهب الجوهر الفرد في الفلسفة اليونانية .

ففي عام ٤٣٥ جاء لوقيبوس الملطي إلى إيليا وتلقى العلم على زينون ؛ ولعله قد سمع هناك بالدرية العددية التي يقول بها الفيثاغوريون ، ذلك أن زينون كان قد وجه بعض متناقضاته الدقيقة إلى عقيدة التعدد^(١٤) . واستقر لوقيبوس آخر الأمر في أبديرا وهي مستعمرة أيونية مزدهرة في تراقية . وقد ضاعت تعاليمه المباشرة فلم يبق منها إلا هتامة صغيرة هي قوله : « لا شيء يحدث من غير حلة ، بل إن الأشياء كلها تحدث لعله ، وبالضرورة »^(١٥) .

ولعل لوقيبوس قد أوجد فكرة الفراغ ليرد بها على أقوال زينون وپارمنيدس ، وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجعل الحركة مستطاعة من الوجهة النظرية كما هي واقعية من الناحية الحسية . ويقول : إن العالم يحتوي على جواهر فردية وعلى فراغ ولا شيء غيرهما ، وإن هذه الجواهر التي تنساقط في دوامة كبرى تسقط بالضرورة إلى الصور الأولية للأشياء جميعها ، وينضم كل شيء

إلى مثيله ، وبهذه الطريقة وجدت الكواكب والنجوم (١٦) ؛ والأشياء جميعها بما فيها النفس البشرية مكونة من جواهر فردية (ذرات) .

وكان دمقريطس تلميذ لوقيبيوس أو زميله في تحويل فلسفة الجواهر الفرد إلى نظرية مادية كاملة . وكان والده من ذوى المكائنة الملحوظة والثراء العظيم في أثينة (١٧) ؛ ويقال إنه ورث منه مائة وزنة من المال (٨٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) أنفق معظمها في الأسفار (٨١) . وتقول بعض الروايات التي لا نجد ما يؤيدها إنه سافر إلى مصر وبلاد الحبشة وبابل وفارس والهند (١٩) ، ويقول هو نفسه في ذلك : « لقد طفت بين معاصري في أكبر جزء من الأرض للبحث عن أبعد الأشياء ، ورأيت أكثر الجواهر والأقطار ، وسمعت إلى أكبر عدد من المفكرين (٢٠) » . وأقام في بوثوية الطبيعية زمنا يكنى لتشبعه بنظرية فيلولوس في الذرية العددية (٢٢) ؛ ولما فرغت منه نقوده لجأ إلى الفلسفة ، واخشوشن في معيشته ، ووجه جهوده كلها إلى الدرس والتفكير ، وقال : « إن الكشف عن برهان واحد (في الهندسة) خير لي من الحصول على عرش فارس (٢٣) » . وكان على شيء من التواضع لأنه كان يتبعد عن الجدل والنقاش ؛ ولم يوجد مدرسة خاصة ، وأقام في أثينة من غير أن يتعرف إلى أحد من فلاسفتها (٢٤) ، وقد ذكر ديوجين ليرتيوس Diogenese Laertius (ديوجانس) ثبوتا طويلا من كتبه في علوم الرياضة والطبيعة والفلك والملاحة ، والجغرافية ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، والعلاج النفاثي ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى (٢٥) . ويسميه ثراسيلس Thrasyllus صاحب التارين الخمسة في الفلسفة ، ويطلق عليه بعض معاصريه اسم الحكمة (Sophia) نفسها (٢٦) . وقد بلغت معارفه من السعة والتعدد ما بلغت معارف أرسطاطاليس

(*) ومن أقواله : « إن الأرض كلها وطن لرجل الحكيم الصالح » (٢١) .

نفسه ، ونال أسلوبه من الإعجاب ما ناله أفلاطون^(٢٧) ، ووصفه فرانسس بيكن Francis Bacon في ساعة تخلى فيها عن عناده بأنه أعظم الفلاسفة الأقدمين على بكرة أبيهم^(٢٨) .

وهو يبدأ كما يبدأ پارمنيدس يبحث تحليلي في الحواس فيقول إنه لا بأس علينا من الوثوق بها في الأغراض العملية ؛ ولكننا لا نكاد نحلل ما تمدنا به من المعلومات حتى نجد أنفسنا ننزع من العالم الخارجي طبقة بعد طبقة مما تضيفه عليه الحواس من اللون ، والحرارة ، والطعم ، والنكهة ، والحلاوة ، والمرارة ، والصوت . وهذه «الصفات الثانوية» كائنة فينا نحن أو في عملية الإدراك الكلية ، لا في الشيء الموضوعي ، وفي العالم الخالي من الآذان لا تحدث الغابة الساقطة صوتاً ، ولا يكون لماء البحر مهما غضب هدير « والعرف (Nomos) هو الذي يجعل الحلو حلواً والمر مرأ ، والحار حاراً ، والبارد بارداً ؛ أما الحقيقة فهي أنه لا وجود إلا للجواهر الفردية (النرات) والفراغ^(٢٩) » . ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ؛ أما المعرفة الحقة فلا سبيل إليها إلا البحث والتفكير . والواقع أننا لا نعرف شيئاً ؛ فالحق مدفون على بعد منا عظيم ولسنا نعرف شيئاً معرفة أكيدة ، بل كل ما نعرفه هو ما يحدث في جسمنا من تغيرات بتأثير القوى التي تصطدم به^(٣٠) » . وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التي يقذف بها الجسم الخارجي فتقع على أعضاء الحواس^(٣١) ، وليست الحواس كلها إلا أشكالاً من اللمس^(٣٢) .

وتختلف الجواهر الفردية التي يتكون منها العالم في شكلها وحجمها ووزنها ؛ وكلها تنزع إلى السقوط إلى أسفل ، وتنتج من هذا حركة دائرية تتحد فيها الجواهر المتأثلة بعضها ببعض فتنتج من اتحادها الكواكب والنجوم . وهذه الجواهر لا يقودها فكر (Nous) أو ذكاء ، ولا يرتبها «حب» أو «كراهية» كما يقول أنبادوقليس ، بل إن الضرورة - أي الأثر الطبيعي للعلل الكامنة فيها هي التي تسيطر عليها جميعاً^(٣٣) . وليس ثمة مصادفة ، بل المصادفة

خرافة اخترعت لتبرير جهلنا^(٣٤) ، وكمية المادة تبقى على حالها ، لا يضاف إليها شيء جديد ، ولا يفنى منها شيء^(٣٥) ، وكل الذي يحدث هو تغير في اتحاد الجواهر الفردية . لكن صور الأشياء مع هذا لا حصر لها ، وحتى العوالم نفسها يوجد منها في أكبر الظن عدد « غير محدود » وهي تنشأ وتزول في موكب لا نهاية له^(٣٦) . وقد نشأت الكائنات العضوية في مبدأ أمرها من التراب المبلبل^(٣٧) ، وكل شيء في الإنسان مصنوع من جواهر فردية ، والروح نفسها مكونة من جواهر جد صغيرة ملساء مستديرة كجواهر النار ، والعقل ، والنفس ، والحرارة الحيوية ، والمبدأ الحيوى ، كلها شيء واحد ، لا يختص بها الإنسان أو الحيوان بل هي منتشرة في العالم كله موزعة عليه ، والجواهر الفردية العقلية الكائنة في الإنسان وغيره من الحيوانات التي بها تفكر في جميع أجزاء الجسم^(٣٨) (*) .

بيد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التي تتكون منها النفس هي أكثر أجزاء الجسم نبلا وأعظمها إثارة للدهشة . والرجل العاقل ينمى فكره ، ويمرر نفسه من الانفعالات ، والخرافات ، والخاوف ، ويبحث بالتأمل والإدراك عن السعادة العقلية التي في متناول الحياة البشرية . والسعادة لا تنشأ من الطيبات الخارجية ، بل ينبغى للإنسان أن يتعود على أن يجد في داخل نفسه مصادر متعته وسعادته^(٣٩) . « والثقافة خير من الغنى . . . ولا تستطيع قوة أو ثروة أن تترجع اتساع دائرة العلم^(٤٠) » . والسعادة تأتي متقطعة ، و « اللذائد المادية لا تشبع صاحبها إلا زمناً قصيراً » ؛ لكن الإنسان ينال سروراً أدام إذا حصل على سلام النفس وصفائها (أتاركسيا ataraxia) وعلى البهجة (euthumia) . والاعتدال (metriotes) قدر من النظام والتناسب في الحياة (biou symmetria) . وفي وسعنا أن نتعلم الشيء الكثير من الحيوانات -

(*) يمزو لكرتوس Lucretius إلى « ديمقريطس العظيم » القول بوجود نوع من الموازنة النفسية الجسمية ، فقد « قال (ديمقريطس) إن جواهر الجسم وجواهر العقل توضع أزواجاً كل منها يحوار الآخر : وبهذا تربط هيكل الجسم بعنقه ببعض » .

« الغزل من العنكبوت ، والبناء من العصفور ، والغناء من العنديلين
والتمم^(٤٨) » ؛ و « قوة الجسم لا تحون من أسباب النيل. » في دواب النقل
أما قوة الخلق فهي سبب النيل في الإنسان^(٤٩) . وهكذا يفعل دمقريطس
ما فعله من بعده الضالون في إنجلترا في عصر الملكة هكتوريا فيقيم على
ميتافيزيقاه الشائنة صرحاً من المبادئ الخلقية الخلابة الظاهر . « والأعمال
الحسية يجب أن تصدر عن عقيدة . لا عن قسر ، ويجب أن يفعلها الإنسان
لرغبة فيها لا أملاً فيما يناله عليها من جزاء » ومن واجب الإنسان
أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله^(٥٠) .

وقد أوضح حكمته ، ولعله يرر أيضاً نصائحته ، بأن عاش حتى بلغ
من السن مائة عام وتسعة أعوام ، أو تسعين عاماً كما يقول بعضهم^(٤٨) .
ويروى ديوجين ليرتيوس أنه لما قرأ دمقريطس على الجماهير أهم مؤلفاته
كلها وصور كتاب العالم الأكبر *Megas diakosmos* أهدت إليه مدينة
أبدوا مائة وزنة (٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ولكن لعل أبدرا كانت
وكتلة قد خفضت قيمة نقدها . ولما سأله بعضهم عن سر عمره الطويل أجاب
بأنه كان يأكل عسل النحل في كل يوم وأنه كان يستحم بالزيت^(٤٩)
ولما رأى آخر الأمر أنه قد عاش من العمر ما يشتهي أخذ بقل من طعامه
يوماً عن يوم يريد بذلك أن يميت نفسه جوعاً شيئاً فشيئاً^(٥٠) ؛ ويقول
ديوجين « إنه بلغ أرذل العمر^(٥١) » وإنه خيل إلى الناس أنه يحتضر ؛
وحزنت أخته لأنه سيموت في أثناء عيد *Thesmophori*
فيحول موته دون قيامها بما يجب عليها نحو الإلهة ، ها كان منه إلا أن
أمرها بأن تخفف من لوعتها ، وأن تأتيه كل يوم بيضعة أرغفة من
الخبز الساخن (أو بقليل من عسل النحل^(٥٢)) . وأخذ يضع هذا

الطعام فوق منخريه ، واستطاع بذلك أن يطيل حياته خلال أيام العيد . فلما أن انقضت ثلاثة أيام العيد لفظ آخر أنفاسه دون أي ألم ، كما يؤكد لنا هباركس وذلك بعد أن عاش مائة عام وتسعة أعوام ٥

واحتفلت مدينته بجزائره احتفالاً عاماً ، وأثنى عليه تيمن الأثيني Timon of Athens . ولم ينشئ ديمقريطس مدرسة خاصة ، ولكنه صاغ أهم فرض من الفروض العلمية وأوجد للفلسفة نظاماً بقي بعد أن عفا الزمان على غيره من النظم التي ظلت تندد به ، ولا يزال يظهر في العالم جيلاً بعد جيل .

الفصل الثالث

أنبادوقليس

المثالية تضايق الحواس ، والمادية تكدر النفس ، لأن أولاهما تفسر كل شيء ما عدا العالم ، والأخرى تفسر كل شيء ما عدا الحياة ؛ وإذا أريد مزج هذين النصفين من أنصاف الحقائق فلا بد من العثور على مبدأ محرك دافع يتوسط بين التركيب والنماء ، وبين الأشياء والأفكار ؛ وقد حاول أنكساغوراس أن يبحث عن هذا المبدأ في العقل الكوني ، وحاول أنبادوقليس أن يبحث عنه في القوى الكامنة التي تنزع إلى الثورة والانقلاب .

وكان مولد هذا الأكرغاسي الشبيه بليونارد Leonarda في عام مرثون ، من أسرة غنية كانت مولعة بسباق الخيل ولعاً لم يكن يرجى معه أن ينيغ أحد أبنائها في الفلسفة . وقد درس بعض الوقت مع الفيثاغورين ، فلما نضج عقله أخذ يفشى بعض عقائدهم السرية فطرد من زمريتهم^(٥٤) . وأولع أشد الولع بعقيدة تناسخ الأرواح ، وأعلن بخيال الشعراء وعواطفهم أنه كان « في سالف الأيام شاباً ، وفتاة ؛ وغصناً مزهراً ؛ وطائراً ، وسمكة تسبح صامتة في البحر العميق »^(٥٥) . وذم أكل الطعام الحيواني ووصفه بأنه لا يخرج عن أن يكون صورة من أكل اللحوم البشرية ، أليست هذه الحيوانات تجسداً جديداً لبعض الآدميين^(٥٦) ؟ وكان يعتقد أن الناس جميعاً كانوا من قبل آلهة ، ولكنهم خسروا مكانهم في السماء لارتكابهم شيئاً من الدنس أو العنف ، ويقول إنه واثق بأنه يشعر في قرارة نفسه بما يوحى إليه بألوهيته قبل مولده . « وأى مجد عظيم وأية سعادة ليس فوقها سعادة قد تدهورتُ منها الآن ، وأصبحت أطوف الأرض مع

الآدميين (٥٧) . وإذا كان واثقاً من هذا الأصل الإلهي فقد احتذى
خدائين من الذهب ، ولبس ثوبين أرجوانيين ، ووضع على رأسه إكليلاً
من الغار ؛ وقال لأبناء وطنه متواضعاً إنه محبوب أهلوه ، ولم يعترف لغير
أصدقائه بأنه إله . وادعى أن لها قوى فوق قوى البشر ، ومارس بعض
لمقوس السحر . وحاول بطريق العزائم والرقى أن يتزعم من العالم الآخر
أسرار مصير الإنسانية . وعرض على الناس أن يشفى مرضاهم بسحر
الألفاظ ، وشفى كثيرين منهم حتى كاد الناس يصدقون دعواه . أما
الحق فإنه كان طبيباً نطاسياً ذا آراء كثيرة في علم الطب ، وتمكناً من
سيكولوجية الفن ؛ وكان فوق ذلك خطيباً مصقماً ، « اخترع » كما
يقول أرسطاطاليس ، أصول البلاغة وعلمها غورغياس ، فعرضها هذا
للبيع في أثينة ؛ وكان مهندساً أنجى سلينس من الوباء بتجفيف المستنقعات
وتحويل مجارى الأنهار (٥٩) . وكان سياسياً شجاعاً تزعم ، وهو أرسطراطي
الأصل ، ثورة على الأرسطراطية الضيقة ، وأبى أن يكون حاكماً بأمره ؛
وأقام حكماً ديمقراطياً معتدلاً . وكان شاعراً كتب في الطبيعة وفي التطهير شعراً
بديعاً اضطر أرسطاطاليس وشيخرون إلى أن يضعاه في مصاف الشعراء
المجيدين ، وأظهر لكريشيوس إعجابه به بمحاضاته . وقال فيه ديوجين
ليرتيوس : « وإذا ذهب إلى الألعاب الأولمبية استلفت جميع الأنتظار ، حتى لم
يكن يذكر إنسان آخر بمثل ما يذكر به هو (٦١) » ، ولعله كان كما يقول إلهياً :

ولم يبق لنا من أشعاره إلا ٤٧٠ بيتاً لا نجد فيها إلا إشارات منقطعة
لفلسفته ، فنرى منها أنه كان يختار مبادئه من فلسفات مختلفة ، ويرى في كل
طريقة من طرائقها شيئاً من الحكمة ، ولا يوافق پارمنيدس على رفض جميع
ما يجيء إلينا من المعلومات عن طريق الحواس ، بل يثني على كل حاسة
ويرى أنها « طريقاً موصلًا للإدراك (٦٣) » . وعنده أن الحس ينشأ من انبعاث
جزيئات تنتقل من الجسم الخارجي ، وتقع على « مسام (poroi) الحواس ،

ومن أجل هذا يحتاج الضوء إلى بعض الوقت لكي يصل إلينا من الشمس (٦٤) ، وينشأ الليل من اعتراض الأرض لأشعة الشمس (٦٥) ، والأشياء كلها تتكون من عناصر (*) أربعة : الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب ، وتعمل في هذه العناصر قوتان رئيسيتان هما الجذب والطرْد ، أو قوتا الحب والبغض .

وينتج من اجتماع العناصر وتفرقها بفعل هاتين القوتين اجتماعا وتفرقا لا آخر لهما عالم الأشياء والتاريخ . فإذا كانت الغلبة للحب أى الزعة إلى الاتحاد تحولت المادة إلى نبات ، واتخذت الكائنات العضوية أشكالاً مطردة الرقى . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الأنفس كلها سيرة واحدة ، كذلك لا يوجد في الطبيعة فرق واضح بين جنس وجنس ، أو بين نوع ونوع . ألا ترى مثلاً أن « الشَّعر ، وأوراق الشجر ، وريش الطيور السميك والحراشف التى تتكون على الأعضاء الصلبة ، كلها من نوع واحدة (٦٨) ؟ » . والطبيعة تنتج كل نوع من أنواع الأعضاء والأشكال ، والحب يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولاء غريبة تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها ، وتارة أخرى يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثور ومواءمة ظروف الحياة (٦٩) والأشكال العليا كلها تنشأ من الأشياء السفلى (٧٠) ، وقد كانت الذكورة والأنوثة في بادئ الأمر مجتمعتين في جسم واحد ، ثم انفصلتا وظلت كلتاها تنوق إلى الاتحاد مع الأخرى (**)(٧١) . ويوجد في مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ، يمزق فيها الكره ، أو قوة التقسيم ، البنيان المعقد الذى أقامه الحب ، فتعود الكائنات العضوية والنباتات عوداً بطيئاً إلى صوة تزداد بدائية يوماً بعد يوم ، ويظل هذا يحدث حتى تختلط الأشياء جميعها مرة أخرى في كتلة فطيرة غير محددة الشكل (٧٢)

(*) أو أركان كما كانت العرب يسمونها . (المترجم)

(**) لعل أفلاطون قد استمد من هذا خطبة أرسطوفان في « معرض آرائه » .

وهاتان العمليتان المتبادلتان عملية التطور وعملية الانحلال مستمرتان إلى أبد الدهر في كل جزء على حدة وفي الكل مجتمعا ؛ وتتنازع القوتان قوة الائتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان في نظام عالمي شامل هو نظام الحياة والموت . ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسپنسر ! (٧٣) .

ومكان الله في هذه العملية غير واضح ، وذلك لأن من الصعب أن نفرق بين الحقيقة والحجاز أو بين الفلسفة والشعر في أقوال أبادوقليس ؛ فهو يُدعى بعض الأحيان يوحد بين الإله وبين الكون نفسه ، وفي بعضها الآخر يوحد بينه وبين حياة كل حي أو عقل كل عاقل ؛ ولكنه يدرك أننا لن نستطيع قط أن نكون فكرة صحيحة عن القوة الخالقة الأساسية . انظر مثلا إلى قوله : « لن نستطيع أن نقرب الله منا قريبا يمكننا من أن ندركه بأعيننا ، ونمسكه بأيدينا . . . ذلك أنه ليس له رأس بشري ملتصق بأعضاء جسمه ، وليس له ذراعان متفرعتان لتدليان من كتفيه ، وليس له قدمان ولا ركبتيان ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير ، عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف ، يومض في طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف » (٧٤) . ويختم أبادوقليس حديثه هذا بنصيحة الشيخوخة التي أنطقته بها الحكمة والكلاسة : « ما أضعف وما أضيقت القوى المودعة في أعضاء الإنسان ؛ وما أكثر المصائب التي تثلم حد التفكير ، وما أقصر الحياة التي يكدح فيها الناس والتي تنتهى بالموت . فإذا حل بهم زالوا من الوجود وتلاشوا كما يتلاشى الدخان وصاروا هواء ، يعرفون أن ما يحلمون به ليس إلا الصفاة التي عثر عليها كل واحد منهم أثناء تجواله في هذا العالم . ومع هذا تراهم جميعا يفخرون بأنهم عرفوا كل شيء . ألا ما أشد حقهم وأكثر غرورهم ! ذلك أن هذا الكلي الذي يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان » (٧٥) .

واستحال في آخر سن من حياته واعظا دينيا أكثر مما كان من قبل ،

منهمكاً في نظرية التجسيد ، وأخط. يتوسل إلى نبي جنسه أن يتطهروا من الخطيئة التي طردوا بسببها من السموات ، ويدعو الجنس البشرى ، بما أوتى من حكمة بوذا وفيثاغورس ، وشوڤهور ، أن يمتنع عن الزواج ، والتناسل (٧٦). ولما حاصر الأثينيون سرقوسة في عام ٤١٥ ، بدل أنبادوقليس كل ما في وسعه لتأييد المقاومين وأغضب بذلك أكرجاس ، التي كانت تحقد على سرقوسة بكل ما في قلوب الأقارب من حقد دفين ، ونقى من بلده ، فذهب إلى أرض اليونان القارية حيث وافاه الأجل في ميغارا كما تقول بعض الروايات (٧٨) . ولكن ديوجين ليرتيوس يروى عن هيبوبوتس Hippobotus أن أنبادوقليس بعد أن أعاد إلى الحياة الكاملة امرأة اعتقد الناس أنها قضت نحبها غادر الوليمة التي أقيمت احتفاءً بشفاؤها ، واختفى فلم ير بعد ذلك أبداً . وتقول بعض الأساطير إنه ألقى بنفسه في فوهة بركان إتنا الناثر لكى يموت من غير أن يخلف وراءه أثراً ، فيؤيد بذلك دعواه أنه إله . ولكن النار العنصرية غدرت به ، فقلدت بحفيه النحاسيين ، وتركتها على حافة كأس البركان ، كأنهما رمزان ثقيلان للفناء (٩٠) .

الفصل الرابع

السوفسطائيون

إن الذين يقولون إن بلاد اليونان هي أئينة يكذبهم أن أحداً من كبار المفكرين اليونان قبل سقراط لم يكن من أهل تلك المدينة ، وأنه لم يعقبه مفكر من أهلها حتى جاء أفلاطون . وإن المصير الذي لاقاه أنكساغوراس وسقراط ليبدل على أن الجمود الديني كان في أئينة أقوى منه في المستعمرات ، وذلك لأن انفصال هذه المستعمرات من الناحية الجغرافية قد حطم بعض قيود التقاليد القديمة . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أئينة كانت تبقى مدينة غير متساعمة إلى حد السخف والغباء ولا مجال فيها للتفكير الحر لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ، ولم يفد إليها جماعة السوفسطائيين .

وقد كانت المناقشات التي تدور في الجمعية ، والمحادثات التي تجري أمام الهيئات ، والحاجة المتزايدة إلى القدرة على التفكير تفكيراً منطقي الظاهر ، وإلى التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً مقنعاً ، لقد كانت هذه كلها مضافة إلى ثراء المجتمع الإمبراطوري وتشوفه عاملاً في إشعار الناس بالحاجة إلى شيء لم يكن معروفاً في أئينة قبل بركليز ، ونعني بذلك الدراسة العليا المنظمة للأدب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة ، ولم تقابل هذه الحاجة في بادئ الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويلدرون فيها ما يضعونه للتعليم من مناهج ، ثم ينتقلون إلى مدن أخرى ليعيدوا فيها هذه الدراسة . وكان بعض هؤلاء المعلمين ، ومنهم پروتاغوراس Protagoras ، يطلقون على أنفسهم لقب سوفسطاي أي معلمو الحكمة^(٨١) ، وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ «أستاذ جامعي» ، ولم يكن

له معنى محط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فأدى إلى هجوم المحافظين على السوفسطائيين ؛ وأثارت نزعة بعضهم التجارية أفلاطون إلى تسوية سمعتهم بأن عزا إليهم تهمة « السفسطة » بغية المكسب ، وهي الوصف الذي ظل لاصقاً بهم إلى يومنا هذا . ولعل الجمهور كان يشعر نحو هؤلاء بشيء من الكره الخفي من بدء ظهورهم ، لأن ما كانوا يتقاضونه من باهظ الأجر نظير تدريس المنطق والبلاغة لم يكن يطبقه إلا الأغنياء الذين أقادوا من علمهم هذا في دور القضاء^(٨٢) . ولنا نذكر أن المشهورين من السوفسطائيين كانوا يتقاضون ممن يعلمونهم أكثر ما يرضى هؤلاء أن يؤدوه إليهم من الأجور ، وذلك هو قانون الأثمان في كل مكان ... فكان پروتاغوراس ، وغورغياس ، كما يقول الرواة ، يطلبان عشرة آلاف درخمة (١٠,٠٠٠ ريال أمريكي) أجرا لتعليم تلميذ واحد . غير أن من كانوا أقل من هذين شأناً كانوا يقنعون بأجور معتدلة ؛ فكان پرودكس Prodicus مثلاً - وهو الذي ذاع صيته في جميع أنحاء بلاد اليونان - يطلب ما بين درخمة وخمسين أجراً للاشتراك في مناهجه^(٨٣) .

وقد ولد پروتاغوراس أشهر السوفسطائيين جميعهم في أبدرا قبل مولد دمقريطس بجيل من الزمان . وكان في أثناء حياته أشهر الرجلين وأعظمهما نفوذاً ؛ وفي وسعنا أن نستدل على ما كان له من شهرة واسعة بما أحدثته زيارته لأثينة من حماسة بالغة^(٨٤) واهتياج فيها كبير ؛ وحتى أفلاطون نفسه - وهو الذي لم يقل كلمة طيبة في السوفسطائيين عن قصد - كان يجله ويصفه بأنه على خلق عظيم . وفي الحوار الأفلاطوني الذي سمي باسمه نرى پروتاغوراس أحسن مظهراً من سقراط الشاب الكثير الجدل ؛ فسقراط في هذا الحوار

(*) أكبر الظن أن هذه الزيارات كانت في الأهرام الآتية : ٤٥١ - ٤٤٥ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤١٥ (٨٥)

هو الذى يتحدث كما يتحدث السوفسطائيون . وپروتاغوراس هو الذى يسلك مسلك الرجل المهذب والفيلسوف ، فلا بغضب أو يثور ، ولا يحقد على أحد لما يبيده من دلائل الفطنة والذكاء ، ولا يُحمّل حجج مناظره من الجدل أكثر مما تحتمله ، ولا يهتم قط بأن يتكلم . ويعترف بأنه أخذ على نفسه أن يعلم تلاميذه التبصر والحدرفى الشئون الخاصة والعامة ، وحسن تنظيم المنزل والأسرة ، وفنون البلاغة أو الكلام المقنع والقدرة على فهم شئون الدولة وحسن إدارتها^(٨٦) . . وهو يبرر ما يأخذه من أجور عالية بقوله إن من عادته ، إذا عارض تلميذ فيما يطلبه من أجر ، أن يقبل منه أى أجر يراه التلميذ عادلا على شريطة أن يؤكد ذلك فى خشوع أمام مزار مقدس^(٨٧) - وتلك لعمري خطة حقاء من معلم يشك فى وجود الآلهة . ويتهمه ديوجين ليرتس بأنه « أول من سلح المجادلين بسلاح المغالطات المنطقية » وهى تهمة يسر منها سقراط بلاريب ، ولكن ديوجين يضيف إلى ذلك قوله : « كان بالإضافة إلى هذا أول من اخترع ذلك النوع من الجدل الذى يسمونه الجدل السقراطى^(٨٨) » - وهى تسمية قد لا يرتاح لها سقراط .

وكان من أفضاله الكثيرة أنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوريبين ، ويقول عنه أفلاطون إنه بحث فى الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ ، وإنه كان أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة ، وأول من ذكر أزمان الأفعال وحالاتها (إخبارية أو شرطية الخ^(٩٠)) : ولكن أهم ما يعيننا من أمره أن به ، لا بسقراط ، تبدأ النظرة الذاتية فى الفلسفة . فقد كان على عكس الأيونيين يعنى بالأفكار أكثر ما يعنى بالأشياء ونعنى بالأفكار عملية الإحساس ، والإدراك ، والفهم والتعبير بأكملها؛ فبينما كان بارميندس يرى أن الإحساس لا يهدى إلى الحقيقة ، كان پروتاغوراس يرى كما يرى لك Locke أنه السبيل الوحيدة إلى المعرفة ، ويأبى أن يعترف بوجود أية حقيقة تعلق على العقل ولا تدركها الحواس . ومن

أقوال پروتاغوراس أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، وأن كل ما يوجد هو الحقائق التي يعتنقها بعض الناس في ظروف خاصة ، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة في اعتقاد أشخاص مختلفين أو في أزمنة مختلفة^(٩١) . والحقيقة كلها والخير والجمال ، أمور نسبية وشخصية ؛ « والإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة ، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة^(٩٢) » . ولقد ينحى إلى المؤرخ أن العالم كله قد بدأ يرتجف ويتزعزع كيانه حين أعلن پروتاغوراس هذا المبدأ البسيط من مبادئ الإنسانية والنسبية ، وأن الحقائق المقررة والمبادئ المقدسة جميعها أخذت تتصدع وتهار ؛ وأن الفردية قد وجدت صوتاً ينادى بها وفلسفة تؤيدها ، وأن الأسس فوق الطبيعية للنظام الاجتماعي لم تعرضت كلها لخطر الزوال .

ولولا أن پروتاغوراس قد طبق في وقت من الأوقات هذا التشكك البعيد الأثر ، والذي يتضمنه هذا القول الدائع الصيت ، على شئون الدين لبقى قولاً نظرياً مأمون العاقبة . ذلك أن پروتاغوراس قرأه على جماعة من كبار المفكرين في بيت يورپديز الملحد الحر التفكير البغيض إلى الشعب . وقد أثارت أول جملة في هذه الرسالة نائرة الناس في أثينة وكانت الحملة الأولى فيها هي : « أما من حيث الآلهة فلست أدري أمي موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شياً . وثمة أشياء كثيرة تقف في سبيل هذه المعرفة : للموضوع غامض ، وحياتنا الفانية قصيرة الأجل^(٩٣) » . وارتاعت الجمعية الأثينية من هذه الكلمة الافتتاحية التي تنذر بشر مستطير فقررت نفى پروتاغوراس ، وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته ، وأحرقت كتبه في السوق العامة . وفر پروتاغوراس إلى صقلية ولكنه ؛ على ما ترويه القصة ؛ غرق في الطريق^(٩٤) .

وواصل غورغياس الليونتيني Gorgias of Leontini هذه الثورة التشككية ، ولكنه أوتي من الحكمة ما جعله يقض معظم حياته في خارج أثينة . وكانت سيرته أنموذجاً لسير الرجال الذين يجمعون بين الفلسفة والسياسة في بلاد اليونان . وقد ولد في عام ٤٨٣ ، ودرس الفلسفة والبلاغة مع أنبادوقليس ، وبلغ من شهرته في الخطابة وفي تدريسها أن أرسلته ليونيني في عام ٤٢٧ سفيراً لها في أثينة . واستحوذ في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في عام ٤٠٨ على قلوب حشد كبير من الناس بخطاب له طلب فيه إلى اليونان المتحاربين أن يعقدوا الصلح فيما بينهم لكي يواجهوا وهم متحلون واثقون من الفوز قوة بلاد الفرس الآخذة في الانتعاش ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ويشرح أينما حل آراءه بأسلوب خطابي طلي ، وألفاظ ممتعة وعبارات منسقة في معناها ومبناها ، متزنة اتزاناً دقيقاً بين الشعر والنثر ، لم يجد معها أية صعوبة في جذب الطلاب إليه يعرضون عليه مائة مينا نظير منهجه الدراسي . وقد حاول في كتابه في الطبيعة أن يثبت ثلاث قضايا مدهشة مروعة هي أنه : (١) لا وجود لشيء ما . (٢) ولو أن شيئاً وجد لكانت معرفته غير ممكنة . (٣) ولو أن شيئاً كانت معرفته ممكنة لما أمكن نقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر (٩٥)* . ولم يبق من كتابات غورغياس غير هذه القضايا . وبعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها ألقى عصا التسيار في تساليا وهدته حكيمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته (٩٦) . ويؤكد لنا كل من أرنهوا له أنه عاش حتى يبلغ من العمر مائة سنة وخمس سنين على أقل تقدير ؛ ويقول لنا كاتب قديم إن غورغياس ، وإن بلغ من

(٥) ومعنى هذه القضايا التي يقصد بها الخط من لفظة ائسامي التي يقول بها پارميدس :

(١) أن لا وجود لشيء خارج الحواس . (٢) وأنه لم يوجد شيء خارج الحواس لما

أمكن معرفته لأن المعرفة جميعها تصل إلينا عن طريق الحواس . (٣) ولو أن شيئاً خارج

دائرة الحواس أمكن معرفته فإن معرفته لا يستطيع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال

للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس .

العمر مائة سنة وثمان سنين ، لم يضعف جسمه من طول العمر ، بل ظل إلى آخر حياته في جيد الصحة لا تقل قوة حواسه عن قوة حواس الشباب (١٧) .

وإذا كان السوفسطائيون مجتمعين قد كونوا مدرسة متفرقة ، فإن هيياس الإليسي (Elis) كان مدرسة بمفرده ، وكان أنموذجاً للرجل المتعدد المعارف في عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حداً يجعلها في غير متناول عقل واحد . فقد كان يعلم الفلك والرياضيات ، وكانت له بحوث مبتكرة في الهندسة وكان شاعراً ، وموسيقياً ، وخطيباً . وكان يلقي محاضرات في الأدب ، والأخلاق والسياسة ، وكان مؤرخاً ، وضع أساس التاريخ اليوناني وتقويمه وتسلسله بأن جمع ثبناً من أسماء الفائزين في الألعاب الأولمبية ، وأرسلته إليس مبعوثاً لها لدى دول أخرى ، وكان يعرف من القنون والحرف عدداً كبيراً أمكنه به أن يصنع ملابس وأدوات زينتته (١٨) . وكان عمله في الفلسفة صغيراً ولكنه خطير ؛ فقد كان يعترض على حياة المدن المصطنعة المؤدية إلى الانحلال ، ويوضح الفرق بين الطبيعة والقانون ، ويقول : ان القانون ظالم مستبد بالخلق (١٩) . وواصل ورودكس ألكيوس عمل پروتاغوراس في النحو ، وحدد أجزاء الكلام ، وأدخل السرور على الشيوخ بوضعه قصة خرافية يصف فيها هرقل وهو يختار الفضيلة المحمودة بدل الوديلة الهينة (١٠٠) . ولم يكن غيره من السوفسطائيين أتقياء مثله : وكان منهم أنتيفون الأثيني الذي حذو دمقريطس في ماديته وإنكاره الآلهة ، والذي عرف العدالة تعريفاً يجعلها هي الطريقة الملائمة للظروف الموصلة إلى الغاية المطلوبة ، ومنهم ثرا زيماكس الخلقدونى Thrasymachus of Chalcedon الذي قال إن الحق هو القوة (إذا أخذنا بما يقوله عنه أفلاطون) وإن نجاح الأوغاد ليعت في نفوسنا الشك في وجود الآلهة (١٠١) .

والسوفسطائيين في مجموعهم يعدون من العوامل التي كان لها أعظم الأثر

في تاريخ اليونان ؛ فهم الذين اخترعوا لأوروبا النحو والمنطق ؛ وهم الذين رَقَوْا فن الجدل ، وحلّوا أشكال الحوار ، وعلموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقي وكيف يمارسونه ؛ ويفضّل ما بعثوه في اليونان من حافظ قوى وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة شغف مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال ؛ وهم الذين استخدموا المنطق في اللغة فزادوا الأفكار وضوحاً ودقة ، ويسروا انتقال المعرفة انتقالاً صحيحاً دقيقاً . وهم الذين جعلوا للنثر صورة من صور الأدب والشعر ووسيلة للتعبير عن الفلسفة ؛ وطبقوا التحليل على كل شيء ؛ وأبوا أن يعظموا التقاليد المتواترة التي لا تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل ؛ وكان لهم شأن كبير في الحركة العقلية التي حطمت آخر الأمر دين اليونان القديم عند طبقات الدهنيين . وفي ذلك يقول أفلاطون : إن « الرأي السائد » في زمنه هو أن « العالم وكل ما فيه من حيوان ونبات . . . وجماد نشأ من علة تلقائية غير مدركة » ولا عاقلة . ويحدثنا ليسيّاس Lysias عن وجود مجتمع يكفر بالآلهة يطلق على نفسه اسم « نادى الشياطين kadodatlmoniotai كان أعضاؤه يتعمدون أن يجتمعوا ليطعموا في الأيام المقدسة التي كان الصيام مقررأ فيها^(١٠٣) . وكان يتدار في بداية القرن الخامس يقبل ما ينطق به الوحي في دلقى قبول الأنبياء الصالحين ؛ وكان إسكلس يدافع دفاع السياسيين ؛ وفي عام ٤٥٠ انتقده هيرودوت وهو خائف وجل ، وكفر به توكيديديس صهره في آخر ذلك القرن ؛ وشكا أو طيفرون Euthyphro من أن الناس كانوا يسخرون منه إذا تحدث عن النبوءات في الجمعية ، ويعدون من البلهاء الذين دالت دولتهم^(١٠١) .

وليس من حقنا أن نغزو الفضل في هذا كله إلى السوفسطائيين أو أن نلومهم عليه ؛ فقد كان الكثير منه في الجوال الذي يحيط بهم ، وكان نتيجة طبيعية لازدياد الثراء ، والفراغ ، والأسفار ، والبحث والتفكير . وكذلك كان نصيبهم في تدهور الأخلاق أنهم اشتركوا في هذا التدهور (١١ ج ٢٠٠ - مجلد ٢)

مع غيرهم ؛ ولم يكونوا العامل الأساسى فيه ؛ ذلك أن الثراء فى حد ذاته ، إذا لم تقترن به الفلسفة ، يقضى على التزم وعلى الرواقية . ولكن السوفسطائيين عجلوا ، فى نطاق هذه الحدود الضيقة وعلى غير علم منهم ، سير حركة الانحلال . لقد كان معظمهم إذا غضبنا النظر عن جهم الجرم للمال وهو حب متأصل فى طبائع البشر ، من ذوى الأخلاق الطيبة والحياة المحتشمة المهذبة ، ولكنهم لم ينقلوا إلى تلاميذهم التقاليد أو الحكمة التى جعلتهم أو أبقتهم فضلاء رغم علمهم أن المبادئ الخلقية قد نشأت بين بنى الإنسان ولم تنزل عليهم من آلهة السماء ، وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولعل نشأتهم فى المستعمرات لافى بلاد اليونان الأصلية قد جعلتهم يستخفون بقوة العادة ، بوصفها بديلا سلميا للقوة أو القانون ، فى المحافظة على النظام والأخلاق . ولقد كان تعريفهم للأخلاق أو لقيمة الإنسان تعريفا قائما على أساس المعرفة ، كما فعل پروتاغوراس قبل سقراط بجيل من الزمان (١٠٨) ، كان هذا التعريف باعنا قويا على التفكير ، ولكنه كان ضربة زلزلت قواعد الأخلاق نفسها ؛ كذلك كان توكيد المعرفة وتعظيم شأنها من الأسباب التى زفقت مستوى اليونان العلمى والثقافى ؛ ولكنه لم يقو من ذكائهم بنفس السرعة التى حرر بها عقولهم . ولم يكن قولهم إن المعرفة شىء نسبي سببا فى حمل الناس على التواضع كما يجب أن يكون ، بل إنه أغرى كل إنسان بأن يتخذ من نفسه معيارا يقدر به جميع الأشياء ، فأصبح كل شاب نابه يحس بأنه خليق بأن يحكم على القانون الأخلاقى الذى يسير عليه بنو وطنه ، وأن يرفضه إذا لم يفهمه أو يعجبه ، ثم يصبح بعدئذ حرا فى أن يبرر رغباته حسب ما يراه هو بعقله ، ويقول إنها فضائل النفس التى تحررت من رق القانون . وكانت التفرقة بين « الطبيعة » والعرف ، وميل صغار السوفسطائيين إلى القول بأنه ما تبيحه « الطبيعة » خير فى ذاته على الرغم

من حكم العادة أو القانون ، كان هذا الميل وتلك التفرقة عاملا في تقويض الدعائم القديمة للأخلاق اليونانية ، ومشجعا للناس على القيام بكثير من التجارب في أساليب العيش . وأخذ الشيوخ يأسفون لانقضاء ما كان يسود المنزل من بساطة وإخلاص ، ولانهمالك الناس في السعى وراء اللذة وجمع المال متحللين في ذلك من قيود الدين (١٠٦) . ويحدثنا أفلاطون وتوكيد يدس عن المفكرين والقادة الذين يقولون إن الأخلاق وهم خرافة ، والذين لا يعترفون بأى حق غير حق القوة . وهذه الفردية العارمة التي لا قيد لها من الضمير هي التي جعلت منطق السوفسطائيين وبلاغتهم وسيلة للاحتيال لقانوني والتهريج السياسي ، وحطت من قيمة نزعتهم العالمية الواسعة الأفق فجعلتها مجرد إحجام وحذر عن الدفاع عن بلادهم أو استعداد لبيعها لمن يؤدي فيها أغلى الأثمان ، دون أن يشعروا بشيء من وخز الضمير . وأخذ الزراع المتدينون والأشراف المحافظون يرون ما يراه عامة المواطنين من أهل الحواضر الديمقراطيةين وهو أن الفلسفة قد أصبحت خطراً تهدد كيان الدولة وينلدها بشر مستطير .

واشترك بعض الفلاسفة أنفسهم في مهاجمة السوفسطائيين ، فاتهمهم سقراط (كما اتهم أرسطوفان سقراط من بعد) بأنهم يوهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة ، وكان يحتقرهم لأنهم يتقاضون من الناس أجورا (١٠٧) ويبرر جهله بالنحو بأنه لم يكن يستطيع حضور منهج پرودكس الذي يكلف خمسين درخمة ، ويقول إن كل ما كان في وسعه أن يحضر منهج الدرخمة الواحدة الذي يقتصر على المبادئ الأولية (١٠٨) . وكتب في ساعة مشنومة تلك المقارنة القاسية يكشف فيها عن أمرهم :

« إنا لنعتقد يا أتثيفون أن في وسعنا أن نتصرف في الجمال أو في الحكمة تصبراً شريفاً أو غير شريف ، فالشخص إذا باع جماله بالمال إلى كل راغب

في شرائه ، سماه الناس « عاهراً » ذكراً ؛ أما إذا صادق إنسان شخصاً يعرف أنه إنسان شريف جليل القدر يعجب به حسبه رجلاً فطنا حصيفاً . والدين يبيعون الحكمة بالمال لكل من يتقدم لشرائها يسميهم الناس سوفسطائين أو عاهري الحكمة إذا صح هذا التعبير . أما من يضاحب شخصاً يعرف أنه جدير بصحبته ، ويعلمه كل ما يعرف من الخير فلإننا نصفه بأنه يضطلع بالعمل الذي يليق بالمواطن الشريف^(١٠٦) ، ولم ير أفلاطون حرجاً في أن يوافق على هذا الرأي لأنه كان من الأثرياء . وبدأ إسقراط Isocrates حياته بخطبة ضد سوفسطائين ، ثم صار أستاذاً ناجحاً للبلاغة ، يتقاضى ألف درخمة (ألف ريال أمريكي) عن المنهج الواحد^(١١٠) ، وواصل أرسطاطاليس هجومه عليهم وعرف سوفسطائي بأنه الرجل « الذي لا يحرص إلا على أن يثرى من وراء النظار بالحكمة^(١١١) » ، واتهم بروتاغوراس بأنه « يعد الناس بجعل أسوأ الأسباب يبلو كأنه أحسنها^(١١٢) » .

وكان شر ما في هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق . فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة . ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطيع بها الإنفاق على التعليم العالي إلا إذا أمدته الدولة بالمال ؛ وإذا ما انتقد سوفسطائيون التقاليد والأخلاق السائدة في عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يحررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجحة العقل في زمانهم يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات في عصر الاستنارة في فرنسا إذ انقضوا على الماضي الميت انقضا جديراً بالإعجاب فكتسحوه أمامهم دفعة واحدة . ولم يطل عمرهم ، أو لم يكونوا بعيدى النظر في تفكيرهم ، حتى يقيموا نظماً جديدة بدل النظم التي قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله . ولا بد في كل حضارة أن يمين الوقت

الذى يتحتم فيه بحث الأساليب القديمة من جديد إذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكي توائم التغيرات الاقتصادية التي لا تستطاع مقاومتها . ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا البحث الجليل ، ولكنهم عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية إلى هذا التكيف . وكفاهم فخراً أنهم كانوا حافزاً قوياً لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاءوا من كافة أركان العالم اليونانى إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب للتفكير جديدة ، وأيقظوا فيها الوعى الفلسفى والنضوج الذهنى . ولولاهم لما وجد سقراط أو أفلاطون أو أرسطاطاليس .

الفصل الخامس

سقراط

١ - قناع سيلينس Silenus

مما يحتبط له الإنسان أن يقف آخر الأمر وجهاً لوجه أمام شخصية تبدو في ظاهر أمرها واقعية كشخصية سقراط . ونقول في ظاهر أمرها لأننا إذا تدبرنا المصدرين اللذين لا مناص لنا من الاعتماد عليهما في كل ما نعرفه عن سقراط ، وجدنا أن أحدهما وهو أفلاطون يكتب مسرحيات خيالية ، وأن الآخر وهو أكسانوفون يكتب روايات تاريخية ، وهذه وتلك لا يمكن أن تعدا من التاريخ الصادق الصحيح . وقد كتب ديوجين ليرتيوس في ذلك يقول : « يقولون إن سقراط حين سمع أفلاطون يقرأ الليسيس Lysis صاح قائلاً : أي هرقل ! ما أكثر الأكاذيب التي قالها عنى هذا الشاب ! ذلك بأن أفلاطون قد أنطق سقراط بأشياء كثيرة لم ينطق هو بشيء منها (١١٣) » .

والحق أن أفلاطون لا يدعى بأنه يقصر أقواله على الحقائق ؛ وأكبر الظن أنه لم يدر بخلفه قط أن المستقبل قد يعدم الوسائل التي يفرق بها بين ما هو سيرة حقة وما هو من نسج الخيال في كتابه . ولكن أفلاطون يرسم في المحاورات صورة منسقة لأستاذه من أيام شباب سقراط الوجمل في إليارمنيدس وثرثرته الزوخة في البروتاغوراس إلى تقواه المكبوتة واستسلامه في الفيديون ، لا يسع الإنسان معها إلا أن يعتقد أنه إذا لم يكن هذا سقراط بحق فإن أفلاطون يعد من أكبر مبتدعي الشخصيات في الأدب بأجمعه . ويعتقد أرسطاطاليس أن الآراء المعزوة إلى سقراط في البروتاغوراس هي آروؤه بحق (١١٤) . وقد كشفت

حديثاً هتافات من كتاب عن ألقبيادس كتبها إسكنيز الاسفتوزى *Aeschines of Sphettos* أحد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التي رسمها له أفلاطون في الأجزاء الأولى من محاوراته كما ترجح تأييد قصة العلاقة الوثيقة التي كانت بين الفيلسوف وبين ألقبيادس (١١٥). غير أن أرسطاطاليس من جهة أخرى يعد الذكريات *Memorabilia* والمائدة *Banquet* من القصص الموضوعية أى الأحاديث الخيالية التي يردد سقراط في أكثرها آراء أكسانوفون(*) نفسه (١١٦) وإذا كان أكسانوفون قد صدق فيما نقله عن سقراط صدق إكرمان *Eckerman* فيما نقله عن جيته ، فإن كل ما نستطيع أن نقوله في هذه الحال أنه عنى بجمع سخافات المعلم التي لا ضرر منها ، بأنه ليس من المعقول أن رجلاً أوتى من الفضائل ما أوتى سقراط حسب وصفه به أكسانوفون يستطيع أن يقلب الحضارة القائمة رأساً على عقب . على أن غير أكسانوفون من الكتاب الأقدمين لم يصوروا الحكيم القديم في صورة القديسين الصالحين كما صورهم أكسانوفون . من ذلك أن أرسطوقسانيس التارنتى *Aristoxenus of Tarentum* ينقل عن أبيه - الذي يدعى أنه كان يعرف سقراط شخصياً - حوالى عام ٣١٨ أن الفيلسوف كان شخصاً مجرداً من التعليم « جاهلاً فاجراً » (١١٧) ، وأن يوبوليس *Eupolis* الشاعر الهزلى فاق منافسه أرسطوفان في الافتراء على المشاء العظيم (١١٨) . وإذا أسقطنا من حسابنا ما يجر إليه الجدل من قسوة في اللفظ اتضح لنا على الأقل أن سقراط كان رجلاً نال من كره الناس وحبهم أكثر مما ناله أى إنسان آخر في عصره .

وكان أبوه مثالا ، ويقال إنه هو نفسه نحت تمثالا لهرمس ، وآخر لربيات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكربوليس (١١٩) . أما أمه فكانت قابله ، وكان من الفكاهات التي لا ينفك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من

(*) وفي الكتاب الثالث من الذكريات ينطق أفلاطون سقراط بشرح الأساليب والحيل الحربية .

مواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار ، فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم . وتقول إحدى الروايات إنه ابن أحد الأرقاء (١٢٠) ، ولكننا نرجح بطلان هذه الرواية لأنه عمل هيلينا أى جنديا في فرق المشاة الثقيلة (وذلك واجب لا يضطلع به إلا المواطنون (١٢١)) ، وأنه ورث عن أبيه بيتا ، وكان عنده من المال سبعون مينا (٧٠٠٠ ريال أمريكي) ، يستثمرها له صديقه أقربطون (١٢١) ؛ أما فيما عدا هذا فإنه يصو لنا على أنه رجل فقير (١٢٢) . وقد عني عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان غالب أيامه قوى البنية جيد الصحة ، واكتسب شهرة فائقة في الهندية أثناء حرب البلويونيز ؛ وحارب في بوتيدا Potidaea عام ٤٣٢ ، وفي ديليوم Delium عام ٤٢٤ ، وفي أمفوليس عام ٤٢٢ . وفي بوتيدا أنقذ حياة الشاب ألقبيادس وسلاحه ، ونزل عن جائزة الشجاعة لإكراما لخاطر هذا الشاب ، وفي ديليوم كان آخر من تقهقر من الأثينيين أمام الاسبارطيين ، ويلوح أنه أتجى نفسه بالتحديق في العدو ، فخافه الاسبارطيون وهم قوم لا يخافون . ويقال إنه في هذه الوقائع كلها بز جميع أقرانه في قوة الاحتمال وفي الشجاعة ، وإنه كان يصبر على الجوع والتعب والبرد فلا يشكو ولا يتململ (١٢٣) . أما في بلده ، إذا طوعته نفسه على الإقامة فيه ، فكان يشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل ؛ ولم يكن مولعا بالأسفار ، وقلما كان يخرج من المدينة ومرفئها . وتزوج من إكسانثي Xanthippe التي كانت تعيب عليه إسماله شئون أسرته ؛ فكان يعترف بعدالة شكواها (١٢٤) ، ويثني على كرم أخلاقها وحسن معاملتها لابنه وأصدقائه . ولم يكن الزواج يضايقه قط فقد يبدو أنه اتخذ لنفسه زوجة ثانية حين أباح القانون تعدد الزوجات مدة قصيرة لكثرة من قتل في الحروب من الذكور (١٢٥) .

والعالم كله يعرف وجه سقراط وملاحه .. وإذا حكنا عليه من تمثاله النصني المحفوظ في متحف ترمي Museo dell Terme برومة ، وذلك حكم لا يستند إلى

أساس قوى ، قلنا إنه إنه لم يكن أنموذجاً صادقاً للوجه اليوناني (١٢٩) . ذلك أن سعة وجهه ، وأنفه الأفتس العريض ، وشفتيه الغليظتين ، ولحيته الكثة ، كلها توحى بأنه ينتمى إلى أرض السهوب التي جاء منها أناكارسيس Anacharsis صديق صولون ، أو ذلك السكوذى الحديث تولستوى . وقد كتب عنه ألقبيادس في إصرار عجيب ، حتى في الوقت الذي يجهر فيه بحبه يقول : « أقول إن سقراط يشبه كل الشبه أفنعة سيلينس ، التي يمكن رؤيتها في حوائث التماثيل ، وفي أفواها مزامير وصفارات ، وتفتح في أوساطها فترى في داخلها صور الآلهة . وأقول أيضاً إنه يشبه مارسياس Marsyas الكائن الخرافي الذي يتكون نصفه الأعلى من إنسان ونصفه الأسفل من ماعز (satyr) ، ولست أعتقد أنك يا سقراط تنكر أن وجهك هو وجه ذلك المخلوق الخرافي (١٣٠) » . ولم يعترض سقراط على هذا القول ، بل إنه فعل ما هو شر من هذا فقد اعترف بأن له كرشاً مفرطاً في الكبر وأنه يرجو أن ينقصها بالرقص (١٣١) .

ويشقى أفلاطون وأكسانوفون في وصفهم عاداته وأخلاقه . من هذه أنه كان يمتنع بثوب بسيط رث يلبسه طول السنة ، ويفضل الحفاء على الأحذية أو الأخطاف (١٣٢) . وقد نحرر إلى حد لا يصدق العقل من داء التملك الويل المصاب به الجنس البشري ، ويقال إنه أبصر ذات مرة كثرة البضائع المعروضة للبيع فقال : « ما أكثر الأشياء التي لا أحتاجها (١٣٣) ! » وكان يشعر بأنه غنى في فقره . وكان مضرب المثل في الاعتدال وضبط النفس ، ولكنه ، كان أهد الناس عن حياة القديسين . وكان في وسعه أن يشرب كما يشرب أى رجل مهذب مثقف ، ولم يكن في حاجة إلى الزهد لكي يحتفظ باستقامة خلقه (٥) . ولم يكن ناسكاً يعتزل الناس ؛ بل كان

(٥) يقول أكسانوفون هل لسان سقراط : « إذا سألتني من الشراب قلت لك إن الخمر تترطب النفس ، وتسكن الأضغان ... ولكني أظن أن أجسام الناس كأجسام النبات ... وأن الله إذا نمر النبات بالماء ليرتوى منه لم يتوعل الوقوف منتدلاً ، ولم يمكن اللسيم من -

يجب الرفقة الطيبة ، وكان لا يَأْبَى أن يدعى إلى ولائم الأغنياء من حين إلى حين ، ولكنه لم يخضع لهم أو ينحني امتثالاً لأمرهم ، وكان في وسعه أن يعيش أحسن العيش دون معونتهم ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك وولاتهم^(١٣٥) . وجملة القول أنه كان رجلاً محظوظاً يعيش من غير كد ، ويقرأ من غير أن يكتب ، ويعلم من غير أن يلتزم خطة رتيبة ، ويشرب دون أن يدور رأسه ، ثم يموت قبل أن يدركه وهن الشيخوخة ، وكان موته بلا ألم .

وكانت أخلاقه أحسن الأخلاق الملائمة لعصره ، ولكنها أخلاق يصنع أن يرضى بها كل الرجال الصالحين الذين يشنون عليه . فقد « سرت نار » الحب في جسمه حين رأى كرميدس Charmides ، ولكنه ضبط عواطفه بأن سأل نفسه هل لهذا الفتى هو الآخر « نفس نبيلة^(١٣٦) ؟ » . ويصف أفلاطون سقراط وألقبيادس بأنهما عاشقان ، ويقول عن الفيلسوف إنه « يطارد الفتى الوسيم^(١٣٧) » ؛ والشيخ وإن كان يبدو أنه قد جعل حبه في الغالب حياً أفلاطونياً ، لم يستنكف أن يقدم النصيح للاطيين والسراري عن خير الوسائل لاصطياد المحبين . وقد دفعته شهامته إلى أن يعد الحظية ثيودورا بمعونته ، وقد جازته على هـله . المعونة بدعوتها إياه أن « يتردد عليها ليزورها^(١٣٨) » . ولم تكن تفارقه دعابته ورقة حاشيته ، ومن أجل هذا فإن الذين يطيقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يحتملوا أخلاقه . ولما قضى نحبه قال عنه أكسانوفون إنه بلغ من إنصافه أنه لم يتظلم إنساناً حتى في أئفه الأمور . . . ؛ وبلغ من عدالته أنه لم يفضل في وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ؛ وبلغ من حكمته أنه لم يخطئ قط في تمييز الخبيث من الطيب ؛ ومن قدرته على تبيين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة

— أن يسرى في خلاله ، ولكنه إذا لم يشرب إلا بالقدر الذي يكفيه لأن يستمتع به بما واستوى حل سوته وأمر أكل الثمار وأرد ما .

والشرف أن يبدأ أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسلمهم (١٤٠) : وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى نفسه ببساطة خلاصة فقال إنه « كان بحق أعقل ، وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس في حياتي كلها (١٤١) » .

٢ - صورة ذبابة الخليل

وإذا كان سقراط طالعة محباً للجدل فقد عمد إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسوفسطائيين الذين غزوا أثينة في أيام شبابه . وليس لدينا شاهد على أن أفلاطون قد اخترع نبأ التقاء سقراط ببارمينيدس ، وپروتاغوراس ، وغورغياس ، وپروذكس ، وهيبياس ، وثراسيمكس ، وما دار في لقائه بهم من الأحاديث ؛ وليس يبعد أيضاً أن يكون قد رأى زينون حين وفد هذا إلى أثينة حوالي عام ٤٥٠ ق . م وأنه تأثر بجذله تأثراً لم يفاوقه طول حياته (١٤٣) . وأكبر الظن أنه عرف أنكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركلوس الملطي تلميذ أنكساغورس كان في وقت ما معلم سقراط . وقد بدأ أركلوس هذا حياته العلمية عالماً في الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذي حول سقراط من الطبيعة إلى علم الأخلاق . ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، ومد تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير في حديثي كل يوم عن الفضيلة ، وفحصي عن نفسي وعن غيري ، لأن الحياة التي لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » (*) . وهكذا أخذ يطوف بعمق الناس ، ينزهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات دقيقة محددة وآراء منسقة غير متناقضة ، ويلقى الرعب في قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحاً ، وحتى في الجحيم نفسه يعرض أن يكون مشاء طالعة

(*) De anaxilas bios ou biosos anthropo. Apology. ٢٧ ص

« يعرف مَنْ من الناس حكيم ومن منهم يدعى الحكمة وهو من غير أهلها (١٤٤) » وقد حى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم لئلا يماثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً . . وأنه يعلم الأسئلة جميعاً ولكنه لا يعلم شيئاً من أجوبتها ؛ وقال عن نفسه متواضعاً إنه من « هواة الفلسفة (١٤٥) » . ولعل الذى يقصده بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شيء غير تعرض الإنسان للخطأ ، وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادئ المقررة الجامدة ؛ ولما أن أجاب مهبط الوحي فى دلتى جوابه المزعوم عن سؤال كريفون Chaerephon المزعوم : « هل فى الناس من هو أعقل من سقراط » وهو : « لا أحد (١٤٦) » ، عزا سقراط هذا الجواب إلى اعترافه هو بجهله ، وشرع من تلك اللحظة يقوم بذلك الواجب العملى واجب الحصول على أفكار واضحة ، وقال عن نفسه : « إنه سيتحدث عن حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعادل وغير العادل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وعما يعد شجاعة وما يعد جنياً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس ، وعن صفات الرجل البارع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى . . . يرى أن من يجهلوننا يعدون بحق طبقة العميد (١٤٧) » . وكان إذا صادف فكرة غامضة . أو تعميماً هيناً غير قائم على الحقائق ، أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ؛ تحدثى محدثه بقوله : « ما هو ؟ » ثم سأله أن يحدد ما يقول تحديداً دقيقاً . وأصبح من عادته أن يصحو مبكراً ؛ ويذهب إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصناعات ، ويأخذ فى مجادلة أى إنسان يتوسم فيه الذكاء الحافز أو الغباء المسلى ، وكان يسأل : « ألم يعمل الطريق إلى أثينة لكى يتحدث الناس فيه (١٤٨) » ، وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد : كان يطلب إلى من يحدثه أن يعرف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف

في العادة عما فيه من نقص ، و تقصص ، أو ضعف وبطلان ؛ ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة إلى تعريف أتم وأصح لا يقوله هو أبداً . وكان ينتقل أحياناً إلى فكرة عامة أو عرض فكرة أخرى جديدة يبحث سلسلة طويلة من الحالات المفردة الخاصة مكنته من أن يدخل قدرأ من طريقة الاستقراء في المنطق اليوناني ؛ وكان في بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطي المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التي تترتب على التعريف أو الرأي الذي يريد أن يهدمه . وكان مولعاً بالتفكير المنظم خوفاً به ، يجب أن يصنف الأشياء المفردة حسب جنسها ، ونوعها ، وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك مهد السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس في التعريف ، وإلى نظرية أفلاطون في الأفكار . وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأثار دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التي قدر عليها ألا يطول أجلها في تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيبون عليه أنه يهدم ولا يبني ، وأنه يرفض كل جواب ولا يجب هو بشيء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل التفكير ، وأنه في كثير من الحالات ترك الفكرة التي أراد أن يوضحها وهي أكثر غموضاً من ذي قبل . وكان إذا حاول شخص حازم مثل أفريتياس Critias أن يسأله حول جوابه إلى سؤال آخر فأصبحت له من فوره ميزة على سائله . نعم إنا نراه في البروتاغوراس يعرض أن يجيب عن الأسئلة لأن يسأل ؛ ولكن هذه النية الطيبة لا تدوم إلا لحظة قصيرة ، وعندئذ ينسحب بروتاغوراس ، وهو الذي تدرس في المنطق من زمن طويل ، من ميدان الجدل بهدوء^(١٩٩) . ويستشيط هيبياس غضباً من تملص سقراط وهروبه من الإجابة عما يوجه إليه من أسئلة ، ويرفع عقيرته بقوله : « قسما بزيوس إنك لن تسمع (جوابي) حتى تعلن أنت ما ترى أنه العدالة ؛ لأنه لا يكفي أن تسخر من الناس ، وأن تسأل كل إنسان وتربكه ، ثم تأتي أن تفصح

عن سبب لأى إنسان ، أو أن تعلن عن رأيك فى موضوع ما(١٠٥) . وقد أجب سقراط عن هذا التقرىع وأمثاله بقوله إنه لىس إلا قابلة كأمه ؛ « إن اللوم الذى بوجهه لى كثيرا ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن لىس لى من العقل ما أستطىع به أن أجب عنها ، لوم عادل لاعتراض لى عليه ، وسببه أن الله أرغمنى على أن أكون قابلة ، ونهانى عن أن ألد(١٥١) ، وذلك لعمرى هروب واضح ما أخلقه بصدىقه يورپدیز .

وهو يشبه السوفسطائىن من وجوه كثيرة ، ولم يكن الأثنىون ىترددون فى أن يطلقوا عليه هذا الاسم ، على أنهم لم يكونوا ىقصدون بهذا أن يعبوه أو ىنقصوا من قدره(١٥٢) . والحق أنه كان سوفسطائىا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ أى أنه كان بارعاً فى المراوغات الماكرة ، والحىل الجدلية ، ىبدل مجال الألفاظ أو معانىها بحذق ودهاء ، وىغرق المسألة التى ىجادل فىها بالتشبهات والاستعارات المفككة ، وىماحك وىغالط كما ىغالط صبىان المدارس ، وىحارب بالألفاظ بحرب الأبطال ولكن لى غير غاية(١٥٣) . وقد ىعفو الإنسان عن جرعه السم لأننا لا نرى أن ثمة آفة شرا من المنطقى العارف بقوة منطقته . وكان ىختلف عن السوفسطائىن فى أربعة أمور : كان ىكره البلاغة ، وكان ىرغب فى تقوية الأخلاق ، ولم ىكن بدعى أنه ىعلم أكثر من فن بحث الأفكار ، وكان ىأبى أن ىأخذ أجراً على تعلمه - وإن كان ىبدو أنه قبل فى بعض الأحيان عوناً من بعض الأغنىاء من أصدقائه(١٥٤) . وكان تلامذته ىحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضایقهم ، وقد قال مرة لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنىل الشرف والفضىلة ، لأن كلامنا ىمىل لى حب صابجه ؛ وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلوتى هم حبهم من كل قلوبهم ، ىسوءنى غىابهم عنى كما ىسوءهم غىابى عنهم ، وأنوق لصحبتهم كما ىتوقون لصحبى(١٥٥) .

ويمثل أرسطوفان في رواية السحب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة ذات مكان معين يجتمعون فيه ؛ وفي أكسانوفون فقرة تؤيد هذه الفكرة بعض التأييد (١٥٦) ؛ ولكنه بصور لنا عادة بأنه يعلم في أى مكان يجد فيه من يعلمه ، أو من يستمع إليه ؛ غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ خاصاً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بلغ من شدته أن أصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافاً في بلاد اليونان - الأفلاطونية ، والكلية ، والرواقية والأبيقورية ، والنشككية . فكان منهم انتسان Antisthenes الفخور الدليل الذى أخذ عن أستاذه مبدأ البساطة في الحياة وحاجاتها ؛ وأسس المدرسة الكلية . ولعله كان حاضراً حين قال سقراط لأتيفون : « يبدو أنك تظن أن السعادة في الترف والإسراف ؛ أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن في حاجة إلى شيء كنت شبيهاً بالآلهة ، وأنتك إذا أقلت من حاجاتك قدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة (١٥٧) » . وكان منهم أيضاً أرسطوبس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « في اللذة خيراً » العقيدة التى نشرها بعدئذ في قوريني Cyrene والتي دعا إليها أبيقور أثينة فيما بعد . ومنهم إقليدس الميغارى الذى جعل من الجدلية السقراطية تشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حقة . وكان منهم الشاب فيدون الذى كان قد انحط إلى طبقة العبيد ثم افتداه قريطون Crito بإيعاز سقراط ، وأحب سقراط هذا الشاب و « جعله فيلسوفاً » . وكان منهم أكسانوفون القلق المضطرب الذى نحلى عن الفلسفة ليكون جندياً ، ولكنه أثبت أن « لا شيء أعظم نفعاً من صحبة سقراط ، والتحدث إليه في أية مناسبة وفي أى موضوع مهما يكن شأنه (١٥٩) » . ومنهم أفلاطون الذى تأثر بخياله القوى بالفيلسوف الحكيم تأثراً لم يفارقه طول حياته حتى امترج العقلان وصارا في تاريخ الفلسفة عقلاً واحداً . ومنهم أقريطون الثرى ، الذى كان يهيم حباً بسقراط ، والذى كان يحرص أشد الحرص على ألا يكون الفيلسوف الكبير في حاجة إلى

شيء ما^(١٦٠) . وكان منهم الشاب ألقبيادس المتهور الجريء الذى أساء بعدم وقائه إلى معلمه ، وعرضه للأخطار فى مستقبل الأيام ، ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه يجب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم ، والذى يقول فيه :

« إنا إذا سمعنا متحدثا غيرك ، وإن كان من أحسن الناس حديثاً ، لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك ؛ أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ، ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون ، أما هذه التتف فإنها تحلب الأبواب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها . . . وإنى لأعرف أنى إذا لم أصم أذى عن سماع أقواله وأفر من صوته الذى يسلب العقل للازمته حتى بلغ سن الشيخوخة وبقيت جالسا نحت قدميه . . . ولقد أحسست فى نفسى أو قلبى . . . بذلك الألم الشديد الذى هو أشد إيلا ما لنفس الشاب الشريف من أنياب الأفاعى ألا وهو ألم الفلسفة . . . وأنت يا فيلروس وأنت يا أغاثون ، وأنت يا إركسماكوس ، وأنت يا پوزنياس ، وأنت يا أرسطوديمس وأنت يا أرسطوفان ، أنتم كلكم ، ولا حاجة لى بأن أضم إليكم سقراط نفسه ، قد طافت بكم هذه التجربة نفسها وشغفتم بالفلسفة شغفى أنا بها^(١٦١) .

وكان منهم الزعيم الأجركى كرتياس الذى يستمتع بهكم سقراط على الديمقراطية والذى كانت له يد فى إدانته بأن كتب مسرحية وصف فيها الآلهة بأنها من ابتداء مهرة الصناع الذين يستخدمونها كما يستخدم خفراء الليل ليرهبوا بها الناس ويرغموهم على حسن الأدب^(١٦٢) . وكان منهم أيضاً ابن الزعيم الديمقراطى أنيتوس Anytus وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط عن العناية بعمله وهو الانجار فى الجلود . وشكا أنيتوس من أن سقراط قد أفسد عقل الغلام بما بث فيه من تشكك ، فلم يعد يبجل أبويه أو يعظم الآلهة ؛

هذا إلى أن أنيتوس كان يشتمز من نقد سقراط للديمقراطية(*) (١٦٣) ويقول : « أى سقراط ! إنى أظنك مفرطاً في استعدائك لأن تتحدث بالشر عن الناس ، فإذا قبلت نصحي أشرت عليك أن تصطنع الخلد ؛ ولعله لا توجد قط مدينة ليس إيداء الناس فيها أيسر من عمل الخير لهم ؛ وتلك بلاشك حال أثينة نفسها (١٦٤) » وأخذ أنيتوس يتربص به الدوائر .

٣ - فلسفة سقراط

وكان من وراء هذه الطريقة فلسفة مراوغة ، تجريدية ، تجرى على غير نظام ، ولكنها فلسفة بلغ من جدتها وحقيقتها أن مات الرجل في واقع الأمر من أجلها . وقد يبدو لأول وهلة أن ليست هناك فلسفة سقراطية ، ولكن أكبر السبب في هذا أن سقراط قبل نزعة بروتاغوراس النسبية فرفض النزعة التحكيمية ولم يكن واثقاً إلا من جهله .

وقد حكم على سقراط لأنه لا يؤمن بالدين ، ولكنه مع هذا كان يعبد آلهة المدينة بلسانه إن لم يعبدها بقلبه ، ويشترك في احتفالاتها الدينية ، ولم يعرف عنه أنه نطق مرة بكلمة تدل على عدم تقواه (١٦٦) . وكان يعترف بأنه يتبع في جميع قراراته الهامة السلبية روحاً Diamonion داخلياً كان يصفه بأنه إشارة من السماء ، ومن يندرى فلعل هذا الروح كان هو الآخر سخريه من سخريات سقراط وتهكماته ؛ فإن كان كذلك فإن سقراط لم يكن ينمك يؤكد دعواه هذه تأكيداً عجيباً ؛ ولم تكن هذه الدعوى إلا مثلاً من أمثلة عدة لالتجاء سقراط إلى النبوءات والأحلام وقوله إنها وحى من عند الآلهة (١٦٧) . وكان يقول إن في الكون من الأمثلة الدالة على التناسق المدهش العجيب ، ومن الخطة الواضحة المرسومة ، ما لا يصح معه

(*) ولعل أنيتوس ، كما يذكر لنا فاوطرخس وأثينيوس ، كان يشق ألقبياس ولكن ألقبياس لم يبادل الحب وفضل عليه سقراط (١٦٤) .

أن يعزى وجود العالم إلى الصدفة المحضة أو إلى أية علة غير عاقلة ، أما الخلود فلم يكن واثقا منه مثل هذه الثقة أو قاطعا في أمره هذا القطع ؛ فهو يستمسك به ويدافع عنه في الفيديون Phaedo أما في الأبولوجيا Apology فهو يقول : « إذا جاز لي أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أنى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا في واقع الأمر لا علم لي بها على الإطلاق » (١٦٨) . ويطبق هذه النزعة اللاأدرية نفسها على الآلهة في كتابه الكراتلس فيقول : « أما الآلهة فلسنا نعرف عنها شيئاً » (١٦٩) . وكان ينصح أتباعه بالألا يجادلوا في مثل هذه الأمور ، يسألهم كما يسأل كنفوشيوس أتباعه هل عرفوا شئون للبشر حتى المعرفة فأصبحوا بعدئذ على استعداد لأن يتدخلوا في شئون السماء (١٠٧) ؟ وكان يحس أن خير ما نفعله في هذه الناحية . أن نقر بجهلنا ، وأن نطيع في الوقت نفسه وحى دلتى حين سئل كيف يعبد الإنسان الآلهة فأجاب : « حسب قانون بلادكم » (١٧١) .

وكان يطبق هذا التشكك نفسه تطبيقاً أشد من هذا صراحة في العلوم الطبيعية فيقول إن من واجب الإنسان ألا يزيد في دراستها على القدر الذى يهتدى به في حياته ؛ أما فيما عدا هذا فإن هذه العلوم بيداء بضل فيها العقل ، يكشف كل لغز غامض فيها حين يحل عن لغز آخر أشد منه غموضاً (١٧٢) . وكان في شبابه قد درس العلوم الطبيعية مع أركلوس Archelaus ، فلما كبر ونضج عقله تركها وهو يعتقد أنها أسطورة خداعة إلى حد ما ، ولم يعد يهتم بالحقائق أو بأصول الأشياء بل وجه اهتمامه إلى القيم والغايات . وفي ذلك يقول أكسانوفون « إنه كان على الدوام يتحدث في البشرية » (١٧٤) . وكان السوفسطائيون أيضاً قد حولوا اهتمامهم من العلوم الطبيعية إلى الإنسان ، وبدعوا يدرسون الإحساس ، والإدراك والمعرفة ، ولكن سقراط تعمق أكثر من هذا في داخل الإنسان وأخذ يدرس الأخلاق والأغراض البشرية : « قل لي يا يوثيديموس ،

هل ذهبت في حياتك إلى دلتى ؟ : وهل لاحظت ما هو مكتوب على جدار الهيكل - أعرف نفسك ؟ نعم لاحظته . « وهل لم تفكر في هذه الكتابة ، أو هل عنيت بها ، وحاولت أن تفحص عن نفسك وتعرف عن يقين أخلاقك ؟ » (١٧٥) .

فلم تكن الفلسفة إذن عند سقراط هي الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسية ، مدخلها والوسيلة إليها المنطق ، ولذا كان قد عاش في ختام عصر السوفسطائيين فقد أدرك أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة في تاريخ أمة ثقافة من الثقافات وتلك هي إضعاف أحد الأبنس التي تقوم عليها الأخلاق ونعني به خوارق الطبيعة . وبعد أن أدرك هذا لم يعد خائفاً مرتاعاً إلى الإيمان بالدين بل سلك السبيل إلى أعمق الأسئلة في علم الأخلاق : هل باستطاع وجود علم للأخلاق قائم على أساس من الطبيعة ؟ أى يمكن أن تبقى الأخلاق من غير الاعتقاد بخوارق الطبيعة ؟ وهل في مقدور الفلسفة إذا صاغت قانوناً قوياً أخلاقياً دنيوياً غير ديني أن تنقذ الحضارة التي تهددها حرمتها الفكرية بالانهيار والزوال ؟ وحين يقول سقراط في الأوطيفرون أن ليس الخير خيراً لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، حين يقول هذا يعرض في واقع الأمر ثورة فلسفتنا ولم تكن فكرته عن الخير فكرة دينية ، بل كانت فكرة دنيوية إلى حد يجعلها نفعية . فهو يرى أن الصلاح ليس فكرة عامة مجردة ، ولكنها فكرة خاصة عملية فالصالح صالح لشيء ما ، والصلاح والجمال شكلان من أشكال المنفعة والفائدة البشرية ؛ وحتى السبلة من الروث تكون جميلة إذا أحسن إعدادها للغرض الذي تؤديه (١٧٦) . ولإذ لم يكن ثمة (في رأى سقراط) شيء غير المعرفة يعادلها في نفعها ، فإن المعرفة هي أسمى الفضائل والرذيلة جميعها هي الجهل (١٨٧) ، وإن كان المقصود بالفضيلة (arete) هنا هو التفوق لا البراعة من الذنوب . والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة ، وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه ،

والناس لا يفعلون قط ما يعرفون أنه خطأ - أى مضاد للعقل ، ضار بهم .
وأسمى أنواع الخير والسعادة ، وخير سبيل للوصول إليها هى سبيل المعرفة
أو الدكاء .

ويقول سقراط إنه إذا كانت المعرفة هى أسمى الفضائل كانت الأرستقراطية
خير أشكال الحكم ، وكانت الديمقراطية سخفاً وعبثاً . وفى ذلك يقول
أكسانوفون على لسان سقراط : « من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على
حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ
فى الناي ، أو أى صانع على الإطلاق ، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من
عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا » (١٧٩) . وهو يعيب على الأثينيين حبهم
للتقاضى . ، وتحاسدهم الصاحب ، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السياسية ؛
ويقول ذلك : « ولهذا الأسباب ترانى على الدوام أخشى أشد خشية أن يحل
بالدولة شر تنوء به وتعجز عن تحمله » (١٨٠) . وكان يظن أن لا شىء ينبغى
أثينة إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية ، وليست السبيل إلى هذا الحكم هى
الاقتراع ، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلاً لتقدير كفاية مرشد السفن
أو الموسيقى أو الطيب أو النجار . كذلك يجب ألا يختار موظفو الدولة على
أساس جاههم أو ثراتهم ؛ ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن
شر الديمقراطية . والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرستقراطى الذى تقصر
فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم والذين يدربون على القيام بما
تطلبه من الواجبات (١٨١) . على أن سقراط كان يعترف بما للديمقراطية
الأثينية من مزايا رغم ما يوجهه إليها من نقد ، ويقدر ما أسدته إليه من
حريات وما أتاحت له من فرص . وكان يبتسم ساخراً من ميل بعض أتباعه
للدعوة إلى « العودة إلى الطبيعة » ، وقد وقف من أنستانس ومن الكليبيين نفس
الموقف الذى وقفه فلتير من روسو فيما بعد - وهو أن الحضارة ، رغم عيوبها
الكثيرة ، كثر ثمين لا يصح أن تتخلى عنه لتستبدل به البساطة الأولية (١٨٢) .
ومع هذا كله فقد كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة الريبة والسخرى ؛ فأما

المتسكون منهم بالدين فقد كانوا يرونه أشد السوفسطائيين خطورة ؛ لأنه وإن راعى ما فى الدين القديم من أسباب المتعة والمسرة ، رفض التقاليد المرعية ، وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعده إلى حكم العقل بعد تقص وفحص ، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خير المجتمع أو أوامر الآئمة ؛ و انتهى به الأمر إلى تشكك ترك العقل فى حال من الاضطراب زء عت كيان كل عادة وكل عقيدة . وكان الذين يجدون الأيام الخوالى أمثال أرسطوفان يعزون إليه كما يعزون إلى پروتاغوراس ويورپديز زعزعة أركان الدين ، وقلة احترام الصغار للكبار ، والانتحال الخلقى عند الطبقات المتعلمة ، وفوضى العزوبة التى كانت تقوض أركان الحياة الأثينية . ولقد كان الكثيرون من زعماء الحزب الأبحركى من تلاميذ سقراط أو من أصدقائه ، وإن كان هو نفسه قد أبى أن يؤيد هذا الحزب ؛ ولما أن قام رجل منهم يدعى أقريتياس وقاد الأبحركيين فى ثورة بسطوا خلالها عهداً من الإرهاب الوحشى ، اتهم الديمقراطيون أمثال أنيتوس ، وملاتوس سقراط بأنه العقل المحرك للرجعية الأبحركية ، وأجمعوا أمرهم على إبعاده عن مجرى الحياة الأثينية .

وأفلحوا فيها أجمعوا أمرهم عليه ، ولكنهم لم يفلحوا فى القضاء على ما كان من نفوذ لاحد لقوته . ذلك أن الطريقة الجدلية التى تلقاها عن زينون انتقلت منه عن طريق أفلاطون إلى أرسطاطاليس فحولها هذا إلى نظام منطقي بلغ من الكمال درجة استطاعت بها أن تبقى دون أن يطرأ عليها تغيير ما تسعة عشر قرناً كاملة . أما العلم فقد كان له فيه أثر صبار ؛ ذلك أنه حول الطلاب من البحث فى العلوم الطبيعية ، كما أن نظرية الغرض الخارجى لم تكن من العوامل المشجعة للتحليل العلمى . وربما كان لنزعة سقراط الفردية والذهنية فى علم الأخلاق بعض الأثر فيما أصاب الأخلاق فى أثينة من انحلال ، ولكن رفعها من شأن الضمير ، وقولها إنه أعلى من القانون ، أصبحت من العقائد الجوهرية فى الديانة المسيحية . وقد انتقل الكثير

من آرائه على أيدي تلاميذه فأصبح مادة لجميع الفلسفة الكبرى في القرنين
التاليين . وكان أقوى أسباب نفوذه هو المثل الذي ضربه للناس بمجراته
وأخلاقه ، فقد أضحى في التاريخ اليوناني شهيداً وقديساً ؛ حتى لقد كان
كل جيل يبحث عن مثل أحلى للحياة البسيطة والتفكير الجريء يعود إلى
الماضي ليستمد من ذكرى سقراط غذاءاً لمثله العليا ، وفي ذلك يقول
أكسانوفون : « كلما فكرت في حكمة الرجل ونبل أخلاقه رأيت أن ليس
في مقدوري أن أنساه أبداً . أو أن أحاجز نفسي عن الثناء عليه حين أذكره ؛
وإذا كان من بين أولئك الذين جعلوا الفضيلة غايتهم إنسان قد اتصل بشخص
أكثر معونة له في هذا الغرض النبيل من سقراط ، فإنني أرى أن هذا الرجل
خليق بأن يعد أسعد الناس على الإطلاق » (١٨٣) .

الباب السابع عشر

أدب العصر الذهبي

الفصل الأول

بندار

إن فلسفة عصر من العصور تصبح في الأحوال العادية أدب العصر الذي يليه ؛ ذلك أن الآراء والمسائل التي يتجادل فيها الناس في ميدان البحث والتفكير تكون في الجيل التالي أساس مسرحياته وقصصه وشعره . لكن الأدب في بلاد اليونان لم يتأخر عن ركب الفلسفة ، لأن الشعراء كانوا هم أنفسهم فلاسفة ، يفكرون لأنفسهم ؛ وكانوا في مقدمة أرباب العقل والتفكير في أزمانهم . ولذلك فإن النزاع الذي قام بين التحفظ والتطرف والذي اضطرب به دين اليونان وعلومهم وفلسفتهم قد تردد صدهاء أيضاً في الشعر والتمثيل بل وفي كتابة التاريخ نفسه . وإذا كانت براعة الصورة الفنية قد اجتمعت في الأدب اليوناني إلى عمق التفكير ، فقد وصل أدب العصر الذهبي إلى درجة من الرقي لم يصل إليها الأدب في العالم كله مرة أخرى إلا في عصر شيكسبير وميتاني .

ويسبب هذا العبء الثقيل من الأفكار واعدم وجود طبقة من الملوك أو الأشراف يناصرون الأدب وشجعون الأدباء ، كان القرن الخامس أقل غناء من السادس في الشعر الغنائي بوصفه فناً مستقلاً . وكان بندار أداة الانتقال بين العصرين ، فقد ورث الصيغة الغنائية من العصر الذي قبله ولكنه ملاًها

بالفخامة المسرحية ، ولم يلبث الشعر من بعده أن تخطى حدوده التقليدية وجمع في المسرحيات الديونيشية بين الدين ، والموسيقى ، والرقص لكي يصبح أداة أعظم من الأدوات السابقة للتعبير عن فخامة العصر الذهبي وعواطفه الجياشة .

وكان بندار ينتمى إلى أسرة طيبية تعود بأصلها إلى أبعد العصور البدائية ، وتدعى أنها تضم الكثيرين من الأبطال القدامى الذين خلد ذكرهم في شعره . وقد أورثه 'عمه' ، وهو موسيقى يجيد النفخ في الناي ، كثيراً من حب الموسيقى ، وشيئاً من براعته فيها ، وأرسله أبوه إلى أثينة ليستزيد من هذا الفن ، وفيها علمه لاسوس Lasus ، وأجشكليز Agathocles تأليفه الغنائية الجماعية . ثم عاد إلى طيبة قبل أن يتم العقد الثاني من عمره أى قبل عام ٥٠٢ ق ، م ، وأخذ يدرس مع الشاعرة كورنا Corinna . وقد تبارى معها خمس مرات في الغناء أمام الجماهير وتغلبت عليه في المرات الخمس . ولكن كورنا كانت جميلة تسر الناظرين ، والمحكمين كانوا رجالاً^(١) . وكان بندار يسميها خنزيرة ، ويسمى سمندس غراباً ، ويسمى نفسه نسرأ . لكن شهرته رغم عيبه هذا قد ازدادت إلى حد جعل أبناء بلده يمترعون قصة يقولون فيها إنه بينما كان الشاعر نائماً في الحقل يوماً إذ حطت بضع نحلات على شفثيه وخلفت عليهما شهدها^(٢) . ولم يلبث أن كلف بإنشاء قصائد ، يكافأ عليها بسخاء ، في مدح الأمراء والأثرياء ، واستضافته الأسر النبيلة في رودس ، وتندوس ، وكورنثة ، وأثينة ، وأقام وقتاً ما في بلاط الإسكندر الأول المقدوني ، وتيرون الأكرغاسي ، وهيرون الأول ملك سرقوصة ، وكان فيها كلها شاعر هؤلاء الملوك . وكان عادة يؤجر على أغانيه مقدماً ؛ كما لو أن مدينة في أيامنا هذه قد كلقت مؤلفاً موسيقياً أن يكرمها بتأليف قطعة غنائية تنشدها لإحدى الفرق ويرقص على أنغامها الراقصون ، ويتولى هونتنظيم الغناء والرقص . ولما أن عاد بندرا إلى طيبة حوالي السنة الرابعة والأربعين من عمره ، حيتته المدينة وعدته أعظم هدية أهدها بوثوية إلى بلاد اليونان .

وأخذ يعمل بجد في تلحين كل قصيدة من قصائده ، وكثيراً ما كان يدرّب المغنين على غنائها . وكتب ترانيم وأناشيد نصر للآلهة ، وأغاني خمرية تنغى في أعياد ديونيشس ، وأناشيد للعدراى تغنيها الفتيات ، ومدبحة للمشهورين من العظماء ، وأغاني للموائد ، ومرأى للجنائز ، وأغاني للنصر يقشدها الفائزون في المباريات الأثينية الجامعة . ولم يبق من هذه كلها إلا خمس وأربعون أغنية سميت باسم الألعاب التي تنغى بمديح أبطالها . وليس لدينا من هذه الأغاني الخمس والأربعين إلا ألفاظها ، أما موسيقاها فلم يبق منها أثر . ونحن إذا شئنا أن نحكم عليها كنا في وضع شبيه بوضع مؤرخ في مستقبل الزمان لديه نصوص مسرحيات فجر التلحينية وليس لديه شيء من موسيقاها فحكم بأن فجر هذا شاعر وليس مؤلفاً موسيقياً ، ثم قدره مستنداً إلى الألفاظ التي كانت في وقت ما تصاحب ألحانه . أو كان عالماً صيفياً لا يعرف شيئاً عن القصص المسيحية يقرأ ذات مساء في ترجمة عرجاء عشر ترانيل من وصع باخ Bach نزع عنها موسيقاها ومراسمها الدينية . على هذا النحو يكون حكماً على پندار من آثاره ، فنحن إذا قرأنا أغانيه اليوم ، أغنية بعد أغنية في سكون حجرة المكتب حكماً أنه لا يماثلها شعر آخر في عصر اليونان الذهبي في بعث السامة والكآبة .

وليس في وسعنا أن نشرح تكوين هذه القصائد إلا بتشبيه كل منها بقطعة موسيقية ، فلقد كان پندار يرى ما يراه سمنيدس وبكليدس Bacchylites وهو أن القالب الذي تصب فيه أغنية النصر قالب محتوم لا مفر منه شأنه في هذا شأن النغم الموسيقي الذي يوضع لمغن واحد ولآلة موسيقية واحدة في الأغاني الأوربية الحديثة . وكان يبدأ أولاً بإيراد موضوع الأغنية --- وهو اسم اللاعب الذي نال الجائزة وقصته ، أو اسم الشريف الذي فازت بجياده في مباراة جر العربات . ويشيد پندار في العادة « بحكمة الإنسان ، وجماله ، واتساع شهرته^(١) » . فهو في واقع الأمر لم يكن يهتم كثيراً بالموضوع الأصلي

الذى يعرض له ؛ بل كان يتغنى بمدح العدائين والمحاطي والملوك ؛ ولم يكن يتردد في الرضاء بأن يتخذ أى طاغية يهبه المال مسرعاً نصيراً له وقديساً^(٥) إذا ما أعانه على ذلك خياله الخصب وشعره المعقد الذى كان موضعاً لزهوه . ولم يكن يستنكف أن يتخذ أى شيء موضوعاً لقصائده سواء كان سباق البغال أو مجد الحضارة اليونانية على اختلاف أنواعها وفي كل مكان انتشرت فيه . وكان وفيلاً لطيفة ، ولم يكن أكثر إلهاماً وتوفيقاً من وحى دلتى حين دافع عن حيادها في الحرب الفارسية ؛ ثم استحمى فيها بعد من غلظته هذه ، وخرج عن مألوف عاداته ، وأثنى على زعيمة الدفاع اليونانى ووصفها بأنها « أثينة الذائعة الصيت ، الغنية ، المتوجة بالنفوسج ، الجديرة بأن يتغنى بمدحها الشعراء ، حصن هلاس الحصين ، والمدينة التى تحمى الآلهة^(٦) » . ويقال إن الأثينيين وهبوه خمسة آلاف درخمة (١٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على القصيدة التى وردت فيها هذه الأبيات^(٧) ؛ وتقول رواية أخرى أقل جدارة بالثقة من هذه إن طيبة فرضت عليه غرامة جزاء له على ما فيها من تعنيف خفى ، وإن أثينة أدت عنه هذه الغرامة^(٨) .

والجزء الثانى من أغاني پندار يتكون من مختارات من الأساطير اليونانية وفى هذا أسرف پندار إسرافاً لا يشجع الإنسان على متابعة قراءته . وقد شكنا من ذلك كورنا Corinna فقال إنه : « كان يَبْدُرُ بالزكية لا باليد^(٩) » . وقد كانت للآلهة عنده مكانة عالية ، فكان يعظمها ويستمد منها معظم موضوعاته . وكان الشاعر المحب لكهنة دلتى ، وقد حصل منهم فى حياته على مزايا كثيرة ولما مات كرمت روحه بأن دعيت إلى أن تنال نصيبها من باكورة الفاكهة التى تقدم فى ضريح أبولو^(١٠) . وكان آخر من دافع عن الدين القويم ، وإن إسكلس على تقواه ، ليبدو إذا قورن به رجلاً زنديقاً . ولو أن پندار اطلع على قصبيدة پرومبثيوس المهرور رأى ما فيها من تجديف فى حق الآلهة لروحه هذا أشد الترويع . وهو يسمو أحياناً فى فكرته عن زيوس إلى ما يقرب من التوحيد كقوله فيه :

المسيطر على كل شيء والمطلع على كل شيء^(١١) . وهو يؤمن بالطقوس الغامضة الخفية ويرجو كما يرجو أورفيوس أن يكون مقره الجنة . وينادى بأن الروح البشرية من أصل إلهي وأن مآلها إلهي^(١٢) . وقد وصف يوم الحساب ، والجنة ، والنار وصفاً يعد من أقدم أوصافها فقال : « وبعد الموت مباشرة تعاقب الروح الخارجة على القانون ، وينظر في الخطايا التي ارتكبت في مملكة زيوس واحدٌ يصدر فيها أحكامه الصارمة التي لا تنقض » .

وفي ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون لا فرق بين أيامهم ولياليهم في بهجتها وبهائها ، ولا يفعلون ما كانوا يفعلونه في الأيام الخالية ، يكدحون كدحاً كنوداً في حرث الأرض وإثارتها ليحصلوا على حاجاتهم الباطلة : أو يخضون بسفنهم عباب البحار بل يقيمون في نعيم دائم مع الآلهة العظام ويقضون معهم حياة خالية من الأحزان ، يستمتعون فيها بسرور جزاء لهم على ما حفظوا من عهودهم وهم على ظهر الأرض . وعلى بعد منهم نرى فريقاً آخر يقاسون ألوان العذاب ويقعون في دياجير مظلمة لا ينقل فيها البصر^(١٣) .

وكان القسم الثالث والأخير في أغاني پندار يتألف عادة من نصيحة خلقية . وليس من حقنا أن ننتظر منه في هذا القسم فلسفة عميقة ؛ وذلك أن پندار لم يكن من أبناء أثينة . وأكبر الظن أنه لم يلق في حياته سوفسطائياً ، ولم يقرأ لأحد من سوفسطائيين شيئاً ، بل كان يوجه قواه العقلية بأجمعها إلى فنه ، فلم تبق لديه قدرة على التفكير المبتكر الأصيل ؛ وكان يكتفى بأن يستحث الرياضيين الفائزين ، أو الأمراء الحاكين ، على أن يكونوا متواضعين يجلون الآلهة ، ويوقرونه بنى جنسهم ، ويحترمون أنفسهم . وكان ما بين الحين والحين يمزج اللوم بالمديح ، وبلغ من الجرأة أن حذر هيرن Hieron ذات مرة عاقبة الشره^(١٤) . ولكنه لم يجاز نفسه عن أن يقول كلمة طيبة في حق المال أخصب الطيبات كلها وأحبها إلى قلوب الناس وكان يمتق الثورين الصقليين ، وقد حذرهم من عاقبة أمرهم بالفاظ

لا تكاد تختلف عن ألفاظ كنفوشيوس : « إن من أسهل الأشياء حتى على الضعفاء أن يقوضوا مدينة من أساسها ؛ أما إعادتها إلى مكانها بعد تدميرها فتتطلب جهوداً مضنية وكفاحاً مريراً (١٥) » . وكان يجب في أئينة ديمقراطيتها المعتدلة بعد سلاميس ، ولكنه كان يعتقد مخلصاً أن الأرستقراطية أقل أنواع الحكم ضرراً . ذلك بأنه كان يرى أن الكفاية متأصلة في الدم ، لا تكتسب بالتعليم ، وتنزع إلى الظهور في الأسر التي ظهرت فيها من قبل . والدم الطيب وحده هو الذى يهيئ الخلق إلى القيام بالأعمال النادرة التي يجعل الحياة الكريمة جديرة بأن يحيها الإنسان . « ما أقصر الحياة ! أى شيء نكونه وأى شيء لا نكونه ؟ الإنسان حلم يحوم حول خيال ؛ أما إذا نزل عليه بهاء من قبل أحد الأرباب فإن هالة من المجد تحيط به وتصبح حياته حلوة ممتعة (١٦) » .

ولم يكن يندار محبباً إلى الجماهير في أثناء حياته ، وسيظل بضعة قرون يستمتع بما يستمتع به من خلود لا حياة فيه أولئك الكتاب الذين يشيد الناس كلهم بذكورهم ، ولا يقرأ أحد كتابتهم . لقد كان يطلب إلى العالم أن يقف عن الحركة في الوقت الذى كان يتحرك فيه إلى الأمام ، ومن أجل هذا خلفه العالم وراه ، حتى ليبدو أكبر سنناً من ألكمان وإن كان أصغر من إسكلس . وقد كتب شعراً متقناً محبوباً ، معقداً ملتويماً ، لا يقل في هذه الصفات كلها عن نثر تاستوس Tacitus ، وكتبه بلهجة له خاصة مصطنعة تعتمد أن يجعلها كلغة الأقدمين ، وبأوزان متقنة دقيقة إلى درجة لم يكن معها أحد الشعراء بأن يخلو حلوه (*) ، ومتنوعة تنوعاً لا نجد معه إلا أغنيتين اثنتين من بين أغانيه الأربع والخمسين ذواتي وزن واتخذ . وشعره غامض المعنى رغم سداجة تفكيره ، وقد بلغ هذا الغموض حداً يضطر معه النحاة إلى قضاء حياتهم كلها يحاولون حل تراكيبه

(*) ويستثنى من هذا التعميم شاعر عظيم هو دريدن Dryden في قصيدته ونية الإسكندر

الشبهة بتركيب اللغات التيوتونية ، ثم لا يجدون بعد هذا العناء إلا عبارات طنانة جوفاء . وإذا كان بعض الطلبة من العلماء لا يزالون يقبلون على قراءة شعره رغم هذه العيوب ، ورغم بخوده وتمسكه الشديد بالشكليات واصطناعه التشبيهات المنتفخة ، وإتقال هذا الشعر بالأساطير المملة ، إذا كان بعضهم لا يزالون يقبلون على قراءته رغم هذا كله فما ذلك إلا لما فيه من قصص واضحة تتابع حوادثه سراعا ، وإخلاصه في مبادئه الأخلاقية ، ولروعة لغته التي ترفع أئفه الموضوعات إلى سماء العظمة ، وإن كانت لا تحفظ بمكانها فيها إلا زمنا قصيرا .

وعاش پندار حتى بلغ الثمانين من العمر ، متحصنا في طيبة من اضطراب التفكير الأثيني ، وقد تغنى بذلك في شعره فقال : « ما أحب موطن الإنسان إلى قلبه ، وما أعز فاقه ، وأقاربه ، يعيش بينهم قانعا راضيا ، أما الحمقى فيحبون الأشياء الفاتنة (١٧) » . ويقال إنه قبل أن ينصرم أجله بعشرة أيام (٤٤٢) أرسل إلى مهبط وحي أمون يسأله : « ما أحسن الأشياء للإنسان ؟ » فكان جواب الوحي في مصر كجواب الوحي في بلاد اليونان « الموت (١٨) » . وأقامت أثينة تمثالا له أنفقت عليه من الأموال العامة ، ونقش أهل رودس أغنيته الأولمبية السابعة - التي يمدح فيها جزيرتهم - بحروف من ذهب على جدار هيكل من هياكل الجزيرة . ولما أن أمر الإسكندر الأكبر بإحراق طيبة النائرة ودك أبنيتها في عام ٣٣٥ ، حذر جنوده أن يمسوا بسوء البيت الذي عاش فيه پندار ولقي فيه ربه .

الفصل الثاني

ملهى ديونيشس

ورد في معجم سويداس The Lexicon of Suidas أنه حدث في أثناء تمثيل مسرحية من تأليف پرائيناس Pratinas حوالي ٥٠٠ ق . م أن سقطت المقاعد الخشبية التي كان النظارة يجلسون عليها ، وأن أصيب بعضهم بجروح ، وأن استولى الذعر عليهم ، وأن الأثينيين شادوا بعد هذا الحادث ملهى من الحجر على المنحدر الجنوبي للأكرپوليس وهبوه للإله ديونيشس(*) . ثم شيدت ملاء أخرى عكس غراره في المائتي عام التالية في إرتريا Eretria ، وإلدورس ، وأرغوس ، ومنتينيا Mantinea ، ودلتي ، وتوروميونيوم Tauromenium (تورومينا Tauromina) ؛ وسرقوسة ، وغيرها من المدائن في مختلف أنحاء العالم اليوناني . ولكن مسرح ديونيشس هو الذي مثلت عليه المآسي والمسالي الكبرى في أول الأمر ، وهو الذي ناضل أشد النضال في المعركة التي احتدمت بين الدين القديم والفلسفة الحديثة ، والتي ربطت أجزاء التاريخ الفكري لعصر بركليز ، وجعلته عملية كبيرة واسعة النطاق من عمليات التفكير والتغيير .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الملهى العظيم كان مكشوفاً للسماء . وأن مقاعده الخمسة عشر ألف كانت ترتفع على شكل نصف دائرة كالمروحة ، مشيدة من

(*) ليس هذا هو ملهى ديونيشس الذي يزوره السياح اليوم ، بل إن هذا الملهى الباقي إلى اليوم قد شيده وزير المالية عام ٣٣٨ بأمر من ليقورغ ، ويظن أن أجزاء منه يرجع تأريخها إلى ٤٢١ ، ويبدو أن أجزاء أخرى قد أضيفت إليها في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد .

القرميد مطلة على البارثنون ، ومتجهة نحو جبل هيمتس Hymettus والبحر . ومن أجل هذا فإن أشخاص المسرحية حين ينادون الشمس والنجوم والبحار ، كانوا ينادون حقائق واقعية يستطيع معظم النظارة ، وهم يستمعون إلى الحديث أو الغناء ، أن يروها ويشعروا بوجودها . وقد صنعت المقاعد من الخشب أولا ، ثم من الحجارة بعدئذ ، ولم تكن لها مساند خلفية ؛ وكان كثيرون من النظارة يأتون معهم بوسائد يجلسون عليها ، ولكنهم كانوا محضرون خمس مسرحيات في اليوم الواحد دون أن يسندوا ظهورهم إلى شيء معروف لنا غير ركب من خلفهم من النظارة ، وهي بلا ريب مساند غير مريحة . وكان في الصفوف الأمامية عدد قليل من المقاعد الرخامية ذات الظهور يجلس عليها كبار كهنة ديونيشس المحليين وموظفو المدينة(*) . وكان عند قاعدة منصة الخطابة مكان للرقص وللمغنين ، وكان من خلفها بناء خشبي صغير يسمى الاسكينى skene أو المنظر ، يتخذ تارة لتمثيل قصر ، وتارة لتمثيل معبد ، أو بيت خاص ؛ وأكبر الظن أنه كان يستخدم فوق هذا لجلوس الممثلين حين لا يكونون على المسرح يمثلون أدوارهم(**) . وهناك معدات بسيطة « كذابح » القرايين ، والأثاث وما إليها مما قد تحتاجه المسرحية ؛ وأخرى كالمناظر والملابس يوثق بها عند تمثيل مسرحية لأرسطوفان(٢٠) وقد صور أجاتاركس الساموسي عدة مناظر تصويراً توهم الرائي بوجود مسافات بينها . وكانت هناك عدة وسائل آلية تساعد على تغيير مجرى الحوادث أو مكانها(†) . من ذلك أنه إذا أريد إظهار انتهاء

(*) هذا الوصف وما يليه من وصف المسرح يفترض فيها أن الملهي الذي شاده ليقورغ قد شيد على غرار الملهي القديم الذي حل محله .

(**) لسنا نعلم علم اليقين أكانت الحوادث تقع على سقف المسرح أم على مقدمته ، وربما كانت الحوادث تتحرك عليه من مستوى إلى مستوى آخر كلما تغيرت الأمكنة في القصة .

(†) كانت ستارة تسقط من أعلى تستخدم في العهد الروماني فتدلى في فجوة في بداية المنظر وترفع في نهايته . ولكن المسرحيات الباقية لدينا من القرن الخامس ليس فيها شواهد على هذا ، ويلوح أنها كانت تعتمد على أناشيد ترتل بين الفصول لتؤدي الغرض الذي يؤديه إنزال الستار .

حادثة من الحوادث داخل المنظر دار سطح خشبي (ekkyklema) على عجل إلى خارج المسرح وصنعت عليه صور بشرية بطريقة تعبر أمام النظارة ما حدث ، وقد توضع عليه جثة ومن حولها القتلة بأيديهم أسلحتهم ملوثة بالدماء ، ولم يكن من تقاليد التمثيل اليوناني أن تمثيل الحوادث العنيفة على المسرح مباشرة . وكان على جانبي صدر المسرح لوحة كبيرة منشورية الشكل مثلثة تتحرك على محور لها ، وقد رسم على كل وجه من أوجه المنشور منظر يخالف ما على الوجه الآخر ، فإذا أديرته هذه الأوجه تغير المنظر في لمح البصر : وكان أعجب من هذا جهاز آخر يتكون من آلة رافعة ذات بكرة وأتقال توضع على يسار المسرح وتستخدم في إنزال الآلهة أو الأبطال من « السماء » إلى المسرح أو إعادتهم إلى « السماء » أو إظهارهم معلقين في الهواء بين السماء والأرض . وكان يوربديز بنوع خاص مولعاً باستخدام هذه الآلة لإنزال إله يحمل بتقواه ما في مسرحياته اللأدرية من تعقيد .

ولم تكن المأساة في أثينة من الشؤون الدنيوية أو الأعمال التي تتكرر طول العام ، بل كانت جزءاً من الأحتفال السنوي بعيد ديونيس (*) . وكانت تعرض على الأركون بهذه المناسبة عدة مسرحيات يختار منها عدداً قليلاً ليتمثل في هذا العيد . وكانت كل قبيلة من القبائل العشر في أتكاوا تختار واحداً من مواطنيها الأثرياء يشرف على جوقة المرتلين . وكان من امتيازاته أن يؤدي نفقات تدريب المغنين ، والراقصين ، والممثلين ، وما إلى ذلك من النفقات التي يتطلبها تمثيل إحدى المسرحيات . وكان المشرف ينفق في بعض الأحيان مبالغ طائلة على إعداد المناظر والملابس وتدريب الممثلين . وبهذه الطريقة كانت كل مسرحية ينفق عليها نيسياس تنال جائزة (٢١) . وكان بعض المشرفين الآخرين يقتصدون في

(*) وكانت المسرحيات تمثل أيفس في الديوليشيا للصنرى أو الهلبيا Lemna التي تقام عادة في ييرية ، وتمثل كذلك من حين إلى حين في الملاهي المحلية بمدن أتكاوا .

هذه النفقات باستئجار ملابس مستعملة من باعة ملابس التمثيل (٢٢) .. وكان واضح المسرحية هو الذى يقوم عادة بتدريب جوقة المرتلين .

وكانت هذه الجوقة أهم عناصر التمثيل وأكثرها نفقة من عدة وجوه . وكثيراً ما كانت المسرحية تسمى باسمها ه وعن طريقها كان الشاعر فى أكثر الأحيان يعبر عن آرائه فى الدين والفلسفة . وتاريخ التمثيل اليونانى كفاح خاسر تقوم به جوقة المرتلين للسيطرة على المسرحية . ولقد كانت هى فى بادئ الأمر كل شىء فيها ؛ ثم نقص شأنها فى ثيسبس وإسكلس ، كلما زاد عدد الممثلين ؛ ثم اختفت نهائياً فى مسرحيات القرن الثالث . ولم تكن الجوقة تتألف عادة من مغنين محترفين ، بل كانت تتألف من هواة يختارون من الكشوف المحتوية على أسماء أبناء القبيلة المدنيين . وكانوا جميعاً من الرجال ، وكان عددهم بعد إسكلس خمسة عشر رجلاً ؛ وكانوا يقومون بالرقص والغناء معاً ويسبرون فى موكب مهيب فوق المسرح الطويل العتيق ؛ بشرحون بحركاتهم الموزونة ألفاظ المسرحية ومواقفها .

وكان للموسيقى فى المسرحيات اليونانية شأن لا يعلو عليه إلا شأن الشعر والتمثيل نفسه ، وكان المؤلف هو الذى يضع عادة الموسيقى المسرحية كما يضع ألفاظها (٢٣) . وكان معظم الحوار يلقى بشكل أحاديث أو خطب حماسية ، وكان بعضه ينشد ؛ ولكن الأدوار الهامة كانت تحتوى على قطع غنائية يغنيها شخص واحد أو شخصان أو ثلاثة أشخاص معاً ، أو تنشد مع النشيد الجماعى أو تتعاقب معه (٢٤) . وكان الغناء بسيطاً غير مقسم إلى أدوار أو ألحان متوافقة . وكان يصحبه فى العادة نفخ فى الناي يوافق أنغام المغنين نغمة بعد نغمة . وبهذه الطريقة كان فى وسع النظارة أن يتابعوا ألفاظ القصيدة دون أن تضيق فى نغمات الغناء ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم على هذه المسرحيات بقراءتها قراءة صامتة ، ذلك أن الألفاظ .

(١٨ - ج ٢ - مجلد ٢)

عند اليونان لم تكن إلا صورة فنية معقدة ينسج منها الشعر ، والموسيقى ، والتجليل ، والرقص وتتألف منها كلها وحدة عميقة متحركة(*) .

ولكن المسرحية رغم هذا هي أهم شيء ، والجائزة تمنح لها أكثر مما تمنح للموسيقى ، وتمنح للتمثيل أكثر مما تمنح للمسرحية ؛ وكان في وسع الممثل الماهر أن يرفع من شأن مسرحية متوسطة فتفوز هي بالجائزة^(٣٦) . ولم يكن الممثل - وهو دائماً من الذكور - شخصاً محترماً كما كانت الحال في رومة ؛ بل كان يكرم أعظم التكريم ، فيعفى من الخدمة العسكرية ، ويمر آمناً بين صفوف الجنود في زمن الحرب . وكان يلقب هيكريتس hypokrites ، وكان معنى هذا اللفظ عندهم هو الخبيث ، أى الخبيث على التشديد الجماعى . ولم يؤد الدور الذى يقوم به الممثل من انتحال شخصية إنسان آخر إلى تغيير معنى هذه الكلمة فيصبح معناها « المنافق » إلا بعد ذلك عهد . وكان الممثلون يؤلفون لهم طائفة أو نقابة قوية تسمى نقابة « الفنانين الديونيشيين » ، انتشر أعضاؤها في جميع بلاد اليونان ؛ وكانت جماعات من ممثلين تنتقل من مدينة إلى أخرى ، يؤلفون مسرحياتهم ويلحنون موسيقاها ، ويصنعون ملابسهم ، ويقيمون مسارحهم . وكان دخل كبار الممثلين عظيماً كما هو شأنهم في جميع الأوقات ، أما المتوسطون منهم فكان دخلهم قليلاً مزعجاً^(٣٧) ؛ وكانت أخلاقهم هي الأخلاق التى يتوقع الإنسان وجودها في أقوام ينتقلون من مكان إلى مكان ، وتختلف معيشتهم بين الترف وال فقر ، يمنعهم توتر أعصابهم من أن يحيا حياة سوية مستقرة .

(*) ولقد ظلت الموسيقى ذات شأن هام في ثقافة عصر اليونان الزاهر (٤٨٠ - ٢٢٢) واشتهر من مؤلفيها في القرن الخامس ثيموثيوس الملطي *Timothaeus of Miletus* وكتب مخطوطات كانت الموسيقى فيها تطفى على الشعر ، وكانت عبارة عن قصة ذات حوادث صالحة للتمثيل . وقد زاد أوتار القيثارة اليونانية فجعلها أحد عشر وترأ ، وقام بتجارب في الأساليب المعقدة للحكمة ، فأثار هذا جماعة المحافظين في أثينة وظلوا يتددون به حتى هم بالانتحار ، ولكن يوربديز هدأ ثورته واشترك معه في عمله ، وتنبأ بأن بلاد اليونان ستخسر ساجدة له ، وقد صدقت نبوءته .

وكان الممثل في المآسى والمسالى على السواء يلبس على وجهه قناعا ،
ركب فيه عند فمه مبسم من الشبهان . وكانت طريقة تنظيم الصوت في الملهى
اليونانى ، ووضع المسرح بحيث يراه الجالس فى أى مقعد من المقاعد ،
طريقة فذة مدهشة . على أن اليونان مع هذا رأوا أنه يحسن بهم أن يقووا
صوت الممثل ، وأن يساعدوا عين الناظر البعيد على تميز مختلف أشخاص
الرواية ، وكانوا يضحون فى سبيل هذا بكل مميزات الصوت وتعبيراتها ،
فإذا كانوا يمثلون على المسرح أشخاصاً حقيقيين مثل يورپديز فى مسرحية
لكليزوسى ، وسقراط فى مسرحية السحب ، فإن الأفتنة كانت تحاكي
ملاحظهم الحقيقية ، وتحاكيها فى الغالب محاكاة هزلية .

وقد جاءت الأفتنة إلى المسرحيات من طريق التمثيل الدينى ، وكانت
فيها من وسائل الإرهاب أو الفكاهة . وقد ظلت تسير على هذه السنة فى
المسالى ، وكان فيها من القبح ، وخرابة الشكل ، والإسراف فى هذا كل
ما يستطيع خيال اليونان أن يبتدعه . وكانت الوسائد والمسائد تزيد من أجسام
الممثلين ، والقلائس العالية والأحذية ذات النعال السميكه تزيد من أطوالهم ،
كما كانت الأفتنة تقوى أصواتهم وتزيد فى حجم وجوههم . وقصارى القول
أن الممثل القديم كان ، كما يقول لوشيان ، شخصاً ذا «منظر بشع مفزع» (٢٨) .

وليس النظارة أقل جدارة باهتمامنا من المسرحية نفسها . لقد كان
الدخول لمشاهدة التمثيل مباحاً لجميع الرجال والنساء من كافة الطبقات (٢٩) .
وكان جميع المواطنين بعد عام ٤٢٠ ق . م . يعطون من الدولة الأبلتين اللتين
يؤدنها أجراءً للدخول إذا كانوا فى حاجة إليهما . وكان النساء يجلسن بمعزل
عن الرجال كما كان للسراى مكان خاص بهن ، وقد جرت العادة أن تمنع
النساء الساطعات من حضور المسرحيات إلا إذا كانت المسرحية مسلاة (٣٠) .

وكان النظارة جماعة مرحين ليسوا أحسن ولا أسوأ أخلاقا من أمثالهم في غير بلاد اليونان . وكانوا وهم يشاهدون التمثيل ويستمعون إليه يأكلون البندق والفاكهة ويشربون الخمر . وكان أرسطاطاليس يقترح أن تقدر قيمة إخفاق المسرحية بمقدار ما يؤكل من الطعام في أثناء تمثيلها . وكانوا يتنازعون المقاعد ، ويصفقون ويصرخون لمن يحبون من الممثلين ، ويصفرون ويزجرون حين يغضبون ؛ فإذا رأوا ما يدعو إلى احتجاج أقوى من هذا ، دفعوا المقاعد بأقدامهم إلى الأرض ، وإذا ثاروا أخرجوا الممثل عن المسرح بالزيتون أو التين أو الحجارة^(٣١) . وكاد إسكنيز أن يلقى حتفه رجما بالحجارة عقابا له على وضع مسرحية بغیضة ، وكاد إسكلس أن يقتل لأن النظارة اعتقدوا أنه أفشى بعض أسرار الطقوس الإليوزينية الغامضة . وقد حدث أن استعار موسيقى كمية من الحجارة ليبنى بها بيتا ، ووعد من استعارها منه أن يردها إليه ، ما سيجمعه من عمله في المسرحية التالية^(٣٢) . وكان الممثلون في بعض الأحيان يستأجرون جماعة من المصفيين ، لكي يطغى تصفيقهم على ما يخشونه من صفير النظارة ، وكان بعض الممثلين الهزلين يلقون بالبندق إلى النظارة يرشونهم به لكي يظلوا هادئين^(٣٣) . وكان النظارة يستطيعون إذا شاءوا أن يحولوا دون إتمام التمثيل بما يحدثونه من ضجة متعمدة ، ويحتّمون تمثيل المسرحية الثانية^(٣٤) ، وبهذه الطريقة كان يمكن اختصار البرنامج التمثيلي إلى الحد الذي يطيقونه .

وكان التمثيل في مدينة ديونيشيا يدوم ثلاثة أيام ، تمثل في كل منها خمس مسرحيات — ثلاث مأس ومسرحية خرافية يكتبها شاعر ، ومسلاة يكتبها شاعر آخر^(٣٥) . وكان التمثيل يبدأ في الصباح الباكر ويستمر إلى ما بعد الغروب ؛ ولم تكن مسرحية ما تمثل مرتين في ملهى ديونيشس إلا في أحوال نادرة ،

فإذا لم يشاهدها بعضهم في ملهى هذه المدينة استطاع أن يشاهدها في ملاهى غيرها من المدن اليونانية ، أو أن يشاهدها ممثلة تمثيلاً أقل روعة على مسرح قروى في أتكنا . وبلغ عدد المسرحيات الجديدة التي مثلت في أثينة بين عامى ٤٨٠ ، و ٣٨٠ نحو أثنى مسرحية^(٣٦) . وكانت الجائزة التي تمنح لأحسن المأسى الثلاث عشرة ، والتي تمنح لأحسن مسلاة سلة ملأى بالتين وزقا من الخمر ؛ أما في العصر الذهبى فكانت الجوائز الثلاث التي تمنح للمأساة ، والجائزة الوحيدة التي تمنح للمسلاة ، بدرة من المال تقدمها الدولة . وكان المحكمون العشرة يختارون بالقرعة في الملهى نفسه في صباح اليوم الأول من أيام المباراة ، وكانوا يختارون من بين ثبوت طويل يحتوى أسماء من يرشحهم المجلس لهذا الغرض ، فإذا انتهت المسرحية الثالثة كتب كل قانس على لوحة ما يختاره من المسرحيات لنيل الجوائز الأولى والثانية والثالثة ، ثم وضعت اللوحات جميعاً في قارورة ليختار الأركون خمساً منها حيثما اتفق . وهذه الأحكام الخمسة مجتمعة تنال الجائزة النهائية ، أما الخمسة الثانية فتتلف دون أن تقرأ . ولهذا فإن أحداً من الناس لم يكن يعرف مقدماً من هم القضاة ، أو أيهم سيكون الحكم فعلاً . على أنه كان يحدث في بعض الأحيان ورغم هذه الاحتياطات أن تقدم الرشا للمحكىين أو أن يرهبوا لكى يعكفوا لشخص بعينه . ويشكو أفلاطون من أن القضاة لخوفهم من الجماهير كانوا في كل مرة تقريباً يقضون حسب ما يوحى به تصفيق الجماهير ، ويقول إن هذا « الحكم المسرحى » يفسد المولدين والنظارة جميعاً^(٣٨) : فإذا انتهت المباراة توج الشاعر الفائز ومنظم فرقة المنشدين بالحلاب^(*) ، وكان الفائزون في بعض الأحيان يقيمون نصباً بالنصيب الذى أقيم لليسكرانس Lysicrates ، ليخلدوا به فوزهم ، وكان اللهك أنفسهم يتبارون لنيل هذا التاج •

ويقرر حجم الملهى وتقاليده الاحتفال طبيعة المسرحيات اليونانية إلى حد بعيد ، وإذ كان من غير المستطاع إظهار الفروق الضعيفة بين الشخصيات بملامح الوجه أو تغيير نبرات الصوت ، فقد كانت الدقة في تصوير شخصيات المسرحية قليلة الوجود في الملهى الديونيشى . لقد كانت المسرحيات اليونانية دراسة للأقدار أى للإنسان في كفاحه مع الآلهة ، أما المسرحيات التى كتبت، في عصر الملكة إيزابث فكانت دراسة في تتابع الحوادث أى دراسة للإنسان في صراعه مع أخيه الإنسان . وكانت الجيدة منها دراسة في الأخلاق أى دراسة للإنسان في صراعه مع نفسه . وكان النظارة اليونان يعرفون مقدماً مصير كل شخصية من الشخصيات الممثلة ، كما يعرفون نتيجة كل حادثة من حوادث التمثيل ؛ ذلك بأن العادات الدينية كان لا يزال لها في القرن الخامس من القوة ما يكفى لتحديد موضوع المسرحيات الديونيشية بحيث لا يخرج عن قصة من الأساطير والحرفات الشائعة عند اليونان الأولين (*). ولم يكن في المسرحية شىء من ترقب النتائج غير المعروفة أو من المفاجآت ، بل كان فيها بدلا من هذا لذة الشعور السابق بالنتائج المرتقبة ومعرفة ما سيكون قبل وقوعها . وكان مؤلفو المسرحيات جيلا بعد جيل يقصون على النظارة أنفسهم القصة بعينها ؛ ولم يكن بينهم اختلاف إلا في الشعر ، والموسيقى ، والتفسير ، والفلسفة . وحتى الفلسفة نفسها كانت

(*) ولقد كانت هناك مسرحيات قليلة مأخوذة من تاريخ اليونان بعد عهد الأساطير . ولم يبق من هذه المسرحيات الأخيرة حتى الآن إلا مسرحية « المرأة الفارسية » لإسكلس . وقد مثل فرنكس Phrynichus في عام ٤٩٣ « سقوط ميلطس » ، ولكن اليونان كانوا يحزنون أشد الحزن حين يذكرون استيلاء الفرس على مدينتهم الجديدة ؛ ولهذا فإبهم فرضوا على فرنكس غرامة قدرها ألف درخة لهذه البدعة الجديدة التى أدخلها في التأليف المسرحى وحرموا إعادة تمثيل مسرحيته (٣٩) . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن تمسكتليز كان يظهر في السر تمثيل هذه المسرحية ليتمخذا وسيلة لإثارة حمية الاثينيين ودفعهم إلى محاربة الفرس (٤٠) .

تحددتها التقاليد إلى حد كبير : فترى الموضوع الرئيسي في مسرحيات إسكلس وسفكليز هو العقاب الذي تفرضه الآلهة الحاسدة أو الأقدار اللاشخصية جزاء على التعاطف الوقح والتكبر عليها وعدم تعظيمها ؛ والمغزى الذى يتكرر على الدوام هو ما فى إطاعة صوت الضمير والشرف ، وما فى الاعتدال المتواضع ، من حكمة بالغة . وإن اجتماع الفلسفة بالشعر ، وبتتابع الحوادث ، والموسيقى ، والغناء ، والرقص هو الذى جعل المسرحيات اليونانية من طراز جديد فى تاريخ الأدب . وهو الذى جعلها ترقى منذ نشأتها تقريباً إلى درجة من العظمة والفخامة لم ترق إلى مثلها فيما بعد :

الفصل الثالث

إسكلس

ونقول تقريباً عامدين ، فكما أن وجود عدد كبير من ذوى المواهب المتوارثة والمتابعة يمهّد السبيل إلى ظهور العباقرة ، فإن كاتباً مسرحياً ، لا نرى خيراً من أن ننسى اسمه وأن نكرمه رغم هذا النسيان ، قد عاش بلاريب بين ثيسس وإسكلس . ولعل وقوف أثينة الموفق في وجه الفرس هو الذى بعث فيها العزة والقوة الدافعة اللتين لا بد منهما لوجود عصر المسرحيات الكبرى ، كما أن الثروة التى أتت بها التجارة والإمبراطورية فى أعقاب الحرب قد أعانت على قيام المباريات الديونيشية فى الأغاني والمسرحيات الغنائية . وكان إسكلس يحس فى قرارة نفسه بهاتين العزة والقوة الدافعة ، فكان ككثيرين غيره من كتاب اليونان فى القرن الخامس يكتب ويستمتع بالحياة ، ويعرف كيف يعمل وكيف يتكلم ، وأخرج فى عام ٤٩٩ وهو فى السادسة والعشرين من عمره مسرحيته الأولى ؛ وفى عام ٤٩٠ حارب هو وأخواه فى واقعة مرثون وأظهروا من الشجاعة ما جعل أثينة تأمر بعمل صورة تخلد بها بطولتهم ؛ وفى عام ٤٨٤ نال جائزته الأولى فى العيد الديونيشى ؛ وفى عام ٤٨٠ حارب فى أرتميزيوم وسلاميس ، وفى ٤٧٩ فى بلاتيه ؛ وفى ٤٧٦ ؛ ٤٧٠ زار سرقوصة واستقبل بمظاهر التكريم فى بلاط هيرون الأول ؛ وفى ٤٦٨ انزع منه سفكليز الشاب الناشئ الجائزة الأولى للمسرحية بعد أن ظل هو مسيطرأ على الأدب الأثينى جيلاً كاملاً ، وفى عام ٤٦٧ عاد إلى مكانته العليا على أثر ظهور مسرحيته « سبعة ضد طيبة » ، وفى عام ٤٥٨ نال آخر انتصاراته وأعظمها بإخراج أورستيا مسرحيته الثلاثية ؛ وفى عام ٤٥٦ عاد إلى صقلية ، حيث وافته منيته فى تلك السنة نفسها .

وكانت الحاجة ماسة إلى رجل بهذه المهمة ليصوغ المسرحية اليونانية في صورتها النهائية ؛ فقد كان إسكلس هو الذى أضاف ممثلاً ثانياً إلى الممثل الأول الذى أخرجه ثسيپس من بين فرقة المغنين ، وأتم بذلك نقل الترتيلات الديونيشية من قصيدة دينية غنائية إلى مسرحية(*) ، وكتب سبعين (ويقول بعضهم تسعين) مسرحية ، لم يبق منها إلا سبع . وليست الثلاث الأولى من هذه المسرحيات ذات شأن كبير(**) ؛ وأشهرها كلها مسرحية بروميثيوس المقيد وأعلنها هي التى تتكون منها مسرحية أورستيا الثلاثة .

وقد تكون مسرحية بروميثيوس المقيد هي الأخرى جزءاً من مسرحية ثلاثية وإن لم نجد مؤرخاً قديماً يؤيد هذا الظن . فنحن نسمع عن مسرحية دينية تدعى بروميثيوس جالب النار ، ولكنها كانت تمثل مستقلة عن مسرحية بروميثيوس المقيد وفي مجموعة أخرى من المسرحيات(١١) . ولدينا قطع صغيرة باقية من مسرحية بروميثيوس الطليق من تأليف إسكلس ، وتكاد هذه القطع أن تكون خالية من المعانى ، ولكن العلماء الحريصين يؤكدون لنا أننا لو حصلنا على نص المسرحية كاملاً لوجدنا إسكلس يجيب إجابة مقنعة على جميع الضلالات التى تُنتقل بها المسرحية الحالية بطلها . وحتى لو أخذنا بهذا الرأى فإننا لا يسعنا إلا أن نعجب كيف يطرق النظارة الأثينيون الاستماع إلى تجديد هذا الجبار فى حق

(١٠) لم يذبح عدد الممثلين فى مسرحيات إسكلس بزيادة على اثنين ، ولكن الأدوار التى يؤدونها ، أو مسرحية لم يكن يحددها إلا أن شخصيتين من أشخاص المسرحية لا أكثر يمكن أن يظهر على المسرح فى وقت واحد . وكان رئيس فرقة الممثلين يعمل أسبانياً ممثلاً ثالثاً ، ولم يذبح صفار الشخصيات كالخدم والمخد وأما المم يمدون من الممثلين .
(١١) « المرأة المتهللة » مسألة الشأن ، وللممثلين فيها المتكاملة العليا . ومثل هذا يقال عن مسرحيات « المرأة الفارسية » فهى غنائية قبل كل شئ ، وتصف وسفاً واضحاً مدركة سلايس . أما « سبعة ضد طيبة » فكانت القسم الثالث من مسرحية ثلاثية تروى قصة الملك لاوس من Laule وزوجته الملكة جوكستال Jocasta ، وكيف قتل ابنهما أو ديب أباه وتزوج أمه ، ثم تصف الزناح الذى قام بين أبناء أو ديب من أجل عرش طيبة .

الآلهة في عيد ديني . ونجد بروميثيوس في مستهل المسرحية مشدوداً إلى
صخرة في جبال القوقاز شده إليها هفستس Hephaestus بأمر زيوس حين
غضب على بروميثيوس لأنه علم الآدميين فن النار ويقول هفستس :

يا ابن ثيمس يا حصيف الرأي يا حكيم !
لقد كتب عليك أن تشد بالأغلال
إلى هذه الصخرة العالية التي لا يرقاها إنسان
ولا تسمع فيها صوت آدمي
أو ترى وجه أحد ممن كنت تجهم ، وحيث تدبل زهرة جمالك
محرقة في حر الشمس اللافح الصافي
وسيقبل الليل مزدانا بالنجوم
وتسلي بظلاله ، فإذا طلعت الشمس
بددت بأشعتها صقيع الصباح ؛
ولكن شعورك بباراك الحاضرة يقض مضجعتك
مهما يكن ما تتعرض له من أخطار ، لأن أحد لا يمد يده
لحل وثاقتك . إن هذا هو الذي تجنيه من حبك لبني الإنسان ،
لأن زيوس شديد صارم ، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد^(٩) ،

ويتحدى بروميثيوس ، وهو معلق في الصخرة لا حول له ولا طول ،
رب أولمبس ، ويعد في زهو وكبرياء الخطوات التي نقل بها الحضارة إلى
الخلايق الأولين الذين كانوا حتى ذلك الوقت :

يعيشون كالفئول الأخرق تحت الثرى في الكهوف الخاوية التي لا تدخلها
أشعة الشمس ، ولا تصل إليها دلائل على حلول الشتاء ، ولا يعطرها شذى
أزهار الربيع ، ولا تماؤها فاكهة الصيف ، ولكنهم كانوا يعملون كل شيء وهم
عمى البصائر لا يخضعون لقانون ، حتى عامتهم كيف تشرق النجوم وتغرب

في أماكن خافية على عقولهم ؛ واخترعت لهم العدد باعث الفلسفة ، وعلمتهم تركيب الحروف ، ووهبت لهم الذاكرة صانعة كل شيء ، وأم التفكير الحلو الجميل . وكنتُ أول من ذلل الحيوان لخدمة الإنسان ... وأنا دون سواي الذي ابتدعت السفن . . . وأنا الذي اخترعت كل هذه الفنون لبي الإنسان لا أجد الآن وسيلة أنجي بها نفسي ، (١٣) .

وتخزن الأرض كلها لحزنه ، « فإذا تلاطمت أمواج البحر صرخت ، وخرج من أعماق البحار أنين حزين ، وانبعث من كهوف الموتى عويل » ؛ وترسل الأمم كلها تعازيها إلى هذا السجين السياسي ، وتأمره أن يذكر أن الألم يطوف بكل الخلائق ، « فالحزن يسير في الأرض ، ويجلس عند قدمي المخلوقات واحداً بعد واحد » ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لإنقاذه . ويشير عليه « أقيانوس » بالخضوع لزيوس « لأن الذي يحكم ، يحكم بالقسوة لا بالحق » ؛ وتعجب الأقيونوسات بنات البحر ولا تدرى هل الإنسانية جديرة بأن يعذب أحد من أجلها فيصلب على هذا النح ، « لقد كانت تضحيتك هذه أبها الحبيب تضحية لا جدوى منها . ألم تر الجنس البشري ضعيفاً في جهده ونشاطه ، يتألف من حاملين خياليين مكبلين بالأغلال ؟ » (١٤) . ومع هذا فإن تلك البنات يعجن به إعجاباً يحملهن على البقاء إلى جانبه حين يهدده زيوس بإلقائه إلى طرطروس Tartarus ليواجهن معه الصاعقة التي تقذف به وبهن إلى الهاوية . غير أن پروميتيوس تمنع عنه راحة الموت لأنه من الآلهة ومن أجل ذلك يرفع في الخاتمة المقفودة للرواية الثلاثية من طرطروس لبشد مرة أخرى إلى صخرة جبلية ، ويرسل زيوس نسرأ ينخر قلب المارد الجبار . لكن القلب ينمو بالليل بنفس السرعة التي ينخره بها النسر بالنهار ، وهذه الطريقة يقاسى پروميتيوس العذاب مدى ثلاثة عشر جيلا من أجيال الآدميين . ثم يقتل الجبارُ الرحيمُ هرقلُ النسرَ ويُقنع زيوس بفك أغلال

بروميثيوس ، ويندم هذا على فعلته ويصطلح مع زيوس القادر على كل شيء ، ويضع في إصبعه الخاتم الحديدي رمز الضرورة .

وفي هذه المسرحية الثلاثية القوية يقرر إسكلس موضوع المسرحيات اليونانية - وهو كفاح الإرادة البشرية ضد القدر المحتوم - ، وموضوع حياة بلاد اليونان في القرن الخامس - وهو الصراع بين الفكر الثائر والإيمان التقليدي . والنتيجة التي يستخلصها نتيجة غير صريحة ، ولكنه يدرك قضية الثائر ويجبوها بعطفه كله ؛ ولسنا نجد حتى في مسرحيات يورپديز مثل ما نجده هنا من النظرة الانتقادية لرب أولمپس ، وما أشبه هذه المسرحية بالفردوس المفقود يحتل فيها الملك الساقط مكان بطل القصة رغم ما يتصف به الشاعر من تقي وصلاح . والراجع أن ملتن كان كثيراً ما يذكر بروميثيوس وهو يولف الخطب البليغة التي ينطق بها الشيطان . وكان جونه مولعاً بهذه المسرحية ، واتخذ بروميثيوس أداة يهبر بها عن نزعة الشباب الجامح ؛ أما ييرُن فقد اتخذهُ نموذجاً ينسج على منواله طول حياته ؛ وأعاد شلي Shelley ؛ وهو الذي كان على الدوام هدفاً لنوب الدهر ، القصة إلى الحياة في قصيدته المشهورة بروميثيوس الطابق التي لا يخضع فيها الجبار الثائر قط . وتنطوي هذه الخرافة على عدد كبير من الاستعارات والتشبيهات : منها أن العذاب هو ثمرة شجرة المعرفة ، ومنها أن معرفة المستقبل تحطم قاب الإنسان كندا ؛ وأن العذاب والصلب هما جزاء المخلص على الدوام ، وأن الإنسان مضطرب في آخر الأمر أن يرضى بالقيود man muss enstagen ، وأن عليه أن يحقق غايته داخل نطاق طبيعة الأشياء . وذلك لعمرى موضوع جبلبيل ، يمكن إسكلس بفضل لغته الجزلة من أن يجعل من بروميثيوس أساة من الطراز العظيم . ولم نر قط أن الكفاح بين العلم والخرافة ، أو بين الاستنارة والجهل ، أو بين الديمقراطية والتحكم ، قد سورا بأقوى مما سوره هنا ، أو سما في الرمزية أو في الصراحة إلى أسهى مما سما به في هذه الأساة . ويقول شلحل

Schlegel في هذا : « إن المآسى الأخرى التي أنتجها المؤلفون اليونان مآسٍ عادية أما هذه فهي المأساة الحقة(٥٥) » .

ومع هذا فإن أرسطيا أعظم منها - وهي يلجأ الآراء أجمل المسرحيات اليونانية على الإطلاق ، ولعلها أجمل المسرحيات في العالم كله(٥٦) . وقد مثلت في عام ٤٥٨ ، وأكبر الظن أن تمثيلها حدث بعد عامين من تمثيل مسرحية فيروميثوس المقيد وقبل أن يموت مؤلفهما بعامين . وهو موضوع المسرحية هو نشأة العنف من العنف ، والجزء المحتوم الذي لا بد أن يؤدي إليه الكبرياء والطرف المصحوبان بالعتو والصلف . ونحن نسمى القصة خرافة ، ولكن اليونان كانوا يسمونها تاريخاً ، ولعلمهم كانوا على حق في هذه التسمية . وهذه القصة كما يرويها اثنان من كبار كتاب المسرحيات اليونان يمكن أن تسمى أطفال تانتلوس لأن هذا الملك الفريجي المستهتر الفخور بثرائه هو الذي بدأ سلسلة الجرائم الطويلة ، واستنزل غضب ربات الانتقام جزاء له على سرقة شراب الآلهة وطعامها ، وتقديم الطعام المقدس لابنه بلويس ؛ وفي كل عصر من العصور يجمع بعض الناس من الثروة أكثر مما يليق بالإنسان ، ويستخدمونها لإفساد أبنائهم . وفي هذه القصة ترى كيف استطاع بلويس أن يستحوذ على عرش إليس Elis بشر الوسائل ، وكيف اغتال بعدئذ شريكه في جرمه ، وتزوج ابنة الملك الذي خدعه وقتله ، ثم رزق من هوداميا Hippodamia بثلاثة أبناء : ثيستيز Theyestes وإيروبي Aerope وأتروس Atreus . وفسق ثيستيز بإيروبي ؛ وانتقم أتروس لأخته بأن أطعم أخاه أبناً لئمة ؛ فإما كان من إيجيشتس Aegisthus بن ثيستيز من أخته إلا أن أقسم لينتقم من أتروس وأبنائه . وكان لأتروس ولدان هما أجمنون ومنلوس ، وتزوج أجمنون كليتمسترا ورزق منها ابنتين هما إفجينيا وإلكيترا وولدا واحداً هو أرسيتيز . ولما أن سكنت الرياح ووقفت سفن أجمنون عند أويس وهي في طريقها إلى طروادة ، روعت كليتمسترا حين ضحى أجمنون بابلته إفجينيا لكي تهب الرياح ، وبينما كاد أجمنون يحاصر

طروادة أخذ لإيجشس يغازل زوجته الخزينة ، فالت له واثتمرت معه على قتل الملك . ومن هذه النقطة يبدأ إسكلس قصته .

وجاءت الأنباء إلى أرجوس بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، ونزل أجمنون الفخور على شواطئ الپلوبونيز « مسربلا بلرود من الصلب وترتعد الجيوش فرقا إذا غضب » ، واقرب من ميسيني ، ويظهر جماعة من الكبراء أمام قصر الملك وينشدون نشيدا يعيد إلى الأذهان تضحية أجمنون بإفچينيا .

« وتسلح على مهل بما لا بد من التسليخ به ، وتحركت في صدره ریح عجيبة هزته هذا ، ریح من الأفكار السود ، نجسة ، دنسة ؛ فقام وقد امتلأ قلبه جراءة ، لأن الناس تقوى قلوبهم إذا عميت بصائرهم ؛ وهم بتنفيذ رغبته الدنيئة التي أورثته الحزن فيما بعد ؛ بل إنها هي الحزن بعينه . وهكذا تحجر قلب هذا الرجل فقتل ابنته لكي يستطيع بهذا القتل أن يثار لنفسه من ضحكة ضحكها امرأة وأن يعين سفائنه على السير . . .

« وألقت بقميصها الزعفراني اللون على الأرض بقوة وغضب مكبوت لم تنطق به ؛ ونفذت في قلب كل رجل من أولئك الرجال المحاربين القتلة سهام الرأفة التي أطلقنها الفتاة من عينيها ، وارتسمت في عقولهم صورة وجه يحاول بقوة ما أعجبها أن يستدر الرحمة من القلوب ، وجه الفتاة الصغيرة التي كانت ترقص إلى جانب سفينة أبيها . ولم يؤثر ذلك الصوت البريء في قلب الأب حين انضم إلى صوته بعد أن صببت الكأس الثالثة » (٤٧) .

ويدخل رسول أجمنون ليعلن قدوم الملك . ويدرك إسكلس بخياله الرقيق ما يهتز به قلب الجندي البسيط من نشوة السرور وهو يطاء بقدمه أرض بلاده بعد غيابه الطويل ؛ فينطق الجندي بقوله : « إني الآن مستعد للموت إذا أراد الله أن أموت » ؛ ويصف الجندي لفرقة المرأتين أهوال الحرب وأقذارها ،

والمطر الذى تنفذ مياهه إلى العظام ، والحشرات التى تضعفت فى الشعر ،
وحرارة الصيف الحارقة فى إليون ، وبرد الشتاء القارس الذى تساقطت منه
الطيور جميعها موتى . وتخرج كلتيمنسترا من القصر كثيفة متهبجة الأعصاب ،
ولكنها مع ذلك ذات كبرياء ، وتأمر أن تنثر فى طريق أجمنون السجف
الثمينة . ويقبل الملك فى عربته الملكية ، يحف به جنده ، منتصب القامة فخوراً
بما أحرزه من نصر ، ومن خلفه عربة أخرى تحمل كسندرا الجميلة السمراء ،
وهى الأميذة والمنتبثة الطروادية ، جارية أجمنون ومشبعة شهوته رغم أنفها ،
وهى التى تنبأ وقلها غاضب حاقد بأنه سوف يلتق جزاءه ، كما تنبأ فى
حزنها بموتها . وتصف كلتيمنسترا للملك بلسان زلق شوقها لعودته خلال
السنين الطوال : « لقد نصبت من أجلك ينابيع دموع عيني الفياضة ، فلم تبق
فيها قطرة واحدة ، ولكنك تستطيع أن ترى فيهما كيف أضناهما سهري ،
وأنا أترقب فى حزن بشائر نصرك المبطنة ، وكيف كنت أقوم مسرعة من
نومي المضطرب إذا هزت البعوضة جناحها لأنى كنت أحلم بمتاعبك المفضية
الطويلة ، وقد تجمعت كلها أثناء نومي القصير^(٤٨) . ويرتاب أجمنون فى
إخلاصها ويلومها أشد اللوم على إسرافها فى فرش السجف المطرزة تحت
سنايك نخيله ، ولكنه يتبعها إلى القصر وتصحبه كسندرا مدعنة مستسلمة .
وتردد فرقة المرتلين بصوت منخفض فى خلال فترة الراحة الطويلة أغنية
تلد بشر مستطير . ثم تنبعث من الداخل صرخة كان كل سطر من أسطر
المأساة يهين الأذان لسماعها ، صرخة أجمنون حين يفتاله إيجسشس
وكلتيمنسترا . وتفتح الأبواب ، وتظهر كلتيمنسترا والبلطة فى يدها والدم
يلوث جبهتها ، وقد وقفت منتصرة فوق جثتى كسندرا والملك ، وترتل
الفرقة خاتمة المسرحية :

« ألا ليت الله يمن على بأن يعاجلنى الموت فجاءة دون ألم أشد ، ومن غير

انتظار موثم طويل ، فأقضى نحبي وأنام النوم الأبدي الذي لا صحوة منه .
ليت الله يمن على بهذا بعد أن لاقى الردى من كان يرعاني حبه^(٤٩) .

والمسرحية الثانية من هذه الثلاث المسرحيات المجمعبة هي الكثفورى
Choephoroe أو حاملات قربان الخمر . واسمها مشتق من جماعة النساء
اللاتى يأتين بالقرايين إلى قبر الملك . وكانت كلتيمسترا قد أرسلت أرسنيز
ابنها الصغير ليربى فى فوسيس Pyocis القاصية عساه أن ينسى مقتل أبيه ،
ولكن شيوخ تلك الجزيرة يعلمونه قانون الثأر القديم : « إن نقطة الدم
المراقبة تتطلب دماً جيداً » ، وكانت الدولة فى تلك الأيام المظلمة تترك
عقاب القتل لأولياء القتيل ، وكان الناس يعتقدون أن روحه لا تجد الراحة
حتى يثار له . واستحوذت فكرة الانتقام على أرسنيز وأقضت مضجعه ،
وكانت توحى إليه أن يقتل أمه وإيجشس . وتحقيقاً لهذا الغرض يأتى
سراً إلى أرجوس مع رفيقه پيلديز Pylodes ، ويبحث عن قبر أبيه ،
ويضع عليه خصلة من شعره . ويسمع الشابان وقع أقدام ساكبي قربان
الخمر على القبر فيبتعدان عنه ويصغيان فى ذهول إلى إلكترا أخت أرسنيز
الجزينة وقد أقبلت مع جماعة من النساء ، ووقفت عند القبر ، وأخذت
تناجى روح أجمنون، وتدعوه لأن يثير أرسنيز فيأخذ بثار أبيه . وهنا
يكشف أرسنيز عن نفسه ، فتصب من قلبها المثقل بالهموم فى عقله الساذج
أن عليه أن يقتل أمه ، ويذهب الشابان إلى قصر الملك فى زى تاجرين ؛
وترحب بهما كلتيمسترا وتكرمهما فيرق لها قلباهما ، ولكن أرسنيز يخنبرها
بقوله إن الغلام الذى أرسلته إلى فوسيس قد مات ، ويستولى عليه
الفرع حين يرى البهجة بادية فى حزنها . وتستدعى إيجشس يستمع معها
إلى أن الفتى الذى يخشيان انتقامه قد قضى نحبه ، فيقتله أرسنيز ويدفع
أمه إلى القصر ، ثم يخرج بعد هنيهة وقد جن جنونه أو كاد أشعوره
بأنه قتل أمه ويقول :

« وقبل أن يذهب عقلى أعلن فى هذا المكان إلى كل من يحنى ، وأعترف
أنى قتلت أمى (٥٠) » .

وفى المسرحية الثالثة نرى الشاعر يصور أرسنيز تطارده ربات الانتقام
المكلفة بعقاب المجرمين ، وتشتق المسرحية اسمها من اسم هذه الإلهات الملتطف
« اليومنيديات Eumenides ، أى « الراجيات الخبير » . ويصبح أرسنيز
طريداً مهلر الدم ، يتجنبه سائر الناس ؛ تتعقبه ربات الانتقام أينما ذهب ،
وتحوم حوله فى صورة أشباح سود تنادى بسفك دمه . ويلقى الفتى بنفسه
فوق مذبح أبولو فى دلتى فيهدئ الإله روعه ، ولكن شبح كلتيمسترا يقوم
من تحت الترى ويوعز إلى ربات الانتقام ألا تتوانى عن تعذيب ولدها .
ويسافر أرسنيز إلى أثينة ويجز راكمأ أمام ضريح الإلهة أثينا ويتوسل إليها أن
تنحيه . وتسمع أثينا نداءه وتصفه بالذى « كمله العذاب » . وتحنج ربات
الانتقام عليها فتدعوهم أن يعرضن قصة أرسنيز على مجلس الأريبيجس ؛
ويعمل المشهد الأخير هذه المحاكاة العجيبة التى ترمز إلى استبدال حكم القانون
بالقصاص وسفك الدماء . وتتولى أثينا ربة المدينة رياضة المجلس ، وتعرض
ربات الانتقام حجتهن فى طلب الانتقام من أرسنيز ، ويدافع عنه أبلو .
وتنقسم المحكمة على نفسها وتتساوى الأصوات ، وترجح أثينا رئيسة المجلس
الجانب الذى يريد تبرئة أرسنيز ، وتعلن براءته ، وتقرر من ذلك الوقت
رسمياً أن مجلس الأريبيجس هو المحكمة العليا فى أتكا ، وأن حكمه السريع على
القاتل سيظهر البلاد من المنازعات ، وأن حكمته ستهدى البولة إلى طريق
النجاة مما يحيط بالشعب من أخطار . وتهدى الإلهة بألفاظها العذبة ناثرة
ربات الانتقام ، وتكسب قلوبهن ، وتقول زعيمتهن إن « نظاماً جديداً
قد ولد فى ذلك اليوم » .

وتعد الأرسنيا أروع آيات الأدب اليونانى بعد الإلياذة والأوديسة ، ففيها
تظهر سعة الإدراك، وتوحدة التفكير والتنفيذ ، وقوة الترقى المسرحى ، والقاهرة
(١٩ - ج ٢ - مجلد ٢)

على فهم أخلاق الناس ، وروعة الأسلوب وهي مميزات لا تراها مجتمعة مرة أخرى إلا في شيكسبير ، والمسرحية الثلاثية محبوكة حبكاً قوياً كأن أجزاءها ثلاثة فصول في مسرحية حديثة ، فكل جزء منها يمهد للجزء الذى يليه ويستدعيه في تتابع منطقي محتوم لا مفر منه ، وكلما أعقبت إحدى مسرحيات المجموعة المسرحية التى قبلها تزداد رهبة الموضوع ، ويبدأ الإنسان يدرك كيف كانت هذه القصة تثير أحاسيس اليونان . ولسنا ننكر أن الرواية مثقلة بالكلام الكثير الذى لا يبرره مقتل أربعة أشخاص ، وأن ما فيها من أغان كثيرة ما يكون غامضاً عسير الفهم ، وأن ما فى هذه الأغاني من تشبيهات واستعارات قد بولغ فيه كثيراً ، وأن لغتها فى بعض الأحيان ثقيلة خشنة متكلفة . لكن هذه الأغاني مع ذلك لا يفوقها شيء من نوعها ، فهى مليئة بالعظمة والحنو ، بليغة فيما تدعو إليه من دين جديد هو دين العفو والمغفرة ، ومن فضائل النظام الساسى الذى كان يؤذن بالزوال .

ذاك أن الأرسطيا تبلغ من التحفظ ما تبلغه پرومبثيوس من التطرف وإن لم يكن بينهما إلا فترة من الزمان لا تزيد على سنتين . لقد جرد إفيلتيز الأريبجس من اختصاصه فى عام ٤٦٢ ، وفى عام ٤٦١ قتل ، وفى عام ٤٥٨ عرض إسكلس فى الأرسطيا دفاعاً عن هذا المجلس قال فيه إنه أحكم هيئة فى حكومة أثينة . وكان الشاعر فى ذلك الوقت قد طال أجله وضرسته السنون ، وكان فى وسعه أن يفهم الشيوخ أكثر مما يفهم الشبان ، وكان مثل أرسطوفان يتوق لأن يتحلى بفضائل رجال مرثون . ويريد أثنيوس منا أن نعتقد أنه كان سكيراً^(٥١) ولكننا نراه فى الأرسطيا رجلاً متمتماً يعظ الناس من فوق المسرح ، ويحذرهم من الخطيئة وما يتبعها من عقاب ، ويبين لهم ما يعقب الألم من حكمة ، ويشرح قانون العتو والانتقام ، وهو مبدأ آخر من مبادئ الخطيئة الأولى ، ويقول إن كل عمل غير صالح سينكشف يوماً ما ويعاقب مقترفه فى إحدى حيواته : وبهذا حاول التفكير

اليوناني أن يوفق بين الشر والله ، فيقول إن العذاب كله ناشئ من الخطيئة ، ولو كانت خطيئة جليل من الأجيال البائدة . ولم يكن مؤلف بروميشيوس تقياً ساذجاً ، ودليلنا على ذلك أن في مسرحياته ، ومنها الأرسيتيا ، كثيراً من العبارات الدالة على الإلحاد ، وقد اتهم بالكشف عن أسرار الطقوس الدينية ولم ينجح إلا شفاعته أخيه أمينياس الذي كشف عما أصيب به من جروح في سلاميس (٥٢) . ولكن إسكلس كان يعتقد واثقاً أن الأخلاق الصالحة لا بد لها أن تعتمد على قوى غير قوى البشر لكي تصمد لقوة الغرائز المضرة بالهيئة الاجتماعية ، وكان يرجو :

« أن يكون هناك واحد يستمع إلى الناس من عرشه الأعلى ، بان أوزيوس أو أبلو ، مطلع على الخلق ، يعاقب على خرق القانون بالغضب ويتعقب من خرقه ، وهو يقصد بهذا « تعذيب الضمير والجزاء الحق »
ومن أجل هذا تراه يجمل الدين ويحاول أن يسمو عن الشرك ، ويفكر في التوحيد .

« أي زيوس ، زيوس أينما يكون ، إذا كان يجب أن يسمع هذا الاسم فسوف أدعوه به . أنقب في البر والبحر والهواء ، فلا أجد في مكان ما ملجأ إلا إليه وحده ، إذا نبذ عقلي ، قبل موته ، عبء هذا الغرور (٥٤) » .
وهو يرى أن زيوس هو طبيعة الأشياء مجسدة ، وهو قانون العالم أو علته ، وأن « القانون الذي هو القدر والأب الذي يدرك كل شيء يلتقيان هنا ويصبحان شيئاً واحداً (٥٥) » .

وربما كانت هذه الأبيات الختامية آخر ما نطق به من الشعر . ويعود بعد عامين من إخراج أرسيتيا إلى صقلية . ويعتقد البعض أن النظارة ، وهم في العادة أكثر تطرفاً من القضاة ، لم تعجبهم هذه المسرحية الثلاثية ، ولكن يصعب التوفيق بين هذا الاعتقاد وبين ما قرره الأثينيون بعد بضع سنين ،

وعلى خلاف العادة ، من إعادة تمثيل مسرحياته في ملهى ديونيشيس . وقد
أقبل على هذا كثيرون وظل إسكلس ينال الجوائز بعد وفاته . وبينما كان
هذا يحدث إذ قتله نسر في صقلية ، على ما تقول إحدى القصص القديمة ، بأن
ألقى سلحفاة على رأسه الأصلع لأنه حسب حجاراً^(٥٦) . وفيها دفن إسكلس
ونقش على شاهد قبره تلك العبارة التي كتبها بنفسه والتي يدهشنا أنها لم تذكر
شيئاً عن مسرحياته ، والتي يفخر فيها بندوق جراحه .

تحت هذا الحجر يرقد إسكاس ، الذي تحدثنا عن بسالته أيكمة مرثون
أو ملك الفرس ذو الشعر الطويل الذي يعرفه حق المعرفة .



(شكل ٤٦) صككيز (صنف لاتران برومة)



(شكل ٤٧) صككيز (صنف اللاتران برومة)

افضل الرابع

سفنكليز

في عام ٤٦٨ انتزع الجائزة الأولى للمأساة من إسكلس قادم حديث في سن السابعة والعشرين يسمى سفنكليز (سوفكل) أى العاقل المكرم : وكان سفنكليز هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤماً . وكان موطنه الأصلي ضاحية كولونس لإحدى ضواحي أثينة ، وكان ابن صانع سيوف ، ومن أجل هذا فإن الحرب الفارسية والپلويونيزية التي أفقرت الأثينيين كلهم تقريباً جاءت لهذا الكاتب المسرحى بثروة طائلة^(٥٧) . وكان فضلا عن ثرائه رجلا عبقرياً وسيما جيد الصحة ، نال جائزتى المصارعة والموسيقى - فجمع بذلك بين كفتين لو شهدهما أفلاطون لاغضب أشد الاغضب بوجوهما في رجل واحد . وقد أمكنته مهارته في لعب الكرة وفي العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة في الفنون ؛ وكان هو الذى اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبان أثينة العراة في رقصة النصر ونشيد^(٥٨) . وقد ظل محتفظا بهاء طلعتة إلى أواخر أيامه ، ويظهره تماثله المحفوظ في متحف لاتران Lateran شيخاً ملتجياً بدينياً ولكنه قوى طويل القامة . وقد نشأ في أسعد عهود أثينة ، وكان صديقاً لپركليز وشغل في عهده أعلى مناصب الدولة ؛ فكان في عام ٤٤٣ أمين بيت المال الإمبراطورى ؛ وفي عام ٤٤٠ كان أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينة في الحملة التي سيرها پركليز على ساموس ، وإن كان من واجبا أن نضيف إلى هذا أن پركليز كان معجب بشعره أكثر من إعجابه بمخططة الحربية . وعين بعد الكارثة التي حلت بأثينة في سرقوصة عضواً في لجنة الأمن العام^(٥٩) ، وافترع

يحكم منصبه هذا على عودة الدستور الأجرى في عام ٤١١ . وكان الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من إعجابه بسياسته ، فقد كان ظريفا ، لبقا ، متواضعا ، محبا للهو ، وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه . وكان يحب المال^(٦٠) والغلمان^(٦١) ، حتى إذا ما بان سن الشيخوخة تحول حبه هذا نحو السرارى^(٦٢) ؛ وكان شديد الصدح ، وقد شغل مرارا منصب الكاهن^(٦٣) .

وكتب سفكليز ١١٣ مسرحية ؛ لم يبق منها إلا سبع لا نعرف الترتيب الذى خرجت به . وقد نال الجائزة الأولى فى الحفلات الديونيشية ثمانى عشرة مرة ، ونالها مرتين فى الحفلات اللينياية Lenaeon ، وحصل على أولى جوائزه فى سن الخامسة والعشرين وعلى آخرها وهو فى الخامسة والثمانين ، وظل يسيطر على المسرح الأثينى ثلاثين عاما ، وكان له عليه من السلطان أكثر مما كان لمعاصره بركليز على الحكومة الأثينية . وهو الذى زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة ، وظل يقوم ببعض الأدوار حتى فقد صوته . وقد غير نظام المسرحية الثلاثية الذى كان يتبعه إسكلس وفضل أن يدخل المباريات بثلاث مسرحيات مستقلة كل منها عن الأخرى (وحننا حذوه يورهديز من بعده) .

وكان إسكلس مولعا بالموضوعات الكونية التى تطفى على أشخاص مسرحياته ، أما سفكليز فكان مولعا بالأخلاق ، ويكاد أن يكون حليث النزعة فى إدراكه للآثار النفسانية . ومسرحية « المرأة التراقينية » فى ظاهرها مسرحية غنائية عاطفية ؛ وخلاصتها : أن ديانيرا Deianeira تملكها الغيرة من حب زوجها هرقل لأيولا Iola فتبعث إليه على غير علم منها بثوب مسمم يقضى عليه فتقتل هى نفسها . وليس الذى يعنى به سفكليز فى هذه القصة هو العقاب الذى يحل بهرقل - أى العقاب الذى كان يبدو لإسكلس أنه أهم ما فى المسرحية - وليس هو عاطفة الحب القوية نفسها ، - وهى التى كانت تبدو أهم ما فيها فى نظر يورهديز - بل الذى يعنى به هو سيكولوجية الغيرة . وفى مسرحية

أجاكس لا يعنى المؤلف بأعمال القوة التي يقوم بها بطل المسرحية ، بل إن الذى يعنى به هو دراسة رجل ذهب عقله . ولا نكاد نرى فى قلبكتيس حادثة ما ، بل الذى نراه هو تحليل سافر للسناجة التي أوديت وللخيانة الدبلوماسية . والقصة فى مسرحية إلكترا قليلة الشأن قديمة ، ولقد كان إسكلس يفتن بما تنيره القصة من مشاكل أخلاقية ، أما سفكليز فيكاد يغفل هذه المشاكل فى حرصه على دراسة كراهية الفتاة لأنها دراسة تحليلية نفسانية لا أثر للعاطفة أو للشفقة فيها . وقد اشتق من اسم هذه المسرحية اسم لنوع من الاضطراب العصبى كان موضوع البحث فى يوم من الأيام ، كما اشتق من مسرحية أوديب الملك اسم لنوع آخر من هذا الاضطراب .

وأشهر المسرحيات اليونانية بأجمعها مسرحية أوديب تيزانس ، والفصل الأول من فصولها قوى الأثر : ترى فيه خليطاً من الرجال ، والنساء ، والغلمان ، والبنات ، والأطفال جالسين أمام قصر الملك فى طيبة يحملون أغصان الغار والزيتون رمزاً لأنهم جاءوا راجين متوسلين . ذلك أن وباء قد اجتاح المدينة فاجتمع الشعب يطلب إلى الملك أوديب أن يقرب للآلهة قرباناً يسترضيها به . وتعلن إحدى النبوءات أن الطاعون سينهب عن طيبة إذا خرج القاتل غير المعروف الذى اغتال ملكها السابق . ويلعن أوديب هذا القاتل أيّاً كان لعنة شديدة ، لأن جريمته قد سببت هذا الشقاء كله للمدينة ، وبداية المسرحية على هذا النحو خير مثل لتلك الطريقة التي يشير بها هوارس طريقة الاندفاع فى وسط الأشياء *in medias res* أى مفاجأة النظارة بالمشكلة أولاً على أن يأتي شرحها فيما بعد . لكن النظارة فى هذه المسرحية كانوا يعزفون مجرى الحوادث بطبيعة الحال لأن قصة ليوس *Laius* وأوديب وأبى الهول كانت جزءاً من القصص الشعبي اليونانى . وتقول الزواية المأثورة إن لعنة قد حلت بليوس وأبنائه لأنه أدخل إلى هلاس رذيلة غير طبيعية^(٦٤) ، وكانت نتائج هذه الخطيئة التي أهلكت الناس

جيلا بعد جيل موضوعاً شائعاً للمآسى اليونانية ، وقد قال الوحى إن ليوس وزوجته جكستا Jocasta سيرزقان ولدأ يقتل أباه ويتزوج أمه ، وكانت نتيجة هذه النبوءة أن وجد في العالم للمرة الأولى زوجان يريدان أن يكون أول أبنائهما بنتاً ؛ ولكنهما رزقا ولدأ ، وأرادا ألا تتحقق النبوءة فعرضاه للموت على أحد التلال ، حيث وجده راع وسماه أوديب لتورم قلميه ، وأهداه إلى ملك كورنثة وملكتها فتبناياه وريياه . ولما كبر أوديب عرف من مهبط الوحى أيضاً أنه قد كتب عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه . واعتقد أن ملك كورنثة وملكتها هما أبوه وأمّه ، ففر من المدينة واتخذ طريقه إلى طيبة . والتقى في الطريق بشيخ طاعن في السن قتشاجر معه وقتله وهو لا يعرف أن هذا الشيخ أبوه . ولما اقترب من طيبة التقى بأبي الهول ، وهو مخلوق له وجه امرأة ، وذنب أسد ، وجناحا طائر . وقد سأل أبو الهول أوديب أن يجيب عن ذلك اللغز المشهور : « ما قولك في مخلوق ذى أربع أقدام ، وثلاث أقدام ، وقدمين ؟ » . وكان أبو الهول يقتل كل من لا يعرف الجواب الصحيح عن هذا السؤال ؛ واستولى الملعغ على أهل طيبة واشتدت رغبتهم في تطهير طريق مدينتهم من هذا المخلوق المهول ، فنلدروا أن يكون ملكهم الثانى هو الرجل الذى يحل هذا اللغز ، وذلك لأن أبا الهول قد قرر أن ينتحر إذا عرف إنسان الجواب الصحيح . وأجابه أوديب بقوله : « هو الإنسان ؛ لأن الطفل الرضيع يجبو أولاً على أربع أقدام ، فإذا كبر مشى على قلمين ، وإذا هرم استعان بعصا » . وكانت إجابة عرجاء ، ولكن أبا الهول رضى بها ووفى بوعدده فقتل نفسه . ورحب الطيبيون بأوديب وعدوه متقلداً لهم ، ولما لم يعد ليوس إلى المدينة اختاروا هذا القادم الحديد ملكاً عليهم . واتبع أوديب العادة المألوفة في المدينة فتزوج الملكة ورزق منها أربعة أبناء : أنتجونى ، وپولينييس Polynices ، وإتيكليز Éteocles ، وإزميني Ismene .

وفى المآظر الثانى فى مسرحية سفكليز - وهو أقوى منظر فى المسرحيات

اليونانية بأجمعها - يأمر أوديب كاهناً من كبار الكهنة بأن يكشف إذا استطاع عن قتل ليوس فيقول إن القاتل هو أوديب نفسه . وليس في الفجائع كلها فجيفة أشد وقماً أو أعظم هولاً من إدراك الملك على الرغم منه أنه هو قاتل أبيه وزوج أمه . وتأبى جوكستا أن تصدق هذا النبأ وتقول إنه حلم فرويدي Freudian (*) ، وتؤكد لأوديب « أن كثيرين من الناس حلموا أنهم ضاجعوا أمهاتهم ، ولكن الذى يرى أن هذه أضغاث أحلام يعيش طول حياته مستريح البال (٦٥) » . ثم تعرف الحقيقة كاملة فتشقى نفسها ، ويمن أوديب من شدة الندم فيفقد عينيه ويغادر طيبة منفياً عنها ، وليس معه من يعينه في منفاه غير أنتجوني .

وفى مسرحية أوديب فى كولونوس (***) وهى الجزء الثانى من مسرحية ثلاثية غير مقصودة ، نرى الملك السابق طريداً ، أشيب الشعر ، متكئاً على ذراع ابنته يعلوف بالمدن يستجدى الناس الخبز ، ويصل فى طوافه إلى كولونوس الظليلة ، وينتظر سفكليز هذه الفرصة فينشد لقرينه التى ولد فيها ، ولزيتونها ، أغنية من أحسن الأبيات اليونانية لا تستطيع ترجمتها ترجمة تظهر جمالها يقول فيها :

« أيها الغريب ، إنك تنزل الآن فى هذه الأرض ، أرض الجهاد والفرسان ، تلك أرض لا كئيلها أرض سواها ، ها هى ذى كولونوس البيضاء تتلألأ . كم من مرة غنى العندليب بصوته الشجى وهو عائد إلى عشه تخفيه الأيكة الخضراء ، يروى قصته الحلوة الحزينة ... وترى النرجس فى كل يوم يرتشف رضاب الندى فيفتتح ، وتعلوه أول عناقيد من التيجان البيض ا

(*) أى من أحلام فرويد العالم النفسانى الشهير ، ووصف الحام بأذى فرويدي من عند المؤلف بطلامة الحال . (المترجم)

(٥٥) نالت مسرحيات أوديب الملك ، وأوديب فى كولونوس ، وانتجوني تمثل كل منها بملحدها مستقلة عن الأخرى .

« وهنا تخرج الأرض عشباً عجيباً لم يتغن أحد بمثله في جزيرة پلوس Pelops اللورية القريبة ، ولم ينبت قط في أرض آسية البعيدة ، وهو نبات متجدد النضارة على الدوام ، يجدد نفسه ، ويتوالد بنفسه ، يلقي الرعب في قلوب أعدائها المسلحين : فهو لا يبلغ في غير هذه البلدة ما يبلغه فيها من جمال وأزدهار ، بأوراقه الزيشية اللساء ذات الزرقة السنجائية البراقة كالفضة ، والذي يغذى البلدة بعصير زيتونه . ولن تستطيع قوة أو يد مخربة أن تخرب المدينة سواء كانت قوة الشباب الأهورج أو حكمة الشيخوخة المحربة لأن قرص زيوس السماء يرهاها هو والضياء الأزرق المنبعث من عين أثينا . »

وكانت نبوءة قد سمعت بأن أوديب سيموت بجوار اليمينديات ، فلما عرف أنه الآن في أيكتهن المقلسة ببولونس أيقن هذا الشيخ الذي لم يجد في الحياة جمالا أن الموت يحلو في ذلك المكان . وينادى لثسيوس ملك أثينة بأبيات كأنه يخترق بها حجب الغيب ويجمع فيها القوى التي كانت تعمل على إضعاف بلاد اليونان وهي فقر التربة ، وقلة الإيمان وضعف الأخلاق والرجال :

« إن آلهة السماء وحدها هي التي لا تصل إليها الشيخوخة ولا الموت لأي سبب من الأسباب ، وكل ما عداها يعدو عليه الزمان المسيطر على كل شيء ، فتذهب قوة الأرض ، وتلدبل زهرة الرجولة ، وينعدم الإيمان ، ويزدهر الإلحاد ازدهار الزهرة ، ومنذا الذي يستطيع أن يجد في شوارع الناس المفتوحة ، أو في مكنون حبه الخفي ريحاً تهب صادقة إلى أهد الدهر (٦٧) . »

ثم يبدو كأن أوديب يسمع نداء إله من الآلهة فيودع أنتجونى وإزمينى وداعارقيقاً ، ويسير إلى الأيكة المظلمة وليس معه إلا ثسيوس وحده .

« وسرنا قليلاً ثم التفتنا فإذا الرجل قد اختفى ، ولم يبق إلا الملك (٦٨) ، وقد رفع إحدى يديه ليظلل بها عينيه ، كما يفعل الإنسان إذا تراءت له رؤية

رهية مروعة لا تقوى عيناه على التطلع إليها . . . وما من أحد غير ثسيوس يعرف كيف قضى نحبه . . . فلعل لإنساناً أرسلته الآلهة ليهدي خطاه ، أو لعل الأرض قد أشفقت عليه ففغرت فاها وابتلعتة حتى لا يصيبه ألم ؛ وهكذا اختفى الرجل ولم يخلف وراءه شيئاً مخزن لأجله - لم يترك العالم بعد أن ينهكه المرض والألم ؛ بل اختتم حياته ، إن كان قد اختتمها ، ختاماً عجيباً (٦٨) .

وفي المسرحية الثالثة في ترتيب الحوادث ، والظاهر أنها هي أول ما كتب من المسرحيات الثلاث ، تواري أنتجوني الوفية في قبرها . فقد سمعت أن أخويها پولينيسبر وإتيكليز يتنازعان عرش المملكة ، فعاتت مسرعة إلى طيبة ترجو أن توفق بينهما ، ولكنهما لا يصغيان إليها ، ويواصلان الحرب حتى يقضى عليهما ويستولى كريون Creon حليف إتكليز على العرش ، ويأمر ألا تدفن جثة پولينيسبر عقاباً له على ثورته . ولكن أنتجوني تعصى هذا الأمر وتدفن جثة أخيها لأنها تعتقد ، كما يعتقد سائر اليونان ، أن روح الميت لا تقتأ تعذب ما دامت جثته لم تدفن . وفي هذا المقام تغني فرقة المرتلين أغنية تعد من أشهر أغاني سفكليز :

« ما أكثر العجائب في هذا العالم ، ولكن لا شيء أعجب من الإنسان ؛ فهو يشق طريقه المخوف بالأخطار خلال المضيق ذى الماء المزبد فوق متن البحار الصاخبة ، تدفعه ريح الجنوب الهوجاء . والأرض أقدم الآلهة التي لا يعترها نصب ولا وهن يفلحها ويقلبها سنة بعد سنة بمحراثه ونيره المعلق على رقاب جياده .

« ويصيد بفخاخه المنسوجة طيور الهواء الحمقاء ، ووحوش الغاب والفلوات ، وسمك البحار المألحة . ألا ما أشد مكره . فهو يذل بجيله التي لا آخر لها الثور الوحشي والأيل الذي يمرح حرأ في الجبال ، ويخضع للجامه الجواد الأشعث ذا اللبد . أما الكلام وإسداء النصيح العاجل والذكاء فقد عرفها كلها بنفسه ،

وعرف كيف يسقط المطر السريع وكيف تهب الريح العاتية الطليقة التي تتجمد تحت سماء الشتاء . وهو مستعد لكل ما يصادفه ، فقد عرف كيف يتحمل الوباء الوخيم ، وكيف يتجو من كل ما يصيبه ، ولكنه مع هذا كله لم يجد دواء يرد عنه الموت (٦٩) .

ويحكم كريون أن تدفن أنتجوني حية ، ويحتج ابنها هيمون على هذا الحكم الظالم الرهيب ، فلا يفيد احتجاجه فيقسم لأبيه « إنك لن ترى وجهي بعد الآن » . وهنا لأول مرة يحدث الحب أثره في مأساة سفكليز وينشد الشاعر لإله الحب نشيداً ظل الأقدمون يذكرونه عهداً طويلاً :

« أيها الحب ، يا من لا يقوى على صدك شيء في الكفاح ، كل الناس يخضعون إذا ألقى عليهم نظرة من عينيك . الحب يرقد طول الليل على خد العذراء ، ويطوى الريا والقفار ، ويشق عباب البحار . أيها الحب يا من يقع الآلهة في أسرك ، هل يقوى الآدميون على النجاة من قبضتك ؟ (٧٠) .

ويخني هيمون ، ويجد كريون في البحث عنه ويأمر جنوده بأن يفتحوا الكهف الذي دفنت فيه أنتجوني ، فيجدها ميتة ، وإلى جانبها هيمون قد وطد العزم على الموت .

« ونظرنا ، وفي قبوة الكهف المظلم رأيت الفتاة غنوقة هناك ، وقد لف حبل من التيل وعقد حول عنقها ، وإلى جانبها حبيها ممسك بجنتها الهامدة يندب عروسه الميتة . . . فلما أن رآه الملك صرخ صرخة مروعة وانجه نحوه وهو يصيح : « أي ولدي ، ماذا فعلت بنفسك ؟ وماذا يوثلك ؟ وأية كارثة حلت بك فسلبت عقلك ؟ أقبل يا ولدي أقبل ، إن أباك يتوسل إليك » . ولكن ابنه أحلق فيه بعينين كهينى النمر ، وبصق في وجهه ، ثم استل سيفه ذا المقبضين دون أن ينبس ببنت شفة وضرب ، غير أن أباه تراجع إلى الوراء فأخطأته الضربة . وغضب الغلام الداعر البائس من نفسه ، فسقط على حد سيفه ،

فنقل السيف في جنبه ، وقيل أن تخدم أنفاسه أمسك الفتاة بلراعيه المسترخيتين ، وقد اصطبغ خدها المصفر بشبهه . وهكذا قضى الاثنان نحبهما ، وأصبحا جثتين هامدتين وحّد بينهما الموت (٧١) .

وأهم ما تمتاز به هذه المسرحيات صفتان لم يلعب بروعهما مر الزمان ولا عبث المترجمين وهما جمال الأسلوب وسمو الفن . ففيها النموذج الحق لعبارات العصر الذهبي المصقولة ، الهادئة ، الرصينة ، القوية في غير إسراف ، الجزلة الرشيقة ، التي تجمع بين قوة فدياس ورقة برلستيليز . ولا يقل السياق نفسه سمواً عن الألفاظ ، فكل سطر قد وضع في الموضع اللائق به ، وكل سطر يستحوذ على فكره ويسر بك إلى تلك اللحظة التي تصل فيها الحوادث إلى غايتها ومنزاها . وقد بنيت كل مسرحية من هذه المسرحيات كما تبنى المعابد يصقل كل جزء منها على حدة ، ولكنه يوضع في مكانه اللائق به من البناء كله ، إذا استثنينا فيها عيباً واحداً هو أن المؤلف في مسرحية فلكنيتس يقبل في غير جهد فكرة إززال الآلهة بالآلات (وهي فكاهة من فكاهات يورپديز) ويعدها حلاً جدياً للعقدة المستعصية على الحل . وأهم النقاط البارزة في حبكة هذه المسرحيات ، وفي مسرحيات إسكلس ، هي أولاً انتقام لظفرسة شديدة وسفاهة في أحد الفصول (كلجنة أوديب للقاتل المجهول) ، ثم معرفة فجائية لحقيقة كانت قبل غامضة ، ثم تعثر الحفظ ، ثم الانتقام الإلهي والعقاب المحتوم . وكان أرسطاطاليس يتخذ « أوديب الملك » مثلاً للمسرحية الكاملة البناء الخالصة من النقص ، وإلا مسرحيتي أوديب الأخرين لتوضحان أتم الوضوح تعريف أرسطو للمسرحية ، وقوله إنها تطهر للرحمة والفرح بعرضها عرضاً موضوعياً . والشخصيات هنا مصورة تصويراً أوضح من شخصيات إسكلس وإن لم تبلغ واقعيتهما مبلغ شخصيات يورپديز . وفي ذلك يقول سفكيز نفسه : « إنني أصور الرجال كما يجب أن يكونوا ، أما يورپديز فيصورهم كما هم » (٧٢) ،

وكانه يعنى بهذا أن التمثيل يجب أن يتجه إلى حد ما نحو المثل العليا ، وأن الفن يجب ألا يكون تصويراً شمسياً . ولكن أثر يورپديز يظهر واضحاً في النقاش الذي يدور في الحوار ، وفي استغلال العواطف في بعض الأحيان ، وشاهد ذلك أنا نرى أوديب يغفل صفاته الملكية ويحاج تيرسياس Teiresias ، ونراه حين يفقد بصره يتحسس أوجه بناته تحسناً يبعث الحسرة في النفس ، أما إسكلس فلو أنه كان في هذا الموقف نفسه لنسى البنات وأخذ يفكر في قانون من القوانين الخالدة .

وسفكلز أيضاً فيلسوف وواعظ ، ولكن نصائحه لا تعتمد على رضاه [الآلهة بالقدر الذي تعتمد به عليها نصائح إسكلس . وسبب ذلك أنه قدمسته روح السوفسطائين ، وهو وإن كان يستمسك بأصول الدين يظهر في مسرحياته أنه لولا أن الحظ قد واثاه لكان هو ويورپديز سواء . ولكن حساسيته الشاعرية الشديدة تمنعه أن يلمس المعاذير لما يصيب الناس من ضرر لا يستحقونه في أغلب الأحيان . انظر مثلاً إلى قول ليلس Lylus أنام جسم هرقل وهو يتلوى من شدة الألم :

« نحن لم نترف ذنباً ، ولكننا نقر بأن قلوب الآلهة خالية من الرخمة ، فهم يللون الأبناء ، ويطلبون أن يعبدوا باسم الآباء ، ولكنهم ينظرون إلى أبنائهم نظرة مليئة بالأحقاد (٧٣) » .

وهو ينطق چوكستا بالسخرية من النبوءات ، مع أن مسرحياته تدور حول هذه النبوءات نفسها وتبدو فيها واضحة ، وترى كريون يتندد بالمتنبئين ويقول عنهم إنهم « طائفة لا هم لما إلا جمع المال » ، ويسأل فلكنيئس السؤال القديم « كيف نبرر تصرفات السماء إذا كنا نجد السماء طالئبة ؟ (٧٤) » .

إن النظام الأخلاقي في العالم أدق من أن تفهمه عقولنا ، ولكنه نظام قائم بالفعل ، وستكون الغلبة فيه للحق في آخر الأمر (٧٥) . وهو يحل حذو إسكلس فيزي أن زيوس هو نفسه النظام الأخلاقي ، وهو يقرب من الوجدانية أكثر مما يقرب منها إسكلس نفسه . ويشبه الصالحين من الإنجليز في عصر الملكة فكتوريا ، فتراه تقوياً في إيمانه بالأخلاق الفاضلة وإن كان غير واثق كل الثقة من دينه ، ويرى أن أرقى أنواع الحكمة أن تعرف القانون الذي هو زيوس ، المرشد للأخلاق لهذا العالم ، وأن تتبعه متى عرفناه .

« ألا ليت قدي التابتين لا تعجزان عن السير في طريق الحق والصلاح . رليتني أفضى حياتي مبراً من الخطايا في القول والفعل ، مستمسكا بتلك القوانين الأزلية التي تسمو علي الدوام إلى أبراج السماء الأثيرية الثقية التي نشأت فيها : ذلك أن موطنها الوحيد هو أولمبس ، ولم تكن هي وليدة حكمة البشر ؛ ومهما غفل عنها الناس فإنها مستيقظة لا تنام عينها أبداً (٧٦) . »

ذلك قلم سفكليز ولكنه صوت إسكلس ، أو هو الإيمان يقف وقفته الأخيرة في وجه الكفر . وكأننا نشهد في هذا الموقف ، موقف النبي والاستسلام للقضاء ، أيوب يندم على ما فرط منه ويرضى بما كتب له ، ولكننا نلمح بين السطور شيئاً من إلهام يورپديز قبل أن يوجد يورپديز نفسه . ويرى سفكليز ، كما يرى صولون ، أن أسعد الناس هو الذي لم يولد ، وبلية في هذه السعادة من يموت في طفولته . ولقد وجد أحد المتشائمين المحدثين بعض اللدة في ترجمة الأبيات المحزنة في النشيد الجنائزي الذي أنشد عند موت أوديب ، وهي أبيات يظهر فيها الملل من العالم الناشئ من آلام الشيخوخة ، ومن حرب الهلويونيز حيث يقتل الإخوة ويفتك بعضهم ببعض :

« أي رجل ذاك الذي يتوق إلى طول الأجل ؟ إن عيني ترى الحماة

تكتنف كل أساليبه ، وكلما مرت بك السنون تبدلت حياتك سوءاً بعد سوء .
سوف يقرب منك الحزن ، ويمتنع عن عينيك الشرور .. هذا هو الجزء
الذى يناله من يطول أجلهم .

« وخير الناس فى نظرى هو الذى لم يولد(*) ؛ ويليه فى هذا من يولد
ثم يموت لساعته . إن الشباب ليحجىء للإنسان بالحقائق التى هى أخف وزناً
من الريش ، ثم تجتمع الشرور كلها فلا ينقصها شر : من غضب ، وحسد ،
وشقاق ، ونزاع ، وسيف يتعقب الحياة . وتختتم هذه المتاعب كلها باقتراب
الشيخوخة التى توهم الجسم فيفر من الأصدقاء والأقارب ، الشيخوخة التى
يتضاعف فيها كل ما تحت قبة السماء من أحزان .

« والذى يتحرر من الكدح ، تنعقد أواصر الصداقة بينه وبين غيره من
الناس ، ولا تصحبه عروس ولا أهل عروس ، ولا يسمع صوت الدفوف
والغناء لأن الموت يقضى على ذلك كله .

ويعرف كل من درس حياة سفكليز أنه كان يتسلى فى شيخوخته
مع حظيته ثيوريس Theoris ، وأنه رزق منها بطفل (٧٨) ، وأن أيوفون
Iophon ابنه الشرعى أقام دعوى على أبيه يتهمه فيها بالفسه ، ولعل
الدافع له إلى هذا خوفه أن يترك الشاعر ثروته لابنه من ثيوريس .
ودافع سفكليز عن نفسه وقدم دليلاً على تمتعه بكامل قواه بعض
مقطوعات قرأها على المحكمة من مسرحية كان يكتبها ، ولعلها كانت
مسرحية « أوديب فى كولونس » ؛ ولم يكتف القضاة بتبرئته من التهمة بل
ساروا يحفون به إلى بيته (٧٠) . ومع أنه قد ولد قبل يورپديز بزمان طويل .
فقد عاش حتى لبس عليه الحداد ، ثم مات فى السنة التى مات فيها هذا
الكاتب سنة ٤٠٦ . ومن الخرافات الشائعة أنه لما حاصر الاسبارطيون .

(*) تذكرنا هذه العبارة والمباراة التى فى مستهل الفقرة السابقة بقول أبي العلاء المعرى :
« تعب كلها الحياة » و « هذا جناه أبى على » : (المترجم)

أثينة ، تجلى ديونيشس إله التمثيل للمتحاربين وشفع لأصدقاء سفكليز ،
فحصل لهم على ممر أمين ، وأمکنهم بذلك أن يدفنوه في مقبرة آبائه في
ديسليا Deceleia ، وأجله اليونان وكرموه كما يكرمون آلهتهم ، وكتب له
الشاعر سمياس Simmias قبرة هائلة قال فيها :

تسلق بلطف أيها الخلباب إلى حيث يرقد سفكليز في راحته الهادئة ،
وأرسل غداثرك الصفراء المحضرة على قبره الرخامى ، الذى يفتح حوله
الورد الأرجوانى . ولتدل حوله عنقايد الورد المكتنزة ، وتلقى حول
الحجر أعناقها الصغيرة الجميلة ، جزاء وفاقا له على حكته الحلوة التى
هو منشؤها التى تدعى ربات الشعر وثالوث الجمال أنها أغانيها

الفصل الخامس

يوربديز

١ - المسرحيات

كما شق جيتو Giotto الطريق الوعر للتصوير الإيطالي في بداية عهده ، ثم أوصله بروحه الهادئة إلى كماله الفني ، وأتم ميكل أنجلو تطوره بأعماله التي صدرت عن عبقريته المعبدة ؛ وكما شق باخ Bach بمجهوده الجبارة الطريق الرحب إلى الموسيقى الحديثة ، وأبلغها موزار ببساطتها العذبة الرخيمة إلى أرقى الدرجات ، ثم أتم بهوفن تطورها بمؤلفاته التي لا يدانيها شيء في فخامتها وجلالها ؛ كذلك شق إسكلس بشعره القوي وفلسفته الصارمة الطريق الذي سارت فيه المسرحيات اليونانية ، وحدد أشكالها ، ثم هلب سفكليز هذا الفن بموسيقاه المتزنة وحكمته الهادئة ، وأتم يوربديز تطوره بمؤلفاته التي تفيض بالشعور الجائش والشك القوي . لقد كان إسكلس مسرحياته واعظاً لا يكاد يقل صراحة عن أنبياء بني إسرائيل ، وكان سفكليز فنانياً سامياً يتشبث بإيمان مزعزع موشك على الانهيار ، وكان يوربديز شاعراً عاطفياً إبداعياً لا يستطيع أن يكتب مسرحية كاملة لأن الفلسفة شتت قواه . وكان هؤلاء هم إشعيا وأيوب والجامعة في كتاب اليونان المقدس .

ولد يوربديز في عام سلاميس ، ويقول بعضهم إنه ولد في يوم سلاميس بالذات ، وأكبر الظن أن مسقط رأسه هو تلك الجزيرة التي يقال إن أبويه فرا إليها هرباً من الغزاة الميديين (٨٠) . وكان أبوه رجلاً من أصحاب المال والسلطان في مدينة فيلا Phyla الأتكية ، وكانت أمه تنحدر من أسرة شريفة (٨١) ،

وإن كان منافسه أرسطوفان يصير على أنها كانت تدبير حانوت بذال ، وتبيع الفاكهة والأزهار في الطرقات . وقضى يورپديز أيامه الأخيرة في سلاميس ، مولماً بعزلة تلالها ، وجمال مناظرها ، وزرقة بحارها ، وكما أراد أفلاطون أن يكون كاتباً مسرحياً فكان فيلسوفاً ، كذلك أراد يورپديز أن يكون فيلسوفاً فكان كاتباً مسرحياً . ويقول استرايون (٨٢) إنه « تلى منهج أنكساغورس كله ، ودرس بعض الوقت على پرودكس ، وكان صديقاً حميماً لسقراط ، وبلغ من صلته به أن بعض الناس يظنون أن قد كان للفيلسوف يد في مسرحيات الشاعر (٨٣) . وكان للحركة السوفسطائية كلها أثر كبير في تعليمه ، واستحوذت عن طريقه على المسرح الديونيشي ، فكان هو فلتير عصر الاستنارة اليوناني ، يعبد العقل ويلمح إلى هذه العبادة في ثنايا مسرحياته التي كانت تمثل لتمجيد إليه من الآلهة تلميحاً أفسدها وكان له أسوأ الأثر فيها .

وتعزو إليه سجلات المسرح الديونيشي فضل تأليف خمس وسبعين مسرحية ، بدأت بينات بلياس في عام ٤٥٥ واختتمت بالباخيه Bacchae في عام ٤٠٦ ، ووصات إلينا منها ثمان عشرة كاملة وهتامات مختلفة من باقي المسرحيات (*) . ومادتها هي أساطير اليونان الأولين ، تتخللها إشارات من التشكك تبسود أولاً في حذر ثم تظهر سافرة جريئة بين السطور . ونرى في مسرحية أيون Ion أبا القبائل الأيونية المزعوم وقد وقع في ورطة حرجة : فقد جاء على لسان وحى أبلو أن أباه هو أكوثوس Xuthus ، ولكن أيون يكشف أنه ابن أبلو الذي أغوى أمه ثم خلعها على أكوثوس ، ويسأل أيون نفسه أي يمكن أن يكون الإله النبيل كاذباً ؟ وفي مسرحية هرقل وألسستيز Alcestis نرى الفتي الغوى ابن

(*) ظهرت المسرحيات الكبرى بالترتيب الآتي أو ما يقرب منه : ألسستيز ٤٢٨ ، مينييا ٤٣١ ، هولييتس ٤٢٨ ، أندرمكي ٤٥٧ ، هكيا ، حوال ٤٢٥ ، المرأة الطرادية ٤١٥ ، إلبونيا في طوديس حوال ٤١٣ ، أرسستيز ٤٠٨ ، إلبهليا في أوليس ٤٠٦ ، البالغة ٤٠٦ .

زيوس وألكمينا في صورة إنسان سكير طيب القلب ، له نهم جارحنتوا
Gargantua وعقل لويس السادس عشر . وتقص مسرحية ألسستيز القصة
المتفرة فتصف كيف اشترطت الآلهة نظير إطالة عمر آدميتاس Admetus
(ملك فبرى Pherae في تساليا) أن يرضى إنسان ما أن يموت بدلا منه .
وتعرض زوجته أن تفتديه بحياتها ، وتودعه بقصيدة من مائة بيت يستمع
إليها في صبر ونبل ، وتُحمل ألسستيز باعتقاد أنها قد ماتت ولكن هرقل
بمخرج من مجلس الخمر والولائم ، ويجادل الموت ، وينهره ، ويرغمه على
ترك ألسستيز ، ويعيد إليها حياتها . ولا يمكن فهم المسرحية إلا على أنها
محاولة نجيفة لتسخيف هذه الخرافة(*) .

وتستخدم مسرحية هيپوليتس Hippolytus هذه الطريقة عينها طريقة
إقامة البرهان بنقض نقيضه ، ولكن بطريقة أظرف وأكثر دهاء .
فالبطال الوسيم هنا شاب صياد يقسم لأرتميس Artemis العذراء إلهة الصيد
أن يكون على الدوام وفياً لها ، وأن يتجنب النساء طول حياته ، وأن يجد
أعظم لذته في الأدغال . وتغضب أفردتي لهذه العزوبة المهينة فتصب في قلب
فدرا Phaedra زوجة ثسيوس هيماً جنوبياً هيپوليتس بن ثسيوس من
أنتيوي Antiope زوجته المحاربة . وهذه هي أولى مآسي العشق فيما لدينا
من كتابات أدبية ، وفيها نجد من بداية الأمر جميع أعراض الحب في أعقد
أزماتها وأقوى درجاتها ، وذلك حين يصد هيپوليتس عن فدرا فيتعظم قلبها ،
ويلدو غضبها ، وتكاد تقضى من فرط الأسى . وتصبح مريبتها فيلسوفة .

(*) وقد مثلت في عام ٤٣٨ ، مع ثلاث مسرحيات أخرى بقلم بيرديدز ؛ ولعل
المقصود منها أن تكون مسرحية نصف خرافية ونصف جدية ، لا مسرحية بين المساة والمسلاة ؛
وقد أخذ برولنج Browning في قصيدته Balanston's Adventure هذه المسرحية على
ظاهرها مدفوعاً إلى هذا بمذاجه وكرم نفسه .

على غير انتظار فتأخذ في التفكير في الحياة بعد الموت ، وتظهر في تفكيرها هذا من الشك في هذه الحياة ما لا يقل عن شك هملت فيها :

« ومع هذا فحياة الإنسان كلها ألم وكدر ، وليس ثمة راحة على ظهر هذه الأرض ، وإذا كانت هناك حالة بعيدة أحب إلى الموتى من الحياة فإن يد « الظلماء » تقبض عليها وتحجبها في ظلمات من فوقها ومن أسفل منها : ومن الناس من يرغبون في الحياة ويتعلقون بالبقاء على هذه الأرض بهذا الشيء البراق الذى لا أعرف ماذا أسميه ، وذلك لأن الحياة الأخرى نبع مختم مغلق ، والأعماق التى من تحتنا لم تكشف لنا ، ونحن نتماذفنا الخرافات والأوهام إلى أبد الدهر (٨١) » .

وتحمل المريية رسالة إلى هبوليتس تقول إن فدرا ترحب به في فراشها ، ويرتاع هو لهذه الرسالة لأنه يعرف أن التى تدعوه إلى فراشها زوجة أبيه ، وينطلق لسانه بإحدى الفقرات التى اشتهر من أجلها يورپديز بأنه عدو النساء : « رياه لم وضعت في سبيلنا هذا الشرك البراق ، تلك النساء اللاتى يتعقبن خطانا على ظهر هذه الأرض السميدة ؟ هل إرادتك هى التى اقتضت أن يولد الإنسان عن طريق الحب والمرأة (٨٥) » .

ثم تموت فدرا ، ويجد زوجها في يدها رسالة كتب فيها أن هبوليتس أغواها ، ويستشيط ثسيوس غضباً ، ويدعو پوسيدن أن يقتل هبوليتس ، ويحتج الشاب بأنه برىء ولكن أحداً لا يصدقه ، ويخرجه ثسيوس من البلاد . وبينما كانت عربته تمر في سيرها بشاطئ البحر إذ يخرج من الموج أسد بجر ويطارده ، ويحفل جواده ويقلبان العرة ويحمران هبوليتس (بعد أن مزقه الجوادان) فوق الصخور حيث يموت شرمينة . وترفع طرقة المنشدین صوتها بهذه الأبيات التى أدهشت أئينة وأزعجتها بلاريب :

« أيتها الآلهة ، يا من أوقعته في الشرك ، إنى أقذف في وجهك كرهى واحتقارى » .

وفى مسرحية ميديا ينسب يورپديز إلى حين غضبه على الآلهة ويصوغ من قصة ركاب السفينة أرجوس أقوى مسرحياته على الإطلاق . فعندما يصل جيسن Jason إلى كلشيز ، تهيم الأميرة ميديا بحبه ، وتساعد على أخذ الجزة الذهبية ، وفى دفاعها عنه تخدع أباه وتقتل أخاه . ويقسم جيسن أن يحبها حباً أبدياً ويأخذها معه إلى أبولكس Iolcus . وهناك تدس ميديا الوحشية الطباع السم إلى الملك پلياس Pelas لكي تجلس جيسن على العرش الذى وعد به ، ولإذ كانت شريعة تساليا تحرم الزواج من الأجنبيات فلأن جيسن يعيش مع ميديا عيشة العاشقين بغير زواج وتلد ' طفلين . ولكنه لا يلبث أن يضيق ذرعاً بشهوتها الوحشية ، ويتطلع حوله باحثاً عن زوجة شرعية ووارث للملكه ، ويعرض أن يتزوج ابنة كربون ملك كورنثة . ويوافق كربون على هذا الزواج وينفى ميديا من البلاد ؛ ونفكر ميديا فيما ارتكبه من أخطاء ، وتنطق بفقرة من أشهر فقرات يورپديز التى يدافع فيها عن النساء :

« لم أربن جميع الأشياء التى لا تنمو ويسيل منها الدم ، شيئاً تهشم كما تهشمت المرأة . إن علينا أن نقدم كل ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد ، لنبتاع به حب رجل ، ولكننا نبتاع به سيداً ليتصرف فى أجسامنا ! وهذا لعمري أشد ما يؤلمنا فى هذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شريراً ، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا . . . إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدى بها ذلك الشيء الذى ينام بجانبها سبل السلام . وإن التى تجد بعد جهودها المضنية الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها ، فلا ينفص عن ظهره عبأها بعنف ، تعد نفسها سعيدة . أما التى تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتمن الموت . إن زوجها إذا مل رؤية وجهها فى داخل المنزل .

غادره ، وذهب إلى مكان أرواح من المنزل وأحب منه إلى قلبه ، أما هي فقد كتب عليها البقاء حيث هي ، لا تقع عينها إلا على نفس واحدة . ثم يقولون بعدئذ إنهم هم الذين يلبون نداء الحرب ، على حين أننا نجلس في عقر دورنا وفي حمايتها بعيدات عن كل خطر ! إن هذا لسخرية وجهتان ! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال ، أخوض المعارك وترسى في يدي لأحب إلى من أن أحمل طفلاً واحداً (٨٦) .

ثم تتبع هذا قصة انتقامها الرهيب ، فترسل إلى منافستها مجموعة من الأثواب الثمينة متظاهرة بأنها تريد بذلك أن تسترضيها . وتلبس الأميرة الكورنثية أحد هذه الأثواب فتحترق بالنار ، ويحاول كليون أن يتجسس عليها فيحترق هو أيضاً ويموت . وتقتل ميديا أطفالها ، وتخرج بجثثهم على مرأى من چيسن ، وتشد فرقة المرتلين هذه الخاتمة الفلسفية :

« لزيوس في السماء ردهات ملأى بالكنوز يفرق منها على بني الإنسان مصائرهم القرية من خير وشر لم يكونوا يرجونه أو يرهبونه . فأما الغاية التي كانوا يتطلعون إليها فلا ينالونها ، فهناك طريق لم يفكر أحد فيه ! ذلك ما حدث في هذا المكان » .

وتدور سائر المسرحيات في الغالب حول قصة طروادة . ففي مسرحية هلن نرى القصة كما رواها استسكورس Stesichorus وهيودوت (٨٧) ، فللكة اسبارطة حسب هذه الرواية لا تفر مع باريس إلى طروادة ، بل تنقل رغم إرادتها إلى مصر ، حيث تنتظر بجيء زوجها دون أن يعتدى أحد على عفافها ، ويقول يورپديز إن بلاد اليونان كلها قد خدعتها خرافة هلن في طروادة . وفي مسرحية إفيجينا في أوليس يغمر يورپديز قصة تضحية أجمنون بفيض من العواطف لم تعهد من قبل في المسرحيات اليونانية ، وبطائرة من أشنع الجرائم التي دفع الناس إليها دينهم القديم . وكان إسكاس وسسفاكيز قد كتباً أيضاً في هذا الموضوع ، ولكن

مسرحتيهما لم تلبث أن نسيت وطفى عليها سناً من المسرحيات الحديثة :
وفي هذه المسرحية ينظر يورپديز إلى قدوم كليتمنسترا وابتها نظرة
عطف وحنان ، ويظهر أرستيز « وهو لا يزال بعد طفلاً رضيعاً لا يستطيع
الكلام » ليشهد خرافة القتل التي تقرر مصيره فيما بعد . وترى الفتاة يجلاها
الخفر وتغمرها السعادة وهي تهزول لتحيي الملك :

إفجيتيا : ما أشد شوقى يا أبتاه إلى أن أرتبى على صدرك بعد هذا
الغياب الطويل ؟ وأرجو ألا يغضبك أنى قد سبقت غيرى
إليك - لأنى مشتاقة إلى طلعك ولأنك يسرك بكل
السرور أن ترانى . ولكن لم أراك مهموماً محزوناً ؟

أجمنون : إن الملوك والقادة كثيرو الموم .

إفجيتيا : لتكن هذه الساعة لى - هذه الساعة لا أكثر . لا تستسلم
للموم ! .

أجمنون : سأكون كلى لك ؛ فلا تشقى يا أفكارى

إفجيتيا : ومع هذا - ومع هذا - فلانى أرى الدموع تفرق فى عينيك !

أجمنون : نعم ، لأن الغياب فى المستقبل سيطول .

إفجيتيا : لست أعرف ، لست أعرف ، يا أبى العزيز ماذا تقصد ؟

أجمنون : إن فطنتك الرشيدة تضاعف أحزانى .

إفجيتيا : سأنطق إذن بالسخر لأدخل السرور على قلبك (٨٨) .

وحين يقبل أخيل تبين أنه لا يعرف شيئاً عن زواجهما المزعوم ،

يل تعرف بدل هذا أن الجيش قد طال انتظاره للتفخية بها ، فلتقى

بينفسها على قدمى أجمنون وتتوسل إليه أن يبقى على حياتها :

لقد كنته أولى أبناك - وأولى من . قال لك يا أبت ، وأولى من جلس

على ركبتك من أطفالك ؛ وتبادلت وإياك الحديث فى مسرات الحياة . وهذا

ما كنت تقوله لى : « أى بنيتى العزيزة ، هل يقدر لى أن أراك ممتعة سعيدة
فى بيت سيدك وزوجك الخليق بك ؟ » واحتضنت لحيتك التى أمسك بها
الآن متوسلة ، وأجبتك بقولى : « وأنا الأخرى سأرحب بك يا أبت ،
حين يبيض شعرك من طول السنين ، فى داخل بيتى الحلو الجميل ، وسأجزيك
على حبك إعزازاً وتكريماً . هذا ما كنا نتحدث به ، أذكره جيداً ،
ولكنى أراك تنساه وتريد أن تقضى على حياى (٨٩) . »

وتندد كليتمسترا باستسلام أجهنون لهذه الطقوس الوحشية ، وتتوعده
بعبارات تحتوى على كثير من المآسى - : « لا تضطرنى إلى الغدر بك ،
وتشجع أخيل على ما يبذله من الجهد لإنقاذ الفتاة ، ولكن إفجينيا تغير رأياها
وتأبى أن تهرب :

استمعى يا أماه إلى ما خطر ببالى وأنا أقلب الفكر فى أمى :

لقد اعزمت أن أموت ، ويسرنى أن أموت هذه الميتة الجيدة - وأن
أبعد عنى جميع الأفكار الدنيئة ... إن هلاس العظيمة اكلمها تتطلع إلى ، وما
من أحد غيرى يستطيع أن يمد إليها يداً ويسدى إليها تلك النعم : فتسير سفنها ،
وتهزم فريجياً عدوتها ، وتنفذ بناتها من البرابرة فى أيامها المقبلة ، حتى
لا يستطيع الناهبون أن يختطفوهن من بيوتهن ويقضوا بذلك على سعادتهن ،
بعد أن يعاقب باريس على اعتدائه وهن على ما جللت به نفسها من عار :
كل هذا الخير ستناله البلاد بموتى ، وسيكون اسمى مباركا محوطاً بالإجلال
لأنى وهبت الحرية لهلاس (٩٠) .

وحين يقبل الجنود ليأخذوها تأمرهم بالآ يمسوها بأيديهم وتسير طاعة
مختارة إلى كومة وقود التضحية .

وفى مسرحية هكيبيا تضع الحرب أوزارها ، ويستولى اليونان على
طروادة ، ويقسم المنتصرون الأسلاب . وترسل هكيبيا زوجة پريام پوليسورس

أصغر أبنائها ومعه كنز من الذهب إلى پولنستر Polymnestor ملك تراقيا وصديق بريام . لكن پولنستر يطمع في الذهب فيقتل الغلام ويلقى بجثته في البحر ، فتتدفق الأمواج فوق ساحل إليون ، وتحمل إلى هكيا . وفي هذه الأثناء يمنع شبح أخيل الميت الريح من أن تدفع الأسطول اليوناني إلى بلاده ، حتى يضحى له ببولكسينا Polyxena أجمل بنات بريام : ويأتي تليثيوس Talthibius رسول اليونان إلى هكيا ليأخذ منها الفتاة ، فيجدها ملقاة على الأرض منقوشة الشعر ذاهلة ، وقد كانت منذ قليل ملكة مكرمة ، وينشد أحياناً من الشعر تدل على تشكك يوربديز :

ماذا أقول يا زيوس ؟ - أقول إنك تنظر إلى الخلق ؟ أم إلى قولنا إن هناك جيلا من الآلهة ليس إلا وهما وخداعاً كاذباً نستمسك به ولا يجدينا نقماً وإن المصادقة دون غيرها هي التي تسيطر على جميع مصائر البشر؟^(٩١) .

والفصل التالي في المسرحية المركبة هو المرأة الطروادية . وقد مثلت هذه المسرحية الجزئية في عام ٤١٥ ، بعد أن دمر الأثينيون ميلوس في عام ٤٠٦ بزم من قليل ، وقبيل الحملة التي سيرت إلى صقلية للاستيلاء عليها وضمها إلى الإمبراطورية الأثينية . وكانت هذه هي اللحظة التي روع فيها يوربديز بالمذبحة التي وقعت في ميلوس ، وبالزعة الاستعمارية الوحشية التي دفعت الأثينيين إلى مهاجمة سرقوسة ، فجروا على الجهر بدعوة حارة إلى السلم ، صور فيها ما حدث تصويراً جريئاً على أنه انتصار من وجهة نظر المغلوبين ، وكان تصويره هذا « أعظم تشهير بالحرب في الأدب القديم »^(٩٢) . وهو يبدأ حيث ينتهي هومر - بعد الاستيلاء على طروادة . فالطرواديون ملقون على الأرض بعد مذبحه جامعة ، ونساوهم قد ذهب الروع بمقولن ، وهن يخرجن من مدينتهن المحرقة . ليكن سايبا للغالين . وقبل هكيا مع ابنتها أندرمكي وكسندرا بعد أن ضحى بحياة بولكسينا ، ويأتي تليثيوس ليأخذ كسندرا إلى خيمة أجمنون . وتسقط هكيا على الأرض

من فرط الحزن ، وتحاول أندرمكى أن تواسيها ، ولكنها هي الأخرى يغلب عليها الجزع حين تضم الأمير الصغير أستياناكس Astyanax إلى صدرها وتذكر أباه الميت .

أندرمكى ولقد شددت وتر قوسى من زمن بعيد وصوبت سهمى نحو حسن سمعتى ، وأدركت أن سهمى قد أصاب هدفه ، ومن أجل هذا فأنا بعيدة كل البعد عن السلام . لقد أحببت من أجل هكتور كل ما يثنى عليه الرجال فينا ، وبدلت جهدى فى الوصول إليه . لقد عرفت أن التجوال فى خارج البلاد يسئ إلى سمعة المرأة سواء أصابها شر فى هذا التجوال أو عادت منه بريئة طاهرة ، ومن أجل هذا قمعت فى نفسى هذه الرغبة ، وكان تجوالى فى حديقة بيتى ، ولم تدخل قط من باب دارى ألفاظ النساء المستهتره أو أحاديثهن المرحة . وتحدثت إلى قلبى ، ولم أكن أبغى ذلك الحديث ، فسمعت به . وكثيراً ما لزمتم الصمت وأسبلت العين حين كان هكتور يجينى ، وحرصت كل الحرص على أساليب الحياة الطيبة وعرفت أين أرشد ، وأين أطيع

ولقد قال الناس إن ليلة واحدة تدلل المرأة وتلقيها فى احضان الرجل . فيا للعار ، يا للعار ! أى شفتين هاتين اللتين توردان المرأة موارد الملكة وتسمحان للغريب أن يقبلهما ؟ . إن أنثى الحيوان الأعجم ، إن المهرة ، لا تجرى خالية من الموم إذا كان رفيقها بعيداً عنها

أى هكتور ! يا أحب الناس إلى ، لقد كنت زوجى ، وكنت كل شئ لى ، كنت أميرى ، وحكىمى ، يا أشجع الشجعان ! إن رجلاً ما لم يمسنى أو يقترب منى من يوم أن أخذتنى من دار أبى وجعلتنى زوجة لك وها أنت ذا قد دميتٌ وقذفت فى الحرب إلى الرق وعيش المذلة فى هلاس وراء البحار الكريمة ! .

وتفكر هكيبا فى يوم انتقام بعيد فتأمر أندرمكى أن ترضى بسيدها

الجديد لعله يسمح لها أن تربي استياناكاس ، حتى يستطيع في يوم من الأيام أن يعيد بيت بريام ومجد طروادة . غير أن اليونان كانوا قد فكروا هم أيضاً في هذا ، ويقبل تليبيوس ليعلم أن استياناكاس لا بد أن يموت : « لقد قررنا أن يلقى ولدك من فوق سور طروادة العالى ذى الأبراج » . ويتزح الطفل من بين ذراعى أمه ، وتتشبث به أندرمكى إلى آخر لحظة وتودعه وداعاً حاراً وعقلها مشتت مضطرب :

الى الموت يا أحب الناس لىّ وأعزهم علىّ ، بأيدى رجاء صاة خلاظ الكباد ، واتركنى وحيدة فى هذا المكان ؛ لقد كان أبوك شجاعاً مقداماً ، ومن أجل هذا يقتلونك . . . ولا نجد من يرحمك ! . . . ألا أبها المخلوق الصغير الذى تتلوى بين ذراعى ، ما أزمى هذه الرائحة التى تنبعث من حول عنقك ! أبها الحبيب أحبباً ضملك هذا الصدر وغذاك ، وهل لى غير غاية قضيت اللبالبى قلقة أسهر عليك فى مرضك حتى أضناني السهر ؟ قبلنى قبلة واحدة لن تنكرر بعد ذلك أبداً . أمدد ذراعيك وأرفع نفسك حول عنقى ، قبلنى الآن وضع شفتيك فوق شفتى . . . آه أبها اليونان الظرفاء ، لقد عثرتم على نوع من العذاب لم يعرف مثله الشرق من قبل ! . . . أسرعوا مخلوه ، جروه ، ألقوه من فوق الأسوار ، إن كنتم تريدون أن تلقوه من فوقها ! مزقوه أبها الوحوش ، عجلوا ! لقد خارت عزيمتى فلست أقوى على رفع يدي لأنجى طفلى من الهلاك .

ثم تأخذ فى الهديان ، ويعشى عليها ، ويخرج بها الجند ، وحينئذ يظهر مناوس ، ويأمر جنوده أن يأتوه بهلن ، وكان قد أقسم ليقتلها ، وترتاح هكيبا حين تفكر أن هلن ستلقى آخر الأمر جزاءها :

أباركك يا منلوس ، أباركك إن أنت قتلتها ! ولكن حذار أن تنظر لى وجهها لتلا تأسرك فتخر صريعاً !

وتدخل هلن ، لم يمسهأ أحد بسوء . ولا نخشى أن تمس بسوء ، تزهو إذ تشعر بأنها جميلة .

هكيا : هل أتيت الآن مزدانة الصدر والجبين ، وهل تتنفسين مع سيدك ما يتنفسه من هواء ، أنت يا ذات القلب الخيث ، فليطأ رأسك ، ولينفش شعرك ، ولتمزق أثوابك ، فلن يكون من تحتها شيء يرفع من شأنك بل سيكون من داخلها ما يملك العار لما ارتكبت من الآثام . كمن صادق العزم أيها الملك ، وضع على جبين هلاس تاج العدالة ، اقتل هذه المرأة . . . منلوس : صه ، أيها العجوز صه . . . (ثم يلتفت إلى الجند) :
أعدوا لها سفينة كبيرة متعددة الحجرات تجوب فيها البحار . . .
هكيا : إن من أحب مرة سيظل محباً على الدوام .
وحين تخرج هلن ويخرج مناوس يعود ثلثيوس يحمل جثة أستيانا كس القتل !

ثلثيوس : لقد سحرت أندرمكي . . . هذه الدموع في عيني وهي تبيكي بلادها من وراء البحار . لقد نظرت إلينا ، وأخذت تتحدث إلى قبر هكتور ، ونرجو أياً كان ما نفعله به ألا نغفل المراسم المرعية في دفن هذا الطفل . . . وأمرتني أن ألقه في أربطة الموت وأثوابه وأن أضمه بين يديك . . . (تأخذ هكيا الطفل) .

هكيا : آه ! أي موت لاقيت أيها الصغير ! . . . أيها اللراخان الرقيقان ، إن صورتكما العزيزة لمي بعينها صورة ذراعيه . . . ويا أيتها الشفتان اللتان يشع منهما الكبرياء ، لقد انطبقتا إلى أبد الدهر ! ماذا كانت تلك الكلمات الكاذبة التي نطقت بها وأنت تجبو إلى فراشي ؟ لقد ناديتني بأسماء رقيقة وقلت لي : أي جدتي ، سأقص شعري حين تموتين وأركب على رأس القواد إلى قبرك . لم خدعتني هذا الخداع ؟ وهأنذا ، المعجوز ، الطريدة ، الثكلي ، أبكيك بالدمع الغزير ، أبكي طفولتك وأبكي ميثك التمسة . أي إلهي ! وأبكي خطاك حين تجيء لترحب بي ، وأبكي جلوسك في حجرى ، وأبكي رقادنا معاً ! لقد ذهب كل هذا ولن يعود . وكيف يستطيع شاعر أن ينحت شاهد قبرك ليقص قصتك صادقة ؟

« هنا يثوى طفل خافه اليونان ، فقتلوه لأنهم خافوه » . نعم ، وستبارك بلاد اليونان بأجمعها القصة التي يقصها ذلك الشاهد .

ألا ما أشد غرور الإنسان ، إنه يتباهى بمسراته ولا يخاف شيئاً ، ومن حوله صروف الزمان ترقص رقص البلهاء في الريح ! . . . (تلف الطفل في أكفانه) .

إن أحسن الثياب الفريجية التي كنت أحتفظ بها ليوم زواجك بإحدى ملكات الشرق بعد أن جبت البلاد القاصية للبحث عنها ، إن هذه الثياب تلفك الآن إلى أبد الدهر (٩٨) . .

وفي مسرحية إلكترا نرى الموضوع القديم قد خطا خطوات إلى الأمام فأجمنون قدم مات ، وأرستيز في فوسيس ، وإلكترا قد زوجها أمها بفلاح يخلص لها إخلاصاً ساذجاً ، ويرهب أصلها الملكي أشد رهبة ، ولا يوتر في إخلاصه لها ورهيبته إياها طول تفكيرها في أمرها وإهمالها شئونه . وبينما هي تفكر هل يعثر عليها أرستيز ويأق إليها إذ يأمره أبلو نفسه (ويؤكد يورپديز هذه النقطة ويحرص على إبرازها) بأن يثار لموت أجمنون . وتستفزه إلكترا ، وتقول إنه إذا لم يقتل السفاح فستقتله هي ، ويبحت الصبي عن إيجسثس ويقتله ثم يتقلب على أمه . وتبدو كليمنسترا هنا عجوزاً شمطاء ، ذليلة ، منهوكة القوى ، ويونها ضميرها على جرائمها ، يتنازع قلبها خوف الأطفال الذين يكرهونها وحبا لإياهم في نفس الوقت ، وتطلب الرحمة في غير توسل ، وترضى إلى حد ما بما جوزيت به على ذنوبها . وحين ينتهي القتل يرتاع أرستيز من هول ما حدث ويقول : شقيقتي هل لمستها مرة أخرى ، واحسرتاه غطى جسدها ، وضعى عليه ثوبها الجميل ، وسدى هذا الجرح الأحمر المميت . أى أماه ، هل كانت نتيجة آلامك أن ولدت قاتلك (٩٩) ؟ .

ويسمى يورپديز الفصل الخامس من فصول المسرحية إلفجينا في توريسر

أو إفجينا بين التورين . وفيه يبدو أن أرتميس قد وضعت على كومة الحريق في أوليس غزاة بدل ابنة أجمنون ، واحتفظت الفتاة من الذهب ، وجعلتها كاهنة في معبد أرتميس بين التورين أنصاف المهج سكان القرم . وكانت عادة التورين أن يضحوا للآلهة بكل غريب تطأ قدمه بلادهم ، وتقوم إفجينا بدور العاملة البائسة الشقية التي تقدم الضحايا . وكانت الثمان عشرة سنة المليئة بالأحزان التي قضتها خارج بلاد اليونان قد بلدت ذهنها . وكان أبلو قد وعد أرسيتز على لسان الوحي أن ينزل السكينة على قلبه إذا انتزع من التورين صورة أرتميس المقدسة وجاء بها إلى أتكا . ويبحر أرسيتز وبلاديز ويصلان آخر الأمر إلى أرض التورين ، ويقبلهما هؤلاء الناس ويرونهما هدية طيبة أهدها البحر إلى أرتميس ، ويسرعون بهما ليلبجوها على مذبحها . وتنتاب أرسيتز نوبة عصبية ينخر على أثرها مغشياً عليه عند قدمي إفجينا ، وهي ، وإن كانت لا تعرفه ، تأخذها الشفقة عليه حين ترى رفيقين في نضرة الشباب يساقان إلى الموت :

إفجينا : إن أحداً من الناس لم يعط علم بداية أحزانه أو نهايتها ، ذلك أن الله خفي ، وأساليبه كلها تخفيها المصادفات العمياء عنا فلا نعرفها : ألا أيها الرجلان الشقيان ، من أين جئتما ؟ . . . ومن أمكما . . . ؟ ومن أبوكما ؟ أفصحا أيها الغريبان ، ومن هي أختكما إن كانت لكما أخت ؟ ولم تتركنا من غير أخوة وكلاكما في مبة الصبا ونضرة الشباب وشجاعته . . . ؟
أرسيتز : ألا ليت يد أختي تسبل عيني وأنا مسجى على فراش الموت !
إفجينا : وأسفاه ، إنها تعيش تحت سهاوات بعيدة ، ودعاؤك أيها الشقي لا يجديك نفعاً . ولكنك من أرجوس ، ومن أجل هذا فسأقدم لك كل ما في وسعي من عناية ، و لن أضن عليك بشيء منها . سأتيك بشباب ثمينة تدفن فيها ، وبزيت يبرد كومة حريقك حين يلفها الذهب ، وسألقى عليها الشهد الذي جمعه النحل الطنان من آلاف الأزهار الجبلية لكي يفنى معك في وسط العبير .

وتسدهما بأن تنجيهما إذا حملا معها إلى أرجوس رسالة تأمرهما بأن
ينقشاها في ذاكرتهما .

إفجينا : قولا « لأرستيز بن أجمنون إن التي قتلت في أوبس ، والتي
قتلتها بلاد اليونان ولكنها لا تزال حية ، إن إفجينا تبعث إليه السلام » ،
أرستيز . إفجينا ! أين هي ؟ أعادت من بين الأموات ؟
إفجينا أنا هي ! ولكن لا تتكلم حتى لا تفسد على " تدبيرى . « خلقنى
يا أخى إلى أرجوس قبل أن أموت » .

ويريد أرستيز أن يضمها بين ذراعيه ، ولكن الحراس يمنعونه ، لأن
كاهنة أرتميس لا يصح أن يمسا إنسان . ويعلن أنه أرستيز ، ولكنها
لا تصدقه فيقنعها بأن يذكر لها القصص التي روتها لها إلكترا .

إفجينا : أهذا هو الطفل الذى عرفته ، الطفل الصغير قد انتقل خفياً
كما ينتقل الطير ؟ . أى أرض أرجوس ، أيها الموقد ، أيها اللهب المقدس
الذى أشعلك سكلوبس الشيخ ، إني أباركك لأنه عاش ، ولأنه نما ، وصار
ضياء وقوة ، أخى وابن أبى ، إني أبارك اسمك إلى أبد الدهر (٩٥) .

ويعرضان عليها أن ينجياها من أسرها ، وتساعدهما هي على أن يأخذا
صورة أرتميس . ويستطيعان بحيلتها الماهرة أن يصلا آمنين إلى سفينتهما ،
ويحملان التمثال إلى برورون Brauron . وفيها تصير إفجينا كاهنة ، وتصبح
بعد موتها إلهة معبودة . ويتخلص أرستيز من ربات الانتقام ، وينعم بالطمأنينة
والسلام بضع سنين ، وتروى الآلهة غليلها وتم مسرحية أطفال تتناولوس .

٢ - يورپديز الكاتب المسرحى

لا مناص لنا من أن نوافق أرسطاطاليس عن أن هذه المسرحيات ، إذا
نظرنا إليها من ناحية الفن المسرحى ، لا تنصل إلى المستوى الذى وضعه له إسكلس

وسفكليز^(٩٦) . نعم إن مسرحيات ميديا ، وهوليتس ، والباخيات قد رسمت لها خطة محكمة ، ولكن هذه المسرحيات نفسها لا يمكن مع ذلك أن توازن من حيث سلامة التركيب والبناء بمسرحية أرسنبا ، أو من ناحية الوحدة المعقدة بمسرحية أوديب الملك . ذلك أن يوربديز لا يثب دفعة واحدة إلى الحادثة الهامة في المسرحية فيعرضها ثم يفسر بعدئذ مقدماتها تفسيراً تدريجياً طبيعياً في سياق القصة ، بل نراه يستخدم الوسيلة المصطنعة وسيلة المقدمة التمهيدية ؛ بل يفعل ما هو أسوأ من هذا فيضعها على لسان إله من الآلهة . وهو لا يظهر لنا هذه الحادثة من بادئ الأمر كما يقضى بذلك فن التمثيل ، بل نراه يأتي في كثير من الأحيان برسول يصفها وإن لم يكن فيها شيء من العنف . يضاف إلى هذا أنه لا يجعل الغناء الجماعي جزءاً من الحوادث التي تمثل ، بل يحوله إلى عمل فرعي ثانوي ، ويستخدمه لوقف تطور حوادث المسرحية بما تتضمنه من أغان جميلة على الدوام ، ولكنها كثيراً ما تكون عديمة الصلة بتلك الحوادث . وهو لا يعرض ما يريد من آراء عن طريق الحوادث التي تتضمنها المسرحية ؛ بل يعتمد إلى استبدال الأفكار بالحوادث ويجعل المسرح مدرسة للتأمل والبلاغة والجدل . وما أكثر ما تعتمد حركات مسرحياته على المصادفات « والذكريات » - وإن كانت الأفكار هنا حسنة التنظيم ومعروضة عرضاً مسرحياً صادقاً . ويختتم معظم مسرحيات يوربديز بإله ينزل من آلة (كما كان يفعل بعض الكتاب من قبله) ، وتلك وسيلة لا يمكن أن نتغفرها له إلا إذا افترضنا أن المسرحية الحقيقية قد اختتمت قبل هذا الخيلة الدينية . وأن الإله لم ينزل إلا لكي يمتنم التمثيل بخاصة فاضلة لولاها لكان في نظرهم شائناً فاضحاً^(٩٧) . وقد استطاع عظماء الكتاب الإنسانيين دون غيرهم أن يعرضوا بهذه الوسيلة مروفتهم وإلحادهم على المسرح :

أما مادة المسرحية فهي ، كصبيغتها وشكلها ، خليط من العبقرية والصناعة ، وسبب ذلك أن أهم ما يمتاز به يوربديز هو الإحساس المرهف كما يجب أن

يكون سائر الشعراء . وهو يحس بمشاكل الجنس البشرى إحساساً قوياً ويعبر عنها تعبيراً موثقاً عظيم الوقع في النفوس ؛ ومآسبه أشد المآسى فجائع وهو أعظم كتابها إنسانية ، ولكن إحساسه يكون في أغلب الأحيان مفرطاً في الحنو أو متكلفاً له ؛ و « إذرأفه الدمع السخين (٩٨) » أيسر مما يجب أن يكون ؛ وهو لا يدع فرصة تفلت منه ويستطيع أن يظهر فيها أما تفارق طفلها ، وينتزع كل ما يستطيع انتزاعه من العواطف من كل موقف من المواقف ؛ وتلك المناظر دائمة الحركة ، وهو يصفها في بعض الأحيان بقوة لا تعادلها قوة أى وصف من المآسى قبله أو بعده ، ولكنها تنحط أحياناً إلى التمثيل الشجوى الغنائى وتتخم بالعنف والرعب كما ترى في خاتمة مسرحية ميديا ، وقصارى القول أن يورپديز في بلاد اليونان هو بيرن ، وشلى ، وهوجو ، مجتمعين ، وهو بمفرده حركة إبداعية كاملة .

وهو يفوق منافسيه في تصوير الشخصيات ، ويحل عنده التحليل النفسى ، أكثر مما يحل عند سفكليز نفسه ، محل تصارييف القضاء . وهو لا يمل من تقصى القوانين الأخلاقية والبواعث التى تحدد سلوك بنى الإنسان . ويدرس أنواعاً مختلفة من الرجال : من زوج إلكترا الفلاح إلى ملوك بلاد اليونان وطروادة ؛ ولسنا نجد كاتباً مسرحياً غيره قد صور مثل ما صور هو من أصناف النساء المختلفة ، أو صورها بمثل ما صورها هو من العطف عليها ، فقد كان كل لون من ألوان الرذيلة أو الفضيلة يهيمه ويسترعى انتباهه ، فيصوره تصويراً واقعياً . وهو في هذا يختلف عن إسكلس وسفكليز ؛ فقد كان هذان الكاتبان مستغرقين فيما هو عام وأبدي استغراقاً عجزاً معه عن رؤية ما هو فردى ومؤقت سريع الزوال ؛ وقد خلقا بذلك أصنافاً من الشخصيات عميقة غير عادية ، أما يورپديز فقد صور أفراداً أحياء ، وحسبنا شاهداً على هذا أن أحداً ممن عاش قبله لم يتصور إلكترا بمثل الوضوح الذى تصورها هو به . وفي هذه المسرحيات نرى المسرحيات التى تمثل الصراع مع الأقدار تتخلى عن مكانها شيئاً فشيئاً إلى المسرحيات التى

تمثل المواقف والأخلاق ، وهي تمهد السبيل للمسلاة الخلقية التي استحوتت في القرن التالي على المسرح اليوناني على أيدي فلمون Philemon ، ومنتدر Menander .

٣ - يوربديز الفيلسوف

لكن من السخف أن يكون أهم ما نقدر به يوربديز هو مسرحياته ، ذلك أن أهم ما يعنى به لم يكن الفن المسرحي ، بل كان البحث الفلسفي والإصلاح السياسي ، فهو وليد السوفسطائين ، وشاعر الاستنارة ، وممثل الشباب المتطرف الذي كان يسخر من الأساطير القديمة ، ويرنو بطرف إلى الاشتراكية ، ويدعو إلى نظام اجتماعي جديد يعل فيه استغلال الرجال للرجال والرجال للنساء ، واستغلال الدولة لهؤلاء وأولئك ، وهذه النفوس الثائرة هي التي كان يكتب لها يوربديز ، وهي التي كان من أجلها يضيف إلى مسرحياته تلك الغمزات المتشككة ، ويحشر مئات الضلالات بين سطور مسرحياته الدينية المزعومة ، وهو ينطى هذه وتلك بفقرات مليئة بعبارات التقى والصالح وبالأغاني الوطنية . وكان يعرض الأساطير المقدسة بحرفيتها فيبدو ما فيها من سخافات وأباطيل واضحا جليا ، ومع ذلك فإن أحدا لا يستطيع أن يتهمة بالمروق من الدين ، وهو يدعو في مسرحياته بوجه عام إلى التشكك في الآلهة والدين ، ولكنه بوجه ألقاظها الأولى والأنجرة إلى الآلهة . ويرجع بعض ما يمتاز به من الدهاء والذكاء ، كما يرجع دهاء رجال دوائر المعارف الفرنسيين وذكاؤهم ، إلى أنه قد أرغم على أن يفصح عن آرائه وهو يحاول إنقاذ حياته . ولقد كان شعاره هو شعار لكريشيوس :

Tantum religio potuit suader emelorum . ما أكثر الشرور التي يدفع إليها الدين : نبوءات تولد العنف في أثر العنف ، وأساطير ترفع من شأن الفساد الخلفني بما تضربه من أمثلة قدسية ، وما تعلنه من رضا الآلهة عن الخيانة

والزنا والتلصص ، والتضحية بالآدميين ، والحروب . وهو يصف العراف بأنه « رجل ينطق بقليل من الحقائق وكثير من الأباطيل » (٩١) ، ويقول ؛ إن « من البلاهة المحضة » تعرف المستقبل بالفحص عن أحشاء الطير (١٠٠) ؛ ويندد بجميع الوسائل التي تستخدم لمعرفة الغيب واستئزال الوحي (١٠١) ؛ وأهم من هذا كله أنه يستنكر أشد الاستنكار ما تؤدي إليه الخرافات الرائجة من نشر الفساد ويقول :

سيدرك الناس أن لا وجود لآلهة ، وأن لا ضوء في السماء ، إذا كان الباطل سيغلب الحق في آخر الأمر . . . لا تقل إن في السماء زانياً وزانية ، وآلهة مسجونين وآلهة سجانين : لقد أحس قلبي من زمن بعيد أن هذه خسة ودناءة ، ولن أتحوّل قط عن هذا الإحساس . . . إنما هذه كلها أقاصيص كاذبة ، شأنها شأن الحفلات الهمجية التي تقام لتنتالوس ، وللآلهة التي تمزق أجساد الأطفال . إن هذه الأرض أرض السفاحين قد خلعت على الآلهة ما تنصف به هي من جشع وشهوانية . والشر ليس مقره السماء . . . وهذه كلها أقاصيص مينة آثمة من اختراع المغنين (١٠٢) .

وتراه أحياناً يقلل من حدة هذه الفقرات بترانيم لديونيئشس أو مزامير دينية للآلهة مجتمعة ، ولكنه في بعض الأحيان ينطق لإحدى شخصياته بتشككه في الآلهة جميعاً :

هل في الناس من يقول إن في السماء آلهة ؟ كلا ! ليس في السماء آلهة ، ليس فيها آلهة ، لا تسمحوا لأحد هؤلاء الحمقى الذين غرتهم هذه الخرافات الباطلة أن يخذعكم ويفضلكم هذا الضلال . انظروا إلى الحقائق في ذاتها ، ولا تثقوا بكلماتي أكثر مما تستحق أن يوثق بها ؛ إنني أصارعكم أن الملوك يقتلون ، وينهبون ، ويمشون في أيماهم ، ويضربون المدن زوراً وغدراً ، ولكنهم رغم هذه الآثام أسعد حالاً من الذين يميون حياة هادئة ملؤها التقى والصلاح (١٠٣)

وهو يبدأ مسرحية ميلانبي المفقودة بهذين البيتين اللذين يثيران أعظم الدهشة :
أى زيوس ، إن كان ثمة زيوس ، لأنى لأعرف عنه إلا ما يقوله
الناس فيه .

ويقان إن النظارة حين سمعوا هذا القول هبوا واقفين احتجاجاً عليه ،
وهو يختم هذه المسرحية بقوله :

والآله الذين بعدهم البشر حكام ، ليسوا أكثر وضوحاً من أحلام
مجنحة ، ولا تختلف أساليبهم عن أساليب الآدميين ، نهى كلها فوضى
واضطراب يتلوه اضطراب . ومن أراد أن يكون أقل الناس عذاباً ،
والأ تسمى بصيرته كما يعنى الكهنة بمصائر البلهاء ، يمضى إلى الموت الذى
يعرفه من يعرفونه (١٠٤) .

وهو يعتقد أن مصائر الناس نتيجة لأسباب طبيعية ، أو للمصادفات
العمياء ، وليست من تدبير قوى عاقلة مفكرة تتصف بها كائنات تسمو
على الكائنات البشرية (١٠٥) ، ويفسر بعض ما يظنه الناس معجزات تفسيراً
يستند إلى العقل والمنطق : فبقول مثلاً إن ألسستيز لم تمت حقاً ، بل أخذت
لكى تدفن حية ، ولكن هرقل أدركها قبل أن تموت (١٠٦) وهو لا يقول
لنا صراحة ما يعتقد هو نفسه فى هذا ، ولعل منشأ ذلك هو شعوره بأن
ما يورده من الشواهد لا يؤدى إلى الاعتقاد الواضح ، لكن عباراته التى
هى أكثر ما يمتاز بها عن غيره هى العبارات الدالة على الإيمان بوجود
الوجود ، وعلى العقيدة التى أخذت من ذلك الوقت تحمل عند المتعلمين من
اليونان محل عقيدة الشرك القديمة :

« يا صاحب الأساس العميق الذى يقوم عليه العالم ، وياذا العرش
الرفيع الذى يعلو على العالم ، أيا كنت ، يا من لا نعرفك ويصعب علينا أن
نتصورك ، يا منسق الموجودات ، ويا عقل عقولنا ، إلبك يا الله أرفع
صوتى بالثناء ، لأنى أرى فىك السبيل الصامته التى تأتى بالعدالة ، قبل أن
يصل إلى نهاية أجله كل من يحيا ويموت (١٠٧) .

والعدالة الاجتماعية هي النعمة الصغرى في أغانيه ؛ وهو يتمنى ، كما يتمنى جميع من امتلأت قلوبهم عطفاً على الخلق ، أن يحين الوقت الذى يكون فيه الأقوياء أكثر مما هم عطفاً على الضعفاء ، والذى يقضى فيه على أسباب اليأس والنزاع (١٠٨) ؛ وتراه حتى في أيام الحرب ، وما تستلزمه من إثارة الروح الوطنية والحجاسة للقتال ، يصف مصائب الحرب وأهوالها وصفاً واقعياً لا يخفى فيه شيئاً هذه الأهوال :

كيف تعمى عيونكم يا من تدكون المدن ، وتخربون المعابد ، وتدمرون القبور ، تلك الأجداث المحرمة التى يثوى فيها الموتى القدامى ؟ ألا تعلمون أنكم عما قريب ستموتون (١٠٩) ؟ :

ويتمنى قلبه حسرة حين يرى الأثينيين يقاتلون الاسبارطيين ، وتلدوم الحرب بينهم خمسين عاماً ، يستعبد فيها بعضهم بعضاً ، ويهلك فيها خير رجالهم ؛ ويدعو في إحدى مسرحياته المتأخرة دعوة حارة مؤثرة إلى السلام :

« أيتها السلم ؛ إنك تفيضين بالخير العميم كأنك تأتين به من نبع عميق ؛ ليس في العالم كله جمال كجمالك ، بل إننا لا نرى له مثيلاً حتى بين الآلهة الأخيار . إن قلبي يكاد يتفطر لطول غيابك ، لقد وهن العظم منى ولم تعودى ؛ وهل تكل عيناى قبل أن تريا زهرتك وجمالك ؟ وهل يقضى على المشيب والأحزان قبل أن تسمع أذناى مرة أخرى أغاني الراقصين الشجية ووقع أقدام من تطوق رؤوسهم أكاليل الزهر ؟ ألا عودى إلى مدينتنا أيتها الحبيبة المقدسة ولا تقيى بعيدة عنا يا من تطفئين الحقد . إن العداوات والأحقاد ستفارقنا إذا أقمتم معنا وسيخرج من أبوابنا الجنون وظبا السيوف (١٠٩) .

ويكاد يفرد من بين كتاب عصره العظام بالجرأة على مهاجمة الرق . ذلك أنه قد اتضح له في أثناء حرب البلوپونيز أن معظم الأرقاء لم يكونوا كذلك بطبيعتهم ، بل إنهم قد ساقتهم إلى هذه الحال ظروف الحياة وحدها ؛

وهو لا يعترف بوجود أرسقراطية طبيعية ، ويرى أن البيئة لا الوراثة هي التي تخلق الرجال . والأرقاء في مسرحياته يضطلعون بأدوار هامة ، وكثيراً ما ينطقون بأجمل أشعاره . وهو حين يبحث خال النساء يعطف عليهن عطف الشاعر الواسع الخيال ؛ فهو يعرف أغلاظهن ويعرضها عرضاً واقعياً جعل أرسطوفان يتهمه بأنه يكره النساء ؛ ولكنه في الحقيقة قد عرض قضية المرأة أحسن مما عرضها أى شاعر قديم آخر أيد حركة تحريرها التي كانت وقتئذ في بداية عهدها . وتكاد بعض مسرحياته أن تكون حديثة الطابع ، تحتوي على دراسات في مشاكل الجنس البشرى كالدراسات التي نشأت بعد أيام إبسن Ibsen بل إنها تحتوي على دراسات في الشلوذ الجنسي نفسه (١١٠) . وهو يصف الرجال وصباً واقعياً ، أما النساء فوصفه إياهن ينطوى على كثير من الشهامة ، وتثال ميديا الرهيبية من عطفه أكثر مما يناله جيسن البطل غير الوفي ؛ وهو أول كاتب مسرحى جعل المسرحية تدور حول الحب ؛ حتى لقد كان آلاف من شباب اليونان يتغنون بأغنيته إلى إيروس إله الحب في مسرحية إندرمدا التي لم تصل إلينا :

« أيها الحب ، إلهنا ، ملك الآلهة والبشر ! هلا امتنعت عن تعليمنا ما هو الحب ؟ أو ساعدت الهجين المساكين ، الذين تشكلهم كما تشكل العلين ، كي يصلوا بكدهم وجدهم إلى غاية موفقة سعيدة (١١١) » .

ويورديز بطبيعته متشائم ، لأن كل من يروى قصص الحب يصبح متشامماً حين تصطدم الحقيقة بالخيال ، وفي ذلك يقول هوراس ولهبول Heraces Walpole « إن الحياة مسلاة عند من يفكرون ، ومأساة عند من يحسون (١١٢) » : ويقول شاعرنا :

لقد نظرت من أمد بعيد إلى حياة الإنسان فلم أجد إلا خيالا أشمط .
وفي وسبى أن أوكد أيضاً أن الذين يعدون من بين الناس حكماء ، شديدي
الدكاء ، مبتدعين لأعظم الخطط ، يجزون على هذا شر الجزاء . وهل

أبصرت عين الله مذ بدأت الحياة رجلاً واحداً سعيداً (١١٣) ؟ .

وهو يعجب من جشع الإنسان وقسوته ، ومن الشريرين وسعة حيلتهم ،
ومن اختطاف الموت للناس اختطافاً دينياً خبط عشواء : وهو ينطق الموت
في بداية مسرحية ألسيس بقوله : « أليست مهمتى أن أقبض أرواح المقضى
عليهم ؟ » ، ويحييه أبلو بقوله : « لا ؛ بل مهمتك أن تقبض من نضجوا
ووصلوا إلى الشيخوخة الكاملة » . ومن رأيه أن الموت إذا جاء بعد أن يحيا
الإنسان حياته كاملة كان أمراً طبيعياً ، لا يصح أن يفضب أحد منه : « لو أن
كل جيل من الناس جاء في أثر الجيل الذى قبله ، وازدهر ثم ذبل ، ثم انقضى
أجله ، كما يأتى للحصاد بعد الحصاد على مر السنين ، لو أن هذا حدث
لما بكبنا صروف الزمان وما تصبيننا به الأقدار : إن هذا هو الذى نجرى به
سنن الطبيعة ، ومن واجبتنا ألا نبتئس بما تجعله قوانينها أمراً محتوماً لا مفر
منه (١١٤) » . وينتهى أمره إلى الرواقية : « اصبر كما يجب أن يصبر الرجال ،
ولا تضجر (١١٥) » . وتراه من حين إلى حين يحلو وحلوا أنكسيانس Anaximenes
ويستبق فلسفة الرواقين فيواسى نفسه بالتفكير فى أن روح الإنسان جزء من
الهواء المقدس ، النيوما Pneuma ، وفى أنها ستبقى بعد الموت جزءاً من
روح العالم (١١٦) .

من يدرى ؟ لعل هذا الذى نسميه موتاً هو حياة ، ولعل ما نسميه حياة
هو الموت ؟ وكل ما هنالك من فرق أن الناس وهم أحياء يقاسون مرارة
الأحزان ، فإذا ما أساموا الروح ، لم تبق لديهم أحزان ، ومن ثم
لا يحزنون (١١٧) .

٤ - يورپديز الطريد

إن الرجل الذى نصوره من مسرحياته هذا التصوير ليشبه تمثاله الجالس فى متحف اللوفر ، وتمثيله النصفية فى نابلى ، شهاً يحملنا على الاعتقاد بأن هذه التماثيل منقولة نقلاً أميناً عن أصول يونانية حقيقية . فوجهه الملتحي وسيم ، ولكنه أضناه التفكير ، ورققه الحزن الحنون ، ويتفق أصدقاؤه وأعداؤه على أنه كان مكتئب الطبع يكاد أن يكون نكداً ، لا يميل إلى المرح أو الضحك ، وأنه قضى سنيه الأخيرة فى عزلة فى أرض الجزيرة التى ولد فيها . وكان له ثلاثة أبناء ذكور كانت طفولتهم سبباً فيما استمتع به من سعادة قليلة (١١٨) . وكان يجد سلواه فى الكتب ، ومبلغ علمنا أنه كان أول مواطن فرد فى بلاد اليونان جمع لنفسه مكتبة كبيرة (*) (١١٩) . وكان له أصدقاء أختيار ، منهم پروتاغوراس ومنهم سقراط ؛ ولم يكن ثانيهم يهتم بالمسرحيات ولكنه كان يقول إنه لا يتردد فى أن يسير إلى بريه مشياً على قدميه ليشهد مسرحية من مسرحيات يورپديز ، وذلك لعمرى قول خطير لصدوره من فيلسوف كبير . وكان الجليل الناشئ من تحمرت عقولهم ، من أسر التقاليد يعادونه زعياً لهم ، ولكنه كان له من الأعداء أكثر مما كان لأى كاتب آخر فى تاريخ اليونان . وقد اقتصر القضاة الذين كانوا فيها نظن يرون

(*) لقد كان فى بلاد اليونان بل الدوام دور كتب تقتنها الدولة أو الملوك كما رأينا فى خلال هذه القصة ؛ ويمكن تتبع هذه المجموعات فى مصر إلى أيام الأسرة الراهبة . وكانت المكتبة اليونانية تتألف من ملفات مرتبة فى عيون صوان . وكان نشر الكتاب عندهم يعنى أن مؤلفه أجاز نسخاً مخطوطة ونشر النسخ المنقولة عنه . فإذا حدث هذا جاز بعد ذلك كتابة عدة نسخ من المخطوط من غير حاجة إلى إذن المؤلف أو المصنوع منه على « حق النشر » . وكانت النسخ المنقولة من المؤلفات المنقولة من المؤلفات الشعبية المتداولة كثيرة العدد ولم تكن كثيرة التكاليف . ويعدنا أفلاطون فى الأولوجيا أن رسالة ألكساندروس فى الطبيعة يمكن شراؤها بدرخة واحدة (أى ريال أمريكى) ، وقد أصبحت أثينة فى عصر بركليز مركز تجارة الكتب فى بلاد اليونان .

أن واجبه يقضى عليهم بأن يحموا الدين والأخلاق من سهام تشككه ، اقتصر هؤلاء القضاة على تنويع خمس من مسرحياته بتاج النصر ، ولقد كان الأركون المشرف على شئون الدين سخياً غاية السخاء حين قبل هذا العدد من مسرحيات يورپديز ضمن المسرحيات التي يحز تمثيلها الدين . وكان المحافظون على اختلاف نزعاتهم يلقون عليه هو وسقراط تبعة انتصار نزعة الكفر بالآلهة بين شباب أثينة . وحاربه أرسطوفان من بادىء الأمر في مسرحية الأركانيين ، وهجاه وصوره تصويراً هزلياً مرخاً في مسرحية الشموفريازوسى ؛ وفي السنة التالية لموت الشاعر واصل هجومه عليه في مسرحية الضفادع . على أنه يقال لنا رغم هذا إن الكاتبين كاتب المأسى وكاتب المسالى ، ظلا صديقين إلى النهاية (١٢٠) . أما النظارة فكانوا ينددون بإلحاده ويهرعون إلى مشاهدة مسرحياته . ولما أن نطق الصياد الشاب في السطر ٦١٢ من مسرحية هبوليتس بقوله « لقد أقسم لسان ، ولكن عقلى لا يزال طليقاً ، احنج الجمهور احتجاجاً قوياً على ما ظنه انتهاكاً شديداً لحرمة الآداب والدين حتى اضطر يورپديز أن يقف في مكانه ويهدى نائرتهم بأن يؤكد لم أن هبوليتس سيجرى على قوله هذا الجزء الأوفى قبل انتهاء القصة - وهو وعد مأمون العاقبة يكاد يصدق على كل شخصية في المأساة اليونانية .

ووجهت إليه حوالى عام ٤١٠ تهمة المروق من الدين ، ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى وجه إليه هجيانون Hygionon تهمة أخرى ، تتصل بالجزء الأكبر من ثروته ، واستدل على خيانة يورپديز بالبيت الذى نطق به هبوليتس . وبرئ الشاعر من التهمتين ، ولكن موجة السخط التى قوبلت بها مسرحية المرأة الطروادية أشعرت يورپديز أنه لم يكذبى صديق واحد في أثينة . ويقال إن زوجته نفسها قد انقلبت عليه لأنه لم

يشترك في حفلات الزواج الحاسية في المدينة ، وما وافت سنة ٤٠٨ ، وكان قد بلغ الثانية والسبعين من العمر ، حتى قبل دعوة وجهها إليه الملك أرخلوس Archelaus لينزل ضيفا عليه في عاصمة مقلونية . ووجد يورپديز في مدينة بلا Pella تحت حماية هذا الفرديك(*) - ولم يكن كملك بروسيا يجشى منه على عقائد شعبه - وجد في هذه المدينة الطمأنينة والراحة ، وفيها كتب مسرحية إلفينزيا في أوليس التي تكاد تكون كلها من قصائد الرعاة ، ومسرحية الباخيات الدينية العميقة . ومات بعد ثمانية عشر شهرا من قدومه إلى تلك المدينة ، ويقول أشقياء اليونان إن موته كان نتيجة لهجوم كلاب الملك وتمزيقها جسده .

وبعد سنة من موته عرض ابنه المسرحيتين في احتفال المدينة بعبس الديونيشيا ومنحهما القضاة الجائزة الأولى . ويظن النقاد ، ومنهم العلماء المحدثون أنفسهم ، أن مسرحية الباخيات كانت ترضية قدمها يورپديز للدين اليوناني (١٣٣) . على أنه ليس ببعيد أن يكون قد قصد بالمسرحية أن تكون قصة رمزية لما لقيه يورپديز من معاملة على أيدي الشعب في أثينة .

ونقص المسرحية كيف مزقت جماعة من النساء المتظاهرات في الحفلات الديونيشية تقودهن أجيف Agave أم پنثيوس Pentheus ملك طيبة ، نقول كيف مزقت أولئك النسوة جسم هذا الملك لأنه طعن خرافهن الباطلة الهمجية وتدخل من غير حق في شئون حفلاتهن .

ولم تكن هذه الفكرة جديدة ؛ فإن القصة من الأساطير الدينية الماثورة . وكانت أسطورة التضحية بجوان أو تمزيق جسم إنسان إذا جروا على حضور هذه المواكب جزءا من الطقوس الديونيشية . وقد ربطت هذه المسرحية

(٥) يقصد أرخلوس نفسه الذي استضاف يورپديز كما استضاف فرديك الأكبر ملك بروسيا فلتير . (المترجم)

القوية بين المأساة اليونانية في عنوان قوتها وبين المأساة اليونانية في بداية نشأتها ، وذلك بعودتها إلى استمداد حنكتها من قصة ديونيشس . وقد ألف الشاعر هذه المسرحية بين جبال مقدونيا التي تصفها في أشعار لا تضعف قوتها ، ولعله كان يقصد أن تمثل في بلاحيث كانت عبادة باخوس Bacchus ذات قوة عظيمة . وهي تدل على علم مدهش غزير بالطقوس الدينية ونشوتها ؛ وفيها ينطق عباد باخوس بمزامير تدل على الخشوع والصلاح ليس ببعيد أن يكون الشاعر قد تجاوز فيها حدود العقلية ، وأدرك وقتئذ ضعف العقل ، وأن العواطف والمشاعر لا بد منها للنساء والرجال على السواء . ولكن القصة تحيي من طرف خفي الدين الديونيشي ، وموضوعها هي الأخرى هو ما قد ينشأ من العقائد الخرافية من شرور .

وتفصيل ذلك أن الإله ديونيشس يزور طيبة متخفياً في صورة باخوس أو متجسداً ويدعو إلى عبادة ديونيشس . وترفض بنات كدهس رسالته فيسلبهن وعين ويبيث فيهن نشوة دينية قوية ، فيذهبن إلى التلال ليعبدنه بالرقص الممجى العنيف ، ويرتدين جلود الحيوان . ويتمنطقن بالأفاعى ، ويضعن على رؤوسهن أكاليل من الخلباب ، ويرضعن صغار الذئاب والظباء ، ويقاوم ملك طيبة هذه الطقوس ويقول إنها تناقض العقل والأخلاق والنظام ، ويسجن الداعى إليها فيصبر على العقاب صبر المسيحيين الأولين . ولكن الإله الذى فيه يتجلى ويفتح جدران السجن ويستعين بقوته الإلهية على تخدير الحاكم الشاب . ويلبس بنثيوس تحت هذا التأثير ثياب امرأة ، ويتسلق التلال وينضم إلى جماعة المحفلات وتبين النسوة أنه رجل ، فيمزق جسمه إرباً . وتحمل أمه ، التي تملكها « النشوة » ، فأفقدتها وعيها ، رأسه

المفصول في يديها ظناً منها أنه رأس أسد ، وتغنى عليه أغنية نصر . ثم تفيق فتدرك أنها تمسك برأس ابنها ، وتشمئز من تلك الطقوس التي أسكرتها وأفقدتها وعيها ، ويقول لها ديونيشس إنها سخرت منه وهو إله ، وإن ذلك هو جزاؤها على هذه السخرية ، فتجيبه بقولها وهل يلبق بالإله أن يشبه بالرجل المتكبر في نوبة غضبه ؟ والدرس الأخير الذي يلقيه علينا يورپديز في هذه المسرحية هو بعينه الذي يلقيه علينا في أولى مسرحياته ، ولقد كان يورپديز في مسرحيته التي وضعها وهو يحاضر هو بعينه يورپديز الذي عهدناه في أيامه الأولى .

وذاع صيته وأحبه الناس بعد موته حتى في أئينة نفسها ، وأصبحت الفكرة التي جاهد من أجلها هي الآراء المسيطرة على العقول في القرون التالية . ولما انتشرت الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان نفسها أخذ المتحضرين الجدد يعدونه هو وسقراط أعظم من عرقهم بلاد اليونان من أصحاب العقول الملهمة الحاضرة . ذلك أن يورپديز كان يعالج المسائل الحية لا أفاصيص الشعر الميتة ، ولقد ظل العالم يذكره ولم ينسه إلا بعد زمن طويل . فقد نعيم النسيان على مسرحيات من سبقوه من المؤلفين ؛ أما مسرحياته فكانت تمثيلها يتكرر في كل عام ، وفي كل مكان أنثى فيه مسرح يوناني . ولما أخفقت الحملة التي وجهت إلى سرقوصة (٤١٥) والتي تنبأ يورپديز بإخفاقها في مسرحية المرأة الطروادية ، وواجه الأسرى الأثينيون الموت أحياء وهم يعملون عبيداً مصفدين بالأغلال في محاجر صقلية ، ولما حدث هذا أطلق سراح كل من استطاع أن ينشد فقرات من مسرحيات يورپديز (كما يحدثنا بذلك فلوطرخس (١٢٣)) . وقد صيغت المسلاة الجديدة على غرار مسرحياته ، وتطورت منها ؛ وفي ذلك يقول أحد زعماء هذه المسلاة :
« لو أنني كنت واثقاً من أن للموتى عقولا تدرك لشنقت نفسي لكي

أرى يورپديز (١٢٤) . وكان إحياء فلسفة التشكك ، والحرية العقلية ، والزعة الإنسانية ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان هذا الإحياء سبباً في بعث يورپديز إلى الوجود وجعله أكثر اندماجاً في ذلك العهد من شيكسبير .
وجملة القول أن شيكسبير وحده هو الذي كان يضارع يورپديز ، وإن كان جيته يستكثر هذا على شيكسبير نفسه . ومن الأسئلة التي يوجهها جيته إلى لكرمان : «هل أنجبت أم الأرض بعد يورپديز كاتباً مسرحياً جديراً بأن يخلفه ؟» (١٢٥) . والجواب علم ، هذا أنها لم تنجب أكثر من كاتب واحد (*) .

الفصل السادس

أرسطوفان

١ - أرسطوفان والحرب

المأساة اليونانية أشد قنماً من المأسى الإنجليزية فى عصر الملكة إليزابث لأنها قلماً تستخدم مبدأ الترفيه التهكمى الذى يتخلل المأساة فىزىء قدرة السامع على اءءءال ما فىها من فءاءع . والكاءب الءونانى المسرحى لم يكن يلبأ إلى هذه الطرءقة لأنه كان فىفضل أن تكون مأساته عالية المستوى من بداءتها إلى نهاءتها ، ولءلك ترك المسلاء إلى كءاب المسرحاء الهزلية الءالية من المفزى والءى تهدئ عواطف النظارة المهءاجة بما تهبئه لهم من الفكاهة والراحة . وقءاءءفصلء المسلاء على مر الزمن من المأساة واستقلء عنها ، وأفرد لها يوم نءاص فى الءفءلء الءىونىشءة اءءصر منهء الاءءفال فىه على ءلانة مسال أو أربع يكتبها مؤلفون مءءلفون وءمءل واءءة بعء واءءة لءءصل كل منها على جائزة مسءقلة .

وازءهءت المسلاء الءونانية كما ازءهءت الءطابة ، فى صءقلءة أول الأمر . ءلك أنه قءم إلى سرقوءة من كوس فى عام ٤٨٤ء فىلسوف ، شاعر ، طءبب ، كاءب مسرحى ىءعى إءكارمس Epicharmus أءء يعرف الناس بفىءاءغورس وهرقلىطس ومباءئ العقلاء فى خمس وءلأءن مسلاء لم ببق منها إلا عباراء مءفرقة مءقولة عنها ، وبعء اءئى عشرة سنة من قءوم إءكارمس إلى صءقلءة أءاز الأركون الأءبئى لفرقءا أن ءمءل مسلاء ؛ وسرعان ما نما الفن الءءبء وءطور بءأءر الءمقراطىة والءرءة ءءى أصبح أهم وسائل الهءو الأءلاق والسامى فى أءئئة ؛ وءانء ءرءة ءعبءر الواسمة المسموح بها فى المسلاء ءقلءء ىرءع إلى المواكب الءىونىشءة الءى كائء ءمءل ءضوءءالءسل فى الءكور . ولما أمىء استءمال هذه

الحرية سن في عام ٤٤٠ ق . قانون يحرم التهجم على الأشخاص في المسلاة ، لكن هذا الحظر ألغى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وظل الكتاب يستمتعون بحرية الكلام وحرية السباب كاملتين حتى أيام حرب البلوونيز ، فكانت المسلاة اليونانية والحالة هذه تؤدي واجب الصحافة الحرة في الديمقراطيات الحديثة ، أعنى بذلك واجب النقد السياسي .

ونحن نسمع عن كثيرين من كتاب المسالى قبل أرسطوفان ، بل إن أرسطوفان نفسه - وهو ريليه العهد العظيم ، قد نزل من عليائه فأنتى على بعضهم بعد أن انقشع عجاج المعارك التي احتدمت بينه وبينهم . ومن هؤلاء الكتاب أقراطينوس Cratinus لسان سيمون Clonion الناطق ، والذي أثار حرباً شعواء على بركليز ولقبه « الإله القادر ذا الراس الشبيه ببصل الفأر (٥) » (١٣٦) . ولقد أنجانا الزمان الرحيم من قراءة مسرحيات هذا الكاتب . . ومن هؤلاء السباقين أيضا فركراتس الذي هجا في مسرحية الرجال المميج التي كتبها حوالي ٤٢٠ ق م الأثينيين الذين يعلنون أنهم يمتنون الخضارة ويتمنون العودة إلى الطبيعة . أما ما أقدم البدع التي يتدعها الناس في شباههم ا على أن أقدر منافسى أرسطوفان هو يوپوليس Eupolis ، قد تعاونوا أولاً في العمل ثم تنازعا وافترقا ، وأخذ كلاهما يهجو صاحبه أقذع الهجاء ، ولكنهما مع ذلك اتفقا في حملتهما على الحزب الديمقراطي . وإذا كانت المسلاة قد عادت الديمقراطية طوال القرن الخامس فقد كان من أسباب هذا العداء أن الشعراء يحبون المال ، وأن الأشراف كانوا أخصياء ، لكن أكبر أسبابه أن وظيفة المسلاة اليونانية كانت تسلية الجماهير عن طريق النقد ، وأن الحزب الديمقراطي كان وقتئذ صاحب السلطان . وإذا كان بركليز زعيم الديمقراطية يعطف على الأفكار الجديدة كتحرير المرأة والنزعة العقلية في الفلسفة فإن كتاب المسالى قد اتفقوا جميعا ، اتفقا يبعث على الريبة في مصدره ، على مقاومة التطرف في جميع

(٥) لبات بصل يسمى أيضا العنصل والسبيل squill . (المترجم)

أشكاله ، وأخلوا يدعون إلى العودة إلى أساليب ، رجال مرثون ، وما كان يعزى إليهم من مبادئ أخلاقية . وكان أرسطوفان لسان هبذه الرجعية ومردد صداها ، كما كان سقراط ويورپديز رائدى الآراء الجديدة . وهكذا استحوذ النزاع بين الدين والفلسفة على مسرح التمثيل الهزلى .

وكان لدى أرسطوفان من الأسباب ما يبرر سبه للأرستقراطية ، فقد كان ينتمى إلى أسرة مثقفة غنية ، ويبدو أنه كان يمتلك أرضاً فى إيجيلنيا ، بل إن اسمه نفسه ليدل على أنه من النبلاء لأن معناه ، الأفضل يظهر . وكان مولده حوالى عام ٤٥٠ ق . م ، وإذن فقد كان فى عتوان الشباب حين دارت بين أثينة واسبارطة تلك الحرب العوان التى أضحيت فيها بعد موضوعها مشثوماً لمسرحياته . وقد اضطره غزو اسبارطة لأتكا إلى مغادرة مزرعته فى الريف والسكنى فى أثينة ، وكان يكره حياة المدن ، وأظهر شديد استيائه حين طلب إليه فجأة أن يكره الميغاريين ، والكورنثيين ، والإسبارطيين ، وأخذ يندد بهذا التطاحن الذى يقتل فيه اليونانى أخاه ، ويدعو فى كل مسرحية يكتبها إلى السلم .

وانتقلت السلطة العليا فى أثينة بعد موت بركليز فى عام ٤٢٩ . إلى يدى كليون Cleon دايع الجلد الغنى ممثل المصالح التجارية التى تدعو إلى القضاء قضاء مبرماً على اسبارطة منافسة أثينة فى السيادة على بلاد اليونان . وقد سخر أرسطوفان فى مسرحية له مفقودة تدعى « البابلين » (٤٢٦) سخريه لاذعة من كليون وأساليبه السياسية قدم بسببها إلى المحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بغرامة . وثأر أرسطوفان لنفسه بعد عامين من هذا الحكم بإخراج مسرحية الفرسان The Knights ، وكانت أهم شخصية فى هذه المسرحية هى شخصية ديموس Demos (أى الشعب) ، وكان لديموس هذا رئيس نخدم يدعى « الدباغ » . ولم يكن أحد يجهل من المقصود بهذه الألقاب حتى كليون نفسه الذى كان بمن شاهدوا المسرحية . وكان ما فيها من هجو لاذعاً شديداً إلى حد امتنع منه الممثلون جميعاً عن تمثيل دور الدباغ خوفاً

من العقاب السياسى الصارم ، فلم يجد أرسطوفان بدأً من أن يمثل بنفسه هذا الدور وفى هذه المسرحية يعلن نيشياس Nicias (وهو اسم الزعيم المحترف رئيس الحزب الأحركى) أن الوحى أنبأه بأن الحاكم الثانى الذى سيتولى الأمر فى بيت ديموس سيكون بائع وزم ، ويُقبَل هذا البائع الدوار ويحيه العيد ويلقبونه « زعيم المستقبل فى أئيتنا المحيدة ! » ويخاطبه بائع الوزم بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أذهب لأغسل سقلى . . . إنك تسخر منى » . ولكن رجلا يدعى دمستين يؤكد له أنه يتصف بالصفات التى تؤهله لأن يحكم الشعب - أليس هو وغداً منخطأ ، مجرداً من العلم على اختلاف أنواعه ؟ ويخشى الدباغ أن يفقد مركزه فيؤكد ولاءه لديموس واستعداده لخدمته ، ويقول إن أحداً غيره لم يخدم ديموس كما خدمه هو إلا العاهرات . وتحوى المسرحية المحزون الذى اعتاد أرسطوفان : فالوزام يضرب الدباغ بالسقط ويستعد لمباراة خطابية فى الجمعية بأكل مقدار من الثوم ؛ ويعقب هذا تنافس فى الملق والدهان ليعرف من من المتنافسين يستطيع أن يسرف فى مديح ديموس أكثر من سواه ، فيكون بذلك « أكثر استحقاقاً لرضاء ديموس وبطنه » . ويحضر المتنافسون قدراً عظيماً من الطيبات ، يبسطونها أمام ديموس قبل الانتخاب لتكون وعداً منهم بما سوف يقدمونه له بعدها . ويقترح الوزام أن يختبر شرفهم وأمانتهم بأن تفتش خزانة كل مرشح ، فيعثر فى خزانة الدباغ على كومة من المأكولات الشبيهة الطرية ، أهمها كعكة ضخمة لم يقطع منها لديموس إلا قطعة جد صغيرة (وكان ذلك إشارة إلى تهمة رائجة فى ذلك الوقت تقول إن كليون قد سرق قدراً كبيراً من أموال الدولة) . وعلى أثر هذا يفصل الدباغ من عمله ويصبح الوزام حاكم بيت ديموس .

وتواصل مسرحية الزناوير السخرية من الديمقراطية سخرية أخف من السخرية السابقة . ففيها يظهر جماعة من المواطنين المتعطلين - على هيئة زناوير - يسعون إلى كسب أبله أو أبلتين فى كل يوم بأن يكونوا قضاة ، حتى

يستطيعوا بالاستماع إلى « المزلفين » وجباية الضرائب الباهظة أن يستولوا على أموال الأغنياء ويضعونها في خزانة الدولة وفي جيوب الفقراء .

ولكن أكثر ما يهتم به أرسطوفان في هذه المسرحيات الأولى هو السخرية من الحرب والدعوة إلى السلم . فبطل مسرحية الأكارنيين (٤٢٥) رجل يسمى ديسيوپوليس Dicaeopolis « المواطن الشريف » وهو مزارع يشكو من أن الجيوش قد أتلفت أرضه حتى لم يعد يستطيع العيش بعصر النبيذ من كرومه . وهو لا يجسد ما يدعو إلى الحرب ، ويبرهن بأنه ليس بينه وبين الاسبارطيين سبب للخصام . ويطول انتظاره لأن يعقد القواد السياسيون الصلح ، فيوقع هو معاهدة شخصية مع المسديمونيين ، ويشهر به جماعة من جيرانه الوطنيين دعاة الحرب فيجهم بقوله :

إني أشك كثير أهل الاسبارطيون هم الملمون وخدمهم في جميع الأحوال .
الجيران : أتقول إنهم غير ملمومين في جميع الأحوال ؟ يالك من وغد أفاق !
كيف تجرؤ على التعلق بهذه الخيانة الوطنية أماننا ، ثم تظن أنك ستنجو منا ؟

ويوافق على أن يسمح لهم بقتله إذا عجز عن البرهنة على أن أثبتة يقع عليها من اللوم في إشعال نار الحرب بقدر ما يقع على اسبارطة . ويوضع رأسه على وضعم ، ويبدأ في الإدلاء بحجته . وفي هذه اللحظة يدخل قائد أثيني ، مهزوم ، متبجح ، منتهك لحرمة الآلهة ، يشتمز منه الحاضرون ، فيخلو سبيل ديسيوپوليس ، ويدخل السرور على قلب كل إنسان بأن يبيع لهم خمراً يسمى السلم . وكانت هذه المسرحية غاية في الجرأة ولا يميزها إلا شعب تعود . أن يستمع إلى ما يقال ضده . وقد استفاد أرسطوفان من عادة الاستطراد التي كانت تميز لكاتب المسلاة أن يجاوب النظارة على لسان فرقة المنشدين أو إحدى شخصيات المسرحية ، فأخذ يشرح للجهور الغرض الذي يهدف له بوصفه رجلاً داراً فكها بين الاثينيين ينقب عن عيوبهم ويكشفها لهم .

« لم يعمد شاعرنا منذ كتب المسالى إلى إطراء نفسه على المسرح . . . ولكنه

يعتهد أنه فعل لكم الخير الكثير . وإذا لم تقبلوا بعد الآن أن يسرف الغرياء في خداعكم ، أو يغروكم بالملق والدهان ، وإذا لم تكونوا في السياسية إمعات كما كنتم من قبل ، فالفضل في ذلك راجع إليه . وقد كنتم من قبل إذا أرادت وفود المدن الأخرى أن تحذعكم لا تطلب ذلك منهم إلا أن يصفوكم بأنكم « الشعب المتوج بالنفسج » . فلا تكادون تسمعون لفظ بنفسج حتى تعتدلوا في جلسكم على أطراف أعجازكم . وإذا أراد أحد أن يستثير غروركم وتحدث عن « أثينة الغنية الناعمة نال كل ما يبغيه منكم لأنه يتحدث عنكم كما يتحدث عن السردين في الزيت . ولقد أحسن الشاعر إليكم كل الإحسان حين حلركم من هذه الحيل الخادعة (١٢٧) » .

ولقد نال الشاعر أعظم النصر في مسرحية البلم التي أخرجها عام ٤٢١ . ففي ذلك الوقت كان كليون قد مات ، وأوشك نيشياس أن يوقع مع اسبارطة معاهدة سلام وصدقة تدوم خمسين عاما . ولكن الحرب اشتعلت نارها مرة أخرى بعد بضع سنين ، وخاب أمل أرسطوفان في بني وطنه فدعا نساء اليونان في عام ٤١١ أن يعملن لحقن الدماء . وتبدأ مسرحية ليستراتا بإجتماع نساء أثينة ، في مطلع الفجر ورجالهن نائمون . في مجلس حربي قرب الأكربولس ويتفقن على أن يمنعن عن أزواجهن جميع متع الحرب حتى يعقدوا الصلح مع العدو ، ثم يرسلن رسولا إلى نساء اسبارطة يدعونهن إلى معاونتهن في حملة السلم الجديدة . ثم يستيقظ الرجال آخر الأمر من نومهم فيدعون النساء أن يعدن إلى بيوتهم ، وتأبى النساء العودة فيحاصرهن الرجال بدلاء ملأى بالماء الساخن وبسبل من الكلاء ؛ وتلقى ليسترا (منقلة أثينة) على الرجال درساً تقول فيه :

لقد صبرنا عليكم كثيراً في الحروب الماضية . . . ولكننا كنا نفرض عليكم رقابة شديدة ، وكثيراً ما كنا نسمع ، ونحن في منازلنا ، أنكم قد

أخطأتم في تقرير أمر من الأمور . فإذا سألنا عنه قال الرجال : « وما شأننا نحن أنتن والمسألة عن هذا ؟ اصمتن » . وسألنا « كيف يحدث يا زوجي أن تسير الأمور بهذه السخف على أيدي الرجال ؟ » . ويجيب زعيم الرجال بقوله إن النساء يجب أن يتعدن عن شئون الدولة ، لأنهن عاجزات عن تصريف شئون الخزانة العامة . (وتتسلل بعض النساء في أثناء هذه النقاش إلى أزواجهن وهن يتمتمن بحجج من نوع حجج أرسطوفان) . وترد ليسسترا على ذلك بقولها : « وكيف لا يستطعن ؟ فطالما دبرت الزوجات شئون أزواجهن المالية لخيرهم ولخيرهن » . ونبدى من الحجج القوية ما يقنع الرجال آخرا الأمر بعقد مؤتمر من الدول المحاربة ، ويجتمع مندوبو هذه الدول ، وتتهيأ لهم ليسسترا . كل ما يستطيعون أن يشربوه من الخمر . وسرعان ما تلعب الخمر برؤوسهم فيوقعون المعاهدة التي طال انتظارها ويختم المندوبون المسرحية بتشيد مدح السلم :

٢ - أرسطوفان والمتطرفون

يرى أرسطوفان أن انحلال الحياة الأثينية العامة يرجع إلى شرين أساسيين هما الديمقراطية والخروج على الدين . وهو يتفق مع سقراط في أن سيادة الأمة قد انقلبت فأصبحت سيادة السياسيين ، ولكنه كان واثقا من أن تشكل سقراط ، وأنكساغورس والسوفسطائيين قدام ساعد على انحلال عرى الروابط الخلقية التي كانت في الزمن القديم عاملا قويا في تدعيم النظام الاجتماعي والاستقامة الفردية . وقد سخر أشد السخرية من الفلاسفة الجديدة في مسرحية السحب . وخلصتها أن رجلا من الطراز القديم يدعى استرپسياديز Stripsiades كان يبحث عن حجة يبرر بها التنصل من ديونه ، فيختبئ إذ يسمع أن سقراط يدبر متجرا للتفكير ، يستطيع كل إنسان أن يتعلم فيه كيف يثبت كل ما يريد لإثباته ولو كان خاطئا . ويتخذ الرجل طريقة إلى مدرسة « المفكرين الأشداء » ، ويرى

في وسط حجرة الدرس سقراط معلقا من السقف في سلة ، ومنهمكا في التفكير كما يرى بعض الطلاب منحنين متجهين بأنوفهم نحو الأرض :
استرپسياديز : ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين ينحنون هذا الانحناء العجيب ؟
الطالب : إنهم يفحصون عن الأسرار العميقة عمق تترتوس .
استرپسياديز : ولكن لم - عفوا ولكن - أجزاءهم الخلفية - لم أراهم مثبتين في الهواء على هذا النحو العجيب ؟
الطالب : ان أطرافهم الأخرى تدرس الفلك

يطلب استرپسياديز إلى سقراط أنه يعلمه بعض الدروس

سقراط : وبأى الآلهة تقسمون ، لأن الآلهة ليست من العملة الرائجة عندنا ؟ .

وبشير إلى فرقة المرتلين في سرمة السحب

إن هؤلاء هم الآلهة الحقيقيون .
استرپسياديز : لكن قل لي ، ألا تؤمن بزيوس ؟ .
سقراط : ليس لزيوس وجود :
استرپسياديز : ومن الذي ينزل المطر إذن ؟ .
سقراط : هذه السحب ، فهل رأيت مطرا ينزل من غير سحب ؟
ولو أن زيوس كان هو الذي ينزل المطر لأنزله في الجو الصحو وحين تظهر السحب
استرپسياديز : ولكن قل لي من الذي يرسل الرعد ؟ إن جسمي ليرنجف منه
سقراط : إن هذه السحب في اندفاعها تحدث الرعد .
استرپسياديز : كيف ؟

سقراط : إذا امتلأت بالماء واندفعت في سيرها تساقطت بقوة عنيفة بعضها على بعض وأحدثت هذه القعقة .

استرپسياديز : ولكن من الذى يسوقها ؟ أليس هو زيوس ؟

سقراط : كلا ؛ إن الدوامة الأثرية هي التي تسوقها .

استرپسياديز : إذن فأعظم الآلهة كلها هي الدوامة . ولكن ما الذى يحدث قعقة الرعد ؟

سقراط : سأعلمك من حالتك أنت نفسك . ألم يحدث لك مرة ما أن امتلأت بالطعام في إحدى الولائم ، ثم اضطربت معدتك فحدثت في داخلك كركرة ؟

وفي منظر آخر يلتقى فيديبيديز Pheidippides بن استرپسياديز بالحجة الصحيحة والحجة الباطلة مجتمعتين . وتخبّره أولاهما بأن عليه أن يقلد الفضائل الرواقية التي كان يتصف بها رجال مرثون ، ولكن الأخرى تشير عليه بأن يتخلى بالأخلاق الحديثة . وتساءله الحجة الباطلة : هل في الناس من نال شيئاً بالعدالة أو الفضيلة أو الاعتدال ؟ وتقول : إنه إذا وجد رجل شريف ناجح وجد معه على الدوام عشرة رجال خونة ناجحين معظمين . وتضيف إلى ذلك قولها : انظر إلى الآلهة نفسها . لقد كذبت ، وسرقت ، وقتلت ، وزنت . وما هي ذى يعبدها اليونان جميعهم . وحين تشك الحجة الصحيحة في أن معظم الناجحين كانوا خونة ، تسألها الحجة الباطلة :

من أية طبقة من الناس يخرج رجال القانون عندنا ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجة الباطلة : هذا حق . ومن أى صنف يخرج شعراؤنا كتاب

المأسى ؟

الحجة الصحيحة : من بين السفهاء .

الحجة الباطلة : وخطباؤنا العموميون ؟
الحجة الصحيحة : كلهم سفهاء ؛
الحجة الباطلة : انظري الآن إلى من حولك ،

تلتفت ونسبر إلى النظارة

أية طبقة من الطبقات تنتمي إليها الكثرة الغالبة من
أصدقائنا الحاضرين هنا ؟ .

وتقمض الحجة الصحيحة عن النظارة في جرد ووقار

الحجة الصحيحة : إن الكثرة الغالبة منهم سفهاء .

وفيدديز تلميذ للحجة الباطلة يأتمر بأمرها ويبلغ من طاعته إياها أن يضرب
أباه بحجة أنه يقوى على ضربه وأنه يستمتع بهذا الضرب ، ويسأل فوق
ذلك : « ألم تضربني وأنا غلام ؟ » ويستحلفه استرپسياديز يزوس أن يرحمه
ولكن فيدديز يرد عليه بقوله إن زيوس لم يعد له وجود ، لأن اللوامة قد
حلت محله . ويستشيط الوالد غضباً ، ويهيم في الطرقات ، ويدعو جميع
المواطنين الصالحين إلى القضاء على هذه الفلسفة الجديدة ، فيهاجمون متجر
التفكير ويحرقونه ولا ينجوسقراط بحياته إلا بعد جهد شديد .

ولسنا نعرف ماذا كان لهذه المسلاة من أثر في مأساة سقراط . وكل
الذي نعرفه أنها مثلت في عام ٤٢٣ قبل المحاكمة الشهيرة بأربع وعشرين سنة ؛
ويبدو أن ما فيها من فكاهة طيبة لم يغضب الفيلسوف ، بل يقال إنه ظل
واقفاً طوال التمثيل (١٢٨) يمكن أعداءه من أن يروه أوضح رؤية . ويصور
أفلاطون سقراط وأرسطوفان في صورة الصديقين بعد التمثيل ، وقد أوصى
أفلاطون نفسه ديونيشيوس الأول ملك صقلية بهذه الأعجوبة المسلية ؛
وظل محتفظاً بصداقته لأرسطوفان حتى بعسده أن مات أستاذه (١٢٩) .
وقد كان ملاتوس أحد الثلاثة الذين اتهموا سقراط في عام ٣٩٩ طفلاً

حين مثلت المسلاة ، وكان ثانيهما وهو أنيتس على وفاق مع سقراط بعد أن مثلت (١٣٠) ؛ وأكبر الظن أن انتشار المسرحية بعدئذ بوصفها قطعة أدبية أضر بالفيلسوف أكثر مما أضر به تمثيلها الأول . ولقد أشار سقراط في دفاعه عن نفسه - كما يرويهِ أفلاطون - إلى هذه المسرحية وقال عنها إنها من أكبر الأسباب التي سوت سمعته وألبت القضاة عليه .

وكان في أثينة هدف آخر وجه إليه أرسطوفان سهام هجائه ، وقد وجهها هذه المرة سهام عداوة لا تنطق نارها . ذلك أنه لم يكن يثق بتشكك السوفسطائيين ؛ أو بالفردية الأخلاقية ، والاقتصادية ، والسياسية التي كانت تنخر في عظام الدولة ؛ أو بالدعوة النسائية العاطفية التي ترمى إلى مساواة النساء بالرجال ، والتي كانت تثير نائفة النساء ؛ أو بالاشتراكية التي كانت تعمل عملها بين الأرقاء . لقد رأى هذه المبادئ كلها واضحة أجلى وضوح في يورپديز ، واعتزم أن يقضى بالضحك والسخرية على ما كان للكاتب المسرحي الكبير من أثر في العقلية اليونانية .

وبدأ يعمل لهذه الغاية في عام ٤١١ بمسرحية أسماها السموفيزوسيات Thesmophoriazusae . وقد اشتق هذا اللفظ من اسم النساء اللاتي كن يحتفلن بعيد ديمتر وپروسفوني عن طريق الامتناع الجنسي . وفيه يجتمع عبادهما ليناقش آخر ما سخر به يورپديز من بنات جنسهن ، ويدبرن أمر الانتقام منه . وتراعى أبناء هذه الخطة إلى يورپديز فيشير على نسيلكس Mnesilochus والد زوجته بأن يلبس ثياب النساء ويدخل الاجتماع ليدافع عنه . وتشكو أولاهن من أن الكاتب المسرحي قد حرمها من وسيلة كسب عيشها ؛ فقد كانت من قبل تصنع أكاليل الزهور للهياكل ، فلما أن قال يورپديز إنه لا وجود للآلهة ، كسدت تجارتها . ويدافع نسيلكس عن يورپديز بقوله إن أسوأ ما قاله عن النساء حتى لا مرأى ، فيه ، وإنه أخف مما تعرفه النساء أنفسهن من أخطائهن . وترتاب النساء في أن هذا

الطعن في النساء صادر عن امرأة ، فيمزق ثياب نسيكس ، ولا يستطيع النجاة من تمزيق جسمه إرباً إلا بأن يختطف طفلاً رضيعاً من بين ذراعى امرأة ، وينلنهن بأنه سيقتله إذا مسسته هو بسوء . ولكنهن لا يعبان بهذا التهديد ويهجمن عليه ، فيخلع عن الطفل لفافاته ، فيجد أنه زق خمر قد لف في ملابس طفل هرباً من أداء ضريبة الإيراد . ويقول إنه رغم هذا سيقطع عنقه وتخزن لهذا صاحبة الزق وتصيح قائلة : « سألتك ألا تتلف زق العزير ، فإن كنت لا بد فاعلا فحى بجفنة تلتق فيها دماءه » . ويحل نسيكس المشكلة بأن يشرب الخمر ، ويرسل في الوقت نفسه دعوة إلى يورپديز بأن يخف لإنقاذه من ورطته . وخليق بنا أن نقول بهذه المناسبة إن يورپديز يظهر في أجزاء مختلفة من مسرحياته - في صورة متلوس ، أو پرسسيوس ، أو إكو Echo . وفي هذه المرة يفلح أخيراً في تمكين نسيكس من الهرب .

ويعود في مسرحية الضفادع إلى مهاجمة يورپديز رغم موته : ذلك أننا نرى ديونيشس إله المسرحية غاضباً على من بقي حياً في أثينة من كتاب المسرحيات ، فينزل إلى الجحيم ليعود بيورپديز . وتلتقى به وهو ينتقل في قارب إلى العالم السفلى طائفة من الضفادع فتحميه بتقيها تحية لا نشك في أن شباب أثينة ظل يتندر بها شهراً كاملاً . ولا ينسى أرسطوفان أيضاً أن يسخر من ديونيشس ولا يخشى من تمثيل طقوس إلوسيز تمثيلاً ساخرأ . ذلك أن الإله حين يصل إلى العالم السفلى يجد يورپديز يحاول خلع إسكلس عن زعامة كتاب المسرحيات جميعهم . وينهم إسكلس يورپديز بأنه يعمل على نشر التشكك ، والحيل القانونية الخطرة ، وعلى إفساد أخلاق نساء أثينة وشبابها . ويقول إن من سيدات الطبقة العليا من قتلن أنفسهن لأنهن لم يطقن سماع بداعة يورپديز . ثم يؤتى بميزان ويلقى كل شاعر في إحدى كفتيه أبياتاً من مسرحياته . وترجح عبارة قوية من عبارات إسكلس على اثنتي عشرة عبارة من عبارات يورپديز (وهذا هجاء في الشاعر الشيخ

نفسه) . ويعرض إسكلس آخر الأمر أن يقفز الشاعر الشاب إلى إحدى الكفتين ومعه زوجته ، وأبناؤه ، ومتاعه ، ويقول إنه يؤكد أن بيتاً واحداً من الشعر يرجح عليهم جميعاً . ويخسر المشكك العظيم في آخر الأمر المباراة ، ويعود إسكلس إلى أثينة منتصراً(*) . وقد منح القضاة هذه المقالة الأولى في النقد الأدبي الجائزة الأولى ، وبلغ من سرور النظارة بها أن أعيد تمثيلها مرة أخرى بعد بضعة أيام .

وكذلك وجه أرسطوفان سخريته إلى الحركة المتطرفة بوجه عام في مسرحية متوسطة القدر تدعى الإكليزيازوسيات *The Ecclesiazusae* أي نساء الجمعية (٣٩٣) . وموضوعها أن نساء أثينة يتخفين في زي الرجال ، ويملأن مقاعد الجمعية ، وترجع أصواتهن على أصوات أزواجهن ، وإخوتهن ، وأبنائهن ، ويختار منهن حكام الدولة : وتزعم هذه الحركة امرأة تدعى پراكساغورا *Praxagora* شديدة التحمس لنيل النساء حقوقهن السياسية ، وتتهم بنات جنسها بالغفلة لأنهن يرضين بأن يحكمهن الرجال البلهاء . وتقترح أن تقسم الثروة بالتساوي بين المواطنين على أن يترك الأرقاء من غير أن يفسدهم الذهب . ويتخذ الهجوم على « المدينة الفاضلة » صورة أخف من هذه وأرحم في مسرحية الطيور أرقى مسرحيات أرسطوفان جميعها (٤١٤) . ومضمونها أن اثنين من مواطني أثينة يستولى عليهما اليأس ، فيتسلقان إلى مسكن الطيور ، يأملان أن يجدوا فيه الحياة المثالية التي ينشدانها . ويستعيان بالطيور على بناء مدينة فاضلة بين الأرض والسماء تدعى نفلوككسيبجيا *Nepheloccygia* أي « أرض وقوق السحاب » . وتوجه الطيور مجتمعة خطابها إلى الآدميين في نشيد لا يفوقه أي نشيد آخر وضعه شعراء المآسي تقول فيه :

(*) ربما كان هذا إشارة إلى تكرار تمثيل مسرحيات إسكلس .

أى بنى الإنسان ، يا قصار الأجل ، ويا من تملأ الأحزان حياتكم يوماً بعد يوم ، يا عراة ، يا منزوعى الريش ، يا ضعاف الأجسام ، يا كثيرى النزاع ، يا مرضى ، يا من تلتابكم النوائب ، يا من خلقتم من طين ! استمعوا لى أقوال السادة الطيور ، الخالدة ، مالكة الهواء ، التى تشرف من عل بأعينها الرحيمة ، على ما بينكم من نزاع ، وشقاء وكدح ، وقلق .

وتضع الطيور خطة لمنع كل الاتصال بين الآلهة والبشر ، ولا تسمح بأن تصعد القرابين إلى السماء . وتقول المصلحة منها إن الآلهة القدامى لن تلبث أن تموت جوعاً فتسود الطيور . ثم تخترع آلهة جدد على صورة الطير ، وتنزل الآلهة التى صورت فى صورة الآدميين عن عروشها ، ثم يأتى آخر الأمر وفد من أولمبس يسعى لعقد هدنة ، ويقبل زعيم الطير أن يتزوج من خادمة زيوس ، وتختتم المسرحية بهذا الزواج الموفق .

٣ - الفنان والمفكر

أرسطوفان مزيج من الجمال والحكمة والقدارة لا تستطيع أن نحدد الصنف الذى ينتمى إليه من الناس . كان فى وسعه إذا اعتدل مزاجه أن يكتب أغاني من الشعر اليونانى الخالص الرصين ، لم يستطع مترجم حتى الآن أن ينقله بروعته إلى لغة غير لغته الأصلية . وحواره هو الحياة نفسها ، أو لعله أكثر سرعة ، وأعظم طلاوة ، وأشد قوة مما تجرؤ أن تكون عليه الحياة ، وهو يشبه ربلية Rabelais وشيكسبير ، ودكنز ، فى قوة أسلوبه وحيويته ، وشخصياته كشخصياتهم أصدق تصويراً للعصر الذى عاش فيه من جميع ما ألفه المؤرخون فى ذلك العصر ، ويفوح منها شذاه أقوى مما يفوح من هذه المؤلفات كلها مجتمعة ؛ وليس فى وسع أحد أن يعرف الأثنيين حتى المعرفة إذا لم يكن قد قرأ مسرحيات أرسطوفان . ومع هذا فإن حبيكات مسرحياته هزأة سخيفة ، جمع أطرافها بإهمال يكاد أن

يكون مرتجلاً . وتراه في بعض الأحيان يستنفذ موضوع المسرحية الرئيسي قبل أن يبلغ منتصفها ؛ ويتعارج ما بقي منها على عكازي الهجون والمزل حتى يصل إلى نهايتها . والفكاهة في العادة من النوع اللذيذ ، مثقلة بالجناس السهل الساذج ، وتطول حتى لا يطيق الإنسان طولها ، وكثيراً ما تستعار عباراتها من عمليات المضم ، والتكاثف ، والتبرز . ففي مسرحية الأركانيين نسمع عن شخص لا ينقطع ساعة عن التبرز طيلة ثمانية أشهر (١٣١) . وفي السحب نرى فضلات الإنسان الكبيرة تمزج بالفلسفة العليا (١٣٢) ، ولا نمر صفحة إلا نجد في التي تليها أردافاً ، وصدراً ، وغدداً تناسلية ، وسفاداً ، ولواطاً ، واستمنا ، كل ذلك يعرض علينا (١٣٣) ؛ ثم نراه يتهم منافسه الشيخ أقراتينوس Cratinus بسياً البول ليلاً (١٣٤) . وهو بهذا كله أكثر الشعراء القدامى شهياً بأهل هذه الأيام لأن الإسفاف والبذاء لا يختص بهما عصر من العصور . وإذا ما تحدثنا عنه بعد حديثنا عن مؤلف يوناني سواء - وبخاصة بعد حديثنا عن يورپديز - بدا لنا مسفاً إلى حد تشمئز منه النفس وتقبض ، حتى ليصعب علينا أن نتصور أن النظارة الذين يستمعون إلى أحدهم هم بعينهم الذين يستمعون إلى الآخر .

وإذ كنا محافظين صادقين أطلقنا هذا كله ، ومحجتنا في ذلك أن أرسطوفان يهاجم التطرف بكافة أشكاله ، ويستمسك مخلصاً بالفضائل والذائل القديمة أباً كان نوعها . وهو على ما نعلم أحط الكتاب اليونان جميعهم خلقاً ، ولكنه يأمل أن يعوض هذا النقص بمهاجمة الفساد الخلقى ، ونراه دائماً إلى جانب الأغنياء ، ولكنه يشتهر بالحبين ؛ ويكذب كذباً يوسف على يورپديز حياً وميتاً ، ولكنه يهاجم الغدر والخيانة ؛ ويصف نساء أثينة بالفضاظة إلى حد غير معقول ، ولكنه يشهر بيورپديز لأنه يفترى ويسخر بالآلهة سخرية جريئة (*) . وإذا وازنا بينه وبين سقراط التقى لم نجد بداً من أن نصوره

(*) وقد ورد في أقواله : إن بعض الآلهة تقيم المواعير في السماء .

كافراً مهزراً ، لكنه رغم هذا يدعو بقوة إلى الدين ويتهم الفلاسفة بأنهم يعملون للقضاء على الآلهة . لكن تصوير كليون ذى السلطان القوى تصويراً هزلياً ، وكشف عيوب ديموس أمام ديموس نفسه يتطلبان شجاعة حقة ؛ وتبين الخطر الشديد الذى يهدد حياة أثينة من جراء اتجاه الدين والأخلاق من التشكك السوفسطائى إلى الفردية الأبيقورية ، نقول إن تبين هذا الخطر يتطلب كثيراً من الفطنة و نفاذ البصيرة . ولعل أثينة كان يصلح حالها لو أنها عملت ببعض نصائحه ، ولم تشتت في نزعتها الاستعمارية ، وعقدت صلحاً مبكراً مع إسارطة ، وخففت بزعامة أرستقراطية ما فشا في الديمقراطية التى قامت بعد عصر بركليز من فوضى وفساد .

ولقد أخفق أرسطوفان لأنه لم يكن جاداً في نصائحه إلى الحد الذى يحمله على العمل بها . وكان لإسرافه في تمثيل الدعارة وفي الشتائم من الأسباب التى أدت إلى تحريم الهجو الشخصى ؛ ومع أن القانون الذى صدر بهذا التحريم قد ألغى بعد قليل من الوقت ، فإن « المسلاة القديمة » ذات النقد السياسى قد ماتت قبل موت أرسطوفان (٣٨٥) ، وحلت محلها في مسرحياته الأخيرة نفسها « المسلاة الوسطى » مسلاة الأخلاق والغرام . لكن الحيوية التى كانت تمتاز بها المسلاة اليونانية قد اختفت باختفاء ما كان فيها من إسراف ووحشية ، وظهر فليمون ومناندر واختفيا وعفا ذكرهما ، أما أرسطوفان فقد ظل باقياً رغم تبدل المبادئ الأخلاقية والأنماط الأدبية ، حتى وصل إلى عصرنا هذا ومع إحدى عشرة مسرحية من مسرحياته الاثنتين والأربعين كاملة لم ينقص منها شيء . ولا يزال إلى هذا اليوم حياً في هذه المسرحيات رغم ما يعترض فهمها وترجمتها من صعاب . وإذا ما استطعنا أن نسد أنوفنا حتى لا يؤذيها فحشه وبداءته استطعنا أن نقرأ مسرحياته بكثير من البهجة الدنسة .

الفصل السابع

المؤرخون

لم ينس اليونان النثر كل النسيان في نشوة الشعر المسرحي ، فقد أولعوا أشد الولع بالخطابة مدفوعين إلى هذا بنزاعهم القضائي ونظامهم الديمقراطي . وإذا رجعنا إلى ذلك التاريخ البعيد - عام ٤٦٦ ق . م - رأينا كوراكس Corax السرقوصي يكتب رسالة يسميها تكني لوجون *Techne Logon* (فن الكلمات) يرشد بها المواطنين الذين يريدون أن يخاطبوا الجمعية أو القضاة ، ونجد فيها منذ ذلك العهد تقسيم الخطبة إلى ديباجة ، وقصة ، ونقاش ، وملاحظات ثانوية ، ومسك الختام . ونقل غورغياس هذا الفن إلى أثينة ، واستخدم أنتيفون *Antiphon* الأسلوب المنمق في الخطب والنشرات التي خصها بالدعابة الأجركية ، ثم أصبحت الخطابة اليونانية على يد ليسيلاس أكثر وضوحاً وأقرب إلى الأسلوب الطبيعي ؛ غير أن الخطب التي كانت تلقى على الجماهير لم تتخلص من خداع الألفاظ ، ولم تثبت ما للأسلوب الحديث البسيط من قوة الأثر ، إلا عند أعظم الساسة والحكام أمثال ثمستكليس وبركليز . وشهد السوفسطائيون هذا السلاح بالحديد واستغله تلاميذهم استغلالاً بلغ من قوته أن حرم الحزب الأجركي تعليم فنون البلاغة بعد استيلائه على مقاليد الحكم في عام ٤٠٤ (١٣٦) .

وكان التاريخ أعظم ما أنتجه النثر في عصر بركليز ، ونستطيع أن نقول إن القرن الخامس هو الذي كشف عن الماضي وبحث عن علاقة الإنسان بالزمن . ويمتاز فن التاريخ عند هيرودوت بكل ما في الشباب من صبر وقوة ، فإذا ما وصلنا إلى توكيديدز بعد خمسين عاماً من عصر هيرودوت رأيناه قد بلغ حداً من النضوج لم يفقه فيه أي عهد من العهود التي أعقبته ، وكانت

الفلسفة السوفسطائية هي التي فصلت بين هذين المؤرخين وميزت كلا منهما من الآخر فقد كان هيرودوت أكثر بساطة من صاحبه ، ولعله كان أكثر منه رافة ، وما من شك في أنه كان أبهج منه روحاً . وقد ولد في هليكرنسس Halicarnassus حوالي عام ٤٨٤ ، من أسرة بلغت من رفيع المنزلة درجة أمكنتها أن تشارك في الدساتر السياسية . ونفى من بلده وهو في الثانية والثلاثين من عمره بسبب مغامرات عمله السياسية . فبدأ من ذلك الوقت تلك الرحلات البعيدة التي كان لها أكبر الأثر في تواريخه . وقد مر بهينيقية في طريقه إلى مصر وتوغل فيها حتى وصل إلى جزيرة إلفنتين ، ووصل في ترحاله غرباً إلى قورينة وشرقاً إلى السوس وشمالاً إلى المدن اليونانية القائمة على شاطئ البحر الأسود . وكان حينها ذهب يلاحظ ، ويبحث بين العالم وتطلع الطفل ؛ ولما ألقى عصا التسيار في أثينة حوالي عام ٤٤٧ كان في جعبته مقدار ضخم من المذكرات المختلفة عن جغرافية الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وتاريخها وعادات أهلها . وقد استعان بهذه المذكرات وسرقات قليلة من مكتيبوس Hecataeus وغيره من المؤرخين السابقين على تأليف أشهر الكتب التاريخية على الإطلاق . وقد وصف في كتابه هذا حياة الناس في مصر ، والشرق الأدنى ، وبلاد اليونان ، وسجل فيه تاريخ هذه البلاد كلها ، من بدايته الجغرافية إلى نهاية الحرب الفارسية . وتقول إحدى القصص القديمة إنه قرأ أجزاء من كتابه هذا على الجمهور في أثينة ، وإن الأثينيين أعجبوا أشد الإعجاب بما ورد فيه من وصف الحرب وما قاموا به فيها من أعمال مجيدة ، فقرروا له اثنتي عشرة وزنة (تالنت) أى ما يعادل ستين ألف ريال أمريكي - وهو مبلغ يرى أى مؤرخ أنه يبلغ من الضخامة جداً يجعله غير محفول . ويعلن هيرودوت في مقدمة الكتاب بأسلوب رائع الغرض من وضعه فيقول :

« هذا عرض لبحوث (Historia) هيرودوت الهليكرنسى يقصد به

ألا يحو الزمان ما قام به الهلينيون والبرابرة من أعمال مجيدة عجيبة ، ويقصد بنوع خاص ألا تنسى الأسباب التي من أجلها شنوا الحرب بعضهم على بعض » :

والكتاب إلى حد ما « تاريخ عالمي » لأنه يتناول قصة جميع الأمم التي تسكن في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو أوسع في مجال بحثه من الموضوع الضيق الذي شمله كتاب توكيديلدز ، وتسرى في الكتاب روح الوحدة غير المقصودة بما يتضمنه من باب الفرق بين حكم البرابرة المطلق والديمقراطية اليونانية ؛ ثم ينتقل بخطى وثيدة واستطرادات مضطربة إلى الخاتمة الروائية المتوقعة في سلاميس . والفرض من الكتاب كما يقول المؤلف هو تسجيل « الأعمال العجيبة والحروب » (١٣٨) ، والحق أن القصة في بعض مواضعها تغيد إلى الذاكرة سوء فهم جين Gibbon للتاريخ حين يقول إنه « لا يعدو أن يكون سجلا لخرائب البشرية وحماتها ومصائبها » (١٣٩) : على أن هيرودوت رغم هذا يتسع له المجال لإيراد حقائق طريفة لا تخصى عن ملابس الجماعات التي يصفها ، وعاداتها ، وأحلامها ، ومعتقداتها . وهو يذكر لنا كيف يستطيع المصريون أن يقفروا إلى النار ، وكيف يسكر أهل الدانوب من رائحة الخمر ، وكيف بنيت أسوار بابل ، وكيف يأكل المساجيقى Massagelee آباءهم ، وكيف كانت لكاهنة أثينا في بداسس Pedasus لحية ضخمة . وهو لا يقتصر على تصوير الملوك والملكات ، بل يصور كذلك الرجال من جميع الطبقات ، ويبعث الحياة في صفه بذكر النساء اللاتي لا يجدن لهن مكانا في كتاب توكيديلدز . ويصف أحديتهن ، وجمالهن ، وقسوتهن ، وفنتتهن .

وفي « هيرودوت كثير من المراء » كما يقول استرابون (١٤٠) ، ولكن المجال الذي يبحث فيه مؤرخنا واسع سعة مجال أرسطاطاليس ، وفيه فرص كثيرة للزلل ، وجهله لا يقل سعة عن علمه ، كما لا تقل سداجته وسرعة

تصديقه لكل ما يروى عن حكمته ؛ فهو يعتقد أن نطفة الأحباش سوداء^(١٤١) ،
ويصدق الخرافة القائلة إن اللسدوميين قد نالوا النصر لأنهم جاءوا بعظام
أرستيز إلى اسبارطة^(١٤٢) ، ويتقل أعداداً ضخمة عن جيوش خشيارشاي ،
وعن قتلى الفرس وعن انتصارات اليونان الذين لم يكادوا يصابون فيها
بمجروح . وتسرى في قصته روح الوطنية ولكنها ليست بعيدة عن الإنصاف ،
فهو يعطى قسطاً من العناية لكلا الطرفين في معظم المنازعات السياسية^(*) .
ويمجد بطولة الغزاة ، ويعترف بما كان يتصف به الفرس من شرف
وشهامة ، وهو يقع في أشنع أخطائه حين يعتمد على ما يحدثه به الأجنبي ؛
فهو يظن أن نبوخذ نصر امرأة ، وأن جبال الألب نهر ، وأن كيوبس
عاش بعد رمسيس الثالث ، لكنه حين يبحث في أشياء أتاحت له الفرصة
لمشاهدتها بنفسه ، يكون أدعى للثقة به ، وكلما ازداد علمنا بالتاريخ ازدادت
أقواله ثباتاً .

وهو لا يتردد في قبول الكثير من الخرافات والأوهام ، ويسجل الكثير
من المعجزات ، ويرى النبوءات في خشوع الأتقياء ، ويسود صحفه
بالتفاؤل والتطير ؛ ويحدد تواريخ سميلي Semele ، وديونبشس ، وهرقل ؛
ويعرض التاريخ كله ، كما يعرضه بوسيه Bossuet كأنه مسرحية من وضع
القوة الإلهية المدبرة لشئون العالم ، تثاب فيها الفضائل ، وتعاقب الخطايا
والجرائم ، وطغيانُ الناس إذا استغنوا . لكن عقله تكون له الغلبة
أحياناً ؛ ولعل سبب ذلك أنه يستمع للسوفسطائيين في آخر حياته . فهو
يشير إلى أن هومر وهزيرود هما اللذان وضعا أسماء آلهة أولمبس وخلعا
عليها صورها ، وأن أديان الناس وليدة عاداتهم ؛ وأن ما يعرفه إنسان ما
عن الآلهة يعادل ما يعرفه غيره^(١٤٣) . وهو يرى أن العناية الإلهية هي
الحكم الذي لا معقب لحكمه في تاريخ العالم ، لكنه يهمل بعد ذلك أمرها

(*) قارن بحثه الخيالي البارع في الملكية ، والأرستقراطية ، والدمة الطية في الكتاب

ويبحث عن الأسباب الطبيعية للحادثات ، ويوازن بين شخصيات ديونيشس وأوزيريس ، وأساطيرهما موازنة العالم المحقق ؛ ويتسم ابتسامته المتسامح مما يروى عن تدخل الآلهة في حوادث العالم ، ويعرض لتفسيرها أسبابا طبيعية^(١٤٤) ؛ ويكشف لنا عن خطته العامة ويغمز بطرف عينه حين يقول : « إني مضطر إلى أن أقص ما ينقل إلىَّ ، ولكنني غير ملزم بتصديقه ، وأحب أن يصدق هذا القول على كل قصة أروبوها في هذا التاريخ »^(١٤٥) ، وهو أول من وصلت إلينا مؤلفاتهم من المؤرخين اليونان ، وعلى هذا الاعتبار لانلوم شيشرون على وصفه إياه بأنه أبو التاريخ . ويضعه لوشيان ، كما يضعه معظم الأقدمين ، في منزلة أرق من منزلة توكيديلز^(١٤٦) .

ومع هذا كله فإن الفرق بين عقل هيرودوت وعقل توكيديلز كالفرق بين المراهقة والنضوج ، ذلك أن توكيديلز ظاهرة من ظواهر عصر الاستنارة اليوناني ، وهو من سلالة السوفسطائيين ، كما كان جين من الناحية الروحية من سلالة بايل Bayle وفولتير . وكان والده من أثرياء الأثينيين يمتلك مناجم للذهب في تراقية ، وكانت أمه تراقية من أسرة عريقة . وقد تلقى كل ما كان في أثينة في أيامه من تعليم ، ونشأ في جو التشكك الفيلسفي ، ولما شبت نار حرب البلوپونيز أخذ يسجل حوادثها يوما فيوما ، ثم مرض بالطاعون في عام ٤٣٠ ، وفي عام ٤٢٤ اختير وهو في سن السادسة والثلاثين (أو الأربعين) أحد قائدين توليا قيادة حملة بحرية سيرت إلى تراقية ، ولما أن عمجز عن قيادة قواته إلى أمفبوليس Amphipolis ليفك عنها الحصار في الوقت المناسب .- نفاه الأثينيون ، فقصى العشرين سنة التالية من عمره ينتقل من بلد إلى بلد وخاصة في إقليم البلوپونيز . وإلى هذا العلم المباشر بأحوال العدو يرجع بعض ما يمتاز به كتابه من نزاهة ذات أثر كبير في النفس . ولما شبت الثورة الأبحركية في عام ٤٠٤ انتهى أجل نفيه فعاد إلى أثينة . ومات - ويقول بعضهم انه اغتيل - في عام ٣٩٦ أو قبله قبل أن يتم تاريخ

حرب الپوپونيز . وهو يبدأ ذلك التاريخ بهذه العبارة البسيطة :
كتب توكيديدز - وهو رجل أثيني - تاريخ الحرب التي دارت رحاها
بين الپوپونيز والآثينيين ، من ساعة أن اشتعلت نارها . وكان يعتقد أنها حرب
خطرة الشأن ، أجدر بالرواية من أية حرب سبقتها .

ويبدأ قصته الافتتاحية من النقطة التي انتهى إليها هيرودوت في ختام
حرب الفرس . ومما يؤسف له أن عبقرية أعظم المؤرخين اليونان لا ترى
في الحياة اليونانية شيئاً أجدر بالتسجيل من حروبها . لقد كان هيرودوت
يكتب وهو يستهدف تسليية القارئ المتعلم ، أما توكيديدز فيكتب ليمد مؤرخي
المستقبل بالمعلومات ، ويسجل السوابق ليسترشد بها الحكام في المستقبل .
وكان هيرودوت يكتب بأسلوب سهل مهلهل غير متماسك ، ولعل الذي
أوجى إليه بهذا الأسلوب هو ملاحم هرمر الجوالة المأثمة . أما توكيديدز
فيكتب كما يكتب من استمع إلى الفلاسفة ، والخطباء ، والكتاب المسرحيين ،
بأسلوب يكثُر فيه التعقيد والغموض ، لأنه يحاول أن يجمع فيه بين الإيجاز
والدقة والعمق ، أسلوب تفسده في بعض الأحيان بلاغة غورغياس
وزخرفها ، ولكنه في بعض الأحيان لا يقل عن أسلوب ناستس وضوحاً
وإحكام سبك ، ويسمو في اللحظات الحاسمة إلى العبارات المسرحية التي
تبلغ من القوة ما تبلغه أية عبارة من عبارات يورپديز . ولسنا نجد في المسرحيات
اليونانية ما هو أروع من الصفحات التي يصف فيها حملة سرقوسة ، أو تردد
نيسياس ، أو ما أعقب الهزيمة من فزع وروع . ولنعد مرة أخرى إلى الموازنة
بين هيرودوت وتوكيديدز فنقول إن هيرودوت ينتقل من مكان إلى مكان ،
من عصر إلى عصر ؛ أما توكيديدز فيضغط قصته في إطار جامد من الفصول
والسنين ، مضحياً في ذلك بتسلسلها . وكان هيرودوت يكتب عن الأشخاص
أكثر مما يكتب عن مجرى الحوادث لأنه يحس أن الشخصيات هي التي
مجرى الحوادث ، أما توكيديدز فهو وإن كان يعترف بما للأفراد غير

العاديين من خطر في التاريخ ، وإن كان يخفف من أعباء موضوعه بما
يبته فيه من صورة بركليز ، وألقبيادس ، ونيشياس وأمثالهم ، يمنح لتدوين
الحادثات أكثر مما يمنح للذكر الأشخاص ، ويبحث في علل الحوادث
وتطوراتها ، ونتائجها . وكان هيرودوت يكتب عن حوادث جد بعيدة عنه
نقلت إليه أخبارها معننة مرتين أو ثلاث مرات في معظم الحالات ، أما
توكيديديز فكثيراً ما يحدثنا عما شاهدته بعينه ، أو عما سمعه ممن شاهدوا
بعيونهم ، أو اطلعوا على وثائقه الأصلية ، وكثيراً ما يثبت الوثائق التي يتحدث
عنها . وهو شديد الحرص على الدقة ، وحتى وصفه الجغرافي نفسه قد ثبتت
صحة تفاصيله . وقلماً يصدر أحكاماً أخلاقية على الرجال أو الحادثات ، ويطلق
العنان لسخريته الأرستقراطية من الديمقراطية الأثينية فتتغلب عليه وهو يصور
كليون ؛ ولكنه في أكثر الأحيان يبعد شخصيته عن قصته ، ويروي الحقائق
بنزاهة لا يتحيز لأحد الطرفين ، ويقص قصة حياته توكيديديز العسكرية
القصيرة وكأنه لم يعرف ذلك الرجل قط ، دع عنك أنه هو الرجل الذي
يقص قصته . وهو مبتدع الطريقة العامية في التاريخ ، ويفخر بما بدله في
تأليفه من الجهد والعناية . ويقول وهو يشير من طرف خفي إلى هيرودوت :
وإني اعتقد أن النتائج التي وصلت إليها من الأدلة التي ذكرتها هنا
يمكن أن يوثق بها ويعتمد عليها . وما من شك في أنها لن تؤثر فيها
قصص شاعر يعرض ما في صناعته من مبالغات ، ولا تأليف الإخباريين التي
يفضحى فيها بالحقائق في سبيل الطرافة والحادضية لأن الموضوعات التي
يعالجونها خارجة عن نطاق الأدلة والبراهين ، ولأن قدم عهدهما قد سلبها
قيمتها التاريخية ورفعها إلى مقام الخرافات . أما نحن فلم نلجأ إلى هذه
الطريقة أو تلك ، ولا ريب عندنا في أننا قد اعتمدنا على أصح المعلومات
وأكثرها وضوحاً ، وأنا قد وصلنا إلى نتائج تبلغ من الدقة أقصى
ما ينتظره الإنسان في أمثال هذه المسائل الموهلة في القدم . . . وإني
لأخشى أن يفقد كتابي بعض ما يجب أن يحتويه من طرافة ومتمعة بسبب خلوه

من القصص الخيالية المثيرة للعواطف ، ولكن إذا رأى الباحثون الذين يرغبون في الوصول إلى حقائق الماضي الصحيحة ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل - وهي التي تشبه بلاريب حوادث الماضي ، إن لم تكن صورة مطابقة لها - إذا رأى هؤلاء الباحثون أن فيه فائدة لهم ، فإنى أراضى بهذا وأقنع به . وملاك القول أنى لم أكتب كتابى هذا ليكون مقالة يكسب بها تصفيق الناس وثناؤهم لحظة قصيرة ، بل كتبتة ليكون ملكا لجميع العصور (١٤٧) .

لكنه مع هذا يضحى بالدقة فى سبيل الطرافة فى حالة واحدة معينة ، فهو مولع بأنه ينطق بشخصياته بالخطب الطنانة ، ويعترف صراحة بأن معظم هذه الخطب من نسج الخيال ، ولكنها مع ذلك تساعد على توضيح الشخصيات والأفكار والحوادث وإنعاشها . وهو يدعى بأن كل خطبة من هذه الخطب تتضمن خلاصة خطبة حقيقية ألقىت فعلا فى الوقت الذى يتحدث عنه . فإذا كان هذا صحيحاً فإن جميع رجال الحكم وقواد الجيش من اليونان قد درسوا بلاريب فنون البلاغة مع غورغياس ، والفلسفة مع السوفسطائين ، وعلم الأخلاق مع ثرازمكس . يضاف إلى هذا أن الخطب جميعها واحدة فى أسلوبها وفى مراوغتها ودهائها ، ونظرتها الواقعية إلى الأمور . وهى تجعل الاسبارطى صاحب الرد الموجز المسكت مراوغاً كأى أثينى تربي بين السوفسطائين ، وتنطق الدبلوماسيين بحجج أبعد ما تكون عن الدبلوماسية (*) وتضفى على عبارات قادة الجند أمانة صارمة لا قبل لهم بها . وليست « خطبة پركليز الجنازية » إلا مقالا بديعاً فى فضائل أثينة ، كتبها بأسلوب رشيق رجل مطرود من بلده ؛ مع أن پركليز قد اشتهر ببساطة خطبه وبعدها من فنون البلاغة ، هذا إلى أن فلوطرخس يفسد على توكيديدز دعواه الخيالية الروائية بقوله إن پركليز لم يخلف وراءه شيئاً مكتوباً ، وإن أقواله لا يكاد يبقى منها شيء على الإطلاق (١٤٨) .

(*) خطب أتمبيداس فى اسبارطة ، المجلد الرابع (ص ٢٠ ، ٩٨) .

ولتوكيد يلدز من العيوب ما يعادل فضائله ، فهو صارم كصرامة التراقي ،
وتنقصه روح المرح والفكاهة الأثينية ، ولذلك يخلو كتابه من الفكاهة أياً
كانت ، وتراه منهمكا على الدوام في : هذه الحرب التي بوأرخها توكيد يلدز ،
(وهي عبارة يكررها في كثير من الفخر) لإنهما كما يصرفه عن كل شيء
عدا الحوادث السياسية والحربية . وهو يملأ صفحاته بالتفاصيل العسكرية ،
ولا يذكر قط فناً واحداً ولا عملاً من أعمال الفن . وهو دائم البحث عن
علل الأشياء ، ولكنه قلما يتعمق إلى العوامل الاقتصادية التي تكمن وراء
العوامل السياسية وتحدد مجرى الحادثات ؛ وهو وإن كان يكتب للأجيال
المقبلة ، لا يحدثنا بشيء عن دساتير الدول اليونانية أو عن حياة المدن ،
أو نظم المجتمعات . وهو يتجنب التحدث عن النساء بقدر تجنبه التحدث عن
الآلهة ، ويأبى أن يكون لمن موضع في قصته ، وهو ينطق بركليز صاحب
الشهامة والمروءة الذي عرض حياته للخطر من أجل محظية تطالب بحرية
المرأة ، ينطعه بقوله : « إن سمعة المرأة إنما تقوم على امتناع الرجال عن
ذكرها بالخير أو بالشر قدر المستطاع » (١٤٩) . وهو وإن عاش في عصر
يعد أعظم عصور التاريخ ثقافة ، يضل في بيداء الانتصارات والهزائم
العسكرية المتعاقبة التي تقوض قواعد المنطق من أساسها ، ولا يتغنى بالحياة
العقلية الأثينية التي تهز المشاعر هزاً ، بل يبقى قائداً عسكرياً بعد أن
يصبح مؤرخاً .

على أننا رغم هذا كله مدينون له بالشيء الكثير ، وليس من حقنا أن
نعيبه فوق ما يستحق لأنه لم يكتب ما لم يتكفل بكتابته ، فها هنا نجد في القليل
طريقة لكتابة التاريخ منظمة ، واحتراماً للحقائق ، ودقة في الملاحظة ،
ونزاهة في الحكم ، وجزالة في اللفظ لم تبق بعده طويلاً ، وسحراً في
الأسلوب ، وعقلاً قويا سدداً عميقاً ، تصلح واقعيته الصارمة لأن تكون
دعامة لأرواحنا الروائية الخيالية بفطرتها . ولسنا نجد في كتابه شيئاً من

القصص الخرافية ، أو الأساطير ، أو المعجزات . وهو يقبل قصص البطولة ، ولكنه يحاول أن يفسرها بالاستناد إلى العلل الطبيعية ؛ وبغفل ذكر الآلهة إغفالاً تاماً ، ولا يجعل لها موضعاً في كتابه ، ويسخر من النبوءات والوحي ومن غموضها الذي يجعلها في مأمن من الخطأ (١٥٠) ، ويندد في سخريته بغباء نيشياس إذ يركن إلى النبوءات بدل أن يركن إلى المعرفة الحقة . وهو لا يعترف بوجود قوة عليا مدبرة مرشدة ، أو خطة إلهية موضوعة بحكمة ، بل إنه لا يعترف حتى « بالتقدم » نفسه ؛ وهو ينظر إلى الحياة والتاريخ نظرتة إلى مسرحية دنيئة ونبيلة معا ، يرفع من شأنها بين الفينة والفينة عطاء الرجال ، ولكنها تهوى على الدوام إلى وهدة الخرافة ، والحرب . وفي شخصه يحسم النزاع بين الدين والفلسفة وتنتصر الفلسفة :

وبعد ، فإن فلوطرخس وأثنيسوس يشيران في كتبهما إلى مئات من المؤرخين اليونان ، ولكن الذين عاشوا منهم في العصر الذهبي ، عدا هيرودوت وتوكيديلز قد عدا الدهر عليهم كلهم تقريبا فعفت آثارهم ، ومن جاء بعدهم من المؤرخين لم يبق من كتبهم إلا فقرات مفرقة . وقد حدث هذا بعينه لمختلف الآداب اليونانية الأخرى ؛ فليس لدينا من آثار كتاب المأسى المسرحية الذين يعدون بالمئات والذين نالوا الجوائز في حفلات ديونيشيا إلا عدد قليل من المسرحيات كتبها ثلاثة من الشعراء ، أما كتاب المسالى الكثيرون فلم يبق إلا أثر لواحد منهم ، ولم يبق من فلسفة ذلك العصر إلا آثار رجلين اثنين . وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إنه لم يبق من الآداب اليونانية التي يعزوها النقاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد أكثر من جزء واحد من عشرين جزءا من نتاج ذلك القرن ، وإنه لم يبق من آثار القرون التي سبقتة أو تلتته إلا أقل من هذا القليل (١٥١) . والكثرة الغالبة مما بقي لنا قد جاءتنا من أثينة ؛ ولقد أثبتت المدن الأخرى ، كما نستدل من عدد الفلاسفة الذين بعث بهم إلى أثينة ، عدداً كبيراً من العباقرة ؛ ولكن البربرية التي طغت عليها من خارجها ومن أسفل منها

قد ابتلعت ثقافتها أسرع مما ابتلعت ثقافة أثينة ، فضاعت مخطوطاتها في فوضى الثورات والحروب ، وليس في وسعنا إلا أن نحكم على الكل من هتافات الجزء .

لكن تراث هذه الحضارة رغم هذا كله تراث عظيم ، عظيم في شكله بلاريب إن لم يكن في مقداره (ومنذ الذى استطاع أن يستوعبه كله ؟) ، والشكل والنظام هما جوهر أسلوب العصر الذهبي في الأدب وفي الفن على السواء ؛ فالكاتب اليوناني ، كالفنان اليوناني الذى يعد أنموذجاً لذلك العصر ، لا يقنع بمجرد التعبير عما يريد ، بل يتوق إلى أن يكسب مادته شكلاً وجمالاً . وهو يعتمد إلى مادته فيقصها من أطرافها ويشذبها ، ويعيد تنظيمها لتكون واضحة جلية ، ويحولها إلى صورة من البساطة المعقدة ؛ وهو دائماً واضح بسلك أقصر الطرق إلى قصده ، وقلما يلجأ إلى الدوران أو الغموض ، يتجنب المبالغة والتحيز ، وإذا ما لجأ إلى الخيال في مشاعره حاول أن يكون منطقياً في تفكيره . وهذا الجهد الدائم الذى لا ينفك يبذله لإخضاع الخيال للعقل ، هو الصفة الغالبة المسيطرة على العقل اليوناني ؛ لابل على الشعر اليوناني نفسه . ومن أجل هذا كان الأدب اليوناني أدباً « حديثاً » بل قل أدباً معاصراً ؛ فلنا يصعب علينا أن نفهم دانتي أو ملتن ؛ أما يورپديز ، وتوكيديز ، فهما شديداً القرب من عقولنا وينتميان إلى عصرنا . وسبب ذلك أن العقل يبقى من غير تغيير وإن تغيرت الأساطير ، وأن حياة العقل توأخى بين أنصارها ومحبيها في كل زمان ومكان .

الباب الثامن عشر

اتساحار بلاد اليونان

الفصل الأول

العالم اليونانى فى عهد بركليز

خليق بنا قبل أن نواجه منظر حرب البلوپونيز المحزنة أن نلقى نظرة على العالم اليونانى خارج أتكأ . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة فى هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا تستطيع أن نقيم عليه الدليل ، وهو أنها كانت تشترك مع أثينة فى الازدهار الثقافى الذى امتاز به العصر الذهبى وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها فى هذا الازدهار .

فى عام ٤٥٩ سبر بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمز لبلادهم قمحها . وأخفقت الحملة فى غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التى كان يسير عليها ثمستكليز ، وهى أن يكسب العالم بالتجارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بجريتها ، ثم انضمت مدينها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ قتيأت بذلك إلى أن تكون فى العهد الذى اصطيغ فيه العالم المعروف بالصيغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدين اليونانية فى آسية باستقلالها الذى ظفرت به فى ميكالى عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية



(شكل ٣٨) تمثال من تنجارا في متحف نيويورك

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم (*) . وازدهرت المستعمرات اليونانية في تراقية وعلى شواطئ الهلسينت والبروبنتس واليوكسين (**). تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب البلويونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس ، وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من نغار الهمجية وأضححت إحدى الدول الكبرى في العالم اليوناني . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنيت لها عاصمة جديدة جميلة في بلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوكسيس Zeuxis ، ويورپديز ، وضربت بلاد اليونان في الحلف البوثوني مثلاً طيباً لم تنفع به حياة الدول حرة مستقلة في ظلال السلم والتعاون الدولي .

وفي إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة في مجال التجارة البحرية . وأرسل بركليز في عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيبارس مستعمرة ثوريبي Thuriis الجديدة لتكون تجرية في سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ، ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هبودامس المهندس المعماري شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حذوه في القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشيعاً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة ،

وظلت صقلية - وهي التي كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائماً غنية - تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سلينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك الفرس . المترجم

(**) أي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . المترجم .

وبلغت أقراغاس في عهد ثيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس :
« ينغمس رجال أقراغاس في الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يموتون
ببوتهم كأنهم يعيشون أبداً^(١) » . وترك چيلون الأول بعد موته في عام ٤٧٨
لسرقوصة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه ناپليون
لأوروبا الحديثة . وأضححت المدينة في عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس
على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلاً عن التجارة والثروة .
وفى أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوصية مضرب المثل فى
البلذخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » فى المدينة حتى كان الرجل الذى
ينام فى منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سرعى البديهة حداد
الأسلحة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحمون
فى الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إيكارمس وماسى
إسكلس^(٢) .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبداً غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً
على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابيه وخزائنه لسمونيديز ، وبكليديز ،
ويندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوصة إلى وقت ما عاصمة
اليونان العقلية ؛

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى
تعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة ديمقراطية مقيدة ،
وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحدثت حذبو سرقوصة وطردت الطغاة
الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملاك الأراضى وأنشأت ديمقراطيات تجارية
تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد سنتين

(*) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى فى عهد هيرون الأول (٤٧٥ - ٤٦٨) ثم أعيد
جفاؤه فى عهد هيرون الثانى (٢٧٠ - ٢١٦) . وقد بنى منه جزء كبير . ومثلت فيه فى هذا
القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من فترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد جيلون الأول . وفي عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار في هيميرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقبتها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلها المنعمون في إغايتها تباطؤ الإسبارطين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيميرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الظاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه في أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذي خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلقى لهذه الألهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى جيلا Gela وكرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون في ولائهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيشس أعظم قائد في بلدهم ، ولكن ديونيشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبي من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده في إقامة الدكتاتورية الثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غلداً منه وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شيء عدا مدينته وجيشه ، واعترم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله جيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثاني

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على الدوام سبب شخصي - بل شخص واحد في العادة ، كما لا يستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور لها في صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون الغامون من رجال عصره فادعى أن بركليز هو الذي أوقد نار الحرب البلورونيزية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسبانيا (٣) .

والراجع أن بركليز الذي لم يتردد في الاستيلاء على أيجينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول في شرق البحر الأبيض المتوسط في وقتنا الحاضر - كانت باباً ومفتاحاً لتجارة نصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية في بحر إيجه . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة في هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هي وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن في مقدور أية سفينة أن تمر عبر باب هذا البحر إلا برضاها . وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الجيوب في البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجذب يهلك ميثوني Methone لم نستطع أن نستورد القليل من الجيوب إلا بعد استئذان أثينة (٤) . وكانت تلك المدينة تدافع عن هذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد في طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التي يصل منها هذا

أطعام إليها ؛ على أنها بمراسمتها طرق التجارة الدولية كانت تؤدي خدمة حقة للسلم والرخاء في بحر إيجه ، ولكن الطريقة التي سارت عليها في أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبرياتها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التي تبرعت بها هذه المدن لتصد بها غارات الفرس عنها في نجملها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها في شن الحرب على غيرها من مدن اليونان^(٥) . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت في عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (١٠٠٠ ر ٢٣٠٠ ريبال أمريكي) في العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر في جميع القضايا التي تنشأ في داخل الحلف إذا كان أحد طرفي النزاع مواطناً أثينياً أو كانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة في وجه أثينة أخضعتها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخذ يركب بسرعة ومهارة الفتن التي تثار نفعها في إيجينا (٤٥٧) ، وعبوبية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديلز فإن زعماء الديمقراطية الأثينية كانوا يترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتعدوا الحرية الغرض الأسمى لسياستهم في داخل أثينة نفسها . وفي ذلك يقول توكيديلز على لسان كليون مخاطباً الجمعية في عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون بآتمرون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خير تقدمونه لهم وتضرون به أنفسكم لتنفعوهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يجبونكم مرغمين ، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة^(٦) ، وقد أدى هذا التناقض الأساسي بين عبادة الحرية ، وطفغان الإمبراطورية منضماً إلى النزعة الفردية المتأصلة

في الدول اليونانية أدى هذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبي في بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة^(٧) ، فقاومت بؤوتية في كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذي يخشى الخضوع لها بأسبارطة ، وطلبت إليها أن تقف في وجه أثينة . ولم يكن الإسبارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثيني وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين اللوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء في قلوبهم ، وبدا للأجركية الإسبارطية مالكة الأراضي أن الخطوة التي جرت عليها أثينة وهي إقامة حكومة ديمقراطية تستمد ساطتها من الإمبراطورية في كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدالها للأجركية . أن تلك الخطوة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الإسبارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليا في كل مدينة من هذه المدن ، وأخذوا يعملون على مهل في تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى بركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهداه تفكيره إلى أن في مقدور الجيش أن يدافع عن أتكا ، أو عن جميع سكان أتكا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن في مقدور الأسطول أن يحمي الطرق التي تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى ثغر أثينة المسور ويبقيها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع النزول عن شيء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذي تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا في هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هليني للبحث عن حل للمشاكل التي تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسبارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إياها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامة أثينة ، وحدث كثير من الدول الأخرى حذوها بوحى منها^(٨) ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفي هذا يقول توكيديلز قائلة تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت الهلوبيونيز وأثينة مماوعتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة في امتشاق الحسام^(٩) » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث في عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثيني ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الديمقراطيون المنتصرون في كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغايتهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل ميغارا وكورنثة من جهة أخرى . وفي عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidaea وهي مدينة في جزائر خلقيدية تؤدي الجزيرة لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثي ، حاولت هذه المدينة أن تخلع النير الأثيني عن كاملها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصرها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت في خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميغارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل محصولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت ميغارا وكورنثة باسبارطة ، فعرضت على أثينة أن تلغى قرار التحريم ، ووافق بركليز على شريطة أن تسمح اسبارطة للدول الأجنبية . بأن تتاجر مع لكونيا ، فرفضت اسبارطة هذا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالاً تاماً ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، فما كان من اسبارطة إلا أن أعلنت الحرب^(١٠) .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أوداك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلوونيز ما عدا أرغوس إلى اسبارطة ، وحدث حذوها كورنثة ، وميغارا وبوونية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية واليكسينية ، والجزائر الإيجية في بادئ الأمر بعض معوتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى في هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثيني مدن البلوونيز الساحلية ، وأما الجيش الاسبارطي فغزا أتكا واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا پركليز سكان أتكا إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هائجهم بأن يصبروا ويصابروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تديراً سديداً من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكا سبباً في تفشي وباء فيها - لعله الملاريا(١١) - في عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعدداً كبيراً من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهلين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين پركليز بأنه أساء التصرف

(*) يريد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . (المترجم)
(**) انظر رصف لكريشس القوي لهذا الوباء في ص ١١٣٥ - ١٢٨٦ من الجزء الرابع من De Rerum Natura .

على الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يبدو في إرشاء ملوك اسپارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي) . وفي ذلك الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ، لكن الأثينيين لم يجدوا لهم زعيماً يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ، وأرادوا أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه في محنته ، فخرقوا قانوناً كان هو واضعه ، ومنحوا ابتداءً له من اسپازيا حقوق المواطنة الأثينية . ولكن الأثينيون الطاعن في السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة في عهده إلى ذروة مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التي أفاءها عليها خلف كارها من جهة ، وبفضل القوة التي أوغرت عليها صدور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن القواعد التي رست عليها دعائم العصر الذهبي لم تكن سليمة ، وكان لا بد أن تتقوض حين عجزت السيادة الأثينية عن تسيير دفة الحكم في زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيديلز ، كانت تستطيع أن تظفر بالنصر رغم هذا العجز ، لو أنها ظلت تسيير على خطة فابوس Fabius التي وضعها بيركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا في تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الديمقراطي الجدد تجاراً من نمط كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيربولس Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة الحرب في البر والبحر ، وكان كليون أقلهم جميعاً وأعظمهم كفاية ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً . ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلع رداءه وضرب على فخذه وهو يخاطب الجماهير » (١٢) ، ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان شديد الحرص على الظهور على المنصة في ثياب العال (١٣) . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات بركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم قيرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كفايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً في جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل في الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدومونيين على الاستسلام على غير عادتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطائية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعنى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التى تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذى تؤديه المدن الداخلة فى نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التى يسير عليها كليون فى هذه المدن ، كالسياسة التى يسير عليها فى أثينة ، هى أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يجده عندهم من المال . ولما أذ ثارت الطبقات العليا فى مثلينى ، ونبذت الحكم الديمقراطى ، وأعلنت تحرر لسيوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع المذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح - ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانونى الذى يصح أن تعقد بحضوره - وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاكيز Pachcs القائد الأثينى الذى قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشى فى أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصعدوا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاكيز قبيل تنفيذ أمر

المدبحة . وبعث باكينز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم إجابة
لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر^(١٤) . وكفركليون عن ذنبه
بأن مات في الميدان وهو يحارب البطل الاسبارطي براسيداس Brasidas
الذى كان يستولى على المدن في شمال بلاد اليونان الأصلية والخاضعة لأثينة
أو المتحالفة معها مدينة في إثر مدينة . وهذه الحرب هي التي خسر فيها
توكيديدز منصبه البحري ومسكنه في أثينة من جراء تباطؤه في إنقاذ أمفوليس
المدينة التي كانت تتحكم في مناجم الذهب في تراقية . وقتل براسيداس
في هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسبارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين
الذين كانوا يهددونها بالثورة فعرضت الصالح مرة أخرى على أثينة ،
واضاعات أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الألبركي فووقت صلح نيشياس
(٤٢١) . ولم تكنف المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل وقعت
شروط حلف يستمر خمسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تخف لمساعدة اسبارطة
إذا ما ثار عليها الهياوتيون^(١٥) .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تدوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة مؤقتة لم تدم لإلاست سنين . وهذه العوامل الثلاثة هي : الفساد الذى طرأ على السلم فجعله « حرباً بوسائل أخرى ؛ وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الجسام ؛ ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات الدورية فى صقلية ، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة ، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها ، وحولوا ولاءهم إلى أثينة ، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً ، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة ، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea . (٤١٨) . وانتصرت اسپارطة فى المعركة ؛ وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها .

وفى هذه الأثناء سبرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس الدورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينية (٤١٦) ، ويقول توكيديدلز - وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم - إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق : « لقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هؤلاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتوم متأصل فى طبيعتهم ، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به ؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا ؛ وستركه قائماً سرمدياً من بعدنا ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه ، لأننا نعرف أنكم أتمم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة » (١٦) . وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعلم الأثينيون كل من وقع في أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لحسامة من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مآس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهي يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس ممن أيدوا في الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس^(١٧) . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكتفى في الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل في أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، وبهاء طلعه ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل في واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى بركليز ، قد أنفعت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس في منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو فى سن العشرين بجانب سقراط فى بوتيديا Potidaea ، وحارب فى السادسة والعشرين من عمره فى واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بألفاظ ، « بلغ من تأثيرها فى ألقبيادس أن استدرت البصيرة من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلققين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فهجر سقراط ، وأخذ الفيلسوف فى مطاردته كأنه عبد آبق »^(١٨) .

وكانت بديهة الشاب الوقادة ومجونه حديث الناس فى أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه بركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الآخر كان زلق اللسان فى صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنني لم أعرفك حين كان عقلك في عنفوانه » (١٩) .
وأراد مرة أن يرد على نحدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلا من
أغنى الأثنيين وأشدهم بطشاً يدعى . هبونكس Hipponicus على وجهه ،
ثم دخل في اليوم الثاني بيت ذلك العظيم ، وخلع ملابسه ، ورجا هبونكس
أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته
هيريقي ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق
معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أئينة مثلها
من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين في رسم الصور
على الحدران ، وجمع طائفة من جواد السباق ، فاز بها مراراً في سباق
المركبات في أولمبيا . وقد فازت خيله في إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى
والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية (٢٠) .
وكان في بعض الأحيان يعد السفن ويؤدي نفقات الممثلين من ماله الخاص ،
وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا
كان يعبث في صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكان أئينة بقضها وقضيضها كانت
تستمتع معه بسعادته . وكان يلثم قليلاً في نطقه تلعثاً بلغ من سحره أن
أصبح التلثم الطراز الشائع بين شباب أئينة العصريين ، واحتدى مرة طرازاً
جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثرياء المتأنقون أن لبسوا
أحذية ألقبيادس ، وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ،
ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش
على درعه الذهبي صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك
انتصاراته في الحب (٢١) ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما
تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخذت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما
ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مخترقاً السوق

العامة دون أن يجرؤ إنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفتات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت بركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى النقى . ولكن نيشياس كان ضالماً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع ألقبيادس يحرص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثنيين . وكان صلح نيشياس مشيناً في نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير في عام ٥٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التي قذفت بأثينة مرة أخرى في معمعان القتال ، ولما أن هتمت له الجمعية ابتهج لها Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع^(٢٣).

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال ألقبيادس هو الذى أفسد عمل پركليز . ذلك أن أثينة قد انتعست بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجه . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حى هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ؛ ولا تقف أبداً عند حد . وكان ألقبيادس بطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجدد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام .

الپلويونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية ؛ ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوصة ، ولم تكن هى تطبيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوصة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به پركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حلو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تزعم أحدهما سرقوصة الدورية ، وتزعم الأخرى ليونتيني Leontini الأيونية . وأرسلت ليونتيني غورغياس إلى أثينة يستنجد بها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت بيجستا رسالا إلى أثينة يبلغونها أن سرقوصة تعد العدة لتخضع صقلية كلها، وتفرض عليها حكومة دُورية ، وتمد اسبارطة بالموث والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى. واغتم ألقبيادس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية منقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خبر ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أسرار الأمور وبقيليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تتسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ في الاضمحلال ، وإن الشعب الذى يريد أن تكون له إمبراطورية فى حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب (٣٣) . وقام نيشياس فى الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بلذخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحمل الآن تحملاً خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلباً على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سرقوسة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحماسة الشديدة التى هى من أخص خصائص الحرب ؛ وأخذ الأهلون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتفالاً وطنياً عظيماً . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التى كانت قد فقدت كثيراً من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهانها . وتفصيل ذلك أن أشخاصاً مجهولين تسللوا فى جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذانها ، وأعضاء تذكيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المبانى العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضى إلى القوم بشهادة لا سند لها منقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا العبث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكارى . بزعامة ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا فى تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم في عام ٤١٥ وقد عقد لواؤه لداعية من دعاة السلم حوار القلب
بيغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة
ونخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حائلا بين عبقريته
وبين الجهود التي لا بد من بلها لنيل النصر . ولم تكذ تمضى على سفر
الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها
ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقاه قد اشتركوا في تمثيل
الطقوس الإلوريتية الخفية تمثيلا هزليا ساخراً . وأسرعت الجمعية تدفعها
الجواهر الهاججة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلامينيا Salaminia
للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدّم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس
الدعوة ، وانتقل إلى سلامينيا ؛ ولما أن رست السفينة عند ثورباى نزل إلى
البر خفية وفر هارباً . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت
حكماً بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطاع الأثينيون
القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التي تهدف
إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال
يعسده ظلماً ، فلجأ إلى البلوونيز ، وحضر إحدى جلسات الجمعية
الاسبارطية ، وعرض أن يساعد إسبارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة
أرستقراطية فيها . ويقول توكيديدز على لسانه : « أما الديمقراطية فإن
العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علماً بذلك من أى واحد
منهم ، لأن عندي من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى
لا أجد شيئاً جديداً أذكره عن هذا السخف المتأصل فيها » (٢٤) . وأشار
على الاسبارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة سرقوصة ، وجيشاً للاستيلاء
على دسيليا Deceleia -- وهى مدينة فى أتكا إذا استولت عليها اسبارطة
تحكمت عسكرياً فى أتكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة
فى لوريوم أن تمد أثينة بالأموال التي تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسبارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزمته حين نبذ ما تعوده في حياة الترف وعاش كما يعيش الاسبارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافي القدمين ، ويستحم في نهر اليوروتاس Euroias صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدمونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعتة البهية ، وجاذبيته رغم هذا كله أفسدنا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بحبه ، وحملت منه بولد ، وأسرت إلى أصدقائها في زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أچيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم ألقبيادس بذلك فحصل على منصب في قسم من أسطول اسبارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ، وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال ألقبيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطلشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسي في سرديس .

وكان نيشياس يواجه في الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع الغلب عليها إلا عبقرية ألقبيادس العسكرية ومهارته في حيك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خضت لمساعدة سرقوسة . وفي عام ٤١٤ استطاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسبارطى بقوده جيلبس Gyllippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية في ميناء سرقوسة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتاحت لها للخروج من هذا المأزق حين نحسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده وحملهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه لإرضاء للألثة . لكنهم في اليوم الثاني وجدوا أنفسهم محيطة بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة في البحر أولاً ثم في البر بعدئذ .
وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه ببسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر
لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعدموه ؛ ثم أرسل من بقي على
قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل
في مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التي ظل يجيها عدة أجيال أولئك
الذين ظلوا عدة قرون يكسحون في استخراج الفضة من مناجم لوريوم
وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

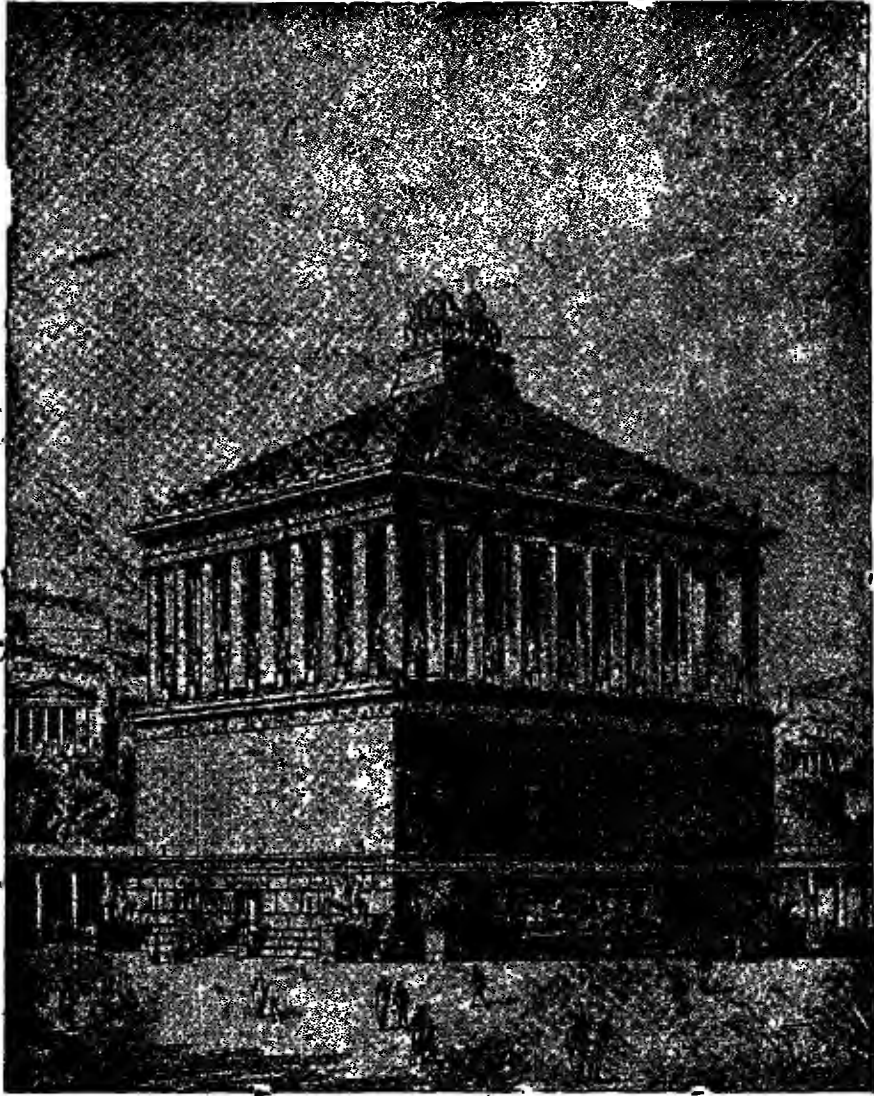
الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكذب يبق لها شيء من الأموال التي جمعها بركليز في خزائنها ، وكان عام آخر كفيلاً باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتخلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات منهن إلى اسبارطة . وفي عام ٤١٣ ادعت اسبارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون في هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عويبة والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسبارطيين . وبعثت سرقوصة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثار لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسبارطي الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسبارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية (٢٥) .

ومما يدل على شجاعة الديمقراطية الأثينية وما كان فيها من حية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيمًا راعت فيه قواعد الاقتصاد ، ووجدت في جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكذب تمضي سنة على هزيمتها في سرقوصة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسبارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الأبحركى ثورة فى البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب فى يوم من الأيام فى جانب الحرب ، بل إنهم كانوا فى واقع الأمر يودون لو انتصرت اسبارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الديمقراطية فاقترعت على أن تكفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التى وحدث صفوف الطبقات المتماثلة فى أثينة واسبارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار فى إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الأبحركيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسبارطة ، وأخذوا يمهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسبارطى فى أثينة . وفى هذا الوقت تولى ثرمينز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمعت أثينة فترة قصيرة بحكم ديمقراطى أرستقراطى مشترك كان فى نظر توكيديدز وأرسطاطاليس^(٣٦) (وكلاهما من الأشراف) خير ما رأته أثينة بعد عهد صبولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلاً . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على تسطوها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدداً قليلاً من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارث نائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الديمقراطية . وانتظر الأبحركيون قدم الجيش الإسبارطى ولكن الإسبارطيين تباطأوا شأنهم فى كل مرة ، وولى أحكام الجدد الأدبار ، وأعاد الديمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .



(شکر ۲۹) شہریع ملکرنس

وكان القيادس قد أيد الثورة الأجركية سرآ ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الديمقراطية إلى سابق عهدها استدعته إليها ووعده بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التي توالت عليها بعد نفيه منها . غير أن القيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرابط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسبنت مسرعاً ، والتقى بأسطول اسپارطى عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خلقيدون وبيزنطية حصاراً دام عاماً كاملاً استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بعمارة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتلذ ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله (٢٧) . ولكن أثينة وهي تمخض بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذى يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضاً قضى على ألفقياس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى فى الميناء وألا يشتبك فى القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس فى الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدى ، وقتل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثينى أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها فى الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى القيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح ألقبياس يخشى أثينة واسبارطة على السواء ، فلم يبدأ من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة في ياسها أن يصهر ما في التماثيل والقرابين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله في بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، ثم قررت أن تعتق الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنة للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة ، وهزم الأسطول الجديد عمارة اسبارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب اسبوس) في عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التي أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقمة حوالى العالم ؛ واتهموا الباقين على قيد الحياة بإهمالهم إنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المتصرين (ومنهم ابن بركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان سقراط عضواً في لجنة الرئاسة في ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التي صودق بها عليه . وماهى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقنعوها بقتل القواد : وفي هذه الأثناء عرض الاسبارطيون ، يعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كنيوفون المخمور (٢٨) .

واتجه الأسطول الأثيني بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(ه) كان لفظ استراتيجوس Strategos يطلق على قواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسبارطين بقيادة ليسندر في بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من محبته بين التلال أن السفن الأثينية قد اتخذت لها موضعاً شديداً الخطورة عند إيجسبتهامى Aegospotami قرب لمبسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبحثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفي اليوم الثاني حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثيني المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسندر بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين^(٢٩) . وترأى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجيا مع القائد الفارسي فرنزوس Pharnapazus الذى وهبه قصرأ وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنزوس بأن يقتل ضيفه عملاً بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس في قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عاريا يائسا ، يريد أن يقاتل دفاعا عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحرقتيها اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه فقتى نجبه في السادسة والأربعين من عمره ؛ وكان أعظم العباقرة في تاريخ اليونان العسكرى ، كما كان إخفاقه أعظم الفواجع في هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق في بحر إيجة ، فأخذ ينتقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الديمقراطيات ويقم مكانها حكومات البحرية خاضعة لاسبارطة ، ثم دخل ثغر بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصالح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرب مدينة أدت في الماضى خدمات مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب ذلك الأسوار الطويلة واستدعاء الأبحركيين المنفيين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطولها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسبارطة مساعدة جديدة في كل حرب تخوض غمارها في المستقبل . واحتجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الأبحركيون العائدون بزعامة أفريتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألفوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضي شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث وزنات أرصفة بيرية التي كلفت أثينة ألف وزنة (٣٠) ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الديمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسةائة آخرين ؛ وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ؛ وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ؛ وحرم أفريتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمره هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الديمقراطي ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الأبحركيين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الديمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان الدموي ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ؛ يزداد يوماً بعد يوم ؛ ولما أن اقترب من بيرية ألف من الديمقراطيين المدججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكف الثلاثون يمدون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقربين . ونظم أفريتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس .

أثينة وأعاد إليها الحكم الديمقراطي (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلاً لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الأبركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنها ردت إلى اسبارطة المائة الوزنة التي أعارهاحكامها إلى الثلاثين (٣١) . وأعدت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذي حرمت منه جيل من الزمان .

—————

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسى الوحيد الذى ارتكبه الديمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبه مع فيلسوف طاعن فى السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأى عمل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذلك الأيتوس Anytus الذى هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أيتوس هذا رجلاً صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازيبولس ، وأنقذ حياة بعض من أسره من الأجركيين . وكانت له يد فى إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة فى معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقى مع سقراط وصار سكيراً عريداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه (٣٢) ؛ ولم يخفف من حقه على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أقرينياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث (١٣)) . فقد بدأ لأيتوس أن تأثر سقراط فى الأخلاق وفى السياسة أسوأ من تأثير أى سوفسطائى آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التى كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين فى الأنظمة الديمقراطية (*). وبدا لأيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انتظم أقرينياس رأته بآداب على سقراط فى أوائل عهده بالتدريس لأنهما لم يقبلتا القيود التى كان يدعو إليها .

ووجه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، ولبقون في عام ٣٩٩ وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب(*) (٣٥) » . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية (ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالي خمسمائة من المواطنين معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها ما في رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من دقة ؛ وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه (٣٧) ، وأن روايته عن اعتذار سقراط تتفق في كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون . يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما . « تقولون أولاً إنى لا أؤمن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أؤمن بإنصاف الآلهة... إن مثلكم في هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير (٣٨) » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان ليجاء أرسطوفان من أثر فعال :

« لقد اتهمني كثيرون ، اتهموني في الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة تطاردني كثيراً من السنين ؛ وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . . لأنهم بدعوا يتهمونى وأتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ، إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر في السموات العلاء ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدو للعين كأنها أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Croiset أن سبب الاتهام الحقيقي هو عداء زراح أنكنا لكل من يعير الشك في آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشتري منها الاتقياء الصالحون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أى نقص في العميدة اتيدلية يسبب الكساد لهذه السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعلل العداء على هذا النحو إنما يتعلق بلسان أولئك الزراع الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة (٣٦)

هذه الشائعة ، وسرعان ما يخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التي يوجهونها لي ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التي ينطبع فيها كل شيء قوياً في عقولكم ، أولعلمهم وجهوها لي في أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندھا ثبتت في العقول . وأصعب ما في الأمر كله أنني لا أستطيع ذكر أسمائهم لأنني أجهلها ، اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هنزي . . . تلك هي حقيقة التهم الموجهة لي ، وهذا هو الذي رأيتموه بأعينكم في مسلاة أرسطوفان (٣٩) .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هي أن يهدى الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به . « ولو فعلت لكان مسلكي عجيباً بحق . أي رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء علي في بوتيديا ، وأمفوليس ، ودبليوم قد ثبتت حيث أمروني بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر - وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأنصوّر أن الله يأمرني بأن أؤدي رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسي وعن غيري من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتي خشية الموت . . . ، وإذا ما قلم لي : يا سقراط إنا سنغفو عنك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتكم : أي رجال أثينة ، لئني أجلكم وأحبكم ، ولكني سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدى قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقي الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له ؛ أي صديقي ، لم تعني كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمة الطيبة ولا تدخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقة وأنت مواطن في مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، برثوني أو لا تبرثوني ، ولكن أيا كان ما تفعلونه بي ، فلتعلموا أني لن أبدل طرائقي ، ولو مت مرات كثيرة^(٤٠) .

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمره ألا يسترسل فيما بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذي قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلي ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إلى ... لأنكم إن قتلتموني لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلي ، فأنا ، إذا سمح لي أن أبدأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ، كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطيء الحركة لضخامة جسمه ، في حاجة إلى ما يثبت فيه الحياة ... وإذ كنتم لن تجدوا غيري رجلا مثلي ، فإني أنصحكم أن تبقوا على^(٤١) .

وصلر الحكم بإدائه بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى في أول الأمر أن يطلب هذا الطلب ؛ فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن يؤدي غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكي) . وضمنه أفلاطون وهؤلاء الأصدقاء في تعهده . فلما أخذ الرأي للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم في المرة الأولى^(٤٢) .

وقد كان في استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أفريطون وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل الفرار^(٤٣) ، والراجح أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهي الأمر على هذا النحو . ولكن سقراط بقى كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول حياته أكثر من بضع سنين وأنه « لن يلقى عن كاهله إلا أبهظ جزء من الحياة ؛ وهو الجزء الذي يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة في التقصان^(٤٤) »

لهذا لم يقبل اقتراح أفريطون ، بل أخذ يبحثه من وجهة النظر الأخلاقية ،
ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية^(٤٧) . ولم يقطع
تلاميذه عن زيارته في سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته
وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة
الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يعيث بشعر فيلون Phaedo
ويقول : « يخيل إلى يافيلون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غدا » - حزنا
على . وجاءته زائبي باكية وبين ذراعها أصغر أطفالها ؛ فأخذ يواسيها ،
وطلب إلى أفريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه
المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل
تريد إذن أن أستحقها^(٤٨) ؟ » .

ويقول ديودور الصقلي^(٥٠) . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته
وأعدموا من اتهموه . ويقول سويداس إن ملاطوس مات رجما بالحجارة^(٥١) ،
ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه
غضباً بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطناً يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن
سؤال ، أو يستحم في ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن
يقتلوا أنفسهم^(٥٢) . ويروى ديوجانس ليرتيوس أن ملاطوس أعدم ، وأن
أنيتوس نفي ، وأن تمثالا من البرنز أقيم في أثينة تخليداً للذكرى الفيلسوف^(٥٣) .
ولكننا لا نعرف ما في هذه القصص من الصدق أو الكذب^(*) .

وانتهى العصر الذهبى بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية
والمعنوية ؛ ولم يكن ثمة ما يستطيع به تعليل القسوة المتناهية التى عاملت بها
ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على مثلىنى ، وإعدام قواد أرجنوسى ،

(*) أما جروت^(٥٤) . فوثق فيها ، وما يبحث في نفوسنا نحن الشك في صدقها ما يبدله
أفلاطون وأكسانوفون من الجهد في الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها
الناس بوجه عام في الزمن القديم (كان يقبلها مثلاً ترتليان وأوغسطين^(٥٥)) ، وهى تنطق كل
الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المحتضر ، لم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التي خاضت نهارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التي تستند إليها الحياة الأثينية : فأقفرت تربة أتكا من جراء الغارات الاسبارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثيني فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ؛ وأقفرت نخزائها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ؛ وقتل نحو ثلثي مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب البلويونيز . لقد تركت موقعتا سلاميس وپلاتيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افتقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وألحخت أثينة بجراح في روحها مستنصرة لا يرجى لها برء :

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيثان : عودة الديمقراطية على أيدي رجال من ذوى الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها في خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى في خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فتناً وأدباً لا يدانيهما إنتاج أى عصر آخر في تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نبى ، وأن سقراط قد أعدم ، ولكن القوة التي بعثاها في الفلسفة كانت تكفى لأن يجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليوناني الذي بلغ فيها ذروته . فقد نضجت فيها تلك الآراء التي كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة في الحياة الفكرية الأوروبية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التي لا تخضع لقاعدة والتي كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التي عرفها التاريخ - وهي الجامعات التي جعلت أثينة في (٢٦ - ج ٢ - ٢٤٤)

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديدز قبل اكتمالها .
ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب
على مقومات الفن وتقاليده قضاء تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان
عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض
المتوسط ، ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذي دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت
إليها حيويتها عوداً يثير الدهشة ، فتنجدت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ،
وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار ،

الكتاب الرابع

اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

من ٣٩٩ الى ٣٢٢ ق م

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

في الكتاب الرابع

ق . م . ق	
أجلستوس ملك اسبارطة .	٦٠ - ٣٩٩
الحرب بين سراقوصة وقرطاجة .	٣٩٧ -
أرسطوس في سيريني وأنتستانس في أثينة ، فيلسوفان .	٣٩٦ -
أثينة تعيد بناء الأسوار العلوية .	٣٩٥ -
واقعنا كرونيا وتيدس .	٣٩٤ -
أبولوچية أفلامون ؛ وعمرابلية أكسافوفون ، وإكلازوسية أرسطوفان .	٣٩٣ -
ديونيشيوس يتخضع لإيطاليا الجنوبية .	٣٨٧ - ٣٩٠
إسقراط يفتتح مدرسته .	٣٩١ -
إلفوراس يصنع قبر من الصبغة اليونانية .	٣٩٠ -
صالح أنتلسداس ، أو صلح الملك ؛ أفلامون يزور أرقطلياس التاراسي العالم الرياضي ، وديونيشيوس الأول .	٣٨٧ -
أفلامون ينشئ 'المجمع العلمي' (الأقاديمية) .	٣٨٦ -
الاسبراطيون يمتلكون كدمية عند طيبة .	٣٨٣ -
بذيركس لإسقراط .	٣٨٠ -
پلپيداس وميلون يحرران طيبة .	٣٧٩ -
الإمبراطورية الأثينية الثانية .	٣٧٨ - ٥٤
ثباتيقتس ، العالم الرياضي .	٣٧٥ -
ديجين السوني ، الميلاسوف .	٣٧٢ -
أپامينداس ينتصر عند كلاترا .	٣٧١ -
ديوقليس العموي عالم الأجنة ، وديوكسس النيدى الملكى .	٣٧٠ -
ديونيشيوس الثاني طاغية في سراقوصة ، ديون يضع خططا للإصلاح .	٣٦٧ - ٥٧
أفلامون يزور ديونيشيوس الثاني .	٣٦٧ -
أپامينداس ينتصر ويهزم عند منجنيا .	٣٦٢ -
زيارة أفلامون الثالثة لسراقوصة .	٣٦١ -

ق . م .

- ٣٦٠ - بركسترايز الأثيني ، واسكو پاس الباروسى المئالان ؛ إندرس السمي .
وثيويميس الطشيوزى المؤرخان .
- ٣٥٩ - فليپ الثانى نائب الملك فى مقدونية .
- ٣٥٧ - ٤٦ الحرب بين أثينة ومقدونية .
- ٣٥٧ - ٤٦ فى ديونيشيوس الثانى .
- ٣٥٦ - ٤٦ الحرب المقدسة الثانية .
- ٣٥٦ مولد الإسكندر الأكبر ؛ حرق الهيكل الثانى فى إفسوس ، مسرحية
« فى السلم » لإسقراط .
- ٣٥٥ - مسرحية أريبيجستى إسقراط .
- ٣٥٤ - اغتيال ديون .
- ٣٥٣ - ٤٩ تابوت هليكرنسس .
- ٣٥١ - « فليپ الأول » تأليف دمستين .
- ٣٤٩ - فليپ يهاجم أولنثس ، دمستين يكتب « أولنثياكس الأول والثانى » .
- ٣٤٨ - هرقليدس البنتوسى الفيلسوفى ، اسبوسيبوس يخلف أفلاطون فى رياسته
المجمع العلمى .
- ٣٤٦ - « فى السلم » تأليف دمستين ؛ « رسالة لفليپ » لإسقراط .
- ٣٤٤ - تيمليون ينقل سراقوصة ؛ « فليپ الثانى » تأليف دمستين .
- ٣٤٣ - محاكمة إسكتيز وتبرئته .
- ٣٤٢ - ٢٨ أرسطاطاليس معلم الإسكندر .
- ٣٤٠ - تيمليون يهزم القرطاجيين .
- ٣٣٨ - فليپ يهزم الأثينيين فى قيرونية ؛ موت إسقراط .
- ٣٣٦ - اغتيال فليپ ، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرشى بلادهما .
- ٣٣٥ - الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية .
- ٣٣٤ - أرسطاطاليس يفتح الرقيون ، واقعة نهر شرفيقوس ؛ نصب تذكارى .
لإسقراطس .
- ٣٣٣ - واقعة إسوس .
- ٣٣٢ - حصار صور والاستيلاء عليها ؛ تسليم أورشليم ؛ تأسيس الإسكندرية .
- ٣٣١ - واقعة جوجيلا (أرييلا) ؛ الإسكندر فى بابل والسوس .

- ق . ٢٠ -
- ٢٣٠ أبلز السيوف المصور ، إسيوش الأرجوسى المثال ، مرحية « فيه
تسيفون » لإسكنيز ؛ ومرحية « على التاج » للمستين .
٢٨ - ٢٢٩ الإسكندر ينزو آسية الوسطى .
- ٢٢٧ موت كليثس وكلمثينز .
٢٥ - ٢٢٧ الإسكندر فى الهند .
- ٢٢٥ رحلة نيركس .
- ٢٢٤ فى دمستين .
- ٢٢٣ موت الإسكندر و الحرب اللامية .
- ٢٢٢ موت أرسطاطاليس ، ودمستين ، وديجين .
-

الباب التاسع عشر

فليب

الفضل الأول

إمبراطورية اسبارطة

بسطت اسبارطة الآن سيادتها البحرية على بلاد اليونان ، ودامت لها هذه السيادة فترة قصيرة من الزمان مثلت في التاريخ مرة أخرى مأساة من مآسي النجاح يذل صاحبه الكبرياء . فهي لم تمنح المدن التي كانت من قبل خاضعة لأثينة ما وعدتها به من حرية ، بل فرضت عليها بدلا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة ٦٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، وأقامت في كل منها حكماً أرستقراطياً يشرف عليه حاكم لسده وفي تويده حامية اسبارطية . ولم تكن هذه الحكومات مسئولة إلا أمام الحكام الاسبارطيين البعيدين عنها ، فأوغلت في الفساد والظلم إيقالاً لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجديدة أكثر مما كانت موغرة على الحكومة القديمة .

وفي اسبارطة نفسها كان سيل المال والهدايا المنهمر من المدائن الخاضعة لاستبداها والأجركيين الأذلاء سبباً في تقوية العوامل الداخلية التي كانت تدفع المدينة دفعا إلى الانهيار . فلم يستهل القرن الرابع حتى تعلمت الطبقة الحاكمة كيف تجمع بين الترف في الحياة الخاضعة والبساطة في الحياة العامة ، وحتى الحكام أنفسهم لم يعودوا يتأدبون بأدب ليتورغ إلا في

المظهر الخارجى دون غيره . وانتقل الكثير من الأراضي عن طريق البائعات والوصايا إلى النساء ؛ وهذه الثروة المكسدة جعلت النساء الاسبارطيات - وهن اللاتي لم يكن يتحملن عبء تربية الذكور من الأبناء - يحين حياة مريحة متحللة من القيود الأخلاقية لا توائم الأنوثة بحال من الأحوال . هذا إلى أن ما تعاقب على بعض الضياع من تقسيم في إثر تقسيم قد أفقر بعض الأسر فقراً عجزت معه عن تقديم نصيبها من الطعام العام ، ففقدت بذلك ما كان لها من حقوق المواطنة ، على حين أن تضخم بعض الثروات الأخرى عن طريق الزواج والوصايا قد أوجد لدى العدد القليل من « الأنداد » الباقين ثروات كبيرة مركزة أثارت الغيرة والحسد في القلوب (*) . وفي ذلك يقول أرسطاطاليس : « من الاسبارطيين من يمتلك ضياعاً واسعة ، ومنهم من لا يكادون يمتلكون شيئاً على الإطلاق ، فالأرض بأجمعها في أيدي عدد قليل منهم^(٢) » . وتكون من الطبقات العليا التي فقدت حقوقها السياسية ومن البريسيين المحرومين من هذه الحقوق ، والهيلوتيين الخائفين ، مجموعة من الأهلين يضطرب في نفوسها من القلق والعداء ما لا يسمح للحكومة أن تقدم على شيء من المغامرات العسكرية الخارجية التي يتطلبها الحكم الإمبراطورى إقداماً يشغلها زمناً طويلاً في أماكن واسعة .

وكانت الحرب الأهلية القائمة في بلاد الفرس وقتئذ تشكل مصائر بلاد اليونان ؛ فقد ثار قورش الأصغر في عام ٤٠١ على أخيه أرتخشتر الثاني ، واستعان عليه بأسبارطة ، وجند جيشاً من آلاف اليونان وغيرهم من الجنود المرتزقة الذين أصبحوا ولا عمل لهم في آسية على أثر انتهاء حرب الهلويونيز الفجائى . والتقى الأخوان المتقاتلان في كونكسايين دجلة والفرات وقرب ملتقاهما . وهزم قورش في هذه الواقعة وقتل وأسرى جيشه كله أو أبعد عدا فرقة مؤلفة من اثني عشر ألفاً من اليونان استعانوا بسرعة بديتهم وإقدامهم

(٢) كان عدد الهلوي Homoloi أو « الأنداد » ثمانية آلاف في عام ٤٨٠ ، والذين

في عام ٢٧١ وسبعمائة في عام ٢٤١ .

على الحرب إلى داخل بلاد بابل . وطاردتهم قوات الملك فاخترأوا على طريقهم الديمقراطية الساذجة ثلاثة قواد يهدونهم سبيل السلامة . وكان من بين هؤلاء القواد أكسانوفون الذى كان فى يوم من الأيام تلميذاً لسقراط ، والذى كان وقتئذ جندياً شاباً مغامراً ، قدر له أن يخلد اسمه على الأخص بمؤلفه المعروف بالأناباسيس Anabasis أو الصعود الذى وصف فيه وصفاً بسيطاً رائعاً « ارتداد العشرة الآلاف » الطويل متبعين مجرى نهر الفرات نحو منبعه وفوق تلال كردستان وأرمينية إلى البحر الأسود . وكان هذا الارتداد من أعظم المغامرات فى تاريخ البشر . ولما لتدهشنا أشد الدهشة يسالة هؤلاء اليونان وهم يشقون طريقهم سيراً على أقدامهم يوماً بعد يوم خمسة شهور كاملة ، قطعوا فى اثنتائها ألفى ميل كاملة فى بلاد معادية لهم ، واجتازوا سهولاً قانظة لا يجدون فيها طعاماً ، وطرقاً وعرة خطيرة فوق الجبال تراكم فيها الثلوج إلى عمق ثمان أقدام ، يتعرضون فيها لهجمات الجيوش والعصابات المسلحة من خلفهم وأمامهم ، وعن أيمنهم وشمالهم ، ولا يترك أهل البلاد وسيلة إلا اتبعوها لقتلهم أو إضلالهم أو سد الطريق فى وجوههم . ونحن حين نقرأ هذه القصة الرائعة ، التى شوهدتها فى شاباناً لإرغامنا على ترجمتها ، نذكر أن أهم سلاح تحتاجه الجيوش هو سلاح الطعام ، وأن مهارة القائد فى تدبير المؤن بلحيشه لا تقل أهمية عن مهارته فى تدبير القوز فى المعركة . وقد هلك من هؤلاء اليونان من التعرض للعوامل الجوية أكثر ممن هلك منهم فى الوقائع الحربية ، وإن كانت هذه الوقائع لم تنقطع يوماً واحداً . ولما أن وقعت عيون الباقين منهم أحياء ، وكانت عدتهم ٨٦٠٠ ، على بحر اليوكسين عند تريزى (طريزون) غمرت قلوبهم موجة من السرور :

« ولم تكدمقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت فى الجو صيحة شديدة سمعها أكسانوفون ومن فى المؤخرة فخيلى إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم . . . فاستحثوا الخطى إلى

الأمم ليساعدوا رفاقهم ، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون « البحر البحر » والصيحة تنتقل من صف إلى صف . وحينئذ هروا جنود المؤخرة جميعهم ، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام . . . ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم بعائق زميله ، لا فرق بين الجنود والضباط والقواد ، والدموع تترقرق في أعينهم من فرط السرور^(٤) .

ذلك أن هذا البحر بحر يوناني وأن مدينة ترايزى مدينة يونانية ، فهام أولاء قد وصلوا سالمين ، وفي وسعهم أن يستريحوا ولا يخشوا أن يفاجئهم الموت في سكون الليل . وترددت أصدااء جهودهم المضنية في طول بلاد هلاس القديمة وعرضها ، وشجعت فليب بعد مائتي عام من ذلك الوقت على الاعتقاد بأن قوة يونانية حسنة التدريب خليقة بأن يركن إليها في هزيمة جيش فارسي يفوقها في العدد أضعافاً مضاعفة . وهكذا مهد أكسانوفون على غير علم منه السبيل إلى الإسكندر .

ولعل أجسلوس الذي اعتلى عرش اسپارطة في عام ٣٩٩ قد شعر بهذا الأثر . فلقد كان في الاستطاعة إقناع بلاد الفرس أن تغفر لاسپارطة إقدامها على معونة قورش ، لكن هذا الملك ، وهو أقدر ماوك اسپارطة على الإطلاق ، لم يكن ينظر إلى حرب الفرس أكثر من نظرتة إلى مغامرة ممتعة ، ولذلك سار على رأس قوة صغيرة ليحور جميع بلاد آسية اليونانية من حكمهم^(٥) . ولما علم أرثخشتر الثاني أن أجسلوس لم يكن يأتي عناء في تشتيت شمل جميع الجيوش الفارسية التي أرسلت لصدده ، بعث الرسل يحملون كذيات كبيرة من الذهب إلى أثينة وطيبة ليرشوا بها هاتين المدينتين كي تعلمنا الحرب على اسپارطة^(٦) . وسرعان ما أفلح هؤلاء الرسل في مهمتهم ، وتجددت الحرب بين اسپارطة وأثينة بعد أن دامت السلم بينهما تسعة أعوام . واستدعى أجسلوس من آسية ليواجه جيوش أثينة وطيبة مجتمععة عند

(٥) وقال رينولد : « في أي شيء يملو على ملك الفرس ، إلا إذا كان أكثر من استقامة وأشد من كسباً بلطاع نفسه ؟ » (٥) .

كرونيا . واستطاع أن يهزمها بشق الأنفس ؛ ولكن أسطول أثينة وفارس مجتمعين بقيادة كونون Conon دمرا الأسطول الاسبارطى قرب نيدس بعد شهر واحد من ذلك الوقت وقضيا بذلك على ما كان لاسبارطة من سيادة بحرية قصيرة الأجل . وابتهجت أثينة بهذا النصر المؤزر وأخذت تعمل بجد ستعينة بما أمدتها به فارس من المال لإعادة بناء أسوارها الطويلة . ودافعت اسبارطة عن نفسها بأن أرسلت رسولا يدعى أنتلسداس Antalcidas إلى الملك العظيم يعرض عليه أن تسلمه المدن اليونانية في آسية ليحكمها الفرس إذا فرضت فارس على مدن اليونان الأصلية صلحاً يحمى اسبارطة من العدوان . ووافق الملك العظيم على هذا الشرط ، وامتنع عن مساعدة أثينة وطيبة بالمالك ، وأرغم المتنازعين جميعاً على أن يوقعوا في سرديس (٣٨٧) « صلح أنتلسداس » أو « صلح الملك » وأعطيت بمقتضى هذا الصلح لمنوس ، وأميروس ، وسيروس إلى أثينة ، وضمن الاستقلال للدول اليونانية الكبرى ؛ ولكنه أعلن أن جميع المدائن اليونانية في آسية ، وجزيرة قبرص ، قد أصبحت للملك العظيم . ووقعت أثينة على شروط الصلح بعد أن احتجت عليها لعلمها أن هذه كانت أكثر الحوادث إذلالاً لها في تاريخ اليونان كله . وهكذا ضاعت ثمار نصر مرثون كلها ، وظلت أثينة ضائعة جيلاً كاملاً ، وبقيت دول اليونان الأصلية جرة بالاسم ، أما في واقع الأمر قد ابتلعتها قوة الفرس . ونظرت بلاد اليونان بأجمعها إلى اسبارطة نظرتها إلى الخائن القادر ، وأخذت تنتظر على أحر من الجمر أن تقوم أمة من الأمم تهلكها وتدمرها .

الفصل الثاني

إياميننداس

وكانما أرادت اسبارطة أن تقوى هذا الحقد في صدور الدول اليونانية الأخرى ، فادعت لنفسها حق تفسير شروط « صلح الملك » وإرغام هذه الدول على الخضوع لها . وأرادت أن تضعف قوة طيبة فأصرت على أن الحلف البوثوني لا يتفق مع الشرط القاضى باستقلال الدول اليونانية الكبرى وحثمت حله . وتذرعت اسبارطة بهذه الحججة فأقامت في كثير من المدن البوثونية حكومات أبخركية موالية لها ، تؤيدها في كثير من الحالات حاميات اسبارطية ، ولما احتجت طيبة على هذا العمل استولت قوة لسديمونية على كدميا Cadmeia معقلها الحصين ، وأقامت فيها حكومة أبخركية خاضعة لسيطرة اسبارطة . وأثارت هذه الأزمة في نفس طيبة بطولة لا عهد لها بها . فاغتال پلپيداس Plopidas وستة من رفاقه طغاة طيبة الأربعة صنائع اسبارطة ، وأعادوا إلى المدينة حريتها واستقلالها . وأعيد تنظيم الحلف واختير پلپيداس زعيماً له ، واستدعى پلپيداس لمعونته صديقه وحييه إياميننداس ، فدرّب الجيش الذى أعاد اسبارطة إلى عزلتها القديمة ، وقاده بنفسه في المعارك التى انتهت بهذه النتيجة .

وكان إياميننداس من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر تفخر بأن ترجع بأصولها إلى أنياب الهولة التى زرعها كدمس قبل مولده بألف بعام . وكان رجلاً هادئاً قليل عنه لأنه ليس بين الناس من هو أقل منه كلاماً أو أكثر منه معرفة (٧) ؛ وقد حبه إلى أهل طيبة ، على الرغم من النظام العسكرى الذى أخذهم به ، تواضعه واستقامته ، وحياته التى لا تكاد تفرق فى شيء عن حياة الزهاد ؛ وإخلاصه لأصدقائه ، وسداد رأيه إذا استنصح ، وشجاعته

المصحوبة بالتؤدة ، ضبط النفس وقت العمل : ولم يكن يحب الحرب ولكنه كان يعتقد أنه لا توجد أمة على ظهر الأرض تستطيع الاحتفاظ بجزيتها إذا فقدت روحها وعاداتها الحربية . ولما اختير المرة بعد المرة رئيساً للحلف البوثوي حذر الذين أرادوا أن يعطوه أصواتهم بقوله : « فكروا في الأمر مرة أخرى لأنى إذا وليتمونى قيادتكم سأضطر كم إلى الخدمة فى جيشى » (٨) .
ودرب الطيبون المترخون تحت قيادته حتى صاروا جنوداً بواصل ، وحتى العشاق اليونان الذين كثر عددهم فى المدينة ألف منهم بليداس « عصابة مقدسة » تبلغ عدتها ثلاثائة من المحاربين قطع كل منهم على نفسه عهداً بأن يقف فى المعركة إلى جانب صديقه حتى يموت .

ولما غزا بوثوية جيش اسبارطى عدته عشرة آلاف جندى يقوده الملك كليمبروتس ، التقى به إيامينداس عند لكثرا بالقرب من پلانية ومعه ستة آلاف رجل وانتصر عليه نصراً كان له أعظم الأثر فى تاريخ اليونان كله وفى أساليب أوروبا العسكرية . وكان هو أول يونانى وجه عنايته إلى دراسة الحركات العسكرية ، وكان يقدر على الدوام أنه سيواجه فى كل معركة عدواً يفوقه فى عدد الرجال ، فكان يركز نخبه مقاتليه ليهاجم بهم أحد جناحي العدو ؛ ثم يأمر بقية الجيش أن تلتزم خطة الدفاع ، فإذا تقدم العدو فى القلب أمكن تشتيت شمله بهجوم على جناحه الأيسر . ولما تم له النصر فى واقعة لكثرا زحف هو وبليداس إلى الپلوپونيز وحررا مسينيا من تبعيتها لإسپارطة التى دامت قرناً من الزمان ، وأسسا مدينة مغالوپوليس لتكون مقبلاً لجميع الأركاديين . ونزل الجيش الطيبى إلى لكونيا نفسها ؛ وتلك حادثة لم يكن لها مثل منذ مئات من السنين ، ولم تستفق إسپارطة قط مما لحق بها من الهزيمة فى هذه الحملة : « فلم تستطع » على حد قول أرسطاطاليس « أن تفيق من هزيمة واحدة ، وقضى عليها قلة عدد مواطنيها » (٩) .

ولما أقبل فصل الشتاء انسحب الطيبون إلى بوثوية . واغتر إيامينداس

بالنصر كما كان يغير به سائر قواد اليونان المنتصرون ، فبدأ يفكر في إنشاء إمبراطورية طيبية تحمل محل الوحدة التي أفاءتها زعامة أثينة أو اسپارطة من قبل على بلاد اليونان ، وقد جرت هذه الخطة إلى محاربة الأثينيين ، وأرادت اسپارطة أن تسترد مكانتها السابقة فتحالفت مع أثينة ، والتقت جيوش الأعداء عند منينيا عام ٣٦٢ ق : م ، وانتصر إلامينداس في هذه المعركة ، ولكنه قتل في أثناءها بيد جرس Gryllus بن أكسانوفون . ولم تكن هلاس خيراً دائماً من زعامة طيبة القصيرة . نعم إنها حررت بلاد اليونان من طغيان اسپارطة ، ولكنها عجزت ، كما عجز من قبلها ، عن أن توجد خارج نطاق بوثة وحدة متجانسة متماسكة ؛ وكان من أثر النزاع الذي خلقته في بلاد اليونان أن أضحت الدول اليونانية من أثره مضطربة ضعيفة عاجزة عن لقاء فليب حينما انقض عليها من الشمال .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأثينية الثانية

وحاولت أثينة للمرة الأخيرة أن تولف هذه الوحدة : واستطاعت بفضل أسوارها الطويلة ، وأساطيلها التي جددت بناءها ، وماليتها الثابتة الموثوق بها ، وما تيسر لها من زمن بعيد من الوسائل المالية والتجارية ، استطاعت بفضل هذا كله أن تستعيد ما كان لها من سيادة تجارية في بحر إيجه . وكانت الدول التي خضعت لها من قبل والدول المتحالفة معها قد علمتها الحروب التي دامت خمسين عاماً كاملة أنها في مسيس الحاجة إلى سلامة أعظم مما تهبوه لها السيادة الفردية ، ولهذا انحدت معظم هذه الدول مرة أخرى في عام ٣٧٨ بزعامة أثينة ، ولم يجل عام ٣٧٠ حتى كانت هذه المدينة مرة أخرى أقوى الدول سلطاناً في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الصناعة والتجارة هما وقتئذ عماد حياتها الاقتصادية . ذلك أن أرض أتكالم تكن في يوم من الأيام مما يوائم الزراعة الجماعية . نعم إن العمل الشاق الطويل قد جعلها أرضاً مثمرة بفضل عناية الأهلين بأشجار التوت وبالكروم ، ولكن الإسبارطيين كانوا قد دمروا هذه الغروس ، وقلموا كان من المزارعين من يستطيع الصبر نصف جيل حتى تثمر بساتين الزيتون الجديدة ثمارها . وكان معظم الزراع الذين عاشوا قبل الحروب قد قضوا نجبهم ، وكان معظم من بقى من الزراع قد دب اليأس في نفوسهم فمنهم أن يعودوا إلى أملاكهم المحرقة فباعوها بأبخس الأثمان للملاك يستغلونها وهم بعيدون عنها ، وفي وسعهم أن يستثمروا أموالهم فيها استثماراً طويل الأجل . وبهذه الطريقة ، وبانتزاع ملكية الأراضي الزراعية المثقلة بالدين ، انتقلت هذه الأراضي في أنكا إلى أيدي عدد قليل من الأسر كانت

تستغل كثيراً من المزارع الواسعة بجهود الأرقاء^(١٠) ، وأعيد فتح مناجم لوريوم ، وأرسل إلى الخضر ضحايا جدد ، وتكونت ثروات جديدة من الفضة الغفل ومن الدماء البشرية ، وعرض أكسانوفون^(١١) طريقة ظريفة تستطيع بها أئينة أن تملأ خزائنها بالمال ، ولا تكلفها أكثر من أن تشتري مائة ألف من الأرقاء تؤجرهم إلى المقاولين في لاريوم . وأثمرت هذه الطريقة ثمرتها المرجوة فاستخرجت من الفضة مقادير تفوق ما كان ينتج من السلع ، فارتفعت الأثمان أسرع من ارتفاع الأجور ، ووقع حياء هذا الانقلاب على كامل الفقراء :

وازدهرت الصناعة وتلقت محاجر بنتلكس مصانع الفحم في السرمكس طلبات من عالم بحريجية كله . وجمع بعضهم ثروات طائلة بشراء منتجات الصناع اليدويين أو المصانع الصغيرة بأثمان بخسة وبيعها بعدئذ بأعلى الأثمان في الأسواق المحلية أو الخارجية . وسرعان ما تضاعف عدد المصارف المالية في أئينة تبعاً لنمو التجارة وتجميع الثروة النقدية بدل الثروة العقارية . وتلقت هذه المصارف كثيراً عن النقود أو اللوائح القيمة لحفظها لديها ، ولكن يلوح أنها لم تكن تؤدي فوائد من هذه الودائع . وسرعان ما وجد أصحاب المصارف أن هذه الودائع لا تسترد كلها في وقت واحد في الظروف العادية ، فشرعوا يقرضون المال بفوائد عالية ، وقتصروا في بادئ الأمر على إقراض المال دون الاشتغال بوسائل الائتمان الأخرى ، فكانت تضمن عملاءها ، وتحصل لهم مطلوباتهم ، وتقرض النقود بضمان العقار أو النفائس ، وتمتد السفن التي تنقل البضائع بحاجتها من المال . وكان في وسع التاجر ، بفضل هذه المصارف وأكثر من هذا بفضل القروض التي يقدمها الأفراد مجازفة منهم ومضاربة بلخي الأرباح الطائلة ، أن يستأجر سفينة ينقل عليها بضاعته إلى إحدى الأسواق الأجنبية ، ويشترى منها بدل هذه البضاعة شحنة أخرى ، إذا وصلت إلى يبرية بقيت فيها ملكاً لأصحاب الديون حتى يستردوا ديونهم^(١٢) ، ولما تصرف بعض القرن الرابع نشأ نظام من نظم الائتمان الحقيقي : فشرع

أصحاب المصارف يصدرون خطابات الاعتماد ، والأذون المالية ، والتحويلات المصرفية بدل أن يقدموا النقود ؛ وبهذه الطريقة أصبحت الثروة تنتقل من عميل إلى عميل بتدوينها في سجلات المصارف لا غير^(١٣) . وكان رجال الأعمال أو أصحاب المصارف يصدرون السندات للحصول على القروض التجارية ، حتى صارت هذه السندات جزءاً كبيراً من كل شركة . وكان لبعضهم - كالمعتوق پاسيون مثلاً - صلات مالية متشعبة ، واشتهروا بين الناس بأمانتهم ونزاهتهم فوثقوا بهم ، وكانت سنداتهم موضع الثقة في جميع بلاد اليونان : وكان لمصرف پاسيون Pasion أقسام متعددة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين معظمهم من الأرقاء ، ويحفظ بطائفة كبيرة من السجلات المختلفة الأنواع تدون فيها كل عملية مالية بعناية فائقة جعلت في المحاكم أدلة لا يقبل الطعن فيها . ولم يكن إفلاس المصارف أمراً غير مألوف ، ويحدثنا المؤرخون عما كان يحدث من « ذعر » مالي يغلط فيه مصرف بعد مصرف أبوابه^(١٤) . وكانت توجه أحياناً إلى المصارف ، ومنها أعظمها نفوذاً ، تهم خطيرة من سوء استعمال ما آل إليها من سلطان ، وكان الناس ينظرون إلى رجال المصارف نظرة يجتمع فيها من الحسد والإعجاب ، والكرهية مثل ما يجتمع في نظرة الفقراء إلى الأغنياء في جميع العصور^(١٥)

وأنتج تبدل الثروة من عقارية إلى منقولة كفاحاً شديداً للحصول على المال ، وكان لا بد للغة اليونانية من أن تخترع لفظاً تعبر به عن هذه الشهوة الجاحمة للحصول على « أكثر فأكثر » من المال ، فأطلقت عليها لفظ « بليونكسيا Pleonexia » ولفظاً آخر يعبر عن الانهماك في طلب الثراء « كرماتستيكي Chrematistike » . وأخذت السلع والخدمات من ذلك الوقت تقدر قيمتها بالمال ؛ بل إن الناس أنفسهم أصبحوا يقدرون به وبما يمتلكون منه ، وأصبحت الثروات تتكون ثم تزول بسرعة لا عهد للناس بها ، وتنفق في مظاهر من البذخ لو شهدتها أئينة في عصر بركليز لارتاعت واهتزت منها مشاعرهما . فأخذ « الأثرياء المحدثون » (وكان له

عند اليونان اسم خاص هو نيوبلوتوى (neoplutoi) يشيدون البيوت الكثيرة الزخرف ، ويزينون نساءهم بالملابس والجواهر الغالية ، ويفسدونهن بكثرة الخدم ، وأصبح تقديم أغلى أصناف المأكول والمشرب للضيوف دون غيرها من المأكوت والمشروبات هو القاعدة المقررة المألوفة (١٦) .

وانتشر الفقر وسط هذه الثروة الطائلة ، ذلك بأن حرية التبادل وأنواعه المختلفة اللتين أمكتنا مهرة الناس من جمع المال جعلتا السدج منهم يفقدونه أسرع مما كانوا يفقدونه من قبل ، فكان الفقراء في نظام الاقتصاد التجارى الجديد أفقر نسبيا مما كانوا في أيام استرقاقهم في أملاك الإقطاعيين ؛ فكان الفلاحون في الريف يكسحون ليحصلوا بكسحهم وعرقهم على قليل من الزيت أو الخمر ؛ وفي الحواضر ظلت أجور العمال الأحرار منخفضة المستوى بسبب منافسة الأرقاء ؛ وكان مئات من المواطنين يعتمدون في معيشتهم على الأجور التي ينالونها نظير حضور جلسات الجمعية أو المحاكم ؛ ولم يكن آلاف من الناس يجدون طعاما إلا ما تقدمه لهم المعابد أو الدولة ، ولا يملكون شيئا . وفي عام ٤٣١ وبلغ عدد من لا يملكون شيئا قط من الناخبين (دج عنك عدد السكان بوجه عام) خمسة وأربعين في المائة من مجموعهم الكلى ، فلما حلت سنة ٣٣٥ ارتفعت هذه النسبة إلى سبعين وخمسين في المائة (١٧) . ونقدت الطبقات الوسطى ، التي كانت لكثرة عددها وسلطانها تحفظ التوازن بين الأشراف والعامه ، جزءا كبيرا من ثروتها ، ولم يعد في وسعها أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، بين المتحفظين الشديدي العناد والخياليين المتطرفين ، وبذلك انقسم المجتمع الأثيني إلى « مدينتى » أفلاطون - « إحداهما مدينة الفقراء والأخرى مدينة الأغنياء ، وكلاهما في حرب مع الأخرى » (١٨) . وأخذ الفقراء بضغون الخطط لسلب مال الأغنياء بالتشريع أو الثورة ، كما أخذ الأغنياء ينظمون أنفسهم جماعات لاتقاء شر الفقراء . ويقول أرسطاطليس إن المنتمين إلى بعض النوادي الجركية كان كل منهم يقسم بأن « أكون علو الشعب »

(أى العامة) « وأن أوزيهم في المجلس يكل ما أستطيع من الأذى » (١٩) .
وقد كتب إسقراط حوالى عام ٣٦٦ يقول : « لقد أصبح الأغنياء يتفرون
من سائر الطبقات الأخرى نفوراً يفضلون معه أن يلقوا بثروتهم في البحر
عن أن يعينوا بشيء منها المحتاجين على حين أن الرقيق الحال يسرهم أن
يتنبهوا أموال الأغنياء أكثر مما يسرهم العثور على كنز ثمين » (٢٠) .

وانحاز عدد متزايد من أفراد الطبقات المتعلمة إلى جانب الفقراء (٢١) .
ذلك بأنهم كانوا يحفرون التجار ورجال المصارف لما بدا لهم من أن ثروتهم
تناسب تناسباً عكساً مع ثقافتهم وأذواقهم . وحتى الأغنياء من هؤلاء العلماء
أخذت تلور بخلدتهم أفكار شيوعية . وكان بركليز قد اتخذ من الاستعمار
صمام أمان ليقابل به حدة النزاع بين الطبقات (٢٢) ؛ ولكن ديونيشيوس كان
يسيطر على الغرب ، ومقدونية كانت تمد أملاكها في الشمال ، فأخذت الصعاب
تزداد في سبيل فتح أثينة بلاداً جديدة والاستقرار فيها . واستحوذ الفقراء في
آخر الأمر على جميع السلطة في الجمعية وشرعوا يقررون مصادر أموال
الأغنياء ويحولونها إلى خزائن الدولة ، لتوزعها من جديد على المحتاجين
والناخبين عن طريق المشروعات الحكومية والأجور (٢٣) . وأخذ رجال
السياسة يبذلون كل ما في وسعهم من جهود ويستخدمون كل ما وهبوا من
ذكاء ايكشفوا عن موارد جديدة لزيادة إيراد الدولة ، فضاغفوا الضرائب
غير المقررة ، والضرائب الجمركية على الواردات والصادرات ، وضريبة
الواحد في المائة على نقل الملكية العقارية ، وظلوا في وقت السلم يجبون الضرائب
غير الاعتيادية التي قررت زمن الحرب ، وأخذوا يطالبون بالتبرعات
« الاختيارية » ، وفرضوا على الأغنياء « فروضا » أو « خدمات » جديدة
مزايدة لتمويل المشروعات العامة من أموالهم الخاصة . وكانوا يلجأون بين
الفينة والفينة إلى مصادر الأموال ونزع الملكيات ، ووسعوا نطاق ضريبة
الإيراد حتى شملت مستويات من الثروة أدنى مما كانت تشملها من قبل (٢٤) ،

وكان في وسع كل من يلقى عليه عبء إحدى الخدمات العامة أن يستعين بالقانون لكي يرغم غيره على أدائها إذا استطاع أن يثبت أن هذا الممول الثاني أكثر منه ثروة ، وأنه لم تفرض عليه خدمة ما في خلال سنتين . وعملوا على تسهيل جميع الإيراد بتقسيم دافعي الضرائب إلى مائة جماعة من الشركاء . فكان يطلب إلى أغني الأعضاء في كل جماعة أن يؤدوا في بداية كل سنة ضرائبية جميع الضريبة المفروضة على هذه الجماعة طوال السنة ، ثم يترك لهم بعدئذ أن يجوبوا في خلال السنة ما يخص غيرهم من الأعضاء بما يرونه من الوسائل .

وكانت نتيجة هذه الفروض أن أخذت الجماعات والأفراد تخفي ثروتها وإيرادها لإخفاء تاماً ، وانتشر التهرب من الضرائب بين الناس جميعاً ، وتفطنوا في أساليبه تفنن الدولة في فرضها وجبايتها . وفي عام ٣٥٥ عين أندروتيون Androtion على رأس فرقة من رجال الشرطة مهمتها البحث عن الإيرادات الخبوءة ، وجباية الضرائب المتأخرة ، وحبس الذين يفرون من الضرائب ، فكانت تكبس البيوت وتضادر الأمتعة ، ويلقى الرجال في السجون . ولكن الثروة مع ذلك ظلت تختفي أو تدوب . وقال إسقراط الشيخ الغني الغاضب في عام ٣٥٣ يشكو مما فرض عليه من خدمات : « لما كنت في صباى ، كانت الثروة تعد من الأشياء المأمونة التي يعجب بها الناس ، حتى كان الواحد منا يتظاهر بأن لديه أكثر مما يملك فعلاً . . . أما الآن فقد أصبح من واجب كل إنسان أن يدفع عن نفسه تهمة الغنى ، كأن هذا أشنع الجرائم » (٢٥) . ولم تكن الطريقة التي اتبعت في غير أثينة لمنع تركيز الثروة تستند إلى القاتون كما كانت تستند إليه فيها . من ذلك أن المدينين في متلبنى قتلوا دائتهم جملة بحجة أنهم جياع ، وأن الديمقراطيين في أرغوس (٣٧٠) انقضوا فجاءة على الأغنياء وقتلوا منهم ألفاً ومائتين ، وضادروا أملاكهم ، وعقدت الأسر الغنية في غير هذه من الدول التي كان العداء قائماً بينها لغير هذا من الأسباب حلفاً سرياً تعهدت فيه أن يساعد بعضها بعضاً إذا قامت

في إحداهما ثورات شعبية . وأخذت الطبقات الوسطى تحذو حذو الطبقات العليا في عدم الثقة بالديمقراطية وترى أنها حسد أتيح له السلطان ، كما أخذ الفقراء يفقدون ثقتهم فيها ويرونها مساواة زائفة بين الناخبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات . وقد تركت هذه الأحقاد المريرة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً ودولياً حين انقض عليها فليب ، حتى لقد رحب بقدومه كثيرون من الأغنياء في المدن اليونانية ، ورأوا أنه لولاه لما كان هناك مفر من اندلاع لهيب الثورة في أرجائها (٢٦) .

وسار الانهيار الخلقى مع ازدياد الترف واستنارة العقل جنباً إلى جنب ، واعتزت العامة بجغرافياتها واستمسكت بأساطيرها ، فقد كانت آلهة الأوبليس تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن آلهة أخرى كانت تولد ، فكانت أرباب غريبة مثل لايزيس وأمون ، وأتيس ، وبنديس ، وسيل ، وأدنيس تستورد من مصر وآسية ؛ وجمع انتشار الألفية عباداً جدد للديونشس في كام يوم . ولم يكن للدين التقليدي القديم فائدة تذكر لطبقة الملاك الوسطى النصف الأجنبية الآخذ شأنها في الارتفاع ، فلم تكن آلهة المدينة التي ترعاها تنال من هذه الطبقة إلا الاحترام الصوري الرسمي ، ولم تعد توحى إلى أفرادها بالمبادئ الخلقية أو الإخلاص للدولة والولاء لها(*) . وكافحت الفلسفة لكي تجمد في الولاء السياسي ومبادئ الأخلاق الطبيعية بديلاً من الأوامر الإلهية ، أو أن تتخذ منها رباً يرقب الناس من على ، ولكن قل من المواطنين من كان يسهه أن يعيش عيشة البساطة السقراطية أو عيشة رجل سقراط السامى « ذى العقل العظيم » .

ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلمة زاد بالتدريج تحرر الأفراد

(*) يقول أفلاطون (في القوانين صفحة ٩٤٨) : « والآن وفي الناس طائفة لا تؤمن قط بوجود الآلهة ... أصبح الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التي تقسمها كلتا الطائفتين » .



(شكل ٤٠) نقش بارز من صريح ملكزنس (الصف البريطاني)

من القيود الأخلاقية القديمة - فتحرر الابن من سلطان أبيه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحررت المرأة من الأمومة ، وتحرر المواطن من التبعية السياسية . وما من شك في أن أرسطوفان قد بالغ في وصفه لهذه التطورات ، وإذا كان أفلاطون ، وأكسانوفون ، وإسقراط كلهم يتفقون معه في رأيه ، فإنهم كانوا جميعاً من المحافظين الذين ترتعد فرائضهم من مثال الجليل الناشئ الجديد . وتحسنت أخلاق الناس في الحبيب خلال القرن الرابع ، وجاءت موجة من الإنسانية المستنيرة . أعقاب تعاليم يوربديز وإسقراط والمثل الذي ضربه للناس أجسولوس (٢٧) . ولكن الآداب والجنسية السياسية ظلت سائرة في طريق الانهيار ، وزاد عدد العزاب والسراى وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هي الطراز الحديث الذي يهواه الناس ، كما أن الاتصال الحر بين الرجال والنساء أصبحت له الغلبة على الزواج الشرعي (٢٨) . انظر مثلاً إلى هذا السؤال الذي يسأله أحد الأشخاص في مسلاة ألفت في القرن الرابع : « أليست الحظية مرغوباً فيها أكثر من الزوجة ؟ ولم لا ؟ إن إحداهما في جانبها القانون الذي يرغمنا على الاحتفاظ بها ، مهما تكن كارهين لها ، أما الأخرى فهي تعلم أن من واجبها أن تتسلط على الرجل بحسن سلوكها ، وإلا فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره (٢٩) ، وعلى هذا النحو عاشر بركستيلز ومن بعده هيريديز Hyperides فريني Phryne ، وعاشر أرسنبوس لثيس Lais ، وعاشر أستلبو Stilpo نكريتي Nikaeete ، وعاشر ليسياس متيرا Metaneira ، وعاشر إسقراط الصارم لجسكيوم Lagiscium (٣٠) . وفي ذلك يقول ثيويميس مبالغاً في قوله كمادة رجال الأخلاق : « لقد كان الشبان يقضون كل أوقاتهم بين السراى والقيان . أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلاً فكانوا منهمكين في اليسر والفسق ، وكان الناس كلهم يتفقون على المآذب العامة والملاهي أكثر مما يتفقونه على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها (٣١) »

وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختيارياً هو الطراز العصري في ذلك الوقت ؛ وكانوا يصلون إلى هذا الغرض بمنع الحمل ، أو الإجهاض ، أو قتل الأطفال : ويقول أرسطاطاليس إن بعض النساء كن يمنعن الحمل بطلاء جزء الرحم الذي يسقط عليه منى الرجل بزيت شجر الأرز ، أو بمرهم الرصاص . أو الكنندر الممزوج بزيت الزيتون (*) (٣٢) . وكانت الأسر القديمة سائرة في طريق الانقراض فلم تكن توجد ، على حد قول إسقراط ، إلا في قبورها ؛ وأخذت الطبقات الدنيا يتضاعف عدد أفرادها ، أما طبقة المواطنين في أتكا فقد نقص عددها من ٤٣٠٠٠ في عام ٤٣١ إلى ٢٢٠٠٠ في عام ٤٠٠ وإلى ٢١٠٠٠ في عام ٣١٣ (٣٣) . ويقابل هذا نقص في عدد المواطنين الذين كانوا يجندون للخدمة العسكرية ؛ ويرجع بعض هذا النقص إلى مذابح الحرب ، وبعضه إلى قلة من لهم في الدولة أملاك يتحتم عليهم الدفاع عنها ، وبعضه إلى رغبة الناس عن الخدمة العسكرية . ذلك أن حياة الدعة والانصراف إلى العناية بالشئون المنزلية ، والانهماك في الأعمال التجارية والصناعية ، وطالب العلم ، كل ذلك قد حل محل حياة الرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ، والعناية بالشئون العامة ، وهي الحياة التي كان يألفها الناس في عهد بركليز (٣٤) . فأما الرياضة فقد أصبحت حرفة ، وصار المواطنون الذين كانوا في القرن السادس يملأون مدارس التدريب الرياضية يقنعون الآن بأن يجهد غيرهم أنفسهم بالنيابة عنهم ، وحسبهم هم أن يشاهدوا استعراض المحترفين . وكان بعض الشبان يتلقون بعض الدروس في فن الحرب ، ولكن الكبار كانوا يجلبون عشرات من الطرق للهرب من الخدمة العسكرية . وأضحت الحرب نفسها مهنة بسبب ما دخل عليها من التعقيدات الفنية ، تحتاج إلى رجال مدربين

(*) إذا شاء القارئ أن يعرف استعمال زيت الزيتون لهذا الغرض ذاته في الوقت الحاضر فليطلع على كتاب التاريخ الطبي لمنع الحمل **Medical History of Contraception** تأليف هيمز Himes ص ٨٠ .

لها تذكيراً خاصاً يستغرق وقتهم كله ؛ وكان لا بد من استبدال الجنود المرتزقة بالمحاربين المواطنين ، وكان هذا نديراً بأن زعامة بلاد اليونان لن تلبث أن تنتقل من رجال السياسة إلى رجال الحرب . وبينما كان أفلاطون يتحدث عن الملوك الفلاسفة ، كان الملوك العسكريون ينشئون تحت سمعه وبصره . وكان مرتزقة اليونان يبيعون أنفسهم إلى القواد سواء كانوا من اليونان أو « البرابرة » بلا تفریق بين هؤلاء وأولئك ؛ ولقد حاربوا في الجيوش التي غزت بلاد اليونان بقدر ما حاربوا دفاعاً عنها ، وشاهد ذلك أن الجيوش الفارسية التي واجهها الإسكندر كانت مملأى باليونان ؛ فلم يكن الجنود وقتئذ يسفكون دماءهم دفاعاً عن بلادهم ، بل كانوا بسفكونها في سبيل من يؤدي لهم أكبر الأجور .

وظل الفساد السياسي والاضطراب اللذان أعقبا موت بركليز سائرين في طريقهما خلال القرن الرابع ، إذا استثنينا من ذلك حكم يكلديز الطاهر النزيه (٤٠٣) ، وإدارة ليقورغ المالية (٣٣٨ - ٣٢١) . فالرشوة مثلا كان يعاقب عليها ، حسب نص القانون ، بالإعدام ؛ لكن إسقراط يقول إن المرتشى كان يجزى على ارتشائه بالترقي في المنصب العسكرية والسياسية . ولم يجد الفرس أية صعوبة في إرشاء ساسة اليونان وحملهم على أن يشنوا الحرب على الدول اليونانية أو على مقلونيتها ، وحتى دمسيتين نفسه أصبح في آخر الأمر مرآة تنعكس عليها أخلاق أهل زمانه . لقد كان من أنبل الأفراد في جماعة من أحط الجماعات في أثينة - أعني جماعة الخطباء المأجورين الذين صاروا في ذلك القرن محامين وساسة محترفين . ومن هؤلاء الناس من كانوا مثل ليقورغ شرفاء معقولين ، ومنهم من كانوا مثل هيردين ذوى شهامة ومروءة ، ومنهم من لم يكونوا خيراً مما وجب عليهم أن يكونوه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنهم أرسطاطاليس فقد كان منهم من تخصص في إبطال نصوص الوصايا^(٣٦) . وجمع الكثيرون منهم ثروات طائلة بانتهاز الفرص السياسية وبالتهريج والخطابة في الجماهير .

وانقسم الخطباء المأجورون أحزاباً ، نومزقوا الهواء بحملاتهم ، ونظم كل حزب لنفسه بلحانا ، ووضع له كلمات سر ، وعين له وكلاء ، وجمع له مالا . وكان الذين يؤدون نفقات هذه الأعمال كلها يعترفون صراحة بأنهم « سيستردونها ضعفين » (٣٧) .

وكانت الروح الوطنية تضعف كلما زادت السياسة قوة واستنفدت . مرارة الانقسام كل الجهود العامة والوفاء للوطن ، فلم تترك للمدينة من هذه الجهود وذلك الإخلاص إلا القليل الذي لا يغني ، وكان دستور كليستنيز ، والنزعة الفردية التي أثارها التجارة والفلسفة ، قد زعزعا كيان الأسرة ، وحررا الفرد ؛ وكأنما أراد الفرد الحر وقتئذ أن يثار للأسرة . مما أصابها من انحلال فهوى بمعوله على الدولة يقوض أركانها .

وأراد الديمقراطيون المنتصرون في عام ٤٠٠ ق . م أو حواليه أن يضمنوا حضور المواطنين الفقراء في الإكليزيا ، وأن يمنعوا بذلك ذوى الأملاك أن تكون لهم السيطرة عليها ، فجعلوا حضور الجمعية هو الآخر عملا من الأعمال التي يؤجر الناس عليها . وكان كل مواطن في بادئ الأمر يؤجر على حضور الجلسة أبلة (بيلب من الريال الأمريكى) ، ولما زادت نفقات المعيشة زيد هذا الأجر إلى أبلتين ، ثم إلى ثلاث أبلات ، وظل يزداد حتى كان في زمن أرسطاطاليس درخمة (أى ريالاً أمريكياً) عن اليوم الواحد (٣٨) .

ولقد كان هذا في حد ذاته تدبيراً معقولاً لا غبار عليه ، لأن المواطن العادى كان يكسب في أواخر القرن الرابع درخمة في كل يوم ؛ ولم يكن ينتظر منه أن يترك عمله دون أن يعرض عن تركه . وما لبثت هذه الخطة أن جعلت للفقراء الأغلبية في الجمعية ، ويئس الأغنياء من الانتصار فيها . فزاد إعراضهم عنها تدريجاً ، وامتنعوا عن حضور جلساتها . وعدل الدستور في عام ٤٠٣ وقصر حق التشريع على هيئة مكونة من خمسة مشرعين nomothetei يختارون من بين المواطنين الذين انتخبوا بالقرعة ليكونوا :

قضاة ، ولكن هذا التعديل لم تكن له أقل فائدة في الحد من طغيان الطبقات الدنيا . ذلك أن هذه الهيئة الجديدة انحازت هي الأخرى إلى جانب العامة ، والانتفاص من سلطانه . ويبدو أن مستوى الذكاء في الجمعية قد نقص في القرن الرابع ، ولعل منشأ هذا النقص هو أداء الأجور على حضور جلسات الجمعية . نقول هذا ببعض التحفظ لأن الذين نعتمد عليهم في هذا القول هم الرجعيون المتحيزون أمثال أرسطوفان وأفلاطون^(٣٨) . ويقول إسقراط إن أعداء أثينة هم الذين يجب عليهم أن يؤدوا الأجور لحضور جلسات الجمعية حتى يكثر اجتماعها ، وذلك لكثرة ما ترتكبه من الأغلاط^(٣٩) في أعمالها .

وخسرت أثينة بسبب هذه الأغلاط لإمبراطوريتها وحريتها جميعا . ذلك أن الحرص الشديد على المال والسلطان الذي قوض أركان الحلف الأولى قد دك وقتل قواعد الحلف الثاني أيضاً ، فقد شعرت أثينة بعد سقوط إسبارطة في لكثرا أن في وسعها الآن أن توسع أملاكها ، وكانت وهي تنظم إمبراطوريتها الجديدة قد قطعت على نفسها عهداً ألا تسمح للرعايا الأثينيين بامتلاك أرضين خارج حدود أتكا^(٤٠) . ولكنها بعد أن فتحت ساموس ، والكرسنيز التراقية ، ومدائن پدنا ، وپوتيدبا ، وميتوني على سواحل مقدونية وتراقية استعمرتها على أيدي المواطنين الأثينيين . واحتجت على ذلك الدول المتحالفة معها وانسحب الكثير منها الحلف . واستخدمت أثينة وسائل القسر والعقاب التي استخدمتها من قبل في القرن الخامس ، ولكنها لم تجن من ورائها فائدة في هذه المرة كما لم تجن منها فائدة في المرة السابقة . وكانت النتيجة أن أعلنت طشيوز ، وكوس ، ودرس ، وپيزنطية في عام ٣٥٧ « حرب » عصبان « اجتماعية » : ولما أن رفض تموثيوس Timotheus وأفكراتيز ، وهما قائدان من أعظم القواد الأثينيين كفاية ، أن يهاجما الأسطول الثائر في الهلسنت أثناء عاصفة هوجاء ، أتهمهم الجمعية

بالجين ، وفرضت على تموثيوس غرامة باهظة لا قبل لأحد بأدائها قدرها مائة وزنة (٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكي) . فلم يجد أمامه سبيلا إلا الفرار من البلاد ، وبرئ إفكرتيز ولكنه لم يقيم لأثينة بخدمة ما فيها بقى من حياته . وأحبط الثوار كل ما بذلته من محاولات لإخضاعهم ، فاضطرت في عام ٣٥٥ إلى أن توقع صلحا تعترف فيه باستقلال بلادهم ، وأضحت المدينة العظيمة بلا أحلاف ، ولا زعماء ، ولا مال ، ولا أصدقاء .

ولعل عوامل أخرى أدق وأخفى من العوامل السابقة كان لها أثر في إضعاف أثينة . ذلك أن حياة الفكر تعرض للخطر كل حضارة تزدان بهذه الحياة . ففي المراحل الأولى من تاريخ الأمة قل أن يكون للتفكير وجود ، بل الذى يسود وينتشر هو العمل ، ويكون الناس في هذه المرحلة صريحين ، محررين من عوامل الكبت جريئين في مشاكساتهم وصلاتهم الجنسية . وكلما أرتقوا في مدارج الحضارة وفرضت عليهم العادات ، والأنظمة ، والشرائع ، وقواعد الآداب والأخلاق ، قيودا تزداد على مر الأيام كبتاً للغرائز ، حل التفكير محل العمل ، والخيال محل الإقدام ، والاحتيال محل الصراحة ، والحفاء محل التعبير الصادق ، والعطف محل القسوة ، والشك محل اليقين ؛ وزالت الوحدة الأخلاقية التي يشترك فيها الإنسان البدائي مع الحيوان ؛ وأصبح السلوك مجزءا طابعه التردد ، والإدراك ، وتقدير العواقب ، وضعفت الرغبة في القتال ، واستحالت ميلا إلى الجدل الذى لا يقف عند حد : وما أقل الأمم التي استطاعت أن تصل إلى الرقي العقلي والإحساس القوى بالجمال من غير أن تضحي في سبيل ذلك بالقدر الكثير من رجولة أبنائها ووحدها ، فلم تستطع صد الاقوام المدمجين الطامعين في ثروتها : فحول كل رومة يحوم الغاليون ، وحول كل أثينية يحوم المقده نيون .

أفضل الرابع

نهضة سراقوصة

كانت سراقوصة طوال القرن الرابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة ، رغم ما كان ينتابها من الاضطرابات السياسية الكثيرة . وكان ملكها ديونيشيوس الأول مجرداً من الضمير ، خائناً غداراً ، مختللاً مغروراً ، ولكنه كان أقدر رجال زمانه في الشؤون الإدارية . حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكناً له ، وسور الطريق الذي يوصلها بأرض القارة ، فأصبح مركزه فيها أمنع من عقاب الجو ، ثم ضاعف أجور جنده ، وقادم بنفسه إلى انتصارات هينة ، فحجب نفسه إليهم وكسب ولائهم ؛ فاستطاع البقاء على العرش ثمانية وثلاثين عاماً . ولما أن ثبت قواعد حكمه استبدل بسياسة القسوة التي نهجها في بداية أمره سياسة رحيمة استرضى بها الأهليين ، وبسط على البلاد حكماً استبدادياً طابعة العدالة والمساواة (*) ، وأقطع ضباطه وأصدقائه أجزاء من أحسن الأراضي وأعظمها خصبا ، وخص جنوده بجميع المساكن في أرتيجيا والطريق الموصل إليها إلا القليل النادر منها ، ووزع كل ما بقي من أرض سراقوصة وما حولها على سكان المدينة الأحرار منهم والأرباء من غير تمييز بينهم . وبهديه وإرشاده ازدهرت سراقوصة ، وإن كان قد فرض عليها من الضرائب ما لا يكاد

(*) ولما حكم على فتياص Phintias (المسمى خطأ بيتياص Pythias) الفيثاغوري بالإعدام لاشراكه في إحدى المؤامرات ، استأذن فتياص في أن يذهب إلى منزله يقضى فيه يوماً ينظم فيه شعونه . وعرض صديقه دامو Damon (وهو غير دامون معلم الموسيقى ليركليز وسقراط) أن يكون رهينة له حتى يعود ، وعرض أن يعلم إذا لم يعد فتياص . ولكن فتياص عاد ودعش ديونيشوس كما دعش تايلون فيما بعد من أن يبلغ الإخلاص بين الأصدقاء هذا المبلغ ، فمعا عن فتياص ، ورجاه أن يكون هو زميلاً لها في هذه الصداقة المعينة .

يقول عما فرضته الجمعية على الأثينيين . ولما أن أسرفت نساء المدينة في زيتهن أعلن أن دمترا قد جاءته في الحلم وأمرته أن يجمع حلى النساء كلها ويودعها في معبدها . وصدع الملك بأمر الإلهة ، وصدعت به كذلك معظم النساء ؛ ثم ما لبث أن « اقترض » الحلى من دمترا ليحول بها حروبه (٤٣) .

ذلك أن خططه كلها كانت تهدف إلى إخراج القرطاجيين من صقلية . وقد آلمه وحز في نفسه أن يستطيع هنيئال استخدام آلات التدمير القوية في حصار سيلينس ، فجمع في خدمته خيرة الصناع والمهندسين من بلاد اليونان القرية ؛ وطلب إليهم أن يعملوا على تحسين عدد الحرب . وكان من بين ما اخترعه هؤلاء الرجال من آلات الهجوم والدفاع الجديدة المنجنيق الذي يقذف الحجارة الثقيلة وغيرها من القذائف ، وانتقل هذا الاختراع وغيره من المخترعات العسكرية من صقلية إلى بلاد اليونان واستخدمه فليب المقدوني . وأرسل يدعو لخدمته جنودا مرتزقة ، وأخذت دور الصنعة في سراقوصة تخرج مقادير لا عهد للناس بها من الأسلحة والدروع تنفق مع عادات كل طائفة من طوائف الجند المختلفة ومع حذقها في القتال . وكان المشاة قبل هذا الوقت هم الذين يقاتلون في المعارك البرية لكن ديونيشيوس نظم فيالق كبيرة من الفرسان ، وأفاد من هذا أيضاً فليب والإسكندر . وأخذ في الوقت نفسه يصب المال صبا لبناء مائتي سفينة معظمها من ذات الأربعة الصفوف أو الخمسة ، فأنشأ بذلك أسطولا ضخما لم تر له بلاد اليونان قبل ذلك الوقت مثيلا في سرعته أو قوته .

ولم يجل عام ٣٩٧ حتى كان كل شيء على أهبة الاستعداد ، وأرسل ديونيشيوس بعثة إلى قرطاجة يطلب إليها أن تحرر جميع المدن اليونانية في صقلية من سيطرة القرطاجيين ، وتوقع ألا يجاب إلى طلبه فدعا هذه المدن إلى خلع نير الحكم الأجنبي ، فاستجابت إلى دعوته ، وكانت لاتزال حاقدة على القرطاجيين ولم تنس ما ارتكبه فيها هنيئال من المذابح ، فأعدت جميع من وقع في

أيديهم منهم بعد أن أذاقتهم من ألوان العذاب ما لم يعذبه اليونان أحداً غيرهم من قبل ، ولم يلحق ديونيشيوس جهداً في الحلولة بينهم وبين هذا التعذيب لأنه كان يريد أن يبيع أسرى القرطاجيين في أسواق الرقيق . ونقلت قرطاجة جيشاً كبيراً بقيادة هملكون Himilcon بطريق البحر ، ودارت الحرب بين الأمتين في فترات متقطعة خلال أعوام ٣٩٧ ، ٣٩٢ ؛ ٣٨٣ ، ٣٦٨ . وانتهت هذه الحرب بأن استردت قرطبة كل ما استولى عليه ديونيشيوس من أملاكها ، وعادت الأمور بعد الدم المهرق كله إلى ما كانت عليه من قبل .

وكان ديونيشيوس في هذه الأثناء قد وجه قوته الحربية لإخضاع المدن اليونانية في الجزيرة ، وربما كان مدفوعاً إلى هذا بحب السلطان ، أو بما كان يحس به من أنه لا سبيل إلى القضاء على سلطان قرطاجة في صقلية إلا إذا اتحدت كلها تحت حكومة واحدة . فلما تم له إخضاعها ، عبر الجزيرة إلى إيطاليا ، وأخضع رجيوم Rhegium وفرض سلطانه على جميع إيطاليا الجنوبية . ثم هاجم إتروريا واستولى على ألف وزنة من هيكلها القائم في أجيلا Agylla ، ووضع الخطط لنهب ضريح أبلو في دلقي ، ولكن الأيام وقفت في سبيله فلم تمكنه من تنفيذ خططه . فقد وأدت بلاد اليونان في نفس ذلك العام (٣٨٧) حريتها في الغرب ، ثم باعها « بصلح الملك » إلى الفرس في لشرق . وكان برنس Brennus والغالليون قد وقفوا ظافرين أمام أبواب رومة يدقونها دقاً ، وكان البرابرة المحيطون بالعالم اليوناني يزدادون قوة في كل مكان ، وكان ما حل بإيطاليا الجنوبية من التدمير على يد ديونيشيوس قد مهد السبيل للأهلين القاطنين حول المستعمرات أولاً ، ثم للرومان أنصاف البرابرة بعدئذ ، لغزو هذه المستعمرات والاستيلاء عليها . وقام الخطيب لسياس في الدورة التالية من دورات الألعاب الأولمبية يدعو بلاد اليونان إلى الخروج على الطاغية الجديد ، فهاجت الجماهير الثائرة خيام رسل ديونيشيوس وأصمت آذانها عن الاستماع إلى أشعاره .

وهذه الطاعة الذى عرض على أهل ريجيوم بعد أن تم له الاستيلاء عليها
حريتهم إذا أتوه بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ، فلما جاؤوه به باعهم
بيع الرقيق ، هذا الطاغية نفسه كان رجلا واسع الثقافة من أرباب السيف
والقلم ، ولم يك فخره بقلمه أقل من فخره بسيفه . ولما أن طلب إلى الشاعر
فلكينس رأيه فى شعره وأجاب بأنه غث لا قيحة له حكم عليه بالأشغال
الشاقة فى المهاجر^(٤٤) . على أن ديونيشيوس ، كان يناصر الآداب والفنون
على الرغم من هذه الأعمال المثبطة ، وقد استضاف أفلاطون أثناء أسفاره فى
صقلية وسره أن يستمتع لحظة بهذا الفيلسوف (٣٨٧) . وهناك قصة ذائعة
نقلها ديوجانس ليرتيوس تقول إن الفيلسوف أخذ يطعن فى حكم الطغاة
فرد عليه ديونيشيوس بقوله : « إن أقوالك أقوال عجوز محترف » ، فأجابه
أفلاطون قائلا : « إن هذه اللغة هى لغة الطغاة » . ويقال إن ديونيشيوس باع
أفلاطون فى سوق الرقيق ولكن أنسريز القيرونى لم يلبث أن اقتناه^(٤٥) .

ولم يقض على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان
يخشى بأسهم بل قضى عليها شعره نفسه . وتفصيل ذلك أن مأساته اقتداء
هكز نالت الجائزة الأولى فى عيد لينيا الأثينى عام ٣٦٧ . وسر ديونيشيوس
من هذا الفوز سرورا جعله يحتفل بأصدقائه ويفرط فى الشراب ، فيصاب
بالحمى ويموت .

وقبلت المدينة المغتظة التى كانت قد ارتضته بديلا من الخضوع لقرطاجة ،
قبلت أن يخلفه ابنه على العرش راجية الخير على يديه . وكان ديونيشيوس الثانى
وقتئذ شابا الخامسة والعشرين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل ، فظن
السراقوصيون الماكرون أنه لهذا السبب سيحكمهم حكما رحيا يترك لهم فيه الجبل
على الغارب . وكان له من عمه ديون Dion والمؤرخ فلستيوس مستشاران
قديران . فأما ديون فكان رجلا واسع الثراء ولكنه جمع إلى ثرائه حبه للآداب
والفلسفة ، وكان من أوفى تلاميذ أفلاطون وألصقهم به . وأصبح عضوا

في المجمع العلمي وعاش في داخل بيته وخارجه عيشة البساطة الفلسفية . وخطر بباله أن الطاغية الحديد الشاب اللدن العود سوف يتيح له الفرصة لأن يقيم على الأقل حكماً دستورياً يستطيع به توحيد صقلية بأجمعها وتمكينها بسبب هذه الوحدة من القضاء على سلطان القرطاجيين فيها ، هذا إذا لم يتمكن من أن يجعل منها « المدينة الفاضلة » التي وصفها له أفلاطون .

ودعا ديونيشيوس الثاني بناء على اقتراح ديون ، أفلاطون إلى بلاطه ، فلما قبل أفلاطون الدعوة تتلمذ عليه ديونيشيوس وصار من أتباعه . ومما لا شك فيه أن الشاب الطاغية أراد أن يظهر للفيلسوف خير طباعه ، فأخفى عليه إدمانه الخمر والعهر^(٤٧) ، الذي جعل أباه يتنبأ أن الأسرة ستنقرض بموت ولده . وانخدع أفلاطون برغبة الشاب الظاهرة في الفلسفة فقادها إليها من أصعب السبل - من سبيل العلوم الرياضية والفضيلة . وعلم الحاكم ، كما علم كنفوشيوس دوق لو ، أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم هو القدوة الصالحة ، وأنه إذا أراد أن يصلح شعبه ، فعليه أن يجعل نفسه أنموذجاً لهم في الذكاء والنية الحسنة ، وشرعت الحاشية كلها تدرس الهندسة ، وتقف مذهولة سياسياً أمام خطوط مرسومة في الرمل . ورأى فلستيروس أن مقام أفلاطون أصبح أعلى من مقامه ، فهمس في أذن الطاغية أن ذلك كله لم يكن إلا مؤامرة أراد بها الأثينيون ، الذين عجزوا عن فتح سراقوسة بقوة الجيش والأسطول ، أن يستولوا عليها بعمل رجل واحد ، وأن أفلاطون بعد أن استولى على القلعة المنيعة بالرسوم والحوار ، سينزل ديونيشيوس عن عرشه ، ويجلس ديون مكانه . ووجد ديونيشيوس في هذا الهمس فرصة قيمة للنجاة من متاعب الهندسة ، ففنى ديون ، وصادر أملاكه ، ووهب زوجته لرجل من رجال البلاط كانت ترهبه ، وغادر أفلاطون سراقوسة ، رغم تأكيد الطاغية له بأنه يجب أشد الحب ، وانضم إلى ديون في أثينة . وبعد ست سنين من ذلك الوقت عاد إلى سراقوسة استجابة لطلب الملك نفسه ، وألح عليه في أن يستدعى ديون ولما

رفض ديونيشيوس رجاء اعتزله أفلاطون وآوى إلى المجمع العلمى (٤٨) .

وفى عام ٣٥٧ جند ديون من بلاد اليونان القارية ، وكان وقتئذ فقيراً فى المال غنياً فى الأصدقاء ، قوة مؤلفة من ثمانمائة رجل أبحر بهم إلى سراقوصة ، ودخل فيها سراً فألقى الأهلين شديدى الرغبة فى تأييده . وكانت معركة واحدة نال فيها النصر ببسالته ، مع أنه كان وقتئذ فى سن الخمسين ، كافية لهزيمة جيش ديونيشيوس ، ودب الرعب من هولها فى قلب الملك الشاب فأثر الفرار إلى إيطاليا . وفى هذا الوقت عزلت الجمعية السراقوصية ديون من القيادة ، وكان هو الذى دعاه إلى الاجتماع ، خشية أن ينصب نفسه حاكماً بأمره . وكانت فى عملها هذا تجرى على ما طبع عليه اليونان من الاندفاع وعدم التبصر فى العواقب . وانسحب ديون فى سلام إلى اليونتينى ؛ ولكن جيوش ديونيشيوس شجعها تقلب الأحداث فهاجمت الجيش الوطنى على حين غفلة ، وبددت شمله . وأرسل الزعماء الذين كانوا قد عزلوا ديون من القيادة يطلبون إليه أن يعود مسرعاً ويتولى قيادة جيش الشعب ، فاستجاب إلى دعوتهم ؛ وانتصر على أعدائه مرة أخرى ، وعفا عن الذين قاوموه ، وأعلن قيام دكتاتورية مؤقتة قال إنها ضرورية لعودة النظام إلى البلاد ، وأبى أن يكون له حرس خاص مخالفاً بذلك نصيحة أصدقائه ، وقال إنه « يفضل أن يموت على أن يعيش على حذر دائم من أصدقائه وأعدائه على السواء » (٤٩) . واحتفظ بدلاً من هذا الحرس بحياته المتواضعة المعتدلة رغم ما كان يحيط به من الثراء وقوة السلطان .

ويقول فلوطرخس « إنه ، وإن كان قد نال ما يشتهي من النجاح ، لم يكن يرغب فى أن ينال فائدة عاجلة . أتاحتها له حظته الطيب . . . فاكتمى يقدر معتدل من الثراء راعى فيه جانب الاقتصاد ، وأدهش بذلك الناس جميعاً . وبينما كانت صقلية وقرطاجة وبلاد اليونان بأجمعها ترى أنه قد بلغ أعلى مراتب النعيم والثراء . ، وأن ليس بين الأحياء جميعاً من هو أعظم منه ، أو بين القواد

من هو أوسع منه شهرة في البسالة والظفر ، كان يبدو في حرسه ، وحاشيته ، وعلى مائدته ، أنه يشترك مع أفلاطون في المجمع العلمي . ولا يعيبش بين ضباطه المأجورين وجنوده المرتزقة الذين يجدون في ملء بطونهم بلذيد المأكول والمشرب والاستمتاع بلذائذ الحياة عزاء لهم عن كلهم المتواصل وما يتعرضون له من الأخطار^(٥٠)

وإذا أخذنا بقول أفلاطون فإن ديون كان ينبغي إقامة ملكية دستورية ، وإلى إصلاح حياة السراقوصيين وأخلاقهم على مثال الحياة والأخلاق الإيسارطية ، وأن يعيد بناء المدن اليونانية المستعيدة أو المخربة في صقلية ، وينشئ منها دولة موحدة ، حتى إذا تم له ذلك أخرج القرطاجيين من الجزيرة . ولكن السراقوصيين كانوا يحرصون أشد الحرص على النظام الديمقراطي . ولم يكونوا يتوقون إلى الفضيلة أكثر مما يتوق إليها ديونيشيوس الأول أو الثاني . فاغتال ديون صديق له ، وانطلقت على أثر اغتياله الفوضى من عقابها ، وأسرع ديونيشيوس بالعودة إلى سراقوصة ، واستولى مرة أخرى على اوتيغيا وعلى أزمة الحكم ، وسار فيه بالقسوة والفظاعة التي ينتظرها الإنسان من طاغية خلع عن عرشه ثم استرده .

وبعد ، فإن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد ، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم . لقد استغاث السراقوصيون بأهمهم كورنثة . وجاءت الاستغاثة في وقت كان فيه كورنثي نبيل نبلا لا يكاد يصدقه العقل ينتظر أن تتاح له فرصة يظهر فيها بطولته . لقد كان تيمليون رجلاً من الأشراف ، بلغ من حبه للحرية أنه لم يتردد في قتل أخيه تموفانيز حين أراد هذا الرجل أن يقيم نفسه حاكماً مستبداً في كورنثة . واستنزلت أمه اللعنة عليه عقاباً له على عمله هذا ، وأنبه عليه ضميره ، فاعتزل هذا القاتل الناس وآوى إلى الغابات ، ولكنه سمع وهو في مأواه بحاجة سراقوصة إلى النجدة ؛ فخرج من ملجئه ، ونظم قوة من المتطوعين ، وأبجرها إلى صقلية ؛ وقاد شردمته

القليلة بمهارة لم يرجئ الملك معها بدأ من الاستسلام ، بعد أن ذاق البلاء من جراء براعته في القيادة ، ومن غير أن يقتل من رجاله رجل واحد ، ومنح تيمليون الطاغية الدليل من المال ما يمكنه من العودة إلى كورنثة حيث قضى ما بقي من حياته يعلم في المدرسة ويسأل الناس القوت في بعض الأحيان (٥١) .

وأعاد تيمليون الديمقراطية ، وهدم الحصون التي جعلت أرتيجيا معقلاً حصيناً للاستبداد ، ورد عنها غارة شنها القرطاجيون ، وأعاد الحرية والديمقراطية إلى المدن اليونانية . وبفضله ساد السلام وعم الرخاء صقلية جيلاً من الزمان ، هرع إليها في خلاله مستوطنون جدد من جميع أنحاء العالم اليوناني . وأبى مع ذلك أن يتولى منصباً عاماً ؛ بل اعتزل الحياة السياسية وفضل عليها الحياة الخاصة ؛ ولكن الديمقراطيات القائمة في الجزيرة كانت تعرض عليه كل شئونها الكبرى تستنصحه وتعمل برأيه لإيماناً منها بحكمته واستقامته . ولما اتهمه اثنان من « المرشدين » بسوء استخدام سلطته أصر على الرغم من احتجاج الشعب وإعلانه شكره له واعترافه بجميله ، أن يحاكم من غير محاباة حسب قانون البلاد ، وحمد الآلهة على أن عادت إلى صقلية حرية الكلام والمساواة أمام القانون . ولما مات في عام ٣٣٧ حزن عليه بلاد اليونان كلها وعدته من أعظم عظماء أبنائها .

الفصل الخامس

تقدم مقلونية

بينما كان تيمليون يعيد إلى الديمقراطية أنفاسها الأخيرة في صقلية القديمة ، كان فليب يقضى عايتها في أرض اليونان القارية . لقد كانت مقلونية حين اعتلى فليب العرش ٣٥٩ لا تزال في الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية ، والحق أنها وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف واحد .

وكان فليب قد أقام ثلاث سنين مع أقارب إيامينداس طيبة فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيماً من الأفكار الحربية . وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة ، كان قوى الجسم والإرادة ، مولعاً بالرياضة البدنية ، وسياً ، وبجملة القول أنه كان حيواناً عظيماً ، يحاول بين الفينة والفينة أن يكون أثينا مهذباً . وكان كابنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق ، مولعاً بالحرب إلى حد كبير وبالشراب إلى حد أكبر . وكان يختلف عن الإسكندر في مرحه وميله إلى الضحك ، ولى أحد الأرقاء منصباً كبيراً لأنه أدخل على قلبه السرور . وكان يحب الغلمان كثيراً ، ولكنه يحب النساء أكثر منهم ، وتزوج أكبر عدد استطاعه منهن ، وحاول وقتاً ما أن يقتصر على زوجة واحدة هي أولمبياس الأميرة المولوسية Molossian الجميلة التي كانت تعيش على الفطرة والتي ولدت له الإسكندر ، ولكنه لم يلبث أن مال إلى غيرها ، فأخذت أولمبياس تدبر الانتقام منه إلى نفسها وكان أحب الناس إليه أشداء الرجال الذين يجازفون بأرواحهم طوال النهار ، ويقامرون معه وينادمونه على الشراب إلى نصف الليل . وكان (إلى ما قبل

الإسكندر) أشجع الشجعان بلا منازع ، وخلف جزءاً من نفسه في كل ميدان من ميادين القتال . وقد أعجب به دمستين وقال فيه : « ياله من رجل ! لقد خسر في سبيل القوة والسلطان عيناً ففئت ، وكفناً كسرت ، وذراعاً وساقاً أصبينا بالشلل^(٥٢) » . وكان ذا قريحة وقادة ، قلدرأً على أن ينتظر فرصته متربصاً ، وعلى أن يسير بعزم ثابت إلى هدفه مجتازاً في سبيله كل ما يعترضه من صعاب . وكان في سياسته لطيفاً غداراً ؛ لا يبالي بأن يحنث في وعده ، ويجدد هذا الوعد لساعته ؛ لا يعترف في الحكم بالمبادئ الأخلاقية ، ويرى أن الكذب والرشوة بديلين رحيمين من القتل وسفك الدماء . ولكنه كان رحماً في انتصاره وكان من عادته أن يعرض على اليونان المنهزمين شروطاً أحسن مما يعرضها بعضهم على بعض . وقد أحبه كل من التقى به ، عدا دمستين العنيد ، ووصفوه بأنه أقوى رجال زمانه وأكثرهم طرافة .

وكانت حكومته ملكية أرستقراطية يدوم سلطان الملك فيها ما دام متفوقاً في قواه الجسمية أو العقلية ، وما دام أشرف البلاد راغبين في معونته . وكانت ثمانمائة من أمراء الإقطاع يكونون « صحابة الملك » وكان هؤلاء الصحابة من كبار الملاك الذين يحتقرون حياة الحواضر والزحام والكتب فلإذا ما أعلن الملك الحرب برضاهم خرجوا من ضياعهم وهم أقوىاء الأجسام صناديد ليوث غاب . وكانوا في الجيش يولفون فرقة الفرسان ويمتطون صهوة الجياد المقدونية والتراقية القوية الشكيمة ، وقد درجهم فليب على أن يحاربوا جماعات متراصة يستطيعون إذا صدر إليهم أمر قائدهم أن يبدلوا حركاتهم العسكرية من فورهم كأنهم رجل واحد . وكان إلى جانب هؤلاء الفرسان مشاة من الصيادين والفلاحين الشعث منظمون في « فيالق » ، يصوب ستة عشر صفا منهم رماحهم فوق رؤوس الصفوف التي أمامهم - ويضعونها فوق أكتافهم - وبذلك يكون كل سلق أشبه بجدار من الحديد . وكان طول الرمح إحدى وعشرين قدماً ،

وكان متزناً من مؤخرته فإذا شرعه صاحبه برز إلى الأمام خمس عشرة قدماً .
ولما كان كل صف من الجند يتقدم ثلاث أقدام عن الذى يليه ، فإن رماح
الخمسة الصفوف الأولى كانت تبرز أمام الفيلق كله ، وكانت رماح الثلاثة
الصفوف الأولى تبرز أمام الفيلق أطول من حراب أقرب المشاة اليونان التى
لا تزيد على ست أقدام . وكان الجندى المقدونى بعد أن يقلد عدوه برمحه
يحارب بسيف قصير ويقى رأسه ببيضة من نحاس ، وجسمه بدرع ،
وساقيه بمحرموقين ، وصدرة بترس خفيف . ويأتى من وراء هذا الفيلق
فرقه من الرماة على الطراز القديم يصوبون سهامهم فوق رؤوس حملة
الرماح ، ومن وراء هؤلاء فرق الحضر بمناجيقها وكباشها المدمرة . ودرب
فليب فى صبر وعزيمة هذا الجيش المكون من عشرة آلاف جندى حتى
جعله أعظم قوة محاربة شهدتها أوربا حتى ذلك الوقت ، وأعدده للإسكندر
كما أعد فردرك وليم جيشه لابنه فردرك الأكبر .

واعترز أن يستخدم هذه القوة لتوحيد بلاد اليونان وإخضاعها لحكمه
حتى إذا تم له ذلك استعان ببلاد هيلاس جميعها وعبر الملسنت وطرده الفرس
من آسية اليونانية . ولكنه كان فى كل خطوة يخطوها نحو هذه الغاية
يجد نفسه يعمل ضد حب اليونان للحرية ، وكان وهو يحاول أن يتغلب
على هذه النزعة ينسى الغاية التى يعمل لها بهذه الوسيلة . ووقف فى
حركته الأولى وجها لوجه أمام أثينة لأنه أراد أن يستولى على المدن التى
ضمتها إلى أملاكها على ساحل مقدونية وتراقية . ولم تكن هذه المدن
تسد طريقه إلى آسية وحسب ، بل كانت فوق هذا تحتوى مناجم غنية
من الذهب ، وكانت ذات تجارة رائجة فى مقدوره أن يفرض عليها
الضرائب . وبينما كانت أثينة منهمكة فى « الحرب الاجتماعية » التى انتهت
بها إمبراطوريتها الثانية ، استولى فليب على أمفبوليس (٣٥٧) ، وپدنا ،
وبوتيليا (٣٥٦) ، ولما احتجت أثينة على هذا العمل العدوانى أجابها بالثناء
على آدابها وفنونها ، وفى عام ٣٥٥ استولت على ميتونى ، وفقد عينه فى

حصارها ، وفي عام ٣٤٧ استولى على أولثس بعد حرب طويلة استعين فيها بضروب كثيرة من البسالة والحداد . وتمت هذه الأعمال السيطرة على الشاطئ الأوربي لبحر إيجه الشبالي ، ودخل خزائنه في كل عام ألف وزنة من مناجم تراقية^(٥٣) ، واستطاع أن يوجه تفكيره نحو اكتساب معونة بلاد اليونان .

وكان فليب قد حصل على المال الذي أنفقه في حروبه ببيع آلاف من الأسرى في أسواق الرقيق ، وكان من بينهم كثيرون من الأثينيين ، فنشرت منه قلوب الهلنيين ، وكان من حسن حظهم أن المدن اليونانية كانت في خلال هذه السنين تهلك قواها في « حرب مقدسة » ثانية (٣٥٦-٣٤٦) سببها انتهاب الفوسيين كنوز دلفي . وأيد الاسبارطيون والأثينيون الفوسيين ، وحاربت العصبة الأمفكتيونية : بووتية ؛ ولكريس ، ودوريس ، وتساليا ، ضدهم . ولما دارت الدائرة على هذه العصبة استغاث مجلسها بفليب ، ووجد الفرصة ملائمة له فجاء مسرعاً مخترباً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه ؛ وأخذ الفوسيين على غرة (٣٤٦) ، وضم إلى الحلف الأمفكتيونى الدلفى ، ونودى به حامياً للضريح المقدس ، وقبل الدعوة التي وجهت إليه لرياسة اليونان جميعاً في الألعاب البيثية . وهنا امتد بصره إلى دول البلوونيز المنقسمة على نفسها ، وأحس أن في استطاعته أن يجمعها جميعاً ، عدا اسبارطة الضعيفة ، على أن ترتضيه زعيماً لحلف يونانى في مقدوره أن يحرر جميع اليونان في الشرق والغرب . ولكن أثينة استمعت إلى أقوال دمستين فلم ترتضيه محرراً لها ، بل رأتها ساعياً لا استعبادها ، وقررت أن تحارب لتحتفظ للمدن اليونانية بالسيادة التي كانت تحرص عليها ، وبالدمقراطية الحرة التي جعلتها نور العالم الوضاء .

الفصل السادس

دمستين (دمستينز)

إن تمثال الخطيب العظيم القائم في متحف الفاتيكان ليعد من الروائع الفنية الواقعية التي أخرجها العصر الذي انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ؛ فوجهه يبدو عاياه الهم والقلق ، كأن كل نصر أحرزه فليب قد أحدث غصناً جديداً في جبهته ؛ والجسم نحيل منهوك ، ومظهره مظهر الرجل الذي يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة ، وتنبئان بموت مدبر .

وكان أبوه صانع سيوف وأسيرة ، ترك له تجارة تبلغ قيمتها أربع عشرة وزنة (٨٤٠٠٠ ريال أمريكي) . واختار الوالد ثلاثة من الرجال ليديروا هذه الأملاك لمصالح الغلام ، ولكنهم أنفقوها على أنفسهم بسخاء ، اضطرت معه دمستين حين بلغ سن العشرين (٣٦٣) أن يقاضى الأوصياء عليه لكي يستعيد ما بقى من ميراثه . وأنفق معظم ما آل إليه في تجهيز سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف وهبها للأسطول الأثيني ، ثم أخذ يعمل لكسب عيشه بكتابة الخطب للمتقاضين ؛ وكان أقدر على الكتابة منه على الكلام ، لأنه كان ضعيف الجسم عى اللسان . ويقول فلوطرخس إنه كان في بعض الأحيان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين . وكان يعمل في هذه الأثناء للتغلب على ما فيه من نقص طبيعي ، فكان يخاطب البحر وفه بمملوء بالخصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل . وكان مجداً في عمله لا يشغله عنه إلا السراري والغلمان . وقال أمين سره يشكو أمره : « ماذا عسى أن يفعل الإنسان بدمستين ؟ إن الشيء الذي قضى عاماً

كاملاً يفكر فيه لتربكة امرأة واحدة في ليلة واحدة^(٥٤) . وأصبح الرجل بعد جهود مضنية دامت عدة سنين أغنى المحامين في أثينة ، يعرف دقائق هذا الفن ويقنع المستمعين إلى خطبه ، ولا يتقيد كثيراً بقواعد الأخلاق . وشاهد ذلك أنه دافع عن المصرفي فورميو طالباً تبرئته من تهم وجهها هو بعينها إلى الأوصياء عليه ، وكان يتناول أجوراً عالية من الأفراد نظير تقديم بعض القوانين للجمعية والدفاع عنها ، ولم يدفع عن نفسه التهمة التي وجهها إليه زميله هيريديز وهي أنه كان يتلقى المال من ملك الفرس ليشعل نار الحرب على فليب^(٥٥) . وبلغت ثروته في ذروة مجده عشرة أضعاف ما خلفه له أبوه .

لكنه رغم هذا بلغ من النزاهة درجة رضى معها بالتعذيب والموت في سبيل الآراء التي استوَجِر للدفاع عنها . ذلك أنه أخذ يندد باعتماد أثينة - الجنود المرتزقة ، وأصر على أن المواطنين الذين يتقاضون أجوراً من « الرصيد » المخصص لإعانة من يحضرون ألعاب الحفلات الدينية ويشاهدون المسرحيات ، يجب أن يكسبوا بالخدمة في الجيش ؛ وبلغ من شجاعته أن طالب بالألأ يؤدي هذا المال أجوراً لهؤلاء المواطنين ، بل يجب أن يتفق في إعداد قوة حربية للدفاع عن الدولة أحسن من القوة التي لديها^(*) . وقال للأثينيين إنهم قوم كسالى منحلون فقدوا ما كان يتصف به آباؤهم من فضائل حربية ، وأبى أن يصدق أن دولة المدينة قد وهنت قواها بالانقسامات الحزبية والحروب ، وأن الوقت قد آن لتوحيد بلاد اليونان . وأنذر الأثينيين بأن هذه الوحدة ليست إلا أقوالاً تخفي وراءها خضوع

(*) لقد توسمت الدولة في رصيد « المناظر » هذا (theoric fund) حتى صار يستخدم في كثير من الاحتفالات بدرجة كاد معها أن يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين في عداد من يطلقون إعانات من الدولة . وفي ذلك يقول جلوتز Glotz : « إن الجمهورية الأثينية قد أصبحت جمعية تعاونية خيرية تأخذ المال من إحدى الطبقات لتنفقه على طبقة أخرى^(٥٦) » . وكانت الجمعية قد جعلت الإعدام جزءاً كل من يقترح تحويل هذا المال لأغراض غير الغرض الذي رصد له .

بلاد اليونان جميعها لرجل واحد . ولقد تبين أطباع فليب من أعراضها الأولى وتوسل إلى الأثينيين أن يجاربوا للاحتفاظ بأحلافهم ومستعمراتهم في الشمال . وكان ، اسكنيز وفوشيون وحزب السلم يعارضون دمستين وهيريديزو حزب الحرب . وليس ببعيد أن كلتا الطائفتين كانت مرتشبة الثانية من قبل الفرس والأولى من قبل فليب^(٥٧) ، وإن الاثنتين كانت تعملان بإخلاص للوصول إلى أغراضها تدفعهما الحماسة التي أثارها كلتاهما في قلوب أتباعها . وقد أجمع أهل ذلك العصر على أن فوشيون كان أشرف رجال السياسة في أيامه - كان رواقيا قبل أن يوثنس زينون الرواقية ، وفيلسوبا من خريجي مجمع أفلاطون العلمى ، وخطيبا يحترم الجمعية احتقارا يستطيع القارئ أن يتبينه إذا ذكرنا له أنها حين صفت له التفت إلى أحد أصدقائه وسأله : « ألم أرتكب خطأ في قولى من حيث لا أدري ؟ »^(٥٨) . وقد اختير قائدا (Strategos) خسا وأربعين مرة ففاق في هذا پر كليز نفسه ؛ وتولى مرارا كثيرة قيادة الجيش وأظهر في كل مرة كفاية عظيمة ، ولكنه قضى معظم حياته يدعو إلى السلم . ولم يكن رفيقه إسكنيز رواقيا في معيشته ، بل كان رجلا ارتقى من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع ، اشتغل في صباحه بالتدريس والتمثيل فأعانه ذلك على أن يكون خطيبا مصقعا ، وأول خطيب يونانى - على ما يقول المؤرخون - يرتجل الخطب ارتجالا وينجح في ذلك أعظم نجاح^(٥٩) ، بينا كان منافسوه يعدون خطبهم ويكتبونها قبل إلقائها . واشترك مع فوشيون في عدة وقائع حربية ، فأخذ عنه سياسة التراضى مع فليب بدل الاشتباك معه في الحرب ؛ ولما أن كافأه فليب على جهوده استحاله تحمسه للسلم ولاء لها وإخلاصا .

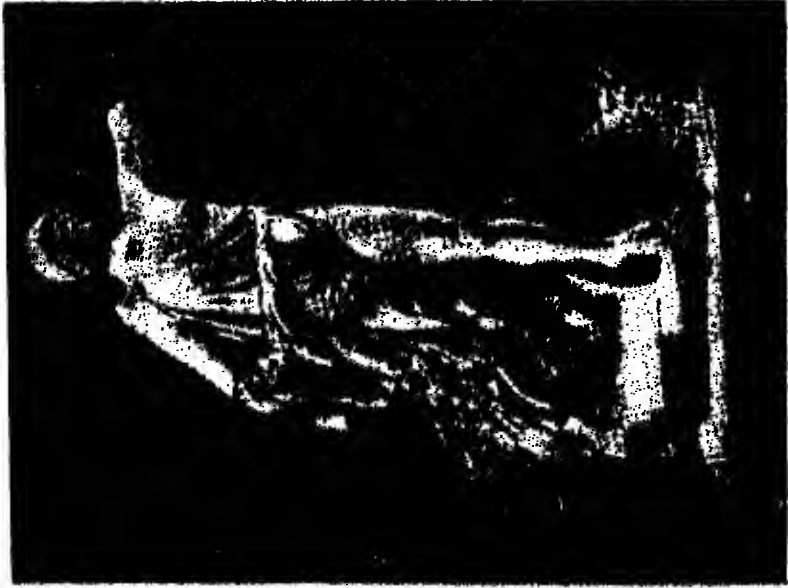
واتهم دمستين اسكنيز مرتين بأنه يرتشى بالذهب من مقلونية ، ولكنه في كلتا المرتين عجز عن إثبات التهمة . على أن فصاحة دمستين الحربية وتقدم فليب نحو الجنوب أقنعا الاثنيين آخر الأمر أن يمتنعوا وقتا ما عن توزيع رصيد المناظر وأن يستخدموه في الاستعداد للحرب . ففي عام ٣٣٨ نظموا على عجل

قوة زحفوا بها إلى الشمال للملاقاة فيالقي فليب عند قبرونيا البوثوتية . وأبت اسبارطة أن تقدم معوتها لأثينة ، ولكن طيبة أحست بقبضة فليب تطبق على عنقها فأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين ، وقتل الثلاثة جندى الذين تتألف منهم هذه الفرقة في الميدان ، وحارب الأثينيون بهذه الشجاعة نفسها أو بما يقرب منها ، ولكنهم كانوا قد تباطأوا فوق الحد المباح ، ولم يعدوا العدة للملاقاة جيش المقدونيين المسلح على أحدث طراز . فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتت شملهم فقروا أمام بحر الرياح الزاحفة عليهم وفر معهم دمستين . وكان الإسكندر بن فليب يبلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره ، وكان يقود فرقة الفرسان المقدونية بشجاعة تبلغ درجة النهور أنالته شرف الانتصار في هذه المعركة الحامية الوطيس .

وكان فليب كريما في انتصاره كرما تملبه عليه خطته السياسية التي رسمها . نعم إنه أعدم بعض زعماء طيبة المعادين للمقدونيين ، وأقام في تلك المدينة حكومة أليجركية من أشياعه ، ولكنه أطلق سراح الأثيني الذين وقعوا أسرى في يديه ، وأرسل الإسكندر الظريف وأنباتر Antipater العاقل الحكيم ليعرض الصلح على أثينة على شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان . كلها ضد عدوها المشترك . وكانت أثينة تتوقع شروطاً أقسى من ذلك كثيراً ، ولهذا فإنها لم تقبل هذا الشرط فحسب ، بل أصدرت فوق ذلك قرارات تكيل فيها الثناء لهذا الأبحمنون الجديد . وعقد فليب في كورنثة جمعية (سندريون Synderion) من الدول اليونانية ، وألف منها جميعاً (عدا اسبارطة) حلفاً على نظام الحلف البوثوي ، ورسم الخطوط الرئيسية لخططه التي تهدف إلى تحرير آسية . واختير بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى ، وتعهدت كل دولة أن تمدّه بالرجال والسلاح ، ووعدته ألا يحارب يوناني من أي بلد كان في صفوف أعدائه . وكانت هذه التضحيات كفارة رخيصة للعداء الذي أظهرته هذه المدن من قبل .



(شكل ٤١) وقرصتي بنس ، (مصحف اناييكافا برومة)



(شكل ٤٢) وقرصتي بنس ، (مصحف اناييكافا برومة)

ولم تقف النتائج التي تمخضت عنها قبرونيا عند حد . فقد تحققت بها الوحدة التي عجزت عن تحمقها بلاد اليونان من قبل ، وإن كانت لم تتحقق إلا على ظبا سيف رجل يكاد أن يكون أجنبياً عنها . وكانت الحرب البلوونيزية قد أثبتت عجز أئينة عن تنظيم هلاس ، وأثبتت الحوادث التي أعقبت هذه الحرب عجز اسبارطة عن هذا التنظيم وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد ، وأنهكت حرب البليوش والطبقات قوى دول المدائن ، وتركتها ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . لهذا كان من حسن حظها أن تجدها في هذه الظروف فاتحاً معقولا يعرض عليها أن ينسحب من ميدان النصر ويترك للمغلوبين قسماً كبيراً من الحرية . والحق أن فليب ومن بعده الإسكندر كانا يحيطان استقلال الدول المتحالفة بحمايتهما ووقايتهما ، حتى لا تضم إحدى هذه الدول غيرها إليها فيكون لها من القوة ما تستطيع به أن تحمل بينها عمل مقدونية . بيد أن فليب قد سلها نوعاً غالياً من الحرية - ونعنى به حق الثورة . فقد كان محافظاً صريحاً ، يرى أن استقرار الملكية حافظ لا غنى عنه الإقدام والنشاط ، ودعامة لا بد منها للحكم . ومن أجل هذا حمل المجمع المقدس في كورنثة على أن يضع بين مواد الحلف عهداً يقطع المتحالفون على ألا يدخلوا في الدستور تغييراً ما ، وألا يبدلوا النظم الاجتماعية بحال من الأحوال ، ولا يتورطوا في الانتقامات السياسية . وكان في كل ولاية يؤيد بنفوذه المدافعين عن الملكية ، وقضى قضاء تاماً على الضرائب الفادحة التي تبلغ درجة مصادرة الأملاك .

وكان قد أحكم وضع خططه كلها إلا ما يختص منها بزوجه أولمبياس Olympias ، ولهذا فإن الذي قرر مصيره آخر الأمر لم يكن هو انتصاره في ميدان القتال ، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته . ولم يكن يرهب منها أخلاقها وحدة طباعها فحسب ، بل كان يرهب فوق ذلك اشتراكها في الطقوس الديونيشية الهمجية . وقد وجد في ذات ليلة أفعى إلى جانبها في

السريير فارتاع ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الأفعى إله من الآلهة . وأسوأ من هذا أن أولمبياس أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقي ، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار ، وأن الإله العظيم زيوس - أمون هو الذى حملت منه بالأمير المقدم . ونفرت هذه المنافسات المختلفة فليب منها فولى وجهه شطر غيرها من النساء ، وشرعت أولمبياس تتأز لنفسها منه فأخبرت الإسكندر بسر أبوته الإلهية^(٦٠) . وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فليب يدعى أتلسن Atallus طلب أن يشرب نخب ولد فليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث « الشرعى » (أى المقدونى لحما ودما) لعرش البلاد . فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس فى رأسه وصاح قائلاً : « وهل أنا إذن ابن زنى ؟ » . واستل فليب سيفه يريد أن يقتل به ولده ولكنه كان ثملاً لا يستطيع الوقوف . فضحك منه الإسكندر وقال : « ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوربا إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمناً من مقعد إلى مقعد » . وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضباط من ضباط فليب يدعى بوسنياس أن يأخذ له الملك بئجه من أتلس لإهانة لحقت به منه ، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله (٣٣٦) . وكان الإسكندر محبوباً من الجيش حبا يقرب من العبادة ، وكانت أولمبياس تؤيده^(٦١) فاستولى على أزمة الملك ، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة ، وأخذ يعد العدة لفتح العالم .

(٦٠) كان يظن أنها هى التى سرقت بوسنياس حل قتل فليب .

الباب العشرون

الآداب والفنون في القرن الرابع

الفصل الاول

الخطباء

كانت الآداب في أثناء هذا الاضطراب كله ينمكس عليها ما انتاب بلاد اليونان من اضمحلال في الأخلاق وضعف في صفات الرجولة . فلم يكن الشعر كما كان من قبل تعبيراً عاطفياً إبداعياً يبتكره الأفراد ، بل أصبح تدريباً ظريفاً وثمره من نتاج العقول في الندوات ، وصدى للواجبات والتمارين المدرسية . . نعم إن تموثيوس الملطي كتب ملحمة شعرية ، ولكنها لم تكن توأم عصر الجدل والنقاش ، وظلت بعيدة عن الشعب بعد موسيقاه في عهد ما بالكر ، وظلت المسرحيات تمثل ولكن تمثيلها كان أضعف وأضيق نطاقاً من ذي قبل . ذلك إن إفقار خزانة الدولة من المال وضعف الروح الوطنية عند الأثرياء من الأفراد قللا من أقدار الممثلين وأفقداهم ما كان لهم من شأن في ماضى الأيام . واكتفى كتاب المسرحيات شيئاً فشيئاً بالمقطوعات الموسيقية التي تعزف بين الفصول ولا صلة لها بالمسرحية بدل الأغاني التي تكون جزءاً منها ، واختفى اسم رئيس فرقة المرتلين فلم يعد مما يهتم به النظارة ، ثم اختفى بعدئذ اسم الشاعر نفسه ، ولم يبق إلا اسم الممثل . وبعدت المسرحية بالتدريج عن القصيدة وأضحت شيئاً فشيئاً عرضاً للحوادث التاريخية ، وأصبح العصر كله عصر كبار الممثلين وصغار الكتاب المسرحيين . ذلك أن المأساة اليونانية قد قامت على الدين والأساطير ،

وكانت تتطلب شيئاً من التقى والإيمان عند المستمعين ، ومن أجل هذا كان لا بد أن يضمحل شأنها حين أوشكت شمس الآلهة على الأفول :

وازدهرت المسلاة في الوقت الذي اضمحلت فيه المأساة ، وانتقل إليها بعض ما كان يتصف به مسرح يورپديز من براعة ، وظرف ، ومادة طيبة ؛ وفقدت هذه المسلاة الوسطى (٤٠٠ - ٣٢٣) حُبها للهجاء السيامى وتشجيعها له ، وقت أن كانت السياسة تتطلب « الصديق الصريح » ؛ وليس بعيد أن يكون هذا الهجاء قد حُرِّم أو أن النظارة قد شموا السياسة بعد أن أصبح حكام أثينة رجالات الطراز الثانى . وكان اعتزال الرجل اليونانى بوجه عام الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فى القرن الرابع سبباً فى توجيه اهتمامه إلى شئون منزله وقلبه وإغفاله شئون الدولة . وظهرت فى ذلك الوقت المسلاة الأخلاقية ، وأخذ الحب يسيطر على مناظرها ؛ ولم يكن يسيطر عليها دائماً عن طريق الفضيلة ، بل كانت العاهرات يظهرن على خشبة المسرح مع بائعات السمك ، والطهارة والفلاسفة الحيارى . - وإن كان زواج الممثل والكاتب ينقذ شرفهما فى آخر التمثيل : نخلت هذه المسرحيات من فحش أرسطوفان ومجونه اللذين كانا سبباً فى خشونة المسرحيات وخلوها من الصقل الجميل ، ولكنها نخلت أيضاً من حيويته وخصب خياله . ولدينا أسماء تسعة وثلاثين شاعراً من كتاب المسلاة الوسطى ، وإن لم يكن لدينا شىء من مسرحياتهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم من القطع الباقية لدينا أنهم لم يكتبوا شيئاً جديراً بالخلود . وقد كتب ألكسيس الثورى (of Thuri) ٢٤٥ مسرحية ، وكتب أنتفانيز Antiphanes ٢٦٠ . لقد ذاع صيتهم فى زمانهم فلما انقضى ذلك العهد أقل نجمهم .

أما الخطباء فكان هذا زمانهم . ذلك أن نهضة الصناعة والتجارة قد حولت عقول الناس إلى الحياة الواقعية والعملية ؛ وأخلت المدارس التى كانت قبل تعلم أشعار هومر تدرّب تلاميذها الآن على أساليب البلاغة . ولقد كان

إسيوس (Isaeus) ، وليقورغ ، وهيريديز ، ودمديز Demades ،
وديناركس Deinarchus ، وإسكنيز ، ودمستين كلهم خطباء سياسيين ،
يتزعمون أحزاباً سياسية ، ويسيطرون ببلاغتهم على عقول الجماهير. وظهر
رجال في سراقوصة في الفترات التي ساد فيها الحكم الديمقراطي ، أما الدول
الديمقراطية فلم تكن تطيقهم ، وكانت لغة الخطباء الأثينيين تمتاز بالوضوح
والقوة ، والبعد عن المحسنات اللفظية وكانت تسمو بين الفينة والفينة إلى
مراقى الوطنية النبيلة ، وتسف إلى المهارات المنحطة والشتائم القلدة التي
لا يسمع بها حتى في المنازعات الحديثة . وكان ما تتصف به الجمعية الأثينية
والمحاكم الشعبية من عدم التجانس في أعضائها سبباً في انحطاط فن الخطابة
اليونانية ، وحافظاً لها في الوقت عينه ، وانتقل هذا الأثر بنوعيه عن
طريق الخطابة إلى الأدب اليوناني بوجه عام ، فقد كان سرور المواطن الأثيني
من سماع الشتائم في خطب الخطباء لا يكاد يقل عن سروره من مشاهدة
مباراة لنيل جائزة ، وإذا عُرِف أن مبارزة لفظية ستقوم بين محاربيز
بالألفاظ مثل إسكنيز ، ودمستين أقبل الناس لسماعهما من القرى النائية
والدول الأجنبية ، وكان أكثر ما يستثيره الخطباء هو غريزة الكبرياء والهوى .
وقد عرّف أفلاطون البلاغة ، وكان يكره الخطابة ويصفها بأنها السم القاتل
للمدقراطية ، عرفها بأنها فن حكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم .
وحق دمستين نفسه ، رغم حيويته وقوة أعصابه ، وسموه في كثير من
الآحيان إلى فقرات تفيض بالحاسة الوطنية ، ورغم هجومه الشديد على
الأشخاص هجوماً أخلد يضعف على مر الزمان ، ومهارته في تعاقب القصص
والجدل في خطبه تعاقباً يريح الأذن ويطرد السامة ، وما في لغته من انسجام
وتوازن . كان يعنى بهما كل العناية ، ورغم تدفقه في خطبه كالسسيل
الجارف ، نقول إن دمستين نفسه رغم هذا كله يبدو لنا أقل قليلاً من
الخطيب العظيم . وكان يرى أن التمثيل هو سر العظمة الخطابية ، وبلغ
من إيمانه بهذا المبدأ أن كان يعيد خطبه مراراً في كثير من الأناة

ويتلوها على نفسه أمام مرآة ، واحترق لنفسه كهفأ كان يعيش فيه عدة أشهر ، لا يكاد يعلم به أحد. وكان في مثل هذه الفترات يخلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا نحدثه نفسه بالخروج من مأواه^(١) . وكان إذا وقف على منصة الخطابة انجبه بوجهه نحو تماثله ، ودار يمنا ويسرة ، ووضع يده على جبهته كأنه يفكر ، ورفع صوته في أغلب الأحيان إلى حد الصراخ^(٢) . ويقول فلوطرخس إن هذا كله « كان يسر العامة كل السرور ، أما المتعلمون أمثال دمتروس الفاليري (Demetrius of Phalerum) فكانوا يظنون هذا عملاً حقيراً ، مهيناً ، لا يتفق مع الرجولة الحقة » . وإننا لنسر من حركات دمستين المسرحية ، ونعجب بتقديره لنفسه واعتزازه بها ، وتغييرنا استطراداته وتروّعنا بذيائه . وليس في خطبه إلا القليل من الفكاهة والقليل من الفلسفة . ولولا حماسه الوطنية ، وما يبدو من إخلاص في دعوته الحارة البائسة إلى الحرية ، لما كان له شأن كبير .

وبلغت الخطابة اليونانية أرقى درجاتها في عام ٣٣٠ . وكان تسفون Ctesiphon قبل ذلك العام بست سنين قد اقترح على المجلس مبدئياً أن يهدى دمستين تاجاً أو إكليلاً من الزهر اعترافاً منه بحسن سياسته ، وبما قدمه للدولة من منح مالية كثيرة . ووافق المجلس على هذا الاقتراح . وأراد إسكنيز أن يحول بين مناقسه وبين هذا الشرف العظيم فاتهم تسفون بأنه عرض على المجلس اقتراحاً غير دستوري (وهو اتهام صحيح من الناحية الشكلية) وأجلت القضية المرة بعد المرة ، ثم عرضت أخيراً على هيئة القضاء المؤلفة من خمسمائة من المواطنين . وكانت هذه بطبيعة الحال قضية من أشهر القضايا شهدها كل من استطاع الحضور إلى أثينة مهما بعد موطنه ؛ ذلك بأن أعظم خطباء أثينة في ذلك الوقت كان في واقع الأمر يدافع فيها عن سمعته وعن حياته السياسية . ولم يضع إسكنيز في مهاجمة تسفون إلا قليلاً من الوقت ولكنه وجه هجومه إلى أخلاق دمستين

وسيرته ، ورد عليه دمستين في خطبة من نوع خطبته هي خطبته الشهيرة المعروفة باسم « في سبيل التاج » . ونزال نحس في كل سطر من أسطر الخطبتين بما كان يضطرم في صدر صاحبهما من احتياج شديد ، وحقد في قلب عدوين التقيا وجهاً لوجه في ميدان القتال . وكان دمستين يعرف أن الهجوم أفضل من الدفاع ، فقال إن فليب قد اختار بوقاً له في أئينة أحط خطبائها وأشدهم فساداً ، ثم أخذ يرسم صورة لحياة إسكنيز يتجلى فيها الحقد بأوضح معانيه فقال :

لا بد لي أن أدلكم على حقيقة هذا الرجل الذي يطلق لسانه بالشتائم المقذعة . . . وإلى أي الآباء ينتسب . الفضيلة أيها الوغد الخائن ا . . . ما شأنك أنت أو أسرتك بالفضيلة ؟ . . . وبأي حق تتحدث عن التربية والتعليم ؟ . . . هل أقص على الناس كيف كان أبوك عبداً يدير مدرسة أولية قرب هيكل ثسيوس ، وكيف كان مصفداً بالحديد في ساقه ، وكيف كان حول عنقه طوق من الخشب ، وكيف كانت أمك تقيم حفلات الزواج في مرافق بيت في وضوح النهار ؟ . . . لقد كنت تساعد أباك في كدحه في مدرسة صغيرة ، تطحن له الخبز ، وتنظف المقاعد بالإسفنج ، وتكنس الحجرة ، وتقوم بعمل الخادم . . . ثم سجلت اسمك في سجل أبرشيتك - وليس في مقدور أحد أن يعرف كيف استطعت أن تفعل ذلك ، ولكن ما علينا من هذا . - لقد اخترت لنفسك مهنة خليقة بأشرف الرجال المهذبين فكنت كاتباً وموصل رسائل لصغار الموظفين . وبعد أن ارتكبت جميع الجرائم التي تعير غيرك من الناس ، أعفيت من هذا العمل . . . والتحققت بخدمة الممثلين الشهيرين سميلس Simylus وسقراط المشهورين باسم « المدممين » . ومثلت أدواراً صغيرة تحت إشرافهم ، فكنت تلتقط التبن والعنب والزيتون وتعيش على هذه القلائف خيراً مما تعيش من جميع الوقائع التي كنت تخوضها للنجاة من الموت . إن الحرب التي كانت قائمة بينك وبين النظارة لم تكن فيها هدنة أو وقف للقتال . . .

وازن إذن يا إسكنيز بين حياتك وحياتي . لقد كنت تعلم مبادئ القراءة وكنت أنا طالباً في المدرسة ؛ وكنت أنت راقصاً وكنت أنا رئيس الممثلين ... وكنت كاتباً عمومياً ، وكنت أنا خطيباً عاماً . وكنت ممثلاً من الدرجة الثالثة وكنت أنا ممن يشهدون التمثيل . وأخفقت أنت في تمثيل دورك وبخرت أنا منك بالصفير^(٣) .

وكانت هذه خطبة عنيفة ؛ ولم تكن نموذجاً للترتيب والأدب ولكنها كانت فصيحة اللفظ شديدة الانفعال إلى حد حملت القضاة على أن يبرثوا تسفون بأغلبية خمسة أصوات ضد صوت واحد . وفي العام التالي منحت الجمعية دمستين التاج المتنازع . ولما عجز إسكنيز عن أداء الغرامة التي تفرض حتماً على من يعجز عن إثبات جريمة يتهم بها أحد المواطنين ، فر إلى رودس ، حيث أخذ يكسب الكفاف من العيش بتعليم البلاغة . وتقول إحدى الروايات إن دمستين كان يرسل إليه المال ليخفف عنه آلام الفاقة .

الفصل الثاني

إسقراط

وكانت هذه المباراة في الخطابة من الموضوعات التي يمجدها ويعنى بدراستها كل جيل من الأجيال اللاحقة ، ولكنها في واقع الأمر تمثل الدرك الأسفل من الانحطاط الذي هوت إليه السياسة الأثينية . ولسنا نرى شيئاً من النبيل أو الكرامة في هذا التناوب بالشتائم ، وهذا الكفاح الحقيّر لنيل الثناء من الجماهير ، بين رجلين كان كلاهما يتلقى الذهب الأجنبي في الخفاء . أما إسقراط فكان أكثر منهما جاذبية إلى حد ما وينتقل فيه إلى القرن الرابع بعض عظمة القرن الخامس . ولد إسقراط في عام ٤٣٦ ، وعاش حتى عام ٣٣٨ ، ومات حين ماتت الحرية اليونانية . وكان أبوه قد جمع ثروة كبيرة بصنع آلات الناي الموسيقية ، وأتاح لابنه جميع الفرص التعليمية ، ولم يخجل عليه بإرساله للدراسة البلاغة على غورغياس في تساليا . وقضت حرب البلوونيز وخطة ألقبيادس على صناعة الناي وذهبتا بثروة الأسرة ، فاضطر إسقراط إلى كسب قوته بعرق قلمه . فبدأ بكتابة الخطب لغيره ، وفكر في أن يكون هو خطيباً ، ولكنه كان خجولاً ، ضعيف الصوت ، شديد البغض . لسفالة الحياة السياسية ، وكان يمتد أشد المقت الزعماء المهرجين الذين سيطروا على الجمعية ، وانزوى وقتاً ما في حياة التعليم المادئة .

فافتتح في عام ٣٩١ أعظم مدارس البلاغة نجاحاً في أثينة ، وهرع الطلاب إليها من جميع أنحاء العالم اليوناني ، ولعل اختلاف أصولهم ونظراتهم إلى الحياة قد ساعد على تكوين فلسفته الهلينية الجامعة . وكان يظن أن من عداه من المدرسين يسبرون كلهم في غير الطريق السوي . وقد ندد في نشرة له ضد السوفسطائيين بالذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دريهمات

معدودة ، والذين يرجون ، كما يرجو أفلاطون ، أن يعدوا الناس لتولى الحكم بتدريهم في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة . أما هو فكان يقر بأنه لا يستطيع أن يحصل من الطالب على نتائج طيبة إلا إذا كان هذا الطالب ذا موهبة طبيعية . ولم يكن في وسعه أن يدرس العلوم الطبيعية أو ما وراء الطبيعة لأنها ، كما يقول ، بحوث لا يرجى منها خير ، في أمور غامضة لا يمكن الكشف عن خفاياها . ولكنه رغم هذا كان يطلق اسم الفلسفة على ما يعلمه في مدرسته . وكان منهاج الدراسة يدور حول فنّي الكتابة والكلام ، ولكنه كان يدرسهما من حيث صلتهما بالأدب والسياسة^(٥) ، وكان يدرس للطلاب منهاجاً ثقافياً ، على حد تعبير هذه الأيام ، يخالف المنهج الرياضي الذي كان يدرس في مجمع أفلاطون العلمي . وكان الهدف الذي يريد الوصول إليه هو فن الخطابة ، وقد كان هذا الفن في ذلك الوقت وسيلة التقدم في الحياة العامة ، لأن الجدل هو الذي كان وقتئذ يحكم الدولة الأثينية . ومن أجل ذلك كان إسقراط يعلم تلاميذه طريقة استعمال الألفاظ ، كيف يضعونها في أوضح ترتيب ، وفي تتابع منسجم ولكنه غير موزون ، وفي عبارات مصقولة ولكنها غير مزخرفة ، وكيف ينتقل بالأصوات والأفكار انتقالاً هادئاً سلساً^(*) ، وكيف تكون الجملة متزنة والوقفات كثيرة . وكان من رأيه أن هذا النثر يسر الأذن المهذبة بقدر ما يسرها الشعر . وتخرج في هذه المدرسة كثيرون من الزعماء في عصر دمستين : تموثيوس القائد ، وإفورس وثيويومس المورخان ، وإسيوس ، وليقورغ ، وهيريدنز ، وإسكينز الخطباء ، وإسيوس خليفة أفلاطون ، وأرسطاطاليس نفسه في رأى بعضهم^(٦) .

(*) مثال ذلك أن إسقراط - وهذا سذوه في ذلك معظم من جاء بعده من كتاب اليونان - كان يرى أن من الخطأ أن تختتم كلمة بأحد الحروف المتحركة ، ثم تبدأ الكلمة التي تليها بحرف متحرك أيضاً .

ولم يكن إسقراط يقنع بتكوين عطاء الرجال ، بل كان يرغب في أن تكون له يد في تصريف شئون عصره . وإذ كان عاجزاً عن أن يكون خطيباً أو سياسياً فقد أخذ يؤلف النشرات . فكان يوجه خطباً طويلة لجمهور الأثينيين ، ولازعماء أمثال فليب ، أو لليونان المحتشدين في ساحات الألاب اليونانية الجماعية ؛ ولم يكن يلقي هذه الخطب ، بل كان ينشرها ، فابتدع بذلك على غير علم منه المقالة بوصفها فناً من فنون الأدب . وقد بقيت لنا تسع وعشرون من خطبه تعد من أكثر ما بقي من الأدب القديم إمتاعاً . وكانت خطبته الأولى العظيمة المعرفة باسم الجمعية العامة أو الهانيجركس Panegyricus^(*) مفتاح تفكيره كله ، والهدف الذي كان يبتغيه معلمه القديم غورغياس ، وهو دعوة بلاد اليونان إلى نسيان سيادتها الصغيرة والاندماج في دولة واحدة . وكان إسقراط أثينياً فخوراً بموطنه ... « لقد فاقت مدينتنا سائر بلاد العالم في أفكارها وخطبها حتى أصبح تلاميذها معلمى الدنيا بأجمعها » ، لكنه كان يفخر يونانيته أكثر من فخره بأثينيته ؛ ولم يكن معنى الهلينستية عنده^(**) ، كما لم يكن معناها عند رجال العصر الهلينستى ، هو الانتساب إلى جنس بعينه ، بل كان معناها الاشتراك في ثقافة بعينها ؛ وكان يشعر بأن هذه الثقافة هي أرقى ثقافة ابتدعها الإنسان في أى بلد من بلاد العالم^(٧) ؛ وكان « البرابرة » يحيطون بهذه الثقافة من جميع الجهات - في إيطاليا ، وصقلية ، وإفريقية ، وآسية ، والبلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد البلقان - وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يرى هؤلاء البرابرة يزيدون كل يوم قوة ، وأن يرى بلاد الفرس تقوى سيطرتها على أيونية ، على حين أن الدولة اليونانية كانت تقضى على نفسها بحروبها الداخلية .

(*) سميت كذلك لأنها كانت موجهة إلى الهانيجركس أو الجمعية العامة (هان - أجورا Pan-agora) اليونانية في الدورة الأولمبية الثالثة .

(**) الهلينستية هي الاصطلاح بالصيغة اليونانية في ذير بلاد اليونان الأصلية . (المترجم)

« ما أكثر الشرور التي تلازم الطبيعة البشرية ، ولكننا نحن قد اخترعنا من أكثر الشرور التي تفرضها علينا الطبيعة ، بإثارة الحروب والانقسامات الداخلية . . . ولم يبق أحد قط بمقارنة هذه الشرور ، والناس لا يستحيون أن يكونوا من الكوارث التي اصطنعها الشعراء ، على حين أنهم ينظرون بعين الرضا إلى ما تؤدي إليه الحرب القائمة بيننا من آلام حقة ، وكوارث لا حصر لها . وهم لا يشفقون منها ، بل لهم ليتهاجون مما يصيب غيرهم من الأحران أكثر من أبتهاجهم بما ينالون من النعم » (٨) .

وكان يقول إنه إذا كان لا بد لليونان أن يقاتلوا فلم لا يقاتلون عدوا حقيقيا ؟ لم لا يطردون الفرس إلى هضابهم ؟ ويتنبأ بأن شردمة قليلة من اليونان تستطيع أن تهزم جيشا كبيرا من الفرس (٩) ، وقد توحد حرب مقدسة من هذا النوع بلاد اليونان في آخر الأمر ، ولم يكن أمام اليونان إلا واحدة من اثنتين فلما وحده اليونان ولما انتصار البرابرة ولا تالفة لها .

واعزم إسقراط أن يحقق نظريته هذه عمليا ، فأخذ يطوف ببحر إيجه بعد عامين من نشر هذه الدعوة (٣٧٨) وبصحبه تلميذه السابق تموثيوس ، وساعد على وضع شروط الحلف الأثيني الثاني . وكان ما تعاقب على هذا الأمل بالحديد في الوحدة من قوة تارة وبخيبة تارة أخرى من أشد الآلام الكثيرة التي منى بها في حياته الطويلة . فأخذ يقرع أئينة في نشرته القوية الجريئة « في السلم » لأنها أفسدت الحلف مرة أخرى فحولته إلى إمبراطورية ، وأهاب بها أن توقع صلحا يؤمن كل دولة يونانية من أن تعتدى عليها مرة أخرى : « إن ما تسميه إمبراطورية لوف في الحقيقة كارثة ، لأنها بطبيعة تكوينها تفسد كل من له صلة بها (١٠) » . ومن أقواله أن الاستعمار قد قضى على الديمقراطية لأنه علم الأثينيين أن يعيشوا على الحزبية الأجنبية ، فلما خسروا هذه الحزبية أرادوا أن يعيشوا على

الإعانات التي تقدمها لهم الدولة ، ورفعوا إلى أعلى المناصب من وعدوهم
بأكبر معونة

« إنكم حين تتناقشون في أعمال الدولة ترتابون في أصحاب الذكاء الفائق
ولا تحبونهم ، وترفعون بدلا منهم أخطر من يتقدم إليكم من الخطباء . . .
إنكم تفضلون السكارى عن لا يتعاطون الخمر ، ومن لا عقل لهم عن الحكماء ،
ومن يبددون أموال الدولة عنم يؤدون الخدمات العامة وينفقون عليها من
مالهم الخاص (١١) » .

وكان أخف من هذا وطأة على الديمقراطية في خطابه الثاني المسمى
الأوروبيستس . ويقول في إحدى فقراته التي تصدق على كل زمان : « إنا
لنجتمع في حوانيتنا نندد بالنظام الحاضر ، ولكننا نرى أن الديمقراطيات
الفاسدة النظام نفسها تسبب من الكوارث أقل مما تسببه الأجركية (١٢) » .
ويتساءل ، ألم تكن سيادة اسبارطة على بلاد اليونان أسوأ من سيادة أثينة ؟
« ألم نصبح نحن جميعاً بفضل جنون « الثلاثين » أشد تمسكاً للديمقراطية من
من الذين احتلوا فيلي (١٠) ؟ » (١٣) ولكن أثينة قد قضت على نفسها بتجاوز
الحد في الأخذ بمبدأ الحرية والمساواة ، و « بتدريب المواطنين تدريباً يجعلهم
يعدون الوقاحة ديمقراطية ، والخروج على القانون حرية ، والسفاهة في القول
مساواة ، وقدرتهم على أن يفعلوا كل ما يشاءون سعادة » (١٤) . « ليس
الناس كلهم أكفاء ، ويجب ألا يكونوا كلهم أكفاء ، في تولى المناصب
العامة » . وكان يشعر أن نظام القرعة قد نزل بمستوى الحكم الأثيني إلى
الدرك الأسفل ، وأدى إلى أوحش العواقب . ويقول إن خيراً من « حكم
الفوضى » هذا « حكم الملك » الذي كان يدعو إليه صولون وكليسثينز لأن
الجهل المحب للناس ، والفصاحة التي تبتاع بالمال ، تقل أمامهما فرص

(*) ثرازيبولس ، وأنيستوس ، وغيرها من أعادوا الديمقراطية في عام ٤٠٤ .

الارتقاء إلى مراتب الزعامة ؛ ولأن القادرين من الناس يرقون رقباً طبيعياً إلى أعلى المناصب ، فإذا تلقفهم الأريو بجمس بعد فترة توليهم مناصبهم ، أصبحوا من تلقاء أنفسهم عقل الدولة الناصح .

ولما عقدت أثينة الصلح مع فليب في عام ٣٤٦ ، وكان إسقراط وقتئذ في سن التسعين ، وجه إلى الملك المقدوني خطاباً مفتوحاً . وقد هداه تفكيره إن أن فليب سيفرض سيادته على بلاد اليونان فتوسل إليه ألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم ، بل يستعين به على جمع شمل اليونان المستقلين وتوجيههم إلى حرب يحررون بها بلادهم من « صلح الملك » ، وتحرير أيونيا من حكم الفرس ، وأخذ حزب الحرب يظعن في هذا الخطاب ويصفه بأنه استسلام للطغيان ، وظل إسقراط سبع سنين ممسكاً بقلمه يرد به على هذه التهمة . ثم كتب خطبة أخرى في عام ٣٣٩ موجهاً الخطاب إلى اليونان الذين اجتمعوا لمشاهدة الألعاب الأثينية الجامعة . وكانت الخطبة الأثينية الجامعة (اليان أثنيكس P'onthenaicus) تكرر آ ضعيفاً مسهباً لخطبة الجمعية العامة . فنحن نحس أسلوبها يرتجف في يد الشيخ الطاعن في السن ، ولكنها مع ذلك عمل عجيب من رجل لا تنقص منه عن قرن كامل إلا ثلاث سنين . وفي عام ٣٣٨ دارت معركة قيرونية وهزمت فيها أثينة ، ولكن ما كان يحلم به إسقراط من وحدة بلاد اليونان أوشك أن يتحقق . وتقول إحدى الروايات اليونانية التي ذاعت بعدئذ إنه لما بلغه الخبر لم يفكر في فليب أو في الوحدة ، بل كان تفكيره كله في مدينته التي ذلت ، وفي أيام مجدها التي ولت ؛ وإنه بعد أن بلغ ثمانية وتسعين عاماً وبلغ من العمر كفايته أمات نفسه جوعاً (١٥) . ولسنا نعرف هل هذه القصة صادقة أو كاذبة ، ولكن أرسطاطاليس يحدثنا بأن إسقراط مات قبل أن تمضي على قيرونية خمسة أيام .

الفصل الثالث

أكسانوفون

إذا كان أثر « الشيخ الفصيح » في ساسة عصره قابلاً للشك ، فإن أثره في الأدب كان أثراً عاجلاً وخالداً(*) . وكان المؤرخون أول من أحسوا به ، فلقد قلده أكسانوفون وغيره من المؤرخين في الصورة التي رسمها لإفجروس Evagoras (***) ؛ وأصبحت السير من بعده فناً شائعاً من فنون الأدب اليوناني ، بلغت غايتها في روائع فلوطرخس التراثية . وقد عهد إسقراط إلى تلميذ من تلاميذه يدعى إفورس Ephorus أن يضع تاريخاً عاماً لبلاد اليونان — لا يؤرخ حوادث دولة واحدة من دوله بل يؤرخ لبلاد اليونان بوجه عام . وقام إفورس بما عهد إليه خير قيام وأجاده لإجادة حملت معاصريه على أن يضعوا كتابه « التاريخ العام » في مستوى كتاب هيرودوت . وخص إسقراط تلميذاً آخر هو ثيوپميس الطشيوزي بتأريخ الحوادث القريبة العهد ، فصدح ثيوپميس بالأمر ووصف هذه الحوادث في كتابيه الهلينيكا والفلبيكا وهما مؤلفان رائعان يمتازان بحيويتها وعباراتها اللاذعة ، وحازا إعجاب معاصريه . وكتب دسياركس Dicaearchus المساني (of Messana) حوالي عام ٣٤٠ تاريخاً للحضارة اليونانية عنوانه حياة اليونان (Bios Hellados) ألا ما أقدم هذه المغامرة التي أقدمنا نحن عليها ، وما أعظم الشبه بين ذلك العمل القديم وعملنا هذا الذي يتفق معه حتى في الاسم . ولم يخلد من مؤرخي القرن الرابع أحد غير أكسانوفون . ويصفه ديوجانس ليرتيوس في شبابه بقوله :

(*) لقد بنى شيشرون وملين ، وماسيون ، وجرمي تيلر ، وإدمند بيرك أسلوبهم للنثر على الجمل المتزنة الطويلة التي هي من خصائص أسلوب إسقراط .
(**) الطاغية المعتبر الذي أدخل الثقافة اليونانية في قبرص ٤١٠ - ٣٨٧ .

كان أكسانوفون رجلاً شديد التواضع ، وسياً كأعظم ما يتصور الإنسان الوسامة ؛ ويقال إن سقراط التفتى به في حارة ضيقة فسد عليه مدخلها بعصاه ، ومنعه أن يخرج منها ، وأخذ يسأله عن الأماكن التي تباع فيها كثير من ضرورات الحياة . فلما أجابه أكسانوفون عن أسئلته سأله من جديد أين يصنع الرجال الطيبون الأفاضل ؟ ولما عجز أكسانوفون عن الإجابة قال له سقراط : « اتبعني إذن وتعلم مني » وأصبح أكسانوفون من ذلك الوقت أحد أتباع سقراط (١٧) .

وكان أشد تلاميذه ميلاً إلى الفلسفة العملية ، وكان يعجبه في سقراط قوة حجته الجدلابة ويرى أنه قديس فيلسوف . ولكنه كان يعجب بالعمل كما يعجب بالتفكير ، ولذلك صار جندياً مغامراً على حين أن غيره من رجال العلم كانوا كما يقول فيهم أرسطوفان مستهزئاً « يقيسون الهواء » (١٨)

وخدم وهو في سن الثلاثين أو ما يقرب منها في جيش قورش الأصغر وحارب في كونكسا وقاد العشرة الآلاف إلى النجاة . وفي بزنطية انضم إلى الاسبارطيين في حربهم ضد الفرس وأسر ميدياً غنياً ، وقبل مبلغاً كبيراً من المال فدية له ، وعاش من هذا المال بقية أيام حياته ، وأصبح بعد تلك الحرب صديقاً لأجسلوس ملك اسبارطة ، وأعجب به ، وترجم له ترجمة تدل على هذا الإعجاب ، وعاد إلى بلاد اليونان مع أجسلوس بعد أن أعلنت أثينة الحرب على اسبارطة ، وآثر الولاء له على الولاء لمدينته ؛ فلم يكن من أثينة إلا أن أعلنت نفيه وصادرت أملاكه ؛ وحارب في صفوف اللسديمونيين في قورونية وكوفت على هذا بضبعة في سلس Scilus من أعمال إيليس Elis ، وكانت وقتئذ تحت سيطرة اسبارطة ، وقضى فيها عشرين عاماً يعيش عيشة سادات الريف ، يزرع ويصطاد ، ويكتب ، ويرب أولاده تربية صارمة على الطريقة الاسبارطية (١٩) :

ونحن مدبنون بنفيه إلى كتبه المختلفة التي رفعته إلى المقام الأول بين المؤلفين في زمانه . وكان يكتب ، إذا حلت له الكتابة ، في تدليل الكلاب ، وترويض

الخييل ، وتدريب الزوجة ، وتربية الأمراء ، والحرب إلى جانب أچسلوس ، أو جباية المال لأثينة : وقد قص في الآباسبسيس بأسلوبه العذب السائغ أسلوب الرجل الذى شاهد الأعمال التى يصفها أو اشترك بنفسه فيها ، قص فى هذا الكتاب قصة مسير العشرة الآلاف إلى البحر ، وهى القصة المثيرة التى لا سند لها غيره . وفى كتابه الهلينيكا واصل قصة بلاد اليونان من حيث انتهى توكيديدس ، إلى واقعة متينيا التى قتل فيها ولده جريس وهو يحارب ببسالة بعد أن قتل بيده أپامينداس . والكتاب فى حد ذاته سرد ممل للحوادث يدل على أن كاتبه يفهم التاريخ على أنه سلسلة لانهاية لها من الوقائع الحربية ، وسرد الانتصارات والهزائم ، ومحاولة غير مجدية لتعليلها منطقياً . والأساب قوى ، والشخصيات واضحة ، لكن الحوادث قد أحسن اختيارها لكى تثبت تفوق الأساليب الاسبارطة . وفى كتاب أكسانون تعود الحرافات التى كانت قد اختلفت من التاريخ فى كتاب توكيديدز ، وهو يستند إلى القوى غير الطبيعية ليفسر بها سير الحوادث . وبمثل السذاجة و هذا النفاق نحيل المورايليا سقراط إنسانا كاملا إلى حد لا يصدق عقل سليم ، فهو مستمسك بالدين القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والحب العذرى ؛ وقصارى القول أنه مكمل فى كل شىء إذا استثنينا احتقاره للدمقراطية ، ذلك الاحتقار الذى حبه إلى قلب أكسانوفون الطريد . وكتابه « المائدة » أقل من هذا الكتاب الأخير جدارة بالثقة . وهو ينقل حديثا بزعم أنه دار حين كان لا يزال أكسانوفون طفلا .

أما فى الإكونمكس Oeconomicus فإن أكسانوفون يتحدث فى الميدان الذى يحق له أن يتحدث فيه ، ويكشف عن نزعتة التحفظية بصراحة تسحر عقولنا على الرغم منا . لقد كان أكسانوفون خبيراً فى الزراعة ، وشاهد ذلك أنه لما طلب إلى سقراط أن يعلم فنونها أقر فى كثير من التواضع بجهله ، ولكنه ذكر نصيحة المالك الثرى إسكوماكش Ischomachus والمثل الذى ضربه للناس بنفسه . ويجهر إسكوماكس هذا باحتقار أكسانوفون لكل عمل (٣٠ - ح ٢ - مجلد ٢)

هذا الزراعة والحرب ، ولا يكتفى بشرح أسرار النجاح في الأعمال الزراعية ، بل يشرح معها فن إدارة الرجل أملاكه وأملاك زوجته . ومحدثنا إسكوماكس في أسلوب لا يكاد يقل رشاقة عن أسلوب أفلاطون كيف علم عروسه أن تعني بمنزلها ، وتضع كل شيء في مكانه ، وتسوس خدمها بالرفق من غير أن تحتلط بهم وتفقد منزلتها في أعينهم ، وتشتهر بين الناس ، لا بجألها المصطنع ؛ بل بإخلاصها في أداء واجباتها بوصف كونها زوجة ، وأما ، وصديقة . والزواج في رأى إسكوماكس - أكسانوفون رابطة اقتصادية وجسمية معاً ، وهو يضمحل حين يقوم الشريك الصامت بالعمل كله . ولعل حديثه عن استعداد الزوجة الشابة لقبول هذا كله لا يبدو أن يكون أمنية يتمناها ذلك القائد الذى لم ينل نصراً ما في ميدان البيت ؛ ولكننا لا بمنعنا مانع من أن نصدق كل شيء في القصة إلا أن إسكوماكس قد استطاع في لحظة وجيزة أن يقنع زوجته بترك المساحيق والأصباغ الحمراء (٢٠) .

وبعد أن شرح أكسانوفون فن الزواج أخذ يصف في القيروبيديا (أى تربية قورش) مثله العليا في التعليم والحكم ، كأنه يرد بها على آراء أفلاطون في الجمهورية . وكان أكسانوفون بارعاً في تكييف السير الخرافية لخدمة الفلسفة ، فأخذ يروى قصة خيالية عن تعليم قورش الأكبر ، وحياته ، ونظامه الإدارى ؛ وهو يجعل القصة شخصية مسرحية ، ويبعث فيها الحياة بجواره ، ويجملها بما يدخله فيها من أقدم قصص الحب في الآداب التى كانت موجودة في زمانه . ويكاد يغفل في كتابه التربية الثقافية ، ويركز اهتمامه في كيفية جعل الغلام صحيح الجسم ، قادراً ، شريفاً ؛ فالصبي يتعلم الألعاب الرياضية الخلقية بالرجال ، وفنون الحرب ، وعادة الصمت والطاعة ، ويتعلم أخيراً كيف يسيطر على مرؤوسيه سيطرة قوية قائمة على الإقناع . ويرى أكسانوفون أن خير أنواع الحكم هو الحكم الملكى المستنير الذى تؤيده وتحد منه أرستقراطية متخصصة في الأعمال الزراعية والشئون الحربية . وهو يعجب بقوانين الفرس التى تقضى بمكافأة المحسن وعقاب المسيء (٢١) ،

ويقول ليونان ذوى النزعة الفردية إن من المستطاع ضم كثير من المدن والدول في إمبراطورية واحدة تستمتع بالنظام والسلم في الداخل ، ويضرب لم بلاد الفرس مثلاً . ولقد بدأ أكسانوفون كما بدأ فليب وهو يحلم بالفتح ويسطة الملك ، وينتهى كما انتهى الإسكندر أسير حب الشعوب التي فكر في التغلب عليها .

وهو قصاص بارع ، ولكنه فيسوف وسط . وهو هاو في كل شيء عدا الحرب ، يبحث في مائة موضوع وموضوع ، ولكنه يبحث فيها على الدوام بعقلية العسكري . وهو يبالغ في مزايا النظام ، ولا يجد كلمة يقولها عن الحرية ، وفي مقدورنا أن نستدل من هذا على مقدار ما بلغه الاضطراب في اثينة . وإذا كان القدامى قد وضعوه في مرتبة هيرودوت وتوكيديلز ، لذلك راجع من غير شك إلى أسلوبه الذي يمتاز بصفاته الأتكي الساحر الطلي ، ونثره السلس المتدفق المنسجم الذي وصفه شيشرون بأنه « أحلى من الشهد^(٣٣) » ، وإلى اللوحات الشخصية التي تكسب للموضوع حياة وإنسانية ، وإلى لفته ذات البساطة والثقافة التي تمكن القارىء أن يرى من خلال هذا الوسط الصافي الرأى أو الموضوع الذي يعالجه الكاتب . وإن الصلة التي بين أكسانوفون وأفلاطون من جهة وتوكيديلز وسقراط من جهة أخرى لشبيهة كل الشبه بالصلة التي بين أبليرز وپركستليز من ناحية وپلجنوتس من الناحية الأخرى... فقد بلغت أناقة الأسلوب والمهارة الفنية على أيديهما أهل منزاتهما بعد عصر من الابتكار في التفكير وقوة الأسلوب •

الفصل الرابع

أپلېز

إن الذى بلغ فيه القرن الرابع إلى الذروة لم يكن الأدب بل الفلسفة والفن ؛ ذلك أن الفرد قد تحرر فيه ؛ كما تحرر فى السياسة ، من المعبود ومن الدولة ، ومن التقاليد ومن المدرسة . فلما أن حل الولاء الفردى محل الإخلاص الوطنى ، نزل فن العمارة إلى الدرجة الوسطى ، وازداد طابعه الدنيوى شيئاً فشيئاً ، واضمححل شأن تمثيليات الموسيقى والرقص وحل محلها تمثيل يقوم به أفراد محترفون ، وظل التصوير والنحت يزينان المباني العامة بصور طرز من الآلهة أو النبلاء ، ولكنهما فى الوقت ذاته دخلا فى خدمة الأفراد الأحياء وشرعا بصورتهم حتى أصبح هذا طابع العصر الذى أعقب ذلك القرن . وإذا كانت بعض المدن قد ظلت تناصر الفن مناصرة قومية واسعة النطاق ، فما ذلك إلا لأنها كانت كمدائن نيدس ، وهليكرنسس ، وإفسوس لم تجتهد الحرب اجتياحاً تاماً ؛ أو كسراقوصة قد وجدت فى مواردها الطبيعية ونظام حكمها وسائل الانتعاش العاجل .

وأما فن العمارة فى أرض اليونان الأصلية فقد كان فى ذلك الوقت واقفاً يترقب لا يتقدم ولا يتأخر وإن كانت قد شيدت فيه بعض العماثر . من ذلك أن ليقورغ جدد فى عام ٣٣٨ بناء ملهى ديونيشيوس ، وساحة الألعاب ، واللوقيون ، وشاد فيلون بإشرافه دار صنعة كبيرة رائعة فى بيرية . ولما أن ازداد ميل الناس إلى الرقة والدقة فى البناء فقد الطراز الدورى جدته وانصرف الناس عنه ، لأن بساطته الصارمة لم تعد تستجيب لها النفس ، وارتفع شأن الطراز الأيونى وازداد انتشاراً ، وكان هذا فى الفن يقابل طرف بركستليز فى النحت وسحر أفلاطون فى الأدب . وأنشى « على الطراز الكورنثى » برج الرياح

والنصب التذكاري للتمثيل في لسكرتيز Lysicartes : وشاد أسكوباس
Scopas في تيجيا Tegea الأركادية هيكلًا لأثينا جميع فيه بين الطرز الثلاثة ،
فكانت فيه مجموعة من العمد الدورية ، وأخرى أيونية ، وثالثة
كورنثية^(٢٣) ، ثم جملة بالتمثيل نحتها بيده الصناعات العضلية .

وكان التمثال الثالث المقام لأرتيميس في إفسوس أكبر من هذا
وأعظم شهرة ؛ وكان التمثال الثاني قد احترق يوم ولد الإسكندر في عام
٣٥٦ ؛ وتلك مصادفة يقول عنها فلوطرخس بظرفه المعهود إلى هجسياس
المغنزي Hegesias of Magnesia « اتخذها سبباً لغرور بلغ من البرودة
حداً يكفي لإخماد النار^(٢٤) » . وسرعان ما بدئ بإقامة البناء الثاني ، ولم ينته
ذلك القرن حتى كان البناء قد تم . وعرض الإسكندر أن يتحمل جميع
نفقات المبنى كلها إذا نقش اسمه على هذا الصرح ، وقيل إنه أقيم من ماله ؛
ولكن يونان إفسوس أبت عليهم عزة أنفسهم أن يقبلوا هذا العرض ،
وكانت حججهم في رفضه حجة لا تستطيع مقاومتها (أو لعلهم أرادوا بها
هجو الإسكندر والسخرية منه) وهي أنه « لا يليق أن ينشئ إله هيكلًا
لإله آخر^(٢٥) » . غير أن الذي حدث رغم هذا أن مهندس الإسكندر
المقرب إليه هو الذي رسم مبنى الهيكل وجعله أكبر هياكل هلاس على
الإطلاق . وقام عدد من المثاليين بعمل النقوش القليلة البروز على ستة وثلاثين
عموداً ، وكان من بينهم اسكوباس الذي نرى له نقوشاً في كل مكان في
بلاد اليونان . وفي المتحف البريطاني صحيفة من أحد هذه العمد ، نُحِتت عليها
تمائيل ، وكأنها قد قاومت عوادي الزمان لكي تثبت بما عليها من تصوير
للثياب دون غيره أن فن النحت اليوناني لا يزال قريباً جداً من ذروته .
وليست دژوس التماثيل جامدة نُحِتت على غرار طرز حددتها التقاليد
والأجيال الطوال ، ولكنها تمثل وجوهاً لأفراد تنبض بالشعور والمميزات
الخلقية -- وتبشر بالواقعية الملئسنية .

وفي الأحجام الصغيرة امتاز القرن الرابع بالتماثيل الصغيرة المصنوعة من

الأجر المحروق . وقد أضحي اسم تنجارا البووتية *Bocotiam Tangara* مرادفاً للتأليل الصغيرة المصنوعة من الصلصال المحروق غير المزجج المصبوب على غرار طرز عامة ، ولكنه يُشكل ويلون باليد فتخرج منه آلاف من الصور الفردية التي تنبعث فيها ألوان الحياة العامة على اختلاف أشكالها . وكان يلجأ إلى التصوير في هذا الفن كما كان . يلجأ إليه في القرون السابقة له لمساعدة غيره من الفنون . غير أنه قد أصبحت له وقتئذ كرامة ومنزلة مستقلة ، وأضحى أساتذته يستدعون لأداء أعمال فنية في جميع أنحاء العالم اليوناني . وكان *پمفيلس الأمفيلوسى Panphilus Amphipolis* معلم *أپليز* يرفض أى تلميذ لا يبقى عنده اثنتى عشرة سنة كاملة ، وكان يطلب ما يعادل ستة آلاف ريال أمريكى لتدريس المنهج . وقد أدى *ناسون Mnason* طاغية إلاتيه اللكرية *Locrian Elatea* عشر مينات أجرأ عن كل صورة من المائة الصورة في منظر واقعة حربية رسمه *أرستيديز الطيبي* ، وبذلك حصل هذا الرسام على مائة ألف ريال أمريكى أجرأ لرسم منظر واحد وهذا الطاغية المتحمس نفسه وهب *اسكلپودورس* ما يعادل ٣٦٠٠٠٠ ريال أمريكى أجرأ للوحة صور عليها الاثنا عشر الكبار من الآلهة الأولمبية . ودفع ما يعادل ١٢٠٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لنسخة ثانية من الصور الملونة التي رسمها *پوسياس السشيونى* *بلسيرا* عشيقة *مناندر* (٣٦) . ويقول *پلنى* إن صورة من عمل *أپليز* كانت تباع بثمن يعادل ما في خزائن *مدائن بأجمعها* (٣٧)

ويقول هذا الهاوى المتحمس نفسه أن « *أپليز* القوسى فاق كل من عداه من المصورين السابقين واللاحقين ، فإنه بمفرده أفاد فن التصوير كما لم يفده جميع المصورين مجتمعين (٢٨) » . وما من شك في أن *أپليز* كان أعظم أهل فنه وأهل زمانه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يسرف هذا الإسراف النادر في مدح غيره من المصورين ؛ من ذلك أنه لما علم أن *پروتجنيز* أكبر منافسيه يعيش في فقر مدقع ، سافر إلى رودس لزيارته . ولم يكن *پروتجنيز* في مرسمه حين أقبل *أپليز*

لأن أحداً لم ينبئه بهذه الزيارة . وقابلت الزائر خادم عجوز وسألته عن اسمه لتبلغه إلى سيدها بعد أن يعود . فإكان جواب أبلينز إلا أن أخذ فرشاة ورسم على لوحة إطاراً غاية في الدقة بجمرة واحدة . ولما عاد پروتجينز وأخبرته الخادم العجوز أنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تخبره باسم زائره ، ثم اطلع على الأطار وشاهد دقته . صاح قائلاً : « إن أحداً لا يستطيع رسم هذا الإطار إلا أبلينز » . ثم رسم في داخله إطاراً أدق منه وأمر المرأة أن تطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد ، وعاد أبلينز فعلاً ودهش من حلق پروتجينز الغائب ، ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً بلغ من الرقة والرشاقة حداً لم يسع پروتجينز معه حين رآه إلا أن يعترف أن منافسه قد غلبه ، ثم أسرع إلى الميناء ليستقي أبلينز ويرحب به . وانتقلت هذه الآلية الفنية من جيل إلى جيل حتى اشتراها يوليوس قيصر ، ثم احترقت في النار التي دمرت قصره القائم على تل البلاطين . وتاقت نفس أبلينز إلى أن يوقظ في العالم اليوناني الاهتمام پروتجينز وتقدير قيمته فسأله أن يخبره كم من المال يطلب ثمناً لبعض رسومه ، ولما طلب پروتجينز مبلغاً متواضعاً عرض عليه أبلينز بدلاً منه خمسين وزنة (٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ثم أذاع أنه سيبيع هذه الرسوم زاعماً أنها من صنع يده . وكان هذا الإعلان سبباً في أن أهل رودس قدروا عمل فنانهم خيراً من ذي قبل فدفعوا إلى پروتجينز أكثر مما عرضه عليه أبلينز واحتفظوا بالصورة بين كنوز مدينتهم^(٢٩) .

وكان أبلينز في هذه الأثناء قد نال إعجاب العالم اليوناني كله بصورة أفرديتي أنديوميني Aphrodite Anadyomene أى أفروديتي الخارجة من البحر . وأرسل الإسكندر في طلبه وعرض عليه أن يرسمه في مواقف كثيرة . ولم تعجب الشاب الفاتح صورة لجواده بسفالس Bucephalies في أحد هذه الرسوم ، وأمر بأن يقرب الجواد من الصورة ليوازن بينه وبينها ، فلما نظر الجواد إلى صورته صهل ، فقال أبلينز للإسكندر « يلوح أن جواد

جلالتك يعرف عن التصوير أكثر مما تعرف^(٢٠) . وكان الملك في مرة أخرى يتحدث عن الفن في رسم أبلينز ، فرجاه الفنان أن ينتقل إلى موضوع آخر حتى لا يسخر منه الغلمان الذين يسحقون الألوان ، ولم يغضب الإسكندر من هذا القول . ولما أن استخدم الفنان في تصوير حظيته المحبوبة ، وشغف بها أبلينز أهداها إليه الملك^(٢١) . وكان أبلينز يغطي صورته بعد الفراغ منها بطبقة رقيقة من الطلاء ، تحفظ الألوان ، وتخفف من بريقها ولكنها تجعلها أكثر بهجة وإمتاعاً من ذي قبل . وظل أبلينز يعمل إلى آخر أيامه ووفاته المنية وهو يعمل مرة أخرى في تخطيط صورة أفرديتي الخالدة .

الفصل الخامس

پرکستلیز

وكانت خير آيات النحت في ذلك العصر وأعظمها روعة هي الضريح الذي أقيم لموسولوس Mausolus ملك هليكرنسس. وكان موسولوس مرزباناً من مرازبة الفرس بالاسم ، ولكنه بسط سلطانه على كاريا Caria وأجزاء من أيونيا. وليشيا Lyocia ، واستخدم موارده الكبيرة في إنشاء أسطوله وتجميل عاصمته . ولما مات (٣٥٣) أقامت أخته وهي أيضا زوجته مباراة شهيرة في الخطابة تكريماً له ، واستدعت أشهر الفنانين اليونان ليشاركوا في إقامة ضريح يكون تذكراً جديراً بعبقريته . وكانت ملكة بطبعها كما كانت بزواجها . ولما أن اغتم أهل رودس فرصة موت الملك وغزوا كاريا غلبتهم بحيلها واستولت على أسطولهم وعاصمة بلادهم ، وما لبثت أن أملت شروطها على أولئك التجار الأثرياء^(٣٢) . ولكن حزنها على وفاة موسولوس هد ركنها فلم تعش بعده أكثر من عامين ، قبل أن يتم الضريح الذي صار فيها بعد حديث الناس كلهم في بلاد الغرب . وكان اسكوياس ، وليوكاريز Leochares ، وپريتكسيس Bryaxia ، وتمثيوس يعملون في جده وأناة لإقامة ضريح رباعي الشكل من ألواح من الرخام الأبيض فوق قاعدة من الحجر ، ويغطونه بسقف هرمي ، ويزينونه بستة وثلاثين عموداً ، وبطائفة كبيرة من التماثيل الصغيرة والنقوش . وقد عثر الإنجليز في خرائب هليكرنسس عام ١٨٥٧ على تمثال لموسولوس يمثل مرة أخرى كفاح اليونان مع الغارات الخرافيات الأمزونييات . وبعد هذا النقش وما فيه من رجال

(٥) وما الآن المتحف البريطاني .

ونساء وجياد من أعظم روائع العالم كله في النقش القليل البروز وليست الأمزونيات التي به نساء مسترجلات خلقت للحرب ، بل هن نساء ذوات جمال شهوانى ، ما أخلقهن بأن يثرن في اليونان عواطف أرق من عاطفة الحرب . وقد أضحى هذا الضريح هو وهيكلا لإفسوس الثالث من عجائب العالم السابع .

ويبلغ فن النحت وقتئذ ذروة مجده من نواح كثيرة . نعم إنه كان ينقصه الحافظ الدينى ، ولم يبلغ ما بلغتة قواصر البرثون من جلال وقوة ، ولكنه استمد إلهاما جديدا من الرشاقة النسوية ، وبلغ من الجمال ما لم يبلغه ذلك الفن قبل هذا الوقت أو بعده . لقد صور القرن الخامس رجالا عراة ، ونساء مكثسيات ، أما القرن الرابع فقد أترأن ينحت نساء عاريات ورجالا مكثسين ؛ وجعل القرن الخامس نماذجه مثلا عليا يحتذى الفنانون حذوها ولا يحيدون عنها ، وصبوا أو نحتوا حياة الإنسان الشقية في صورة خلائق مجردين من العواطف يستريحون من عناء تلك الحياة وشئونها ؛ أما القرن الرابع فقد حاول فنانونه أن يمثلوا في الحجر شيئا من الفردية والإحساسات البشرية . وأضحت للرأس والوجه في صور الرجال أهمية أكثر مما كان لها من قبل ، وقلت أهمية الجسم نفسه ، وحلت دراسة الأخلاق محل عبادة القوة العضلية ، وتسابق كل من كان ذا مال على أن تكون له صورة من حجر ؛ وتحرر الجسم من وضعه الجامد المعتدل ، وصار يتكى مستريحا على عصا أو شجرة ؛ ومثل فيه التفاعل الحى للضوء والظل . وقد بلغ من حرص ليستراتس السكيونى على أن يكون واقعا إلى أقصى حد ، أن كان يعمل غلافا من الجص فوق وجه الشخص المراد تصويره ، ويصب فيه القالب المبدئى ، ولعه كان أول من فعل هذا من اليونان (٣٣) .

ويبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقتة حد الكمال على يدى پركستليز . والعالم كله يعرف أنه أحب فيرينى Phryne ، وأنه صور جمالها تصويراً مخلصاً ، لكن أحداً من الناس لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفى . وكان

ابنا وأبا لمثالين يعرفان باسم سفسدوتس Cephissdoius ، ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجددين الصابرين . وكان يعمل في البرنز والرخام على حد سواء ، وبلغ من شهرته أن كانت اثنتا عشرة مدينة تتنافس للحصول على خدماته ؛ منها كوس التي عهدت إليه في عام ٣٦٠ أن ينحت لها تمثالا لأفرديتي ؛ فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فيريني ، ولكن الكوسيين ساءهم أن وجدوا الإلهة مجردة من الثياب ، فما كان من پرکستليز إلا أن هدا ثورة غضبهم بأن صنع لها تمثالا آخر مكتسبا ، وابتاعت نيدس التمثال الأول . وعرض نكومديز ملك بيثيا على نيدس أن يتباع هذا التمثال بكل ما على المدينة من ديون ، ولكن نيدس آثرت المجد الخالد على العرض الزائل . وأقبل السياح من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ليشاهدوا التمثال ، وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صنع حتى ذلك الوقت في بلاد اليونان كلها ، وقال الثرثارون إن الرجال كانت تستثار عواطفهم إلى حد الجنون حين يشاهدون هذا التمثال (٣٤) (*).

وكما أذاع تمثال أفرديتي شهرة نيدس في الخافقين ، وكذلك اجتذبت بلدة تسبيا الصغيرة إحدى بلاد بووتية مسقط رأس فيريني السامحين ، لأن فيريني وقد وضعت فيها تمثالا لإيروس (الحب) من نحت پرکستليز . ذلك أنها سألته يوما ما أن يقدم لها يرهانا على حبه أجمل تمثال في منحتة ، وأراد أن يترك لها الخيار ؛ ولكن فيريني أرادت أن تكشف بنفسها عن تقديره لأعماله ، فهورلت إليه في يوم من الأيام وأخبرته أن منحتة يحترق ؛ فلما سمع هذا النبأ صاح قائلة إن كان تمثال جنى الغاب وتمثال إيروس قد احترقا فيها لول النكبة (٣٥) ؛

(٥) وان منحتة انما تكان صورة تملق هذا التمثال المنقوشة على النقود انشابة التي ستر عليها في أرماس المدينة .

واختارت فيريني من فورها تمثال إيروس وأهدته إلى مسقط رأسها(*) .
وكلن إيروس في أول أمره إله هزيود Hesiod وخالقه ، ثم استحال
تفكر پرکستليز شابا حالما رقيقاً ، يرمز إلى سلطان الحب على النفوس ؛
ولم يكن قد أصبح بعد كيويو Cupid اللعوب الخبيث الذي نعرفه في الفينين :
المليستى والرومانى .

ولعل تمثال جنى الغاب المحفوظ في متحف الكبتولين برومة والمعروف
باسم إله الحقول والرعاة الرخامى صورة من التمثال الذى فضله پرکستليز عن
تمثال إيروس . ويظن بعضهم أن جذع التمثال المحفوظ في متحف اللوثر
جزء من التمثال الأصيل نفسه^(٣٦) . وتمثال الجنى يصوره في صورة غلام
متين البنية مبتهجا سعيدا ، ليس فيه من جسم الحيوان إلا أذناه الطويلتان
القائمتان ؛ وهو يتكى متراخيا على جذع شجرة وقد لف إحدى قدميه
بالأخرى . وقل أن نجد في الرخام تمثيلا أصدق من هذا للراحة الكاملة .
فأنت ترى تراخى الحدوثة الساحر باديا في الأطراف المرتخية والوجه المطمئن
الوائق . وربما كانت الأطراف مستديرة ناعمة فوق ما يجب أن تكون ؛ وذلك
لأن پرکستليز لم يستطع لطول نظره إلى فيريني أن يمثل الرجال تمثيلا صادقا .
ويؤيد ذلك أن تمثال أبلو قاتل العظايا Apollis Sauroctonus نساى إلى حد
يكاد يملنا على أن نضمه إلى تماثيل المحبتين الكثيرة بين التماثيل المليستية .

ويقول بوسنياس في عبارة موجزة إيجازاً يوسف له إن من بين تماثيل
هيرايوم Heraeum في أولبيا تمثالا « من الحجر لهرمس يحمل ديونيشس
من عمل پرکستليز^(٣٧) » . وبيننا كان علماء الآثار الألمان يتقبون في هذا

(*) وأمر نيرون فجىء به إلى رومة ، حيث أحرق في النار التى شبت في عام ٦٨ م
وقد يكون تمثال كيويو المتوسل Cupid of Centocelle المحفوظ في الفاتيكان صورة
منقولة عنه

المكان عام ١٨٧٧ إذ توجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً في طبقات من الأقدار والطين ظلت تراكم عليه عدة قرون . وليس في وسع القارئ أن يتخيل صورة حقيقية له من وصفه ، وصوره الشمسية ، والتماذج التي تعمل له ، بل على الإنسان أن يقف خاشعاً أمامه في متحف أولمبيا البصغري ، ويمر بإصبعه نخلسه على سطحه لكي يدرك ما في نسيج هذا اللحم الرخاى من نعمة وحياة ، أما موضوعه فهو أن الإله الرسول قد عهد إليه إنقاذ الطفل ديونيشس من غيرة هيرا وحمله إلى بحور الغابات والبحيرات ليربته في السر . ويقف هرمس في الطريق ، ويضطجع على جذع شجرة ويمسك بعنقود من العنب أمام الطفل . وليس تمثال الطفل نفسه جيد الصقل ، كان تمثال الإله الأكبر قد استنفد جميع وحي الفنان . وقد ضاعت ذراع هرمس اليمنى وأعيدت إليه بعض أجزاء من الساقين ، أما بقية الجسم فيبدو أنها هي كما صاغتها يد المثال . وتكشف الأطراف المتينة ويكشف الصدر للمريض عن قوة الجسم وصحته ، والرأس في حد ذاته آية فنية رائعة يجالها الأرسطراطي ، ومعارفه الرقيقة وشعره المنثني ، والقدم اليمنى قد بلغت درجة الكمال حيث يندر الكمال في التماثيل . وكان الأقدمون يعدون هذا التمثال من أعمال الفنان الصغرى ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على مقدار ما كان يمتاز به هذا العصر من ثروة فنية عظيمة .

ويصف هوسنياس^(٣٨) في فقرة أخرى مجموعة رخامية أقامها بركستليز في منينيا . ولم يعثر المتقربون إلا على قاعدة هذه المجموعة ، تحمل تماثيل لثلاث من ربات الفن لعل الذين نحتوها هم التلاميذ لا الأستاذ نفسه . وإذا جمعنا ما في هوسنياس من إشارات إلى تماثيل بركستليز في الكتابات اليونانية التي كانت موجودة في أيامه ، خرجنا منها بنحو أربعين من الأعمال الكبرى^(٣٩) ، وما من شك في أن هذه الأربعين لم تكن إلا جزءاً من إنتاجه العظيم . ونحن إذا درسنا القطع الباقية من هذه الأعمال نجد فيها ما نجده في تماثيل فدياس

من سمو وقوة وهيبة وإجلال ، وترى الآلهة قد أدخلت مكانها لفيريني ، وترى مشاكل الحياة القومية الكبرى قد أغفلت ليحل محلها الحب الفردى . ولكن ما من مثال قد فاق بركستليز في دقه الصياغة ، وفي قدرته التي تكاد تبلغ حد الإعجاز على أن يمثل في الحجر الصلب الراحة والرشاقة ، وأرق العواطف وبهجة الحواس ، والاستمتاع بالغابات . لقد كان فدياس فناً دورياً وأما بركستليز فكان أيونياً ، وإنا لنجد فيه مرة أخرى ما ينذر بغزو أوروبا الثقافي الذي أعقب انتصارات الإسكندر .

الفصل السادس

اسكوباس وليسبوس

لقد كان اسكوباس لبيرن Byron كما كان فدياس للثن وپركستليز لكيتس Keats . ولسنا نعرف شيئاً عن حياة المثال القديم إلا من أعماله ، وهي الترجمة الحقة لأى إنسان ؛ ولكننا لا نعرف أعماله نفسها معرفة أكيدة موثوقاً بصحتها . وإن الرؤوس القصيرة الممتلئة المنفرة للتماثيل المعزوة له ، أو النسخ التي يقال إنها منقولة عن التماثيل الأصلية ، لتظهره في صورة الرجل المسرف في قوته وفي نزعته الفردية . ولقد سبق القول إنه كان يعمل في تيجيا مهندساً معمارياً ومثالا معاً ، وإنه لا يفوقه في قوته وتعدد كفاياته أحد في جميع القرون التي بين فدياس وميكل أنجلو . وكل ما عثر عليه المنقبون من أعماله قطع قليلة من قوصرة ، أهمها رأسان أصيبا بكثير من التلف يمتازان بقصرهما وعرضهما واستدارتهما وبالنظرة العابسة الحاققة ، وهي الصفات الغالبة على جميع أعمال اسكوباس ، ومنها تمثال مهشم لأطلنطا . ويشبه هذه البقايا شهاً عجيباً رأس ملياجر Meleager المحفوظ في بيت مديشى برومة . وفي هذا الرأس أيضاً نرى الخدين الممتلئين ، والشفنتين الشهوانيتين ، والعينين المكتئبتين ، والجبهة ذات الحافة البارزة بروزاً قليلاً فوق الأنف ، والشعر الملوى الأشعث بعض الشيء ؛ ولعل هذا التمثال نسخة رومانية من تمثال ملياجر الذي نحته اسكوباس ليكون جزءاً من مجموعة تمثل منظر صيد كلدوني . وفي متحف نيويورك الفني رأس آخر لا نكاد نشك في أنه من صنع اسكوباس ، أو منقول عن رأس من صنعه ؛ وهو قوى بليد ولكنه وسيم ذكى ، وهو أصدق الرؤوس تمثيلاً لما بقي من آثار النحت في العصور القديمة :

ويقول بوسنياس^(٤٠) إن اسكوباس قد «صَبَّ» في «إليس» تمثالاً من الشبه لأفرديتي الهندية جالسة فوق جدنى من الشبه». ونحت في سيكون تمثالاً رخامياً لهرقلز لعل النسخة الرومانية المحفوظة في بيت لاندسلون بلندن منقولة عنه مباشرة. وجسم التمثال يدل على النكسة الفنية والعودة بالفن إلى الطراز العضلي البولكىتي، والرأس صغير مستدير كالعادة، والوجه يكاد يبلغ من الرقة وجوه تماثيل بركستليز. وقد أقام في ميغارا، وأرجوس، وطبية، وأثينة ما يكفى من الوقت لنحت تماثيل شاهداها بوسنياس بعد خمسة قرون من ذلك الوقت، ولعله قد اشترك في تجديد بناء معبد أبيلورس. وعبر بعدئذ بحر إيجه ونحت لنيدس تماثيلين لأثينا وديونيشس، وكان له شأن كبير في أعمال النحت التي احتاجها بعض الأعمدة في هيكل إفسوس. وفي برجموم Bergamum نحت تمثالاً ضخماً لآريس Ares يمثله جالساً، وفي كريسا في أرض إطرودة أقام تمثالاً لأپلوسمثنوس Apollo Smintheus ليخيف الجرزان ويطردها من الحقول. وأقام في سمثريس Samothrace تمثالاً لأفرديتي كان من أسباب شهرتها العظيمة، ونحت في بيزنطية البعيدة تمثالاً لكاهنة باكس Bacchante ربما كان التمثال المحفوظ في متحف البرتنوم. بلسدن والمعروف باسم ميناد الغامضة نسخة رومانية منه. وإن هذا التمثال الرخامى الصغير وحده خلّيق بأن يرفع صانعه إلى مرتبة الفنانين العظام^(٤١)— فهو تمثال قوى النحت، فخم الثياب، فد في وقفته، حتى في غضبه، وجميل من كافة نواحيه. ويشير پلنى إلى تماثيل أخرى كثيرة من صنع اسكوباس كانت في أيامه قائمة في قصور رومة. منها تمثال لأبلو يرجح أنه هو الذى نقل عنه تمثال أبلو ئيسارودس Apollo Citharoedus المحفوظ في الفاتيكان، ومجموعة تماثيل لپسیدن، وثيتيس، وأخيل، ونه پديز، وهى كما يقول پلنى آية في دقة الصنع حتى لو أن صاحبها قد قضى حياته كلها في إتمامها؛ ومنها تمثال لأفرديتي عارية يكفى ولده لأن يذيع شهرة آية مدينة^(٤١) .

وملاك القول أن هذه الأعمال ، إذا جاز لنا أن نصدر حكماً على صاحبها يستند إلى بقايا قليلة ظنية ، توحى بأن لاسكوباس منزلة تقرب جداً من منزلة پرکستلیز . فهو يمتاز بالابتكار في غير إصراف ، والقوة في غير غلظة ، وبالتمثيل المسرحي للنوازع والعواطف والمزاج ، دون أن تشوه هذه كلها شدة متكلفة . لقد كان پرکستلیز يعشق الجمال ، أما اسكوباس فكان ينجذب نحو الخلق ، وكان پرکستلیز يرغب في الكشف عن الرشاقة والحنان في النساء ، وعن الصحة المبهجة والمرح في الشباب ؛ أما اسكوباس فقد اختار أن يمثل آلام الحياة ومآسها ، ورفع من شأنها بهذا التمثيل الغني البديع . ولو أننا كان لدينا من أعماله أكثر مما عثرنا عليه منها لما فضلنا عليه أحداً غير فدياس .

حسبنا هذا عن اسكوباس ، أما ليسبوس السيكوني فقد بدأ حياته صناعاً وضيعاً في النحاس ؛ وكان يتوق إلى أن يكون فناناً ، ولكنه لم يكن لديه من المال ما يمكنه من أن يتعلم على معلم . غير أنه تشجع حين سمع يويومس المصور يعلن أنه يفضل محاكاة الطبيعة نفسها عن محاكاة أي فنان مهما يكن قدره^(٢٢) . فلما سمع ليسبوس هذا القول انجبه من فوره إلى دراسة الكائنات الحية ، ووضع قانوناً جديداً للنسب في فن النحت ليستعوض به عن قاعدة بلكليتس الصارمة ؛ فأطال الساقين وقصر الرأس ، وزاد من ثخانة الأطراف ، ونحّل على الصورة كلها كثيراً من الحيوية والراحة . ومن أعماله تمثال أپکسيوموس Apxyomenos وهو صورة تمثال ديامنوس ، تختلف عنها من بعض الوجوه . فرجل بلكليتس الرياضي يربط عصا به فوق جبينه ، أما ليسبوس فيزيل الزيت والغبار عن ذراعه بمكشط ، ويبدو فيها أكثر نحافة ورشاقة . وأكثر من هذا التمثال جاذبية وحيوية ، إذا جاز لنا أن نستند في حكمنا إلى الصورة الرنخامية المحفوظة في متحف دلني ، تمثال أچياس Agias الشاب التسالي النبيل . ذلك أن ليسبوس لم يكده يتحرر من القيود حتى أخذ يشق طريقه في ميادين فنية جديدة ، فاستبدل تصوير الفرد بتصوير

(٢١ - ج ٢ - مجلد ٢)

الطراز ، والنزعة الانطباعية بالعرف والتقاليد (٥) .
وكاد هو أن يبتدع النحت المصوّر عند اليونان . وقد قطع فليب حروبه
وعشقه ليجلس أمام ليسبوس لينحت له تماثلاً ؛ وسر الإسكندر من التماثيل
التصفية التي نحتها له الفنان سروراً جعله يختاره دون غيره مثاله الملكي
الرسمي ، كما منح من قبل أبلز وحده حق تصويره وإلى پرجتليز حق
نقش هذه الصور على الجواهر .

وثمة طائفة من أجل التماثيل التي خلفها القرن الرابع في فن النحت
لا يعرف من صنعها : منها تماثال من الشبه لشاب عثر عليه في البحر قرب
مرثون ، ومنها نسخة قديمة لتماثال هرمس الأندرشى الذى صنع في
القرن الرابع ، وتماثال رقيق لهيجيا المفكرة عثر عليه في تيجيا (*) - وكل
هذه التماثيل في متحف أثينة ، وفي متحف بسطن رأس فتاة من طشيوز
غاية في الجمال . ومن آثار هذا العصر ، بقدر ما وصل إليه علمنا ، معظم
تماثيل نيوبى التي نقلت إلى رومة من آسية الصغرى في أيام أغسطس ، والتي
نراها الآن موزعة في متاحف أوروبا . وربما كان من آثار هذا العهد أيضاً
التماثيل الأصلية الثلاثة من تماثيل أفرديتى التي تعزى إلى پركستليز : وهى
تماثال فينوس المفكرة الذى جىء به من كهوا Capua والمحفوظ في
متحف نابلى ، وتماثال فينوس المضطجعة المحفوظ في متحف الفاتيكان

(٥) يقول ليسبوس ، في عبارة لورشمها مانت Mianet لسرمنها أيما سرور ، إن غيره
من التالين يصورون الرجال كما هم أما هو فإنه يصوم « كما يبلون لنابى (٤٣) » .

(**) وقد سرق هذا الرأس الجميل الذى يرى القارى صورته في الصفحة الأولى من
الجزء الأول من هذا المجلد ، من متحف تيجيا الصغير ، ثم عليه بمد بحث دام تسع سنين
اسكندر فيلدهلفوس Alexander Philadelphus أمين المتحف القومى بأثينة في هرى قمح
يقرية من قرى أركاديا . وموضوع التماثال والمصر الذى صنع فيه غير معروفان عل وجه
التحقق . ولكن طرازه . پركستيل يرجعه في ظننا إلى القرن الرابع . ويرى السيد فيلدهلفوس
المخبر الجواد أنه « درة تلج المتحف القومى » .

. وتمثال فينوس أريوس المتواضع المحفوظ في متحف اللوفر . وأعظم من هذه كلها من ناحية الجمال الناضج ، وعمق الشعور الهادئ ، تمثال دمتر الجالس الذي عثر عليه في نيدس عام ١٨٥٨ ، والذي يعد الآن من أروع التحف المحفوظة في المتحف البريطاني . ولسنا نعرف موضوع التمثال على وجه التحقيق ، ولعله لا يعدو أن يكون أجمل صورة جنازية وصلت إلينا من العهود القديمة ، أو لعله يمثل إلهة التلال في صورة الأم الحزينة Mater dolorose ؛ تتحسر وهي صامتة على اغتصاب پرستوني . وقد مثلت العاطفة هنا في غير إسراف كما كان المثالون يفعلون في العصر الذهبي ؛ ويبدو في الوجه والعينين حنو الأمومة كله واستسلامها الصامت . وهذا التمثال مضافاً إلى تمثال هرمس ، لا تماثيل أفرديتي المتحجبة المستعطفة ، هي روائع النحت الحية وآياته الخالدة التي أنتجتها بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد .

الباب الحادى والعشرون

العصر الذهبي للفلسفة

الفصل الأول

العلماء

إذا وازنا بين حال العلم في القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التي خطاها إلى الأمام في القرن الخامس ، وبالاتقلاب الثوري الذي حدث فيه في القرن الثالث ، نحكمنا من فورنا بأنه كان في هذا القرن الأوسط في حالة ركود ، وأنه فتح في معظم الأحوال بتسجيل ما يجمع له في القرن السابق .

هدد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudemus وتوارينخ الحساب ، والهندسة ، والفلك^(١) . وبدا لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراساً موضوعية إلى البحث في أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ، وكاد في سراقوسة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان في نظره نظريات في الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هي قياس الأرض ، بل كانت تدريباً عقلياً ، خالصاً ، وطريقاً يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Arehytas لأنهما قاما بتجارب في الميكانيكا « فأفسدا الشيء الوحيد الطيب في الهندسة ، وقضيا عليه قضاءً مبرماً ، وأبعدها بطريقة مخجلة يجللها العار من المسائل العقلية الخالصة غير المحسمة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة » . ويقول فلوطرخس بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب^(٢) . على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ، فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط^(٣) ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التي هي مجموع مربعين^(٤) ، واخترع التحليل الرياضي أو ارتقى به^(٥) ، ونعنى بالتحليل الرياضي البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التي يؤدي إليها الأخذ بها ، وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات في منهاج المجمع العلمي عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أوكسوس النيدى^(*)، وهرقليدس البتي^(*)، لكفاه فضلاً .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى، وضاعف المكعب، وكتب أول رسالة معروفة في الميكانيكا . هذا إلى أنه اخترع حاكماً لمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث في الفلسفة الفيثاغورية . ويمزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر - البكرة وطارة السير ، واللوب ، (والحشيشة) . وكان الاختراعات الأولان أساس الصناعة الآلية ، أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس في كثير من الجلد والوقار « إنه هياً للأطفال

عملا يشغلون به أنفسهم فبتعهم بذلك أن يحطمو ما في البيت من أدوات^(٦) . وفي هذا العصر نفسه « ربيع » دينوستراتس Dinosiratus « الدائرة » باستخدام القوس الذي يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لخطات الدوائر أو غيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية^(*) ، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة^(**) ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها في أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس^(٨) » .

وأعظم رجال العلم في القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان بركستليز على تخليد اسم نيدس في التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو فى الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فلسطيون Fh'istion فى لكبرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس فى تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون فى أثينة . وكان لقره يعيش معيشة ضنكاً فى بيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى فى كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

(*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال - التقطع الناتج ، والقطع المكافئ ، والقطع الزائد - التى تنتج من قطع مخروط ذى زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة المثلثة المتقاطعة .

(**) وهما الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب (ذو الستة الأوجه المنتظم) ، والمثلث المنتظم ، وذو الأثني عشر وجها المنتظم ، وذو العشرين وجها المنتظم - وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أو ستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطوحاً أو عشرون .
(†) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت فى الإمبراطورية الفارسية . وتعزى هذه القصة أيضاً إلى إقليدس وبطليموس الأول^(٨) .

أقام زمنا ما في نيدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك في سيزقوس البروبنثية Proportin Cyz'cus يحاضر في العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصداً ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين^(٩) .

وقد وضع في الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذى وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التى انتقلت إلينا فى الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذى اخترع طريقة إفناء الفرق التى أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والمهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئى مستحيلاً . ولكن العلم الذى وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم فى قوله إنه يسره أن يحترق كما احترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها^(١٠) . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل فى ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر فى مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة فى أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع فى كتابه الفينومينا Phainomena - الذى يعده الأقدمون أعظم ما كتبوه فى علم الفلك - أساس التنبؤات الجوية .

(٩) وكان من المسائل المحيطة له مسألة إيجاد « القطع الذهبى » أ أن يقسم الخط فى نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفافة لا تراها العين لشفيفتها تدور في اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرماً في الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة (إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة في مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء) أوقات اقتران الكواكب وحلوها في البروج المختلفة (*). وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى في الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمي .

وكتب إكفتوس السراقوصي حوالى عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها في اتجاه شرقى (١٢) . وأخذ هرقليدس البتي هذا الإجماع ، أو لعله وصل إليه مستقلاً ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة في كل يوم حول محورها (١٣) . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

(*) إن فترة الاقتران بلحرم من الأجرام السماوية هي الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول في بروج من البروج فهي الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوي مرتين متتاليتين في هذا البرج أى في ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيماً خيالياً إلى اثني عشر قسمًا يسمى كل منها برجاً . وقد أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٢٩٠ يوماً وتقديرها نحن الآن بـ ٣٨٧ ؛ والمشتري بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ وتقديرها نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ (وقد ورد في أحد المخطوطات ١١٦) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب في الأبراج مرتين متتاليتين كما قدرها أودكسوس فهي ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة و١٦٦ يوماً ، والمشتري ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوماً ، والمريخ ستان ، وتقديرنا سنة ٣٢٢ يوماً ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالضبط مع تقديرنا (١١)

حول الشمس ، ولعل هرقليدس في لحظة من لحظات التجلي العلمي قد استبق أرسطرخوس وكوپرنيق ، لأننا نقرأ في الجزازات الباقية من كتابات مينوس Geminus (حوالى عام ٧٠ ق . م) أن هرقليدس الهنئى قال : احتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم^(١٤) . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية في هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففي الجغرافية قام ديقايرخوس المسانى Dicaearchus of Messana كاتب السير اليونانى بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس في المد والجزر . وفي عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بجرأ من مصب نهر السند محازيا ساحل آسية الجنوبى إلى مصب الفرات ، وكان يبجل سفينه الذى احتفظ أريان Arrian ببعضه في كتابه Indica^(١٥) من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية - أى قياس السطوح ، والمرتفعات . والمنخفضات والمواقع ، والأحجام - قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا^(١٦) . وكان فلسطينون Philistion أحد أبناء بلدة لكبرى Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات في بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسى للحياة ، ومركز النيوما أى النفس . وشبرح ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرستوس Carystus العويية حوالى ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بذرتى » الذكر والأنثى تشتركان في تكوين

الجنين (١٧) . وكانت امرأة تدعى أسيلزيا (غير أسيلزيا أم الإسكندر) من أشهر الطبيبات في أثينة في القرن الرابع ، وذاع صيتها بمؤلفاتها في أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب (١٨) . وخشى إنياس تكتنكوس Aeneas Toticus الأركادى أن يؤدي تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تحتمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهير في فن الحرب ، وجاء نشره في الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا بما ورد فيه من المعلومات .

الفصل الثاني

المدارس السقراطية

١ - أرسطوبوس

إذا كان العلم في القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقي ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبي . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة ، في نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا في كل شيء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التي زرعت في مائتي عام وصارت نظماً عظيمة في بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ لدولة بمصلحة طيبة ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، فأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذي لا معقب لحكمه في شئونها العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أخذوا يكافحون لكي يجدوا في الطبيعة وفي العقل بديلاً من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهدايا للناس في سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التي فتحتها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقترضوا في الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ؛ ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغاري Euclides of Megara ، الذي سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » في مسقط رأسه كما يقول تيمس الأثيني^(١٩) ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فتاً من الجدل يرتاب في كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك في القرن التالي إلى نزعة بيرون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس أتجه تلميذه النابه استلهون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكايبية (Cynic) التي تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون في بحوث ما وراء الطبيعة ، بل في الحياة البسيطة التي تحرر الفرد من الاعتماد في رفايته على العوامل الخارجية . ولما سأل دمترىوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلهون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يقتصبها منه^(٢٠) . وكان من بين تلاميذه في آخر سنى حياته واضع أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزىنون واختتمت بزىنون آخر .

وسافر أرسنبوس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت في سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Laïs في كورنثة^(١٢) ، ثم ألقى عصا الترحال في قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا في هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرسنبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً في الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له في كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضى ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن^(٢٢) .

وكانت فلسفته بسيطة وصرىحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً في اللذة أو خوفاً من الألم — حتى إذا أفقرنا أنفسنا نخير أصدقائنا ، أو ضحينا

يجباتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلما بالأشياء غير مؤكدة ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، وبالنسبة لا يضحى بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذات وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه في الساعة التي نحن فيها (٢٣) . وليست فائدة الفلسفة في أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها في أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذي يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذي يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذات التي تعرضه للخطر ، والتي لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالفتنة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيداً لإنسان ما أو عبداً له (٢٤) » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعو الناس إلى عماء فقد كان أنتسپوس خليقاً ببعض هذا الشرف . فقد كان في فقره وغباه على السواء سمحاً كريماً ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصبر على أن يتقاضى أجراً على ما يعلمه ، ولا يتردد في أن يتملق الطغاة إذا كان في هذا الملق ما يوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول في وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء يمسك بسمكة

أصغر من التي أريدها^(٢٥) » ولما أن لامه صديق له على ركوعه أمام دنيوسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنا الملك في قدميه ، ولما سأله دنيوسوس لم يلزم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلزم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه^(٢٦) » . ولكنه مع ذلك كان يحترق من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجي الثرى بيتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسپيوس في وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه^(٢٧) . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهى ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسان (على ما كان يبدو له) . ولما أن لامه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض في أن يعيش في بيت سكتة آخر قبله أو أن يسافر في سفينة سافر فيها غيره^(٢٨) . ولما قالت له عشيقته : « إني أعاشرك معاشره الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولي إني أنا الذى أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولي بعد أن تحترقى أجهة أية شوكة فيها خدشتك^(٢٩) .

وقتل الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذباً ، مثقفاً ، طيباً ، القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك في أن من أسباب دعوته السافرة للسعى وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سقراط ، وحبه للفلسفة^(*) ، واعترافه بأن أجل منظر في الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذى يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأنذال^(٣١) .

وقال وهو على فراش الموت (٣٥٦) إن أعظم تراث يتركه لابنته

(*) يقول أرسطوس إن مثل الذين يهملون الفلسفة في تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يطلبون ينلجى ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الخاديات أسهل لهم من زواج السيدة^(٣٠) » .

أريتي Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشيء تستطيع أن تستغنى عنه ؟ (٣٢)
وهو استسلام منه لديوجانس عجيب . وقد خلفته ابنته في رئاسة مدرسة
قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحبها مدينتها قبرية
مشرفة هي : « ضياء هلاس (٣٣) » .

٢ - ديوجين (ديوجانس)

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشاتها ،
واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التقشف . وكان
مؤسس المدرسة الكليية ابن مواطن أثيني وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة في
يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپروذكوس ، ثم أنشأ
بعدهذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه
ليتلقي فلسفة الذي يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش في پرية ، ويسير
إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريبا . ولعله كان حاضراً حين كان سقراط
(أو أفلاطون) يناقش بخطيباً ظريفاً في مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . المأكل
والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك في لذات الحب - هل يجب عليه أن يهتم بها ؟ .

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية -

كالحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة

الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يهتم بهذه الأشياء ، أن

يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟ .

سمياس : من واجبي أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذي يحتقرها (٣٤)

هذا هو جوهر الفلسفة الكلية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضة حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسي يوناى بلا دين . وكان شعار أرسطوبوس هو : « إني أملك ولكن أحداً لا يملكني » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إني لا أملك حتى لا يملكني أحد » . ولم يكن عنده مال (٣٥) ، وكان يرتدى ثوباً خلقا غيره به سقراط بقوله : « إني أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثوبك (٥٥) » وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ؛ وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطالبيها واختار موضوعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلبى على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التى تدرس فيها (٥٧) ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى فى أول الأمر أن يقبل ديچين ضمن تلاميذه ، فلما أصر ديچين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه فى جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه فى معيشته لا يجيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس فى أصله نصف رقيق وكان ديچين رجلاً مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرتة شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من التفضيلة ، والحكمة ، فليس أثواب المتسولين ، وحمل جرائمهم وتوكلأ على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصعة فى ساحة معبد سيبيلى فى أثينة (٣٨) . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم . مما يستطيع الحصول عليه أينما وجدته ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مرأى من جميع الناس^(٣٩) . ولما رأى طفلاً يشرب الماء بيديه ألقى هو الآخر كوب الماء^(٤٠) ؛ وكان في بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل^(٤١) . ولم يسيء في حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقيين بزمن طويل أنه مواطن عالمي (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت في سراقوصة ، وقبض عليه القراصنة في بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذة أكسنياديس مربية لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديجين القيام بكل الأعمال إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقري الصالح » ، ويعمل بمشورته في كل شيء . وظل ديجين يحيا حياته البسيطة لا يحميد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل في بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشيء ، وما من شك في أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً في الجدل ، ويقول سميئه إنه لم يغلب قط في مناقشة^(٤٢) . وكان يصف حرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هي والمزاج الحشن ، والفكاهة التي لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تركع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألها ؛ « ألا تخافين أن تكوني في هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان^(٤٣) ؟ » ، ولما رأى ابن حظية يرمي جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أباك^(٤٤) » . وكان يكره النساء ، ويحتقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورثياً جاءه متعطراً متأثراً في ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابته بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرني : أولد أنت أم بنت^(٤٥) ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف في كورنثة

تأثماً في الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ؛ وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديجين الكلب » . وقال له الملك : « أسألتني أي شيء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عني الشمس » . وقال الجندی الشاب : لولم أكن أنا الإسكندر لتمتيت أن أكون ديجين^(٤٦) ؛ ولسنا نعرف أن ديجين قد رد على هذه التحية . ويراد منا أن نعتقد أن الرجلين توفيا في يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر في بابل وهو في سن الثالثة والثلاثين ، وديجير في كورنثة بعد أن جاوز التسعين^(٤٧) . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ؛ وأقامت له سينوب التي نفتته نصباً تذكاريّاً تخليداً للذكراه .

وليس ثمة شيء أوضح من الفلسفة الكلية : فهي لم تعتمد إلى المنطق إلا ريثما تلخص نظرية المعرفة التي كان أفلاطون يجربها عقول العلماء في أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا في نظر الكلبيين عبثاً عقيماً ، وكانوا يقولون إن من واجبتنا ألا ندرس الطبيعة لنفس العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل ؛ بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها في الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هي فلسفة الأخلاق ، والغرض من الحياة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون في طلب اللذة ، بل في الحياة الفطرية البسيطة المستقلة . قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ؛ ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملاً مشروعاً إذا أنت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شيء من الندم ووخز الضمير^(٤٨) ، كثيراً ما تفلت منا أثناء السعي إليها ، أو تخيب رجوعنا فيها بعد أن تناولها ؛ ومن أجل هذا فإن الأخلق بنا أن نعدّها شراً لا خيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هي أن يجيئ الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدا . الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملاً خطيراً ؛ والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة في الرق كما يجدها في الحرية ، لأن حرية النفس هي الحرية الحقة . ويقول ديجين إن الآلة

: قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلهف على الترف . وليس معنى هذا أن الكليين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيماً أخذ يعدد لأنستانس ما يتمتع به المستمسكون بأسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ » (٤٩) ، وكان ديجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرايين التى قرها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرايين قد هلكوا لا الدين نجوا لكنت أكثر من هذه عدداً » (٥٠) ، وكان كل شىء فى الدين عدا الاستمساك بالفضيلة يبدو للكليين أوهاماً وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : ومثل ديجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم » (٥١) . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكليين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الأزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البغايا . وكان ديجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات (٥٢) ؛ وكان أنستانس يطلب الاستقلال فى كل شىء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو (٥٣) . وإذا كان الكليون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم ينجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى (٥٤) . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلاً فى كل شىء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ، وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس^(٥٥) .

وكانت الفلسفة الكليية جزءاً من الحركة التي تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهي الحركة التي قامت في أثينة في القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقدة من ملل في النفوس وعدم توازن في شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحتملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التي بين روسو وولتير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء به إلى بنى الإنسان^(٥٦) . وكان الكلييون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو في العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية »^(٥٧) ، وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيئ لأن طهو الطعام عمل غير طبيعي^(٥٨) ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالي من أسباب الخداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكلييين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع في العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، اتخذوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشيوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون في الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكليية على أيدي استلبو Stillpo وأقراطيس Crates تلميذى ديجين إلى العصر الهلنستي ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختضت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالى القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوى في التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود في شخص الأسينين(*) في بلاد اليهود ، والرهبان في مصر ، في أوائل عهد المسيحية . وليس في مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة في الهند أو ما كان للثانية من أثر في الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى الطبيعة في أيامنا هذه ، لم الأبناء الدهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين عاشوا في بلاد الشرق أو اليونان في الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن في وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات ويعيشوا بينها ، واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة الحضرية ؛

(٥) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة العزلة والتشف و كانت الملكية عندهم مشاعة . (المترجم)

الفصل الثالث

أفلاطون

١ - المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلية . وشاهد ذلك أنه يصف في المقالة الثانية من الجمهوريه^(٥٩) مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ؛ ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه لها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « في الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه - الفلاسفة نستشف في هذه الصورة الحلم الكلي ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجل خيال في تاريخ اليونان . وكانت الخطة التي رسمها أفلاطون لإيجاد أرسقراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للديمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيدن إنه البحر^(٦٠) . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أفريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الديمقراطية أن يكون متأصلا في دمه . وقد سمي أرسقليس Aristocles - أي الأحسن الشهر - ، وبرع الشاب في جميع نواحي الحياة تقريبا ، فنبغ في الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتنت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعتة ؛ وصارع في الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاتون Platon أي العريض لامتلاء جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

في ثلاث معارك ، ونال جائزة في الشجاعة^(٦١) . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية^(*) ؛ وبينما كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له في الحياة ، إذ افتتن وهو في سن العشرين بسقراط ؛ وما من شك في أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لخاله خرميدس ؛ ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره في الهواء كالبهلوان ، مرتكباً على أسنة أسلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى هوربديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويعاً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات في كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان الموهب الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم في مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحافظين في عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الأبحركي العصبية ، وشجاعة سقراط في تحدى الثلاثين ، وموت أقرنتياس وخرميدس ، وعودة الديمقراطية ، ومحكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذي كان من قبل لا يتطرق لهم إلى قلبه ؛ ففر من أثينة التي بدت في نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة في ميغارا في بيت إقليدس ، ثم في قورينا ولعله كان فيها مع أرسطيوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية^(٦٢) . ونراه مرة أخرى في أثينة حوالي عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالي عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(*) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مأسى ورابعة هجائية ، كانت تمثل مجتمعة في عيد ديوليس في أثينة . (المترجم) .

في تاراس ومع تياوس في لكري ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ،
وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقُدِّمَ لديسوس
الأول ، ويبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة في عام ٣٨٦ . ولما رفض
أنسريس Annicris الثلاثة الآلاف درخمة التي جمعها أصدقاؤه ليقتدوه بها ،
ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكة للتنزه في ضواحي المدينة وأطلقوا
عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلي أكاديموس Academus^(٦٢) ، وفيها أنشأ
أفلاطون الجامعة التي قلد لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلي
تسميته عام كاملة(*)

وكان المجمع العلمي (الأكاديمية) من الناحية الفنية إخوة دينية
(ثاسيوس Thasios) مخصصاً لعبادة ربات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب
يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا في الغالب من أبناء الأشر
الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آباءهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة .
وفي ذلك يقول سويداس إن الأغنياء « كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء
المدرسة بما يكفل لهم أن يحيوا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل
لكسب أوقاتهم^(٦٣) » . ويقال إن ديسوس الثاني وهب المعهد ثمانين
وزنة (٤٨٠٠٠٠ ريال أمريكي)^(٦٤) - وفي هذا ما قد يفسر صبر
الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون في ذلك الوقت
يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون في أخلاقهم متطرفون في
ملابسهم - ذوو قلانس رشيقة وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية^(٦٥) .
ألا ما أقدم تقاليد إيتن والأثواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن
في المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقي من هذه الناحية متطرفاً في

(٥) ولم تكن هي أول جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أفروطونا الفيلسوفية
كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة لمجتمع علمي متحد النزعة ، كما كانت مدرسة
إسقرات قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمي بثان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات
الدرس هي العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير :
« لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ؛ ولعل قدراً كبيراً من
الحساب كان شروط القبول في المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم
في العلوم الرياضية في القرن الرابع على أيدي رجال ممن درسوا فيه . وكان
منهاج الرياضة يشمل الحساب (بنظرية العدد) والهندسة الراقية ، والفلك ،
« الموسيقى » (ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ) ، والقانون ،
والفلسفة^(٣٦) ؛ وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات في هذا
المنهاج ، هذا إذا كان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التي ينطق بها سقراط
في معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاطوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة في العدالة والخير تعلمناها
في طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :

أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور
تخلق أرواحنا وتجلبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أي إحساس
بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آباؤهم وطاعتها .

أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان في هذه الحال وسألته روحه السائلة . ما هو
الشيء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذي يأمر به القانون ،
نقضت المجمع أقوال المشرع ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شيء فيه
من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما
فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه
التي تخلع عليها الزمن جلالاً وتعظيماً ، إذا حدث هذا فهل نظن أنه سيظل
يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنها كما كان يظنها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التي تملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل يتقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بلاريب

سقراط : وإذن فلا بد من الحذر الشديد في إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين في الجدل . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العريضة قبل الأوان ؛ هذا شيء ينبغي تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجدل بدعوا من فورهم يجادلون حبا في الجدل ، ولا ينفكون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم في هذا أشبه بصغار الكلاب التي تسرها أن تشد أثواب كل من يقترب منها وتمزقها .
أجلوكون : نعم إن هذا هو الذي يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنق إلى حال لا يؤمنون معها بأى شيء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس
أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقي الذي يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الحصيم الذي يعارض لما يجده في المعارضة من لذة ؛ وإن لإجلال الناس نخلقه سيزيد من شرف هذا السعي بدل أنه ينقص منه (٧٦) .
وكان أفلاطون وأعوانه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، وبعرض

المسائل على الطلاب لحلها؛ وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التي يمكن بالاستناد إليها تعليل حركة الكواكب » (٦٨) ، ولعل أودكسوس وهرقليدس قد وجدا في هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ؛ وكانت في بعض الأحيان مخيبة لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادى ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ؛ وهيزيليس ، وأكسانوبوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثير ونشروا في كثير من الأحيان ما كتبه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التي كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه في شبابه لم يفهموها إلا في شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ في إحدى المدن القائمة في أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع في الصيف حينما تسيح (٦٩) .

٢ - الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب في حياته رسالة علمية (٧٠) ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلقي من العلوم في المجمع العلمي بقوله « تعاليم » أفلاطون « غير المكتوبة » (٧١) . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد في المحاورات (٧٢) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت في بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكها إلى حد ما (٧٣) . ومن بحريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التي تدرس في الجامعات الأوزبية ولأمريكية والتي تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال في هذه الأيام قد ألفت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء وربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوارات الفلسفية ، فقد اتبع زينون الإليائي وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها (٧٤) ، ونشر تيمس الأثيني قاطع الجلود بطريقة

(٥) إن من فقرات في كتب أرسطو ما يوحي بأنه كان يفهم أفلاطون وخاصة نظريته في الألفاظ غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التي كانت تدور في حانوته (٧٤) . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعي أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التي كانت تجري قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أو خمسين ، بل ولا يدعي أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمع الألفاظ التي أنطقها بها الفيلسوف المسرحي (٧٥) . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت في فترات متباعدة نبعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذي يقوم به عقل ينمو ويتطور تطورا واضحا ملموسا عن الحقيقة التي لا يستطيع الحصول عليها أبدا (*) .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهي تصور الأفكار تصويراً مسرحيا ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ، وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسم القارئ في كثير

(*) ليس في وسعنا أن نحدد تواريخ للمحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا ملطن فيه . غير أن في وسعنا أن نقسمها تسمياً منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أولى وأهمها الأبولوجيا ، وأقريطون ، وليسيس ، وأيون ، وخرميدس ، وأقراطيلوس ، وأوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، ومعرض الآراء (سپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهورية (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرميندس ، وتيتياتوس ، والسوفسطائي ، والسپاسي ، وفيلابوس ، وتيماوس واقتوائين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثانية قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يختصم الستين التي بين كل مجموعة والتي تليها للمجمع العلمي .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه - فيجعل رجلا واحداً ينقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته غاية في الضعف» (٧٧) ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعا وأربعين صفحة من نقاش جرى في أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . وبما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أو ما في معناها . ولكن هذه العيوب تختفي في تألق اللغة ووضوحها ، وما في الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاكة ، والعالم الحى وما فيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكمل نتاج عقلى وصل إلينا من أى مؤلف يونانى ، وإن شكلها ليضعها في تاريخ الأدب في منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التى يضعها فيها موضوعها في تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة في جدل الشباب الخصيم الذى يندد به في الفقرة التى أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التى تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثينى تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه في أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحى للمناظر (ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأنى أنا وأصحابى ضيوفكم » (٧٨)) ، والصورة الحية التى رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرححة عن ألقبيادس التمل الذى افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته فى التأليف بين الواقعية القاسية فى صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة فى فن النثر . أما الفيديون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالتقاش الرئيسى فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا تتواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأى

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هلوؤها على ما فيها من مأس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليسبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليسوس Ithilissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما في ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هي المحاورية لأنها أكل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهي في أول أجزائها صراع مسرحي بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقي في الأدب كله ، كما أنه أجراً مثل في تاريخ الفلسفة للمفكر الذي يفند أحب العقائد إلى نفسه - نغني نظرية الأفكار - تنفيذاً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفي المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ؛ وتفقد الميتافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوى الذي ورث جميع ثقافة أثينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسبارطة ، وطلق الحجة ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

٣ - الميتافيزيق

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعنا الهارثوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً في شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويمجدها بحدود . وإذا كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يقول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل في التشبيهات التي تعرضه لأشد الأخطار ؛ ثم دخلنا في تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى في بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج (٧٩) ، ويختم حديثه هكذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق (٨٠) » . ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات (٨١) ؛ ويبحث في التحليل والتركيب ، والتشبيهات والمغالطات ، ويقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال (٨٢) ؛ ويضع في هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهي المصطلحات التي استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء الخمس من المقولات العشر التي أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس الأشياء جميعها ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا في قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى غبول ، أو أى قرد (٨٣) .

ولسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضيا من التغيرات الهرقليطية ؛ ولولم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معاومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتي إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعقدة ، والأشكال التي تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم (٨٤) . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نعبر عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، ولفظ رجل يمكننا من أن نفكر في جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير في جميع المناضد ، ولفظ ضوء في جميع الأنواء التي سطعت في البر أو البحر . وليست هذه الآراء (ideai و eida) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعدمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يبقى عاجلاً أو آجلاً ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقي نسيباً ، ولكن « مثلث » - أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات - كامل سرمدى (٨٥) . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة (***) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقي » ولولم توجد هذه الأشكال في العالم المادى في الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير ؛ وأداة للتفكير ؛ وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها (٨٧) . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالضرورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار (***) (٨٨) ؛

(*) ولقد حاول أفلاطون فى سنه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية (٨٦) .

(**) وازن بين هذا وبين قول كرل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق (٨٩) » . وانظر أيضاً قول اسپنوزا : « لست أفهم من قولهم تتابع العلل والممولات الحقة ، ان هناك سلسلة من الأشياء الفردية المنتهية ؛ وليس ذلك فقط لأن عددها يظنه الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المعينة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو حقيقة أزلية » (لكن تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضروري أن يوجد أى مثلث خاص) . « على أنه ليس من الضروري أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المنتهية ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكونة لشرائعها الحقة التى بمقتضاها صنعت ورتبت (٩٠) » . ويلاحظ أمارى أن هرقليطس وبارمنيدس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : هرقليطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء حقيق فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيدس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السير هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء في ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله المحرك الأول الذي لا يتحرك ، أو روح العالم^(٩١) ، يحرك كل شيء وينظمه . حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرق الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون في بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه^(٩٢) ، ولكنه في أكثر الأحيان هو أداة الخلق المادية المرشدة ، والشكل الأعلى الذي تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، وروية هذا المثل الأعلى الذي يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبتغيها المعرفة^(٩٣) . وليست الحركة وعملية الخلق عمليتين آليتين . بل هما محتاجان في العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوى يكون هو قوتها المنشئة المبدعة^(٩٤) .

وليس شيء حقيقياً إلا الذى فيه قوة^(٩٥) ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هي مجرد مبدأ من القصور الدائى ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلا خاصا وكيانا حسب فكرة من الأفكار . والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الإنسان ، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها^(٩٦) . وهي قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، ونخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلا الحقائق

(٢٣٠ ح ٢ - ٢٠٠)

الرياضية. فهي بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التي عرفتها الروح في حيواتها الكثيرة الماضية^(٩٧) . وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذي فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرقى منه أو أحط حسب ما استحقته في تجسدها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين^(٩٨) . فإذا ما تطهرت الروح في خلال الحيات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية^{(*) (٩٩)} .

٤ - العالم الأخلاقي

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودليلنا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانوني أخلاقي طبيعي يبعث في نفوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم^(١٠١) ؛ وإن المحاورات التي كتبها في حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة « إن أعظم أنواع الحكمة وأجملها هي الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر^(١٠٢) » .

والمشكلة الرئيسية في علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعي . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Calias من الحجج التي تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التي أوردتها أي داعية لمخالفة القواعد الخلقية في عصر من العصور^(١٠٣) . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

(*) يصعب علينا أن نحكم عن مقدرا ما في هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية - الفيثاغورية - الأورفية من تصوير متعمد يهدف إلى حماية الناس من الزلل . ويمرضها أفلاطون عرضاً فكهماً ، كأنها في نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، أو عروناً شه يا محل الخلق الطيب .

وأن الإنسان في حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ، وأن من الواجب أن تربي في الطفل عادة الاعتدال وإدراك « الأواسط الذهبية للأمر » خشية أن يأتي الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت (١٠٤) .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء - الشهوة ، والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة - الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ؛ ويجب أن تضيف إليها التقوى والعدالة - وأداء واجب الإنسان نحو والديه وأهله . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي تعاون الأجزاء في الكل ، أو العناصر في الأخلاق ، أو الأهلين في الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل (١٠٥) . وليس الخير هو الفعل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقايير تنتج منها حياة الفعل (١٠٦) . والخير الأسمى كائن في العلم الخالص بالأشكال والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما في النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة (١٠٧) ؛ ومن يجب الحقيقة لا يهمل أن يجزى الإساءة بالإساءة (١٠٨) » ، بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم ، و « يضرب في الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يبيد الفساد سبيلا إليهم ، والذين لا تُقَوِّمُ صحبتهم بالمال أيا كان ... والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتجرحهم منه ، أحسوا بأن من واجبهم ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ؛ ومن أجل ذلك يميلون نحوها ، ويسبرون خلفها للهدف الذي تقودهم إليه (١٠٩) » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وهابداً ؛ يغمز فكرته عن الخير لإحساس قوى بالجمال وتقوى متمزجة

بالزهد والتشرف ؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان في دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزع مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه - الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغرباً - يجب أن يضحى به . وكان يميز في هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدورية والتريجية ؛ ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون « أصواتا وحشية » في أثناء عرضهم الفنى (١١٠) ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الابتعاد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ؛ وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتماً في أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل في الدولة تدريجاً ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والديتاتير ، ويظهر في هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقاب كل شىء في الدولة رأساً على عقب (١١١) .

والجمال كالفضيلة إنما يكون في اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقاً حياً ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحيدها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة (١١٢) . ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال الهندسية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق التجوم في جمالها (١١٣) . والحب هو طاب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة للتناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود (١١٤) ؛ ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمى بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل (١١٥) . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : ففي هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الباهر السرمدى ، والشاب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية (١١٦) . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة التى يتحدث عنها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغابته من نور النعيم الباهر .

لأن آدميتس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً يطل فيه على شئون الناس ، أو يمتلئ فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادئ الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذنى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يحلو حلوه هذه المبادئ ، وعلى مثالها بشكل حياته قدر المستطاع (١١٧) .

٥ - الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتمثل أمام ناظره رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويعلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روعه ما كان يسود أئينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تحبب نارها حتى تعود إلى الاشتعال » (١١٨) . وكان يحتقر أبحر كية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى روية من قضوا عليهم بجشعهم ، ويدفعون سمومهم - أى ما لهم - في جسم كل من لا يجذّرهم ، ثم يستردون ما أخذوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعلمين » (١١٩) « ثم تنشأ الديمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أفساطاً متساوية من الحرية والسلطة » (١٢٠) . ويتضح آخر الأمر أن الديمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويداهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الأبجركى ، كذلك يقضى على الديمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : فى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال علواها إلى الحيوانات . . . فيعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . . ويتعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلمهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبي ألا أنسى حرية الحنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما بعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعلم وقتئذ سبيلا للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أنتجت بالحرية . . .

أدعيتس : ولكن ما هي الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أى شيء فوق حده كثيراً ما يؤدي إلى انقلاب في الاتجاه المضاد له . . . ولهذا يبدو أن الإفراط في الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدي إلا إلى الاستعباد . . . ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً . وإذا ما صارت الحرية تحللاً من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء يخشون وقتئذ أن تجردهم الديمقراطية من مالهم فيأتمرون بها ليقضوا عليها (١٣٣) ، وقد ينتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولاً أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه « حتى يطهر الدولة » من هؤلاء وأولئك ، ويقيم حكومة دكتاتورية (١٣٣) . وفي هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذي ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش » ؛ فإذا كان حكماً « احتمى يجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء » (١٣٤) .

ومن العلماء من يلجئون في هذه الأزمات إلى الماضي ، ويشغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ، ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجري التجارب على شعبه ، وواجبنا الثاني هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضي . ثم نعد الشباب رجالاً كانوا أو نساءً منها تعليمياً يمد إلى عشرين عاماً ، ويشمل تعليم الأساطير ، وهو لا يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفوس طاعة الآباء والدولة (*) . فإذا قضوا في التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمانية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(*) أي أن أفلاطون يحكم بأن القانون الأخلاق الطبيعي يكون بمفرده .

في هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد في الدولة - رجال الأعمال ، والصناع ، والزراع ؛ ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة ، وأن يكونوا على درجات مختلفة في الثراء (داخل حدود معينة) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد . أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يجتازون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ؛ فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملاك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون في شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثاني فيبدأون في ذلك الوقت (لاقبله) دراسة « الفلسفة الإلهية »^(١٢٥) مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا في هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاماً ، ألقوا في الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاماً يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك - الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمهم التي لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك - الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهم على الدوام ، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف في أموال المدينة كما يتولى الجنود السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعاً من الديمقراطية ، بل هي أرسقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيماً دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل ، « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهم ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربي أبناء الأولين ولا يربي أبناء الآخرين ، لأن هذه هي السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب في حالة صالحة» (١٣٦) وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئة . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمنع النساء من تولي مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ، وبالعمل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويتم بحثه بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكاً ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمرأؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر» (١٣٧) .

٦ - المشرع

وظن أنه وجد في دنيسوس الثاني الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر فلتير أن الملكية المطلقة تمتاز من الديمقراطية بأن المصلح في الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد (١٣٨) . وفي ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صالحة فإليك إلا أن تضع على رأسها حاكماً بأمره ، شاباً معتدلاً ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعاً ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حفظه في أنه معاصر لمشرع عظيم ، وأن الظروف الموقفة تجمع أحدهما إلى الآخر» (١٣٩) لكن اجتماعه بدنيسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون في آخر سنى حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشرعاً ، ولذلك عرض على الناس دولة تلي الدولتين السابقتين في الحسن ، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة في كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوربية المعروفة في التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة في عهد الشيخوخة

اليوناني الذي أعقب عهد الشباب الإبداعي . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغي أن تكون في داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية إيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبي بساطتها وانطواها على نفسها^(١٣٠) . ويجب أن يقتصر عدد مواطني الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلاثة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع في الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية^(١٣١) . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات « الري « توصل الكثير من الماء لجميع الأراضي حتى الأراضي الجافة »^(١٣٢) . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشيء من الذهب أو الفضة ، ولا يتعاملوا بالربا^(١٣٣) ، وألا يشجع أى إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاشتغال بزراع الأرض بجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقي إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود^(١٣٤) وجعل للنساء فرصاً تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال^(١٣٥) ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة^(١٣٦) ، وعليهم ألا يلدوا أطفالاً إلا في خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب^(١٣٧) .

والوصول إلى هذا كله في هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة لإشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام ، وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف في الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن تحمل السلطة محل الحرية في شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يجيز لنا أن نتركهم يختطون لأنفسهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذا كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هي التي تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومعنى تعبد . وكل من يتردد في الخضوع لهذا الدين الرسمى يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل (١٢٨) .

وليست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يمهّد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلية . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يجب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوها إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يظن أن ما أصاب الأثينيين من انحلال أيوفى في الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسبارطية المشتقة من النظام الدورى . والنزعة السارية في تفكير أفلاطون كله هي خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون في كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التى استوفت حياتها لاسبارطة التى قضت نجها من أيام ليقورغ ، وإذا لم يكن فى وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية . فعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على آم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا إلهشة. إذ نرى أن أفلاطون قد جاء في هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به في العصور الوسطى للفلسفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشىء الكثير مما جاءت به الفاشية في العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هي « واقعية » المدرسين - واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية - على حد قول نتشه - فحسب ، بل كان فوق ذلك مزتماً مسيحياً قبل وجود عصر التزمت المسيحي . فهو يرتاب في الطبيعة البشرية ويراهها شراً ، ويعتقد أنها هي الخطيئة الأولى التي لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتي كانت هي الفكرة الرئيسية في القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خيىث وروح قدسية^(١٢٩) . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق في تناسخ الأرواح ، والكرما(*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب في كتبه الأخيرة على نغمة أخروية شبيهة بنغمة أوغسطين أى نغمة الرجل الذى تاب وأتاب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذى بلغ غاية الكمال لشك الإنسان في أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقى أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعيوبهم الجلداية المحبوبة . وكان مثل دانتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدى وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً في كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوى العنيف^(١٣٠) . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهبجه التحمس الذهني

(*) عقيدة بوذية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع الملل والملولات السابقة بنظام محتم لا يتبدل . (المترجم)

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التي كانت تستمتع بها أثينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل في العصر القديم ، فقد كان أدق في جدله من زينون الإليائي ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى في آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه البحاث الأكبر في رواية دستيوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكي يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلاً لكان هو أول ضحاياها .

الفصل الرابع

أرسطوطاليس

١ - أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس مذبحاً له وكرمه تكريماً يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يميل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه في اسطاغيرا وهي مستعمرة يونانية صغيرة في تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثاني Amyntas والد فليب ، وكان قد علم الشاب (إذا لم يكن جالينوس مخطئاً في قوله) شيئاً من التشريع قبل أن يبعث به إلى أفلاطون^(١٤١) . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان في تاريخ الفكر - النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية - وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة (التي يقدرها بعضهم بعشرين عاماً) لجاز أن يكون له عقل علمي محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المتزمت ، ولم تتغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أى النزعتين يطبع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفى لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها في القالب الأفلاطوني الذي صنع عقله المدرسي على غراره . ولقد نقض حجج أفلاطون في كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه في كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجداً ، وشرعان ما لاحظ فيه معلمه هذا الحد . ولما قرأ أفلاطون رسالته عن الروح في المجتمع العلمي كان أرسطوطاليس (على حد قول ديجين

لبرتس) « الشخص الض الوحيد الذي يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاط هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه في المجمع العلمي وارتفع من ، عبد رقيق إلى أن صار حاكماً . بأمره في أثرنيسوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسية الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس ببثياس Pythias ابنة هرمياس (٣٤٤) ؛ وأوشك أن يستقر في أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطة لمعاونة فليب في غزوه المرتقب لبلاد آسية (١٤٣) . وفر أرسطوطاليس مع ببثياس إلى لسبوس القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعي (١٤٤) . ثم مات ببثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هريليس Herpyllis أوعاشرها (١٤٥) ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى ببثياس ، وأوصى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذي قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفي عام ٣٤٣ دعاه فليب ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً في الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليب قد عرف الفيلسوف أيام شبابه في بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى بلا ، وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفي عام ٣٤٠ كلفه فليب بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت في أثناء الحرب مع أولنثوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تهي ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له في كل عام (١٤٦) .

وفي عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة - وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها في أجمل دار للتدريب الرياضي في أثينة ، وهي طائفة من المباني خاصة بأبلو لوقيوس

Apollis Lyceus (إله الرعاة) تحيط بها حدائق غناء ، وطرقا مسقوفة ، وكان في صدر النهار يلقى على الطلبة المتظمين فيها دروساً في موضوعات راقية ، وفي عجزه يلقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه في الصباح : وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت في البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع في هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعي ، وسميت المدرسة فيما بعد ، باللوقيون Lyceum ، كما سمي الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى الماشي المسقوفة (Pereptai) التي كان أرسطو طالس يجب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم^(١٤٧) : وقامت منافسة حاده بين اللوقيون التي كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين الجمع العلمي الذي كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التي كان يؤمها في الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ الجمع العلمي يعنى بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعنى بالتاريخ الطبيعي . وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات في الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كمادات البرابرة ؛ وديساتير المدن اليونانية ، وتواريخ الفاترين في الألعاب البيشية والديونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ؛ وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التي يخطها الحضر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق :

وكتب لأنصاف المتعلمين نحو سبع وعشرين محاوره يرى شيشرون وكونتيليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ؛ وهذه المحاورات هي التي قامت عليها شهرته في الزمن القديم^(١٤٨) ؛ وقد ضاعت فيما ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة .

أما ما بقي لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المجردة إلى أبعد حد في التجريد ، والحالية من المتعة إلى درجة تعزى على التقليد ، وقلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها في مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها في السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها في محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات ؛ ولم تكن هذه الذخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرونكوس Andronicus من أهل رودس في القرن الأول قبل الميلاد (١٤٩) .

وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين ليرتس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها في موضوع واحد . وهذه للبقايا العلمية القليلة هي التي يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التي كانت وقتئذ ما أفكاراً حية ، والتي أكسبت أرسطو طابيس في العصور التي تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعليتنا ألا نتوقع أن نرى في كتاباته من البهجة ما في أفلاطون ، ومن الفكاهة ما في ديجين ؛ بل كل الذي نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش من ردهم (٥) .

(٥) ويمكن تقسيم ما بقي من رسائله ستة أقسام :

١ - رسائل في المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدلالات سوفسطائية

٢ - علوم :

(أ) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، هيئة ، ظواهر جوية .

(ب) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، إفعال الحيوان ، تناسل الحيوان .

(ج) علم النفس : في الروح ، مقالات قصيرة في طبيعة للعالم .

٣ - ما وراء الطبيعة .

٤ - علم الجمال : البلاغة ، والشعر .

٥ - علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماغية الأخلاق الأوردمية .

٦ - السياسة : علم السياسة ، دستور أثينا .

٢ العالم الطبيعي

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شيء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده في هذا الكتاب عالماً طبيعياً أولاً ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى في الرجل جديد :

وأول ما نقوله عنه أن عقله المطلعة بهم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلاً بلغ من الدقة حداً أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) - وهو الاسم الذي أطلق بعد وفاته على رسالاته في المنطق - المرجع الذي ظل المناطقة يعتمدون عليه مدى ألبى عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادراً ؛ فهو يقضى نصف وقته في تعريف مصطلحاته ، فإذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التي يبحث فيها ؛ وهو يعرف التعريف نفسه تعريفاً دقيقاً بأنه تحديد الشيء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذي ينتمى إليه ذلك الشيء ، أو تنتمي إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التي تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . وبما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التي يمكن دراسة أي شيء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والمثلث ، والفاعلية ، والانفعالية - وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً مجمعة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهي متركات وليست أشياء (١٥٠) . وهو يقرر قرار

لوائق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البديهي في المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته في العلاقة الواحدة (١٥١) » . ويكشف عن المغالطات التي يقع فيها السوفسطائيون أو يغرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل في الرصد والتجارب بصبر وأناة (١٥٢) . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقي وهو القياس - المكون من ثلاث قضايا ثالثها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع في خطأ المصادر على المطلوب الأول (*) وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان في رسائله الفلسفية يضل في ببداء الاستدلال بمجدد الاستقراء ويجمع في كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل في بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء (**). وقصارى القول أنه رغم أغلاطه واضع أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون في البحث العلمي .

فهو يبداً ببحثه العلمي من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يلمح كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون في الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيهما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو في كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللاهائي ، والتغير ، والنهائية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

(*) هو انراض صحة ما يراد إثباته . (المترجم)

(**) مثال ذلك أنه يشير في كتابه « تناسل الحيوان (٤ : ٦ : ١) » إلى نمرالعينين

من جديد إذا أزيلتا في صغار الطير ؛ وهو يرفض نظرية امثالة : إن الخصية اليمنى تنتج الذكور واليسرى تنتج الإناث من الأبناء ، ويستدل على ذلك بأن رجلا أزيات خصيته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائي » موجود بالقوة لا بالفعل (١٥٣) . وهو يحس بالمشاكل التي أثارته تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ؛ وهذه المشاكل هي القصور الذاتي ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول في قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك (الجسم) (١٥٤) » .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات - ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطيع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية (١٥٥) . وهو يدرك الأزمنة الجيولوجية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلاً إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالى الأيام ، ولكننا لانحس بهذا التحول (١٥٦) ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اخفت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطيء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرات ثم اخفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة (١٥٧) » . والحرارة أهم عامل في التغيرات الجيولوجية والجوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته في الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة في الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى التمرى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما في الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترقى العلوم الطبيعية فوق الحد الذي وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق في الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيقي ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ؛ وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلط ؛ وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات في بلاد بحر إيجة كما جمع في مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول بليني Pliny (١٥٨) فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمتعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يمدوه بما يريده من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس في الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير في الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه » (١٥٩) .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيا ، وأنيا Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيمنا لإياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقوازب (*) ، وطيور ، وثندياب .

وتشمل بحوثه في هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث في أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ؛ وفي أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومثالث غيرها من الأصناف ؛ وفي فصول تزاوجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها لإياها ؛ وفي ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإتمام ؛ وفي مواطن الحيوانات وهجرتها ، وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفي طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً (١٦٠) . وكتابه مليء بالملاحظات

(*) القوازب أو البرمائيات : هى التى تعيش في البر والبحر على السواء . (الترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجملدى بنوع خاص قد تدر اللبن ؛ وإن الخيل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(*) (١٦١) .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها في الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التي تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد (١٦٢) » ؛ وقد ظل عمله في هذا الميدان فلذا منقطع النظر حتى القرن الماضي . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بوئتين - الأكل والتوالد (١٦٣) : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوي على ما يكون في بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة (***) . والعنصر الأنثوي يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هي العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشط الفعال (١٦٥) . ويرفض أرسطو ما يراه أنبادوقليس وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصرى التكاثر على العنصر الآخر ؛ ثم يصوغ بعدئذ هذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كما عجز العنصر المكوّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها في شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى . . . صورة الأنثى (١٦٦) » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحيانا أن تلد

(*) تدل بعض الإشارات الواردة في « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعد مجلداً في الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا الجلد على جدران اللوتيون ؛ وهو يستخدم في كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقاط في الرسوم .

(**) لقد عجز أرسطو ليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصله لم يحسن تصديداً إذ قال قبل عمل استنسون Stenon في عام ١٦٦٩ .

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة في أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولده امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث في زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا (١٦٧) .

وهو يستبق القرن التاسع عشر في كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بواسطة جزيئات دقيقة (هي ذرات التناسل بالتجمع العام » التي يذكرها دارون(*)) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد (١٦٨) . وهو يقول كما يقول فنر Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر في الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلي هذه الخواص المميزة للفرد (١٦٩) . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت اسپنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحي بوجه عام تناسب تناسبها عكسيا مع تعقد تطوره (١٧٠) وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجزأ إذا شئت هذه التجربة : إيت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم نخل منها بيضة في كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثاني إلى أن تنفقس واكسرها وافحص عنها . . . ففي حالة الدجاجة العادية تستطيع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب في صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران في تلافيف ، وغشاء يحمل نخيوطا رفيعة دموية من

(*) يشير الكاتب إلى ملهب دارون في الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلتقطها شدد التناسل ، وهذه الذرات رموز جميع الأنسجة تتجمع في البرثومة ومنها يتخلق المولود الجديد (معجم الدكتور شرف) . (المترجم)

أنايب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح (١٧١) .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل في رحم أمه بهذه الطريقة عنها . . . لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان (١٧٢) . وهو يستطيع بنظريته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان في صورة جامعة : « فالظفر مماثل للمخالب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة (١٧٣) » وهو يقترب في بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتي بعد الجهادات غير الحية في سلم الرقي ، وهذا النبات لا حياة فيه نسيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حتى إذا ووزن بالأشياء الحاملة . وفي النبات سلم تصاعدي مستمر نحو مرتبة الحيوان . ففي البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هي حيوان أو نبات . . . فالإسفننج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة في أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظهر فيها غامضة . . . وهذا التنوع بعينه يظهر في سلم الرقي الحيواني (١٧٤) .

وهو يرى أن القرد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التي تلد (١٧٥) ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعي للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما في كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطري لكي ينمى نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحميق طبيعته . إن لهذا التطور خطة موضوعة ولكنها دفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويعتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده في ذلك الزمن القاصي الذي يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرناً من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو في علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه (١٧٦) . فكتابه في تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء في الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان - الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كليب(*) ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذي يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع في وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح (١٧٧) . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقرات قد تحمرا من سلطان الدين فأقدا على تشریح الأجسام البشرية (١٧٨) . ومن أجل هذا وقع في أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان لإثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل (١٧٩) ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس (**)(١٨٠) . وإن وظيفة المخ هي تبريد الدم (بالمعنى الحرفي لهذه العبارة) (١٨١) . وآخر ما تذكره من هذه الأغلاط أنه (هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلاً) قد ذهب بنظرية الخطة الموضوعة . مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن ذوات الأربع تستطيع أن تقف

(*) ويسمى أيضا الحديث والقريث والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)

(**) وقد أرقه في هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بالتنبيه المباشر . (المترجم)

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو في حاجة إلى ما يجلس عليه^(١٨٢) . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فؤلف هذا الكتاب يرى أن من الأمور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق في التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان في مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم في بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

٣ - الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء نبي الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول في الكائن العضوى » أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتي تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ؛ أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين^(١٨٣) . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكييب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس(*) » .

(*) ويفسيف أرسطوطاليس إلى قوله السابق الدال على نزعة مثالية عجبية قوله : إن « النفس هى بمعنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أفكار^(١٨٥) » وهو يتفق فى آرائه مع بركل Berkeley ومع هيوم Hume فى آن واحد . انظر مثلاً إلى =

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان في النفس النامية - أى في قدرته على تغذية نفسه وعلى إلغاء الداخلي ، وللحيوان والإنسان فضلاً عن هذه النفس نفس حاسة - أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعة عاقلة » - أى قدرة على الأشكال البسيطة البدائية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » - أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت (١٨٧) . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ؛ والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ؛ وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسبياً ؛ وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت (*).

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية entelechy » - طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه (**). كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

سورة له : « إن العقل واحد ، مستمر بالمعنى الذى تكوّن به عملية التفكير واحدة ومستقرة ؛ والتفكير ، بعينه الأفكار التى هى أجزاءه

- (٥) ويمكن تفسير أنه ال أرسطو طاليس المتناقضة في هذه المتقنة تفسيرات أخرى . والنفس الذى أبتناه ما مأخذ من المجلد II ابع . من تاريخ كاهن برنج القديم Cambridge Ancient History من ٣٤٥ ؛ ومن الجزء الثاني من كتاب أرسطو طاليس تأليف جروت Orola من ٢٢٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف رود Rhode من ٤٩٢ .
- (٥٥) ويرى أرسطو ، كما يرى الفلاسفة أن الأمر الجوهرى فى أى شىء هو « الصورة » eidola لا المادة المصورة ؛ وايست المادة هى « الشىء الحقيقى » بل هى إمكانية سائلة منفصلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحدتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التي لا علة لها(*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذي لا يحرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصل أو مبدأ لما في العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . ولنا لنرى الأشياء في كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فلأسنان الأمامية تنمو حادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والحنك يطفو ليق العين ، والحدقة تتسع في الظلام لتدخل قدرأ كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها في الأرض ، وغصونها نحو الشمس (١٨٩) . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هي الله . وليس الله هو خالق العالم المادى ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب (١٩٠) ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل . يتبدى في الصور السرمدية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هي القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة (١٩١) ، ولكنه ليس نسخة آية لها ، والذي تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ؛ وعن طريق هذه البصيرة أو عكس هذا الجوهر لنا تمكس المرأة الجسم قد يبدو الشيء القبيح نفسه جميلاً . والجمال

(٥) يقول أرسطو : إن كل معلوم يخرج من أربعة عالم : المادية (التي يتكون منها) ، والقمالة (العالم فيها أرقطه) ، والشحاش (طابعه الحيوي) ، والمائية (الحدس) وهو يضرب للدلالة عليه عموماً فيقول : « ما هي أولك المادية المتزانية ؟ هي العدم (أي وسرد البياضة) . وما هي العلة القمالة ؟ هي المادة والنباطة (أي مادة نضج) . وما هي الشكلية ؟ هي الطبيعية (أي ، طبيعة العوامل ذات الشأن) . وما هي الماء المائية ؟ هي الغاية التي يهدف إليها » (١٨٨) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتمائلها في الكل . وتكون هذه الوحدة في المسرحية وحدة العمل قبل كل شيء ، ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملاً واحداً ، وأن يكون الفرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفني غاية في الروعة والجلودة وجب أن يكون موضوعه متسا بالنبيل أو البطولة .

ويقول أرسطو في تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع في البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهي تمثل رجالاً يعملون ولا تعمد إلى القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها (١٩٣) » . والمأساة تستثير أعماق عواطفنا ثم تهدئها بخاتمها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا ضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عصباً أو عنفاً . فهي تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة في تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالاً خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب : بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل (١٩٣) » .

فما هي الحياة الطيبة إذن ؟ يجيب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصرامة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث في كتاب الأخلاق (*)

(*) لقد كان كتاب أيجلاق نيقوماخوس (وسمى كذلك لأن الذى نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة في أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناشران اليونان يستخدمون هذه الصيغة المزروجة وهى الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هى حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

(كما يبحث أفلاطون) كيف يجعل الناس أختياراً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسعى إليها لذاتها بل هي وسيلة لغاية ، أما السعادة فهي وحدها التي تبتغى لذاتها (١٩٣) . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح (١٩٥) . « وليس في وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخلق (١٩٦) » « أما الذين يقولون إن الذي يعذب على العذراء ، أو تحل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحاً فقولهم هراء (١٩٧) » . وينقل أرسطو بصراحة ينذر وجودها في الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى ، لأننا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الأغنياء (١٩٨) » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهي في حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ؛ وإذا كانت الثروة نسبية فلإنها لا ترضى إنساناً زماً طويلاً . وسر السعادة هو العمل ، أي بدل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهي تقدير الإنسان بعقائه لما فيه من خير (١٩٩) ، وهي في العادة وسط بين نقيضين ؛ والإنسان في حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس (إنكراتيا enkrateia أو القوة الداخلية) لممارستها . ويقول أرسطو في جملة من جملة النموذجية إن « الذي يغضب مما ومن ينبغي أن يغضب منه ، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفي الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خليق بالثناء (٢٠٠) » . وليست الفضيلة عملاً ، بل هي تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض في أول الأمر بالتدريب والتهديب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا في مثل هذه الأمور حكماً صادقاً حكماً ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أي « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة .

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة في العمل ، وإن أحسن حياة هي حياة الفكر . ذلك أن الفكر في رأيه هو الدليل على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن « العمل الحليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله » (٢٠١) . « وأسعد الناس حظاً هو الذي يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة » (٢٠٢) . « والذين يرغبون في اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها في الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان » (٢٠٣) .

٤ - - السياسي

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد يكافئ لتحقيق جميع أغراض الحياة » (٢٠٤) ، وهي نتاج طبيعي ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسي » (٢٠٥) ، أي أن غرائزه تؤدي به إلى اجتماع مع غيره . « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد في مجتمع منظم من قبل يشكله في صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستوراً يونانياً ، قسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وديمقراطية ، أي حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنباه . وكل نوع من

(٥) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أحوال الدولة الأيونية » Atherton Pollitt ، وقد نشره في عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستوري لأثينة من غير ما كتب في موضوعه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى
الجملة التي يجب على كل أمريكي أن يحفظها عن ظهر قلب « إن نوعا من
أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع
أن يكون نوع آخر خيرا منه في ظروف خاصة (٢٠٦) » . وكل حكم حسن
إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعا لا لمصلحتها الخاصة ؛ فإذا
لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح
شبيه فاسد حين يكون حكما لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ؛
ففي هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح
أبهرية ، والديمقراطية فتكون ديمقراطية أى حكم العامة (٢٠٧) . فإذا كان
الحاكم المفرد صالحا وقديرا كانت الملكية خيرا أشكال الحكم ، أما إذا كان
أقراطيا أنانيا كان حكمه حكما استبداديا ظلما ؛ وهو شر أنواع الحكم .
وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن الأشراف (الأرستقراط)
الذين يتولون أمورها ينزعون إلى الاضمحلال والانحطاط . ويندر أن
نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون
لشيء على الإطلاق . . . فالأمر ذات المواهب العالية كثيرا ما تنحط
فيكون أبنائها من الهجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألقبيادس ودينيسوس
الأكبر ، أما المتوسطون منهم فكثيرا ما يكونون حق أو أغبياء كأبناء
سيمون ، وهركليز ، وسقراط (٢٠٨) . وإذا ما انحطت الأرستقراطية
حلت محلها في العادة حكومة أبهرية من أصحاب المال أى حكومة ذوى
الثراء . وهذه خيرة من طغيان الملك أو طغيان الفوضى ، ولكنها تضع السلطة
في أيدي رجال لا تتسع نفوسهم لأكبر من ذلك العمل الصغير وهو حساب
تجارتهم ، أو ذلك العمل الإجرامى الدنيء وهو أكل الربا (٢٠٩) ، وينتهى
أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير (٢١٠) .

والدمقراطية - وهو يعنى بها حكومة العامة من المواطنين demos - لا تقل خطورة عن الأبحركية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء فى كفاهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هى الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الديمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاى المدن من الصناع والتجار^(٢١١) . نعم إن « حكم الكثرة يكون فى كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعد الماء الكثير عن التلوث »^(٢٢) . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة و« ليس فى مقدور من يعيش عيشة الصناع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب »^(٢١٣) ، (أى على الخلق الطيب والتدريب ، وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل فى المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء »^(٢١٤) . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية^(*)^(٢١٥) . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الديمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذ الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الخلال يصب الماء فى المنخل^{٢٢}^(٢١٧) ، ومع هذا فإن الرجل المحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعاً ، و« يجب على الوطنى الخلق فى الحكومة الديمقراطية أن يحذر من أن تكون أغلبية الشعب فى فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده فى أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذ كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيث يكفى نصيب كل منهم لأن يتناع به حقلاً »^(٢١٨) .

(٥) ويظن أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ فكما أن من الصواب أن يحكم العقل الجسم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون فى الذكاء من لا يتفوقون إلا فى قوة الجسم^(٢١٦) .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم في زمانه إلى حد ما :
ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن متناول العامة ، أو مع تلك التربية التي لا ينالها إلا من هيأت له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التي يضعها الناس في أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذي تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذي تستطيع معظم المدن أن تقيمه^(٢١١) . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فسيوضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولاً إلى القليل^(٢٢٠) . . . إن الشيء الذي يشترك فيه كثيرون لا يعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركونهم فيه غيرهم^(٢٢١) . . . ولا بد لنا أن نبدأ ببحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذي يرغب في بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذي لا يرغب في بقاءه^(٢٢٢) ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء . . . وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة^(٢٢٣) .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطي » ، وهو خليط من الأرستقراطية والديمقراطية ، يمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب في هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضي ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هي مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين (٢٢٤) » . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق (٢٢٥) » . كذلك يجب ألا يفلحوا الأرض ، . . . بل ينبغي « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » - ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفين العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله في نهاية المدة التي يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعية وفقاً لنظام قويم ما يصدر من الأحكام في جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة (٢٢٦) . . . ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أياً كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله في بعض الأحيان وحشاً . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولوها ، أما القانون فهو العقل مجرداً عن الشهوة (٢٢٧) » . والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالاعتناء ألا يتجاوز عدد الناس حداً معيناً . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدي إلى افتقار المواطنين (٢٢٨) ؛ ويجب ألا يسمح بتربية أبناء مشوهين عاجزين ، ومن هذه الأسس السليمة تفتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربي ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة (٢٢٩) » .

وبعد فليس من الضروري أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهني إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعمو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطأ أرسطو - أو أخطاء المجلدات التي نعددا بالحق أو بالباطل ثمار قلمه - لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطقي ، ولكن هذا لا يمنعه أن يقع في كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيبكة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفضة من ربح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا في هذه الأيبكة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلي الذي شق طرقا كثيرة في ميدان العقل .

وليس في وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبي - إذ ليس في العالم قط بدايات - ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أي رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التي يسرت في صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والموهبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث ، والعادة ، والغاية ، principle, maxim, faculty, means, category energy, motive habit, end . ولقد كان كما سماه بيتر Pater « أول المدرسين » (٢٣١) .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى
بمخضبة تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه في الأخلاق والسياسة(*)
ليفوقان أمثالها كلها في الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا
من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » .
وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو
إلهام مطمئن إلى الذين يكدهون في سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة
وتنسيقها وفهمها .

(*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد وطبعتهما
بلغة التأليف . (المترجم)

الباب الثاني والعشرون

الإسكندر

الفضل الأول

نفسية فائح

لقد كانت حياة أرسطو العقلية بعد أن غادر تلميذه الملكى مماثلة لحياة الإسكندر العسكرية ؛ ذلك أن كلتا الحياتين تعبر عن نزعة الفتح ، والبناء ، والتركيب . وربما كان الفيلسوف هو الذى غرس فى عقل الشاب تحمسه الشديد للوحدة وهو التحمس الذى رفع بعض الشيء من قدر انتصارات الإسكندر ؛ لكن أرجح من هذا أن هذا التحمس قد انحدر إليه من مطامع أبيه ، ثم أحاله دم أمه إلى ولع وهيام . وإذا شئنا أن نفهم الإسكندر على حقيقته ، وجب علينا أن نتذكر على الدوام أن عروقه كان يجرى فيها نشاط فليب العارم وحدة أولمپياس الهمجية ؛ يضاف إلى هذا أن أولمپياس كانت تدعى الانتساب إلى أخيل ، ومن أجل هذا كان الإسكندر يهوى الإلياذة ويفتن بها ، وكان يفسر عبوره الهلسينت بأنه تتبع لخطوات أخيل نفسه واستيلاءه على آسية الغربية بأنه إنمام للعمل الذى بدأه جده الأعلى فى طروادة . وكان فى خلال حملاته العسكرية كلها يحتفظ معه بنسخة من الإلياذة عاها شروح بتمام أرسطو ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته أثناء الليل بجوار خنجره ، كأنه يرمز بهذا إلى أدواته وهدفه .

وعنى ليونidas وهو مولوسى Molosian صهارم بتربية الغلام الجسمية ، وعلمه ليسمحوس الأدب ، وحاول أرسطو أن يكون عقله . وكان فليب

يرغب في أن يدرس ولده الفلسفة « حتى لا يفعل أشياء كثيرة من نوع الأشياء التي فعلتها أنا والتي آسف على فعلها^(١) » كما قال فليب نفسه . وقد أفلح أرسطو إلى حد ما في أن يجعل منه رجلاً هليينياً ؛ وذلك أن الإسكندر كان طوال حياته يعجب بالأدب اليوناني ويحسد اليونان على حضارتهم ؛ وقد قال مرة لرجلين يونانيين كانا يجلسان معه أثناء المأدبة الوحشية التي قتل فيها كليتوس : « ألا تشعران حين تجلسان في صحبة المقدونيين بأنكما أشبه بإلهين بين خلّاق من المممج^(٢) » .

وكان الإسكندر من الناحية الجسمية شاباً مثالياً . وذلك أنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية : كان عداء سريعاً ، وفارساً جريئاً ، ومبارزاً ماهراً ؛ وكان يجيد الرماية بالقوس ، ولا يرهب أى شيء في الصيد . ولما رغب إليه أصدقاؤه أن يشترك في سباق العدو في أولمبيا أجاب بأنه لم يكن بمانع في ذلك لو أن المتبارين معه كانوا ملوكاً . ولما عجز غيره عن تقليد بوسفلس Bucephalus الجواد الجامح الجبار ، نجح الإسكندر في هلم العمل ؛ فلما رأى ذلك فليب ، كما يقول فلوطرخس ، حياه بتلك الألفاظ التي كانت أشبه بنبوءة بما يجبوؤه له القدر : « أى بنى ، إن مقدونية لا تتسع لك ، فابحث لنفسك عن إمبراطورية أوسع منها ، وأجدرك^(٣) » . وكان حتى في أثناء زحفه بصرف بعض نشاطه في أن يرمى بالسهم بعض ما يمر به من الأهداف ، أو ينزل من مركبته ثم يعود فيركبها وهي تجري بأقصى سرعتها . وكان إذا تراخت الحرب خرج إلى الصيد وواجه بمفرده وهو واقف على قدميه وحشياً ضارباً ؛ وسمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يجارب الأسد كأنه يبارزه لتقرر نتيجة البراز أيهما يكون هو الملك^(٤) ، فسر من هذا القول أيما سرور . وكان مولعاً بالعمل الشاق والمغامرات الخطرة ، ولم يكن يطيق الراحة . وكان يسخر من بعض أصدقائه الكثيرى الخدم ويقول إنهم لا يجدون ما يفعلون . ومن أقواله لهم : « عجيب أمركم ،

كيف لم تدلكم تجاربكم على أن من يعملون ينامون نوماً أعمق من نوم من يعمل لم غيرهم ؛ وهل لا تزالون بحاجة إلى من يدلکم على أن أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل وأسباب الضعف التي كان يتصف بها من غلبناهم على أمرهم (٥) . وكان يؤمله ما يضيغ من الوقت في النوم ويقول : « إن النوم وعملية التناسل هما أهم ما كان يشعره بأنه آدمي فان » (٦) . وكان معتدلاً في الطعام ، وظل إلى آخر سني حياته معتدلاً كذلك في الشراب ، وإن كان يجب أن يطيل المكث مع أصدقائه على كأس من الخمر . وكان يحضر الأظعمة اللسمة ، وقد رد مشهورى الطهارة الماهرين الذين عرضوا عليه ، وقال إن مشى ليلة كفيف بأن يقوى شهوته للقطور ، وإن فطوراً خفيفاً يقوى شهوته للغداء (٧) . ولعل هذه العادات هي التي جعلت وجهه وضاه إلى حد كبير ، وجعلت رائحة جسمه ونفسه « زكية تفوح من ملبسه التي على جسمه » (٨) . وإذا ما أخذنا بأقوال معاصريه وضررنا صفحا عن ملق الذين رسموا صورته أو نحتوا تماثيله أو نقشوا رسمه ، حكمتنا بأنه كان وسيما بدرجة لم يسبق إليها أحد من الملوك الذين قبله : كان ذا معارف قوية التعبير ، وعينين زرقاوين رقيقتين وشعر غزير أصحمر . وهو الذى ساعد على إدخال عادة حلق اللحية في أوزبا ، وحجته في ذلك أن اللحية تمكن العدو من القبض على صاحبها (٩) . ولعل أكبر آثاره في التاريخ هو هذا الأثر النافه .

أما من الناحية العقلية فقد كان طالباً شديد التحمس للدرس ، لكن التبعات التي ألقيت عليه قبل الأوان لم تترك له فسحة من الوقت ينضج فيها عقله . وكان يحزنه ما يحزن الكثيرين من رجال الجهد والعمل وهو أنه لا يستطيع أن يكون أيضاً مفكراً . ويقول فيه فلوطرخس إنه « كان شديد الشغف بالعلم ، شغفاً يزداد على مر الأيام . . وكان مولعا بجميع أنواع المعارف محبا لقراءة جميع أنواع الكتب » . وكان من أسباب سروره بعد أن يقضى يوماً في السير أو القتال أن يسهر إلى منتصف الليل يتحدث إلى الطلاب والعلماء . وقد كتب مرة إلى أرسطو يقول : خير لى أن أتفوق على غيرى

في العلوم من أن أتفوق عليهم في اتساع الملك وقوة السلطان» (٩) . ولقد أرسل بعثة لارتياح منابع النيل - وقد يكون هذا بإيعاز أرسطو - ؛ وأعان بالمال كثيراً من البحوث العلمية . وليس في وسعنا أن نحكم أكان إذا امتد به أجله يبلغ ما بلغه قبصر من صفاء الذهن أو ما بلغه نابليون من دقة الفهم . لكن مشاغل الملك أدركته وهو في العشرين من عمره ، واستغرقت شئون الحرب والإدارة كل وقته وجهده ، ومن أجل هذا بقي ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته . نزم إنه كان متحدثاً لبقاً ، ولكنه كان يتورط في مآث الأغلط إذا تطرق الحديث إلى شئون السياسة والحرب . ويلوح أنه رغم حروبه الكثيرة لم يعرف من الجغرافية ما كان في مقدور ذلك العلم في أيامه أن يمد به . وكان عقله في بعض الأحيان يسمو عن الآراء الضيقة التحكيمية ، ولكنه بقي إلى آخر أيام حياته عبداً للخرافات والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدهم بهم حاشيته . ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أربيل يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر أرسنندر Aristander ويقرب القربان إلى إله الخوف . وكان هذا الرجل الذي واجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة « يرتاع لأقل النذر الموهومة » ارتباعاً يحمله على تغيير خططه (١٠) . وكان في مقدوره أن يقود آلاف الرجال ، ويهزم الملايين منهم ، ويحكمهم ، ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه . ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من خطأ أو بما فيه من نقص ، وكان يفتخر بالثناء اغتراراً بطغي على حكمته ويفسدها . وقد عاش طول حياته في جو من الانفعال والمجد يكاد يذهب بعقله ، وكان يجب الحرب حباً استحوذ على عقله فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام .

وكانت أخلاقه تحوم حول أمثال هذه المتناقضات . فقد كان في قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال ، تستبقه جبراته ، شديد التأثير بالشعر والموسيقى ، وكان في أيام شبابه الأولى يعزف على القيثارة ويتأثر بأنغامها

أشدّ التؤثر . ولما عنفه فليب على هذا هجر تلك الآلة ، ورفض من ذلك الوقت أن يستمع لغير النغمات العسكرية ؛ ولعله أراد بهذا أن يتهود السيطرة على حواسه^(١١) . كذلك كان يستمسك بالفضيلة في الناحية الجنسية ، ولم يكن ذلك عن مبدل يدين به ، بل لأن مشاغله كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية . ذلك أن نشاطه الدائم ، وسيره الطويل ، وحروبه الكثيرة ، وخططه المعقدة ، وأعباءه الإدارية ، كانت تستنفد كل قواه ، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب . وكانت له زوجات كثيرات ، ولكن زواجه بهن كان توضحية منه قضت بها شئون السياسة والحكم ؛ وكان شهماً ذا مروعة في معاملته للنساء ، لكنه كان يفضل عليهن محبة قواده . وجاءه رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره ، فسألها « لم تأخرت إلى هذا الوقت ؟ » فردت عليه بقولها : « كان على أن انتظر حتى أنيم زوجي » . فصرفها الإسكندر وعنف خدمه وقال لم إنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً^(١٢) . وكان فيه كثير من صفات اللوطيين ، وكان يحب هفستيون Hephaestion إلى حد الجنون ؛ لكنه حين جاءه ثيودورس التاراسي Theodorus of Tiras يعرض عليه أن يبيعه غلامين بارعي الجمال ، طرد ثيودورس من مجلسه وطلب إلى أصدقائه أن يفصحوا له عما أظهره من سفالة وخسة نفس تحملان إنساناً ما على أن يتقدم إليه بهذا العرض الدنيء^(١٣) . وكان يستمسك بصداقة الأصدقاء ويهيم ما يهيم معظم الناس إلى الحب من اشتياق ورقة عاطفية ؛ وليس بين من نعرف من الساسة ، دع عنك القواد ، من فاقه في صدق القول الخالي من التكلف أو في الصداقة الوفية القوية ؛ أو في إخلاصه في حبه وغرضه ، أو في كرمه لمعارفه وأعدائه دع عنك أصدقاءه^(١٤) . وفي ذلك يقول فلوطرخس وهو ينتهز أقل الظروف ليكتب الخطابات لخدمة الأصدقاء . « وقد كسب حب جنوده بعطفه عليهم ؛ وكان يخاطر بحياتهم ولكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً من غير مبالاة ، كأنه كان يحس بجميع جراحتهم ؛ وكما عفا قيصر عن

بروتس وشيشرون ، وكما عفا ناپليون عن فوشيه Foch وتايران Talley and - كذلك عفا الإسكندر عن هرپالس Harpalu صاحب بيت المال الذى اختفى بما فى عهده منه ثم عاد إليه يرجو عفوهُ ؛ وقد أدهش الشاب الفانح الناس جميعاً بأن أعاده إلى منصبه ، ويبدو أنه أصلحه بذلك العمل^(١٥) . ومرض الإسكندر فى طرهوس عام ٣٣٣ فعرض عليه طبيبه فليب شراباً مسهلاً . وفى تلك اللحظة وصلت إلى يد الملك رسالة من پرمنيو يقول فيها إن دارا قد رشا فليب ليدس له السم ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة على فليب ، وبينما كان الطبيب يقرؤها شرب الإسكندر الدواء - ولم يصب بسوء . وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عوناً له فى حروبهِ ؛ فقد كان كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه ، وكانت المدن تفتح أبوابها إذا اقترب منها لأنها تخشى على أنفسها من النهب . ولكنه كان فيه شيء من الشراسة المولوسية ، وقد شاء القدر القاسى أن يقضى عليه ما كان ينتابه أحياناً من نوبات القسوة . مثال ذلك أنه لما استولى على غزة بعد أن حاصرها واقتحم أسوارها واستفزه بطول مقاومتها أمر بأن تخزق قدما باتيس Batis قائدها الباسل ، وأن توضع فيها حاقيات من نحاس . ثم أسكرته ذكرى أخيل ، فشد القائد الفارس بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال ، وجرت به أقصى سرعتها حول المدينة^(١٨) . وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً ليهدي به أعصابه ما دفعه فى سنه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء التى أخذت تزداد على مر الأيام ، وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت وتوبيخ الضمير العنيف .

وكان من صفاته صفة لما الغلبة على كل ما عداها ونفى بها الطموح فقد كان وهو شاب يتبرم من انتصارات فليب ، حتى لقد شكاه مرة إلى أصدقائه من أن « أباه سيفرغ من كل شيء قبل أن نستعده نحن ، ولن يترك لى أو لكم فرصة تعمل فيها شيئاً عظيماً خطيراً^(١٧) » . وقد دفعته هذه

الرغبة الشديدة في العمل العظيم إلى محاولة القيام بكل واجب واقتحام كل خطر ففى يوم قبرونيا مثلاً كان هو أول من هجم على « العصابة الطيبية المقدسة » ؛ وفى يوم غرانيقوس أطلق العنان لما كان يسميه رغبة فى ملاقاته الأخطار^(١٨) . وقد أصبحت هذه الرغبة هى الأخرى شهوة جامحة ، فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه ، فىذسى فى ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال ، وكثيراً ما كان جنوده يلحون عليه أن يرتد إلى المؤخرة لخوفهم أن يفقدوه . على أنه لم يكن قائداً عظيماً ، بل كان جندياً بأسلاً أوصله جلده وعناده وعدم مبالاته بالعقبات التى كانت تبدو مستحيلة التذليل إلى انتصارات مؤزرة لم يسبقه أحد إلى مثلها . وكان هو الملهم لجنوده ، أما قواده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجع أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم والتدريب والكر والفر والفتون الحربية . وكان يقود جنوده يخياله الوضاء ؛ وفصاحته الطبيعية غير المتكلفة ، واستعداده لمقامتهم صعبهم وأحزانهم استعداد المخلص الوفى . ولا جدال فى أنه كان إدارياً حازماً ؛ وقد حكم الأملاك الواسعة التى افتتحها بقوة السلاح حكماً رقيقاً حازماً ؛ وكان يقى بالعهود التى يقطعها على نفسه لقواد الجند المهزومين وللمدن المغلوبة ، ولم يسمح قط لموظفيه أن يظلموا رعاياه أو يستبدوا بهم ، ولم يكن وهو يخوض غمار القتال والهيجاء مشتجرة والأرض متزلزلة يغفل قط عن هدفه الأسمى الذى لم يحل موته دون إنجازه : وهو ضم البحر المتوسط الشرقى فى وحدة ثقافية جامعة ، تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان الآخذة فى الانتشار .

الفصل الثانی

طریق المجد

لما ارتقى الإسكندر العرش ألقى نفسه على رأس دولة متصدعة ؛ فقد ثارت القبائل الشمالية الضاربة في تراقية وإليريا ؛ وخرجت عن طاعته إيتوليا وأكرانيا Acarnania ، وفوسيس ، وإليس ، وأرجولس ، وطرد الأمبراقويتون Amparciotes الحامية المقدونية من بلادهم ؛ وكان أرتمخستر الثالث يفخر بأنه هو المحرض على قتل فليب ، وأن بلاد الفرس لا تخشى شيئاً من هذا الحدث المراهق الذى ورث الملك وهو فى العشرين من العمر . ولما أن وصلت البشائر إلى أثينة بأن فيلب قد مات ازين دمستين بأفخر الثياب وتوج رأسه بإكليل من الزهر ، واقترح على الجمعية أن تضع تاجا على رأس قاتله پوسنياس تكريماً له^(١٩) . وفى مقدونية نفسها كانت عشرة أحزاب أو أكثر تأتمر بحياة الملك الشاب .

وواجه الإسكندر هذه الصعاب كلها بهمة قعساء وعزيمة ماضية قضى بهما على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم . ولما أن ألقى القبض على زعماء المتأمرين فى داخل البلاد وقتلهم اتجه بجيوشه جنوباً نحو بلاد اليونان (٣٣٦) وبلغ طيبة بعد بضعة أيام . وأسرعت بلاد اليونان فقدمت له ولاءها ، وبعثت إليه أثينة معتذرة عما فرط منها ، وعرضت عليه تاجين ، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم . فلما هدأت سيرة الإسكندر أعلن إلغاء جميع الحكومات الدكتاتورية فى بلاد اليونان ، وأمر أن تعيش كل مدينة حرة حسب قوانينها . وثبت له المجلس الأمفكتيونى جميع الحقوق التى منحها فليب ،

واجتمع في كورنثة مؤتمر من جميع دول اليونان ما عدا اسپارطة وأعاته قائدا عاما لجميع اليونان ، ووعد أن يعينه بالمال والرجال في حروبه الآسيوية المرتقبة : ثم رجع الإسكندر إلى پلا ، ونظم شتون العاصمة ، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليقلم أظفار الفتنة التي أوقدت نارها القبائل المتبربرة (٣٣٥) . وزحف على رأس جنوده بسرعة ناپليون حتى وصل إلى موضع مدينة بخارست الحالية ، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية . ثم تراه إليه أن أهل إريا يزحفون على مقدونية فاجتاز مائتي ميل في قاب بلاد الصرب وفاجأ مؤخرة الغزاة ، وهزمهم ، ورد فلولهم إلى جبالهم .

لكن إشاعة راجت وقتئذ في أثينة بأن الإسكندر قد قتل وهو يحارب عند نهر الدانوب . فأخذ دمستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال ، ولم ير حرجاً في أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس يستعين بها على تنفيذ خططه . واستجابت طيبة إلى تحريضه فخرجت عن طاعة الإسكندر ، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الملك الشاب ، وحاصرت الحامية المقدونية المعكسرة في حصن الكدميا . وأرسلت أثينة المدد إلى طيبة ، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف على مقدونية . وثارث نائرة الإسكندر لهذا العمل الذي لم يكن الدافع إليه في نظره رغبة اليونان في الاستقلال ، بل كان غدرآ. منها وكفراً بفضله عليها ؛ فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى . ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً ، وشتت شمل جيش سيرته ليصده زحفه ؛ ثم ترك مصير هذه المدينة المحرودة من وسائل الدفاع عن أعدائها الأقدمين - پلاتيه ، وأركنوس وثسپيا ، وفوسيس ؛ فقررت هذه المدن أن تحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء . وأراد الإسكندر أن يلقي درساً على غيرها من المدن فأمضى هذا القرار ، ولكنه اشترط ألا يمسه الجنود الظافرون بيت پندار بسوء ، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطيبين الذين يثبتون أنهم قاوموا الثورة . وقد ندم

فما بعد على هذا الانتقام العنيف وعده سبة له « ولم يكن يتردد في أن يعطى أى طيبي ما يطلبه إليه » ، وقد كفر عن بعض ذنبه بمعاملته اللينة لأثينة ، فتمد عنما عن نكثها ما قطعتة على نفسها من عهود في السنة السابقة ، ولم يتشدد في طلبه تسليم دمستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين . وظل إلى آخر حياته يظهر لها دلائل الاحترام والحب ، فوهب الأكربوليس كثيراً من الغنائم التي ظفر بها في انتصاراته الأسيوية ، ورد إلى أثينة تمثالي قاتلي الطغاة اللذين نههما خشيارشاي ، وقال عقب حملة حربية مجهدة : « أيها الأثينيون ، هل تعلمون أى أخطار أعرض نفسي لها لأكون خليقاً بجمدكم (١٦) » .

وبعد أن أعربت جميع الدول اليونانية ما عدا اسپارطة عن ولائها للإسكندر عاد إلى مقدونية وأخذ يستعد لغزو آسية . وقد وجد أن خزائن الدولة تكاد أن تكون نفاوية ، بل وجد أنها مثقلة من عهد فليب بعجز يبلغ مقداره خمسمائة وزنة (نحو ٣٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) (١٢) ، فاقترض ثمانمائة وشرع يتغلب على ديونه قبل أن يتغلب على العالم . وكان قد عقد النية على محاربة الفرس بوصفهم بطل هلاس وناصرها ، ولكنه عرف أن نصف بلاد اليونان كان يرجو أن يلاقى حتفه . ونقل إليه عيونته أن في مقدور الفرس أن يحشدوا لقتاله ألف ألف رجل ؛ أما هو فلم تزد قوته التي سيرها لقتالهم على ثلاثين ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان . بيد أن هذا الأخييل الجديدم لم يعبأ بهذا الفرق الهائل ، وترك اثني عشر ألف جندي بقيادة أنتباتر Antipater لحراسة مقدونية ومراقبة بلاد اليونان ، وبدأ في عام ٣٣٤ أجراً وأعجب بمغامرة روائية في تاريخ الملوك . وعاش بعد ذلك إحدى عشرة سنة ولكنه لم ير من ذلك اليوم بلاده أو أوربا . وبينما كان جيشه يعبر الهلسبندت من لسبوس إلى أبيدوس اختار هو أن ينزل إلى البر عند رأس سيجيوم Sigcum ويسير في الطريق الذي كان يعتقد أن أجمنون سار فيه إلى طروادة . وكان في كل خطوة يذكر لرفاقه فقرات من الإلياذة :

فقد كان يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب . ولما جاء إلى قبر أخيل المزعوم
عذب عليه الزيت تكريماً له ووضع عليه تاجاً من الزهر ، وسعى عارياً حوله
كما كان يفعل الأقدمون ، وصاح قائلاً : « ما أسعد أخيل ! إذ كان له في
حياته هذا الصديق الوفي ، وبعد مماته ذلك الشاعر العظيم ليمجده ويخلد
ذكره » (٢٨) . وأقسم في تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين
أوروبا وآسية الذي بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نعيد ذكر انتصاراته . وحسبنا
أن نقول إنه التقى بأول جيش فارسي عند نهر غرانيقوس وهزمه . وفي
هذه الواقعة أنقذ كليتس Cleitus حياة الإسكندر بأن قطع يد جندي فارسي
أوشك أن يضرب الإسكندر من خلفه . وليس من دأبنا أن نفعل ما يفعله
بعض المؤرخين الخياليين فنفترض الفروض ونبنى التاريخ على أمثال هذه
الحوادث العارضة أو نتخذها أساساً لهذه الفروض . وبعد أن أراح رجاله
بعض الوقت واصل السير إلى أيونيا ، وأنشأ في المدن اليونانية حكومات
ديمقراطية تحت حمايته . وقد فتحت له معظم هذه المدن أبوابها من غير
مقاومة . والتقى عند إسوس بجيش الفرس الرئيسي ، وكان يبلغ ٦٠٠٠٠٠
مقاتل يقودهم دارا الثالث . وكسب المعركة مرة أخرى باستخدام فرسانه
للهجوم ومشاته للدفاع . وفر دارا من الميدان وترك وراءه أهواله وأسرته ؛
وشكر له الإسكندر هديته الأولى وعامل الهدية الثانية معاملة الرجل الشهم
الكريم . وبعد أن استولى على دمشق وصيدا من غير قتال حاصر صور ،
وكان بها أسطول فينيقي قوى استأجره الفرس لخدمتهم في القتال . وقاومته
المدينة القديمة مقاومة طويلة غضب لها الإسكندر أشد الغضب ؛ ولما أن
استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه فترك رجاله يذبجون ثمانية آلاف
من أهلها ، ويبيعون منهم ثمانين ألفاً ببيع الرقيق . واستسلمت له أورشليم بلا

مقاومة فأحسن معاملتها ، وحاربته غزاة حتى قتل كل رجل في المدينة وسبيت كل امرأة .

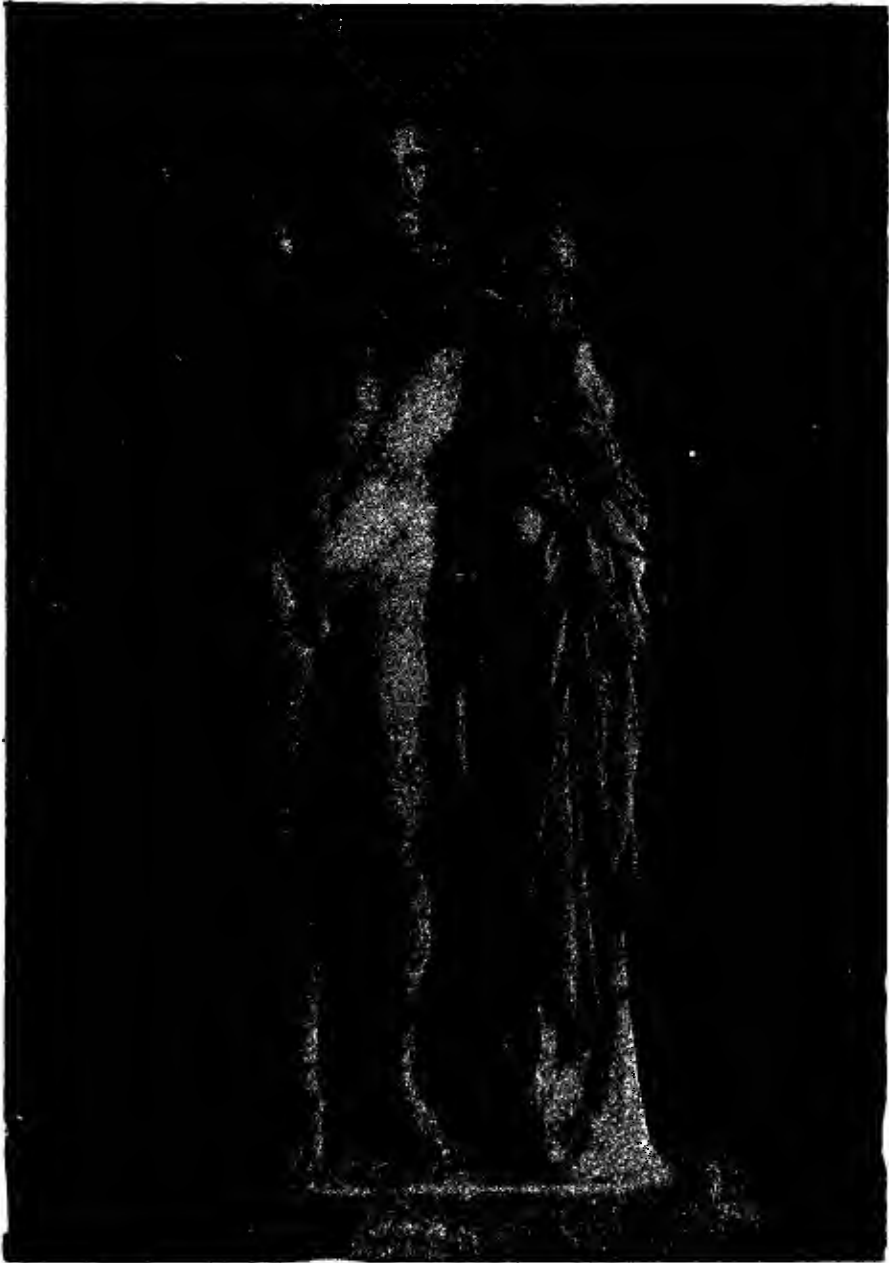
وواصل المقدونيون زحفهم المظفر محترقين صحراء سيناء إلى مصر ، وفيها كان الإسكندر حكيما ، فعظم ألهتها ورحب به أهلها ، ورأوا فيه متقلداً أرسلته الآلهة ليحررهم من نير الفرس . وعرف الإسكندر أن الدين أقوى من السياسة فاخترق صحراء أخرى إلى واحة سيوة ، وقدم الطاعة إلى الإله آمون - وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدق أولمبياس . وتوجه القساوسة المرنون فرعوننا ، وأقاموا له الطقوس القديمة ، ومهدوا بعملهم هذا الطريق لأسرة البطالمة . فلما تم له ذلك عاد إلى وادي النيل وبدا له أن يقيم عاصمة جديدة ، أو لعله وافق على إقامتها ؛ عند أحد مصاب نهر النيل الكثيرة ؛ وربما كان اليونان المقيمون في نقراطس (نقراش) القريبة من هذا المكان قد أشاروا عليه بإنشائها لأنها بموقعها هذا تكون مستودعاً أحسن من نقراطس للتجارة اليونانية الكبيرة التي كان يرجى أن يتبادل بين مصر وبلاد اليونان . وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية وحدود شوارعها الرئيسية ، ومواضع الهياكل التي اعتزم أن يقيمها لآلهة المصريين واليونان ، ثم ترك ما عدا هذا من التفاصيل لمهندسه دنقراطيس Dinocrates (*) .

ثم عاد بجيشه إلى آسية والتقى عند جوكيلا قرب أربيلا بجيش دارا المؤلف من خليط من الأمم ، وارتاع لكثرة عدده ؛ وكان يعرف أن هزيمة واحدة كفيلة بأن تذهب بجميع ما سبقها من انتصارات . لكن جنوده هدأوا زوجه وقالوا له « طب نفساً أيها السيد المعظم ، ولا ترهبك كثرة عدد الأعداء ،

(*) وكان دنقراطيس قد أدخل السرور على قلب الإسكندر بأن عرض عليه أن ينسج جبل آندوس - الذي يبلغ ارتفاعه ستة آلاف قدم - ليجمعه تمثالاً للإسكندر يقف والبحر يغمره إلى وسطه ، ويمسك مدينة في إحدى يديه ويمرّقاً في اليد الأخرى (٢٤) ، لكن هذا المشروع ظل حلماً من الأحلام .
(٣٦ - ج ٢ مج ٢)

لأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمام رائحة المعز التي تصحب جيوشنا (٢٥) ، وقضى الليلة يستكشف الأرض التي ستدور فيها المعركة ، ويقرب القرابين للآلهة . وكان نصره مؤزرا حاسما ، فلم تستطع جيوش دارا المختلة النظام أن تصمد أمام فيالتي الإسكندر المتراسة ، ولم تعرف كيف تدافع عن نفسها أمام هجمات الفرسان المقدونيين السريعة المتكررة ، فتبدد شملها وولت لأدبار ، ولم يكن دارا آخر الفارين . وقتله قواده جزاء له على جبنه ، في الوقت الذي كان الإسكندر يتقبل فيه خضوع بابل ، ونصبيا من ثروتها ، ويوزع بعضها على جنده ، ويأسر قلوب أهل المدينة بتعظيم آلهتها وإصدار أوامره بإعادة أضرحتها المقدسة . ولم تنته سنة ٣٣١ حتى كان قد وصل إلى مدينة السوس ، وكان أهلها لا يزالون يذكرون مجد عيلام القديم . فاستقبلوه استقبال المنقذ . وقد حى المدينة من النهب وعضو جنوده عن ذلك بأن قسم بينهم بعض الخمسين ألف وزنة (٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) التي وجدها في أقبية دارا . وأرسل إلى أهل بلانية قدراً كبيراً من هذا المال لأنهم قاوموا الفرس مقاومة عنيفة في عام ٤٨٠ ، ويبدو أنه رد إلى مدن آسية « العطايا » التي استولى عليها منها في بداية الحملة (٣٦) . وأعلن إلى اليونان في جميع أنحاء العالم في فخر وكبرياء أنهم أصبحوا الآن أحراراً مستقلين آتم الاستقلال عن حكم الفرس .

ولم يكذب استريح في السوس حتى واصل الزحف فوق الجبال في قلب الشتاء ليستولى على پرسبوليس ؛ وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية . وهنا ركب رأسه فحرق المدينة العظيمة ودكها دكا ، وانطلق جنوده ينهبون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال . ولعل الذي أثار سخطهم هو أنهم رأوا وهم مقبلون على المدينة ثمانمائة من اليونان قد مثل بهم الفرس لأسباب مختلفة فقطعوا أرجلهم



(شکل ۴۳) هرمس پرکستایز (متحف اولمپیا)

أو أيديهم أو آذانهم أو فقاؤا عيونهم . وأبصرهم الإسكندر فبكى من فرط التأثر وأقطعهم أرضاً زراعية وخصهم باتباع يزرعونها لهم .

ولم يكتف الإسكندر بما نال من مجد فحاول أن يفعل ما عجز عن فعله قورش - وهو إخضاع القبائل التي كانت تحوم حول تخوم بلاد الفرس من الشرق ، ولعله كان يأمل لقلة معلوماته الجغرافية أن يجد وراء الشرق الغامض المجهول ذلك الأقيانوس الذي يصلح لأن يكون حداً طبيعياً للدولة العظيمة التي أقامها بسيفه . ولما دخل سجديانا مر بقرية يسكنها أبناء البرنشيدي Branchidae الذين أسلموا لخشيارشاي قرب ميليطس كنوز هيكلمهم . وتملكته فكرة الانتقام للاله الذي انتهب ماله ، فأمر بأن يقتل جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال - فاقصص بهذا العمل من الآباء بعقاب الجيل الخامس من الأبناء . وكانت حروبه في سجديانا ، وأريانا ، وبكتريانا ، وحشية لم يجن منها نفعاً ، فقد نال فيها بعض النصر ، وعثر في أعقابها على بعض الذهب ، وترك من ورائه أعداء في كل مكان . وقبض رجاله قرب بخارى على بسوس Bessus قاتل دارا . وأقام الإسكندر نفسه فجأة مطالباً بدم الملك العظيم ، فضرب بسوس بأمره بالسياط حتى كاد يقضى عليه ، وجدع أنفه وصملت آذناه ، ثم أرسل إلى إكباتانا حيث قتل بأن ربط خراغاه في إحدى الأشجار وساقه في شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان قد ضممتا بالحبال ، فلما قطعت حبالهما مزقت الشجرتان جسمه (٢٧) . وهكذا كان الإسكندر كلما بعد عن بلاد اليونان قلت فيه صفات اليونان وزادت نزعة الحمجية .

ونراه في عام ٣٣٧ يخترق جبال الهملايا لينقض على الهند . وكان غروره وتشوفه كانا ياتمران به ليقوداه إلى هذا الصقع الثأى . ونصحه قواده بالأقدام على هذه المغامرة ، وأطاعه جنده وهم كارهون ، فعب نهر السند ، وهزم الملك پورس Porus ، وأعلن أنه سيواصل الزحف حتى نهر الكنج Ganges لكن

جنوده أبو أن يتقدموا خطوة واحدة . فحاول إقناعهم ، وقضى ثلاثة أيام متتجها في خيمته كما فعل جده أنخيل من قبل ؛ ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن جنوده قد سثموا القتال ، فعاد أدراجه مكتئباً حزينا ، كارهاً أن يواجه الغرب مرة أخرى ، وشق طريقة وسط قبائل معادية له ، بشجاعة لم يسع جنوده حين شهدوها إلا أن يبكوا لعجزهم عن تحقيق جميع أحلامه وكان هو أول من تسلق أسوار ماليا Mallia ؛ وبعد أن قفز هو واثنان من جنده إلى داخل المدينة ، تحطم السلم الذي صعدا عليه ، ووجد هو وزميلاه أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب . وحارب الإسكندر حتى سقط على الأرض مشخناً بالجراح ؛ وكان جنوده في هذه الأثناء قد اقتحموا أسوار المدينة ، وأخذوا واحداً بعد واحد يضحون بحياتهم دفاعاً عن ملكهم الملقى على الأرض . فلما انتهت المعركة ، حمل الإسكندر إلى خيمته ، والجند يقبلون ثيابه وهو مار بهم . وبعد أن قضى ثلاثة أشهر في دور النقاهة بدأ الزحف من جديد بمحاذاة نهر السند حتى وصل آخر الأمر إلى المحيط الهندي . ومن هنا أرسل قسماً من جيوشه بطريق البحر بقيادة نيارخوس Nearchus ، واستطاع هذا القائد الماهر أن يقوم بهذه الرحلة بعد أن اخترق بحاراً لا عهد له بها وقاد الإسكندر بنفسه بقية الجيش متجهاً به نحو الشمال الغربي بمحاذاة ساحل الهند ، ومخترقاً صحراء جندروسيا Gedrosia (بلوخيستان) ؛ وقاسى جنوده فيها ما قاسته جنود نابليون في أثناء ارتدادهم من مسكو ، فقد قضى آلاف منهم من شدة الحر ، وهلك من العطش أكثر من هؤلاء ؛ ثم وجدوا قليلاً من الماء ، وجرىء به إلى الإسكندر ، فصبه متعمداً على الأرض^(٢٨) . ووصلت فلول جيشه إلى السوس بعد أن قتل منهم عشرة آلاف ، واختلت موازين عقل الإسكندر نفسه من كثرة ما لاقاه من الأهوال .

الفصل الثالث

موت إله

وكان قد قضى حتى ذلك الوقت تسع سنين في آسية ، أحدث فيها من التأثير بانتصاراته قل مما أحدثته هي فيه بأساليبها الشرقية . ذلك أن أرسطو قد علمه أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل « البرابرة » معاملة العبيد . ولكنه دهش إذ وجد بين أشراف الفرس مستوى من الرقة وحسن الخلق لم يره كثيراً في الديمقراطيات اليونانية المضطربة ؛ وأعجب بالطريقة التي نظم بها الملوك العظام إمبراطوريتهم ، وارتاب في مقدرة المقدونيين الغلاظ على أن يملوا محل حكام هذه الإمبراطورية ، وأدرك أن السيل الوحيدة إلى تثبيت فتوحه واستقرارها بعض الاستقرار هي أن يسترضى أشراف الفرس حتى يقبلوا زعامته ، فإذا فعلوا استخدمهم في المناصب الإدارية . وزاد سروره برعاياه الجدد يوماً بعد يوم ، فتخلى عن فكرته القديمة وهي أن يحكمهم بوصفه ملكاً مقدونياً ، ونحال نفسه إمبراطوراً يونانياً - فارسياً يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، وتمتزج ثقافتهم ودماءهم امتزاجاً سلمياً ، فينتهي النزاع الطويل بين أوربا وآسية بذلك الاقتران السعيد بين حضارتهما .

وكان آلاف من جنوده قد تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة ، وأخلوا بعاشرونها ، فلم لا يفعل هو أيضاً فعلهم ؟ فيتزوج بابنة دارا ويسوى النزاع بين الأمتين بأن يلد لها ملكاً يجرى في عروقه دم الأستين . لقد تزوج قبل ذلك الوقت رَكنسانا الأميرة البكترية ، ولكنه لم يكن يرى أن هبسه عقبة تقف في طريقه ، وعرض الفكرة على ضباطه وأشار عليهم أن يتخلوا لهم

أزواجاً فارسيات . وتبسموا ضاحكين من فكرة توحيد الأمتين ، ولكنهم كانوا قد قضوا زمناً طويلاً بعيدين عن ديارهم ، وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع . ومن ثم أقيم عرس عظيم في السوس (٣٢٤) تزوج فيه الإسكندر استاتيرا Stati ابنة دارا الثالث ، وپريساتس Parysatis ابنة أرتخشتر الثالث ، وبهذا ربط نفسه بفرعى الأسرة المالكة الفارسية ، واتخذ ثمانون من ضباطه لم زوجات فارسيات . وحذا حذوهم بعد زمن يسير آلاف من الجنود فتزوجوا من فارسيات . ووهب الإسكندر كل ضابط من ضباطه بائنة قيمة وأدى ما على الجنود الذين تزوجوا من ديون - وقد بلغت هذه الهبات (إذا جاز لنا أن تأخذ بأقوال أريان Arrian) عشرين ألف وزنة (نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي^(٢٦)) . وأراد أن يزيد هذا الاتحاد بين الشعبين قوة ، ففتح أراضي الجزيرة وفارس للمستعمرين اليونان ؛ وخفف بهذا العمل ضغط السكان في بعض الدول اليونانية وقلل من حدة حرب الطبقات . ومن ذلك الوقت بدأت تقوم تلك المدن المتأخرقة الآسيوية التي صارت فيما بعد جزءاً هاماً من الإمبراطورية السلوقية Seleucid Empire وجمع في الوقت نفسه ثلاثين ألفاً من شباب الفرس وعلمهم على الطريقة اليونانية ودرهم على فنون الحرب اليونانية .

ولعل زوجاته كن من أسباب ميله إلى الأساليب الشرقية ، أو لعل هذا الميل كان خطأ وقع فيه لشدة تواضعه ، أو لعله كان جزءاً من خطة موضوعة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « فلما كان في فارس بدأ يلبس الثياب « البربرية » (أى الأجنبية) ولعله أراد بذلك أن يبسر تحضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر في الناس هو اتباع عاداتهم ... بيد أنه لم يتبع عادات الميديين ... بل اختط خطة وسطا بين الأساليب الفارسية والمقلونية ، وكيف عاداته بحيث نخلت من التماخر الذى هو من مميزات الأولين ، ولكنها كانت أكثر أهبة وفخامة من الآخرين^(٢٧) » .

وكان جنوده يرون في هذا التغير استسلاماً من الإسكندر للشرق ، ويحسون أنهم بذلك قد خسروه ، وفقدوا ما كانوا يرونه من أدلة العناية والعطف التي كان يضيفها عليهم في كل حين . وأظهر له الفرس فروض الطاعة والولاء ، وأرضوه بضروب الملقى والدهان ؛ وشرع المقدونيون ، بعد أن رقق الطرف الشرقي طباعهم يظهرون استيائهم من الواجبات الثقيلة التي كان يفرضها عليهم ، ونسوا إحسانه لهم ، وأخذوا يتهامون بالفرار من الجيش ، بل إنهم شرعوا يأترون به ليقتلوه . وبدأ هو يفضل صحبة عطاء الفرس على صحبة اليونان .

وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه أو على حسن سياسته هو جهره بألوهيته ؛ وذلك أنه بعث في عام ٣٢٤ إلى جميع الدول اليونانية ما عدا مقدونية (لأن ما في الرسالة التي بعث بها من إهانة لفليب قد يثير غضب أهلها) يبلغها أنه يرغب في أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس - أمون . وصدعت معظم الدول بما أمرت ، ولم تر في الأمر أكثر من لقب صوري ، بل إن الاسبارطيين المعاندين أنفسهم لم يخرجوا على الأمر وقالوا في أنفسهم : « فليكن الإسكندر إلها إذا شاء » . ولم يكن تأليه إنسان ما ، بمعنى لفظ الألوهية عند اليونان ، ليرفع من شأنه كثيراً ؛ ذلك أن الهوة التي تفصل بين الإنسانية والألوهية لم تكن وقتئذ واسعة كما أصبحت في الأديان الحديثة . ولقد جمع كثيرون من اليونان بين الصفتين ، ومن هؤلاء هوداميا ، وأوديب ، وأخيل ، وإفجينيا ، وهلمن . كذلك كان المصريون يحسبون فراعتهم آلهة ؛ ولو أن الإسكندر غفل عن أن يضع نفسه في هذا الوضع لكان من المحتمل أن يغضب المصريون لخروجه هذا الخروج العنيف على السوابق المقررة عندهم . ولقد أكد كهنة سيوة ، وديديما Didyma ، وبابل ، وهم الذين يعتقد الناس فيهم أن لديهم مصادر خاصة يستقون منها أمثال هذه الأنباء ، أنه من نسل الآلهة . أما أن الإسكندر قد اعتقد بحق (كما يظن جروت^(٣١)) أنه إله بأكثر من المعنى المجازي لهذا اللفظ فأمر

بعيد الاحتمال . نعم إنه بعد أن أله نفسه أصبح سريع الغضب متغطرساً ، وإن سرعة غضبه وغطرسته تزدادان على مر الأيام . ولسنا ننكر أيضاً أنه جلس على عرش من الذهب ، وارتدى ثياباً كهنوتية ، وزين رأسه في بعض الأحيان بقرني أمون^(٣٣) . ولكنه حين لم يكن يظهر ألوهيته لأغراضه الدنيوية كان يسخر من هذه العظمة التي يدعيها لنفسه ؛ ولما أن جرحه سهم قال لبعض أصدقائه : « ها أتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذيذة كالتى تسيل من جراح الآلهة المخلدين^(٣٤) » . وما من شك في أنه لم يكن يحمل قصة والدته عن الصاعقة محمل الجحد ، وذلك واضح من غضبه الشديد على أتلس حين قال ما قال عن مولده ، ومن قوله هو عن حاجته إلى النوم الذى يميز البشر من الآلهة . وحتى أولمبياس نفسها قد ضحكت ساخرة حين سمعت أن الإسكندر قد سجل قصتها الخرافية في السجلات الرسمية ، وسألت قائلة : « ألم يأن للإسكندر أن يمتنع عن التشنيع على^(٣٥) عند هيرا^(٣٤) ؟ » ولقد ظل الإسكندر نفسه بالرغم من ربوبيته يقرب القرابين إلى الآلهة ، وهو عمل لم نسمع قط بأن إلها قد أتى به ، ولم يكن فلوطرخس وأريان وهما الرجلان اللذان يستطيعان أن يحكما في هذه المسألة لأنهما يونانيان ، يشكان في أن الإسكندر قد أله نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلفى الأجناس والذين يؤمنون بالخرافات^(٣٥) . ولا ريب في أنه كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعادين تيسر له إذا قبلت الطبقات العليا من أهلها دعوى ربوبيته وعظمتها الطبقات الدنيا وقدسته : ولعله قد فكر في أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة في الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة ودينا عاما تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية^(*) .

(*) ويحدثنا لوشيان عن هذا الرأى القديم في إحدى « محاورات الموقى » فيقول : « فليب : لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولى ، ولو أنك كنت ابن أمون لما جاز عليك »

ولم يكن في مقدور المقدونيين أن يسبروا غور خطط الإسكندر السياسية : ذلك أنهم وإن تأثروا بالروح اليونانية إلى الحد الذي تحورت به عقولهم من الاسترقاق الفكري ، لم يرقوا إلى درجة التسامح الفلسفي ، ورأوا أن ما طلبه إليهم من السجود له حين يقتربون منه مذلة لا يرضونها لأنفسهم . ومن أجل ذلك دبر فيلوتاس Philotas ، وهو ضابط من أشجع ضباطه ابن قائد من أكفأ قواده وأجهم إليه ، بالاشتراك مع القائد برمنيو Parmenio مؤامرة لقتل الإله الجديد . ووصلت أنباء المؤامرة إلى مسامع الإسكندر ، فأمر بالقبض على فيلوتاس وانزع منه بضروب التعذيب اعترافاً باشتراك أبيه مع المتآمرين . وأرغم على أن يكرر هذا الاعتراف أمام الجند ، فرجموه من فورهم بالحجارة حتى مات ، وكانت هذه عادتهم في مثل هذه الحالة . أما برمنيو فقد أعدم بأمر الملك لأنه مجرم في أغلب الظن ، وأنه على كل حال عدو لا يؤمن جانبه . وتوترت العلاقات بين الإسكندر وجيشه من ذلك الحين - فأخذ الجنود يزدادون غضباً واستياء ، وأخذ الملك يزداد في كل يوم ريبة وقسوة وعزلة .

وحمله تساميه ، وعزله ، وكثرة مشاغله المطردة الزيادة ، على أن يحاول إغراق همومه في الشراب . وقد حدث في مأدبة أقيمت في سمرقند أن شرب كليتس الذي أنقذ حياة الإسكندر في يوم غرانيقوس حتى فقد وعيه ، فقال للإسكندر : إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه ، وإن أعمال فليب أعظم من أعماله . وكان الإسكندر هو الآخر ثملاً فقام ليضربه ، ولكن بطليموس لاجوس Ptolemy Lagus (الذي أصبح بعد قليل والياً

== الموت الإسكندر : لقد كنت طوال الوقت أعرف أنك أبي ، ولم أقبل قوله الوحي إلا لأنني ظننته شملة سياسية صالحة ... ذلك أن البراءة حين عرفوا أن الذي أمامهم إله ، امتنعوا عن القتال ، وقد يسر لي ذلك حينهم وفتح بلادهم

على مصر) أخرج كليتس من مكان المأدبة . بيد أن كليتس كان يريد أن يقول أكثر مما قال ، فعاد ليواصل طعنه . فرماه الإسكندر بحربة أردته قتيلا . وندم الإسكندر بعدئذ على عمله هذا ندما حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة ، امتنع فيها عن الطعام ، وانتابته نوبات هستيرية ، حاول فيها أن ينتحر . ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى قام هرمولوس Hermolaus ، وهو خادم من خدم الإسكندر عاقبه في يوم من الأيام عقابا ظالما ، بتدبير مؤامرة أخرى لقتله . وقبض على الغلام وعذب حتى أتى باعتراف اتهم فيه كلستانس Cailisthenes ابن أخى أرسطو . وكان كلستانس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها ، وكان قد أغضب الملك لأنه أبى أن يسجد له ، وأخذ ينتقد أساليبه الشرقية ، ويتباهى بأن الخلف لن يعرف الإسكندر إلا عن طريق كلستانس المؤرخ . وأمر به الإسكندر فسجن حتى مات بعد سبعة أشهر من ذلك الوقت (*) . وقضت هذه الحادثة على ما كان بين الإسكندر وأرسطو من صداقة ، وكان الفيلسوف قد ظل عدة سنين يعرض حياته لأشد الأخطار بدفاعه عن قضية الإسكندر في أثينة .

وظل سحق الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون في آخر الأمر تمرداً علنياً . ولما أعلن الملك في يوم من الأيام أنه يريد أن يرجع إلى مقدونية أكبر الجنود ستا بعد أن يمنح كلا منهم جائزة سنوية نظير خدمته (***) ، هاله أن يسمع الجند يتهامون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً عن سلك الجندية ، لأنه وهو إله لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه . فلم يكن منه إلا أن أمر

(*) تروى قصة متناقضة عن جريمته وموته (٣٧) . وأشهر ما تركه وراءه ثلاثة كتب : « الملينيكا He Hemia » وهو تاريخ لبلاد اليونان من ٢٨٧ إلى ٣٣٧ ، « وتاريخ الحرب المقدسة » و « تاريخ الإسكندر » .

(**) ويؤكد لنا أريان أنه ومب كلا منهم وزنه زيادة على مرتبه الذى لم يكن لينقطع حتى يعود إلى وطنه .

بقتل زعماء الفتنة ، ثم أتى على الجنود خطبة مؤثرة^(٢٩) (ولكنها في أغلب الظن مشكوك في صحتها) ذكر فيها كل ما فعلوه من أجله ، وكل ما فعله هو من أجلهم ، وسألهم هل فيهم من يستطيع أن يظهر في جسده من الجروح أكثر مما فيه هو ؟ وهل فيهم رجل مثله في جسده أثر من كل سلاح من أسلحة القتال ؟ ثم أذن لهم جميعاً في آخرها أن يعودوا إلى ديارهم وقال لهم : « عودوا إلى أوطانكم وقولوا للناس إنكم تخليتم عن مليكم ، وتركتموه في حماية الأجانب المغلوبين » . ثم آوى إلى حجرته وأبى أن يقابل أحداً من الناس . فدم جنوده أشد الندم ، وأقبلوا على قصره ، وألقوا بأنفسهم على الأرض أمامه ، وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يعضو عنهم ويعيدهم إلى جيشه . ولما أن ظهر أمامهم في آخر الأمر ، أجهشوا بالبكاء وأصرروا على أن يقبلوه ، فلما رضى عنهم عادوا إلى معسكرهم فيشيدون أناشيد الحمد والثناء .

واغتر الإسكندر بمظاهر الحب هذه ، فأخذ يحلم بمواصلة الحروب والانتصارات ، ووضع الخطط لفتح بلاد العرب الغامضة ، وأرسل بعثة لارتياح أقاليم بحر قزوين ، وفكر في الاستيلاء على أوريا حتى أعمدة هرقل . غير أن تعرضه للجواء المختلفة وإدمانه الشراب كانا قد أضعفا بنيته القوية ، كما أن مؤامرات ضباطه وتمرد جنوده كانا قد أوهنا قوته النفسية . وبينما كان الجيش في إكبتانا مرض هفستيون Hephaestion أعز أصدقائه وقضى نحبه . وكان الإسكندر يحبه حبا بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة دارا خيمة الملك الفاتح وانحنت أولاً لهفستيون احتراماً له لظنّها أنه هو الإسكندر ، قال لها الملك الشاب في رقة ولطف : « إن هفستيون هو أيضاً إسكندر^(٣٠) » . وكأنما أراد بقوله هذا أنه هو وهفستيون رجل واحد . وكثيراً ما كان الرجلان يشتركان في خيمة واحدة ، وكانا في الحرب يقاتلان جنباً إلى جنب . وأحس الملك بعد موته أن نصفه قد انتزع منه ، فأحزنه ذلك وف

في عضده ، وقضى عدة ساعات ملقى على جثة صديقه يبكي وينتخب ؛ واقتلع شعره من فرط الحزن ، وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام عدة أيام متوالية ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى ترك الشاب المريض ليشهد الألعاب العامة . ، وأمر أن تكرم ذكرى هفستيون بإقامة محرقة جنازية ضخمة بلغت نفقاتها كما يقولون عشرة آلاف وزنة (٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) وبعث يسأل مهبط الوحي من أمون هل يجوز أن يتخذ هفستيون إلها يعبد ، وأمر في الوقائع الحربية التى دارت بعدئذ أن تقتل قبيلة على بكرة أبيها قربانا لروح هفستيون . وكانت الفكرة التى تراوده وهى أن أخيل لم يعيش طويلا بعد موت بتركلس تقض مضجعه كأنها حكم عليه بالإعدام .

ولما عاد إلى بابل زاد انغماسه في الشراب شيئاً فشيئاً . وبينما كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا في شرب الخمر . فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وفاز بالجائزة وهى وزنة من الذهب ، ومات بعد ثلاثة أيام . وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر نخاية محتوى نحو جالون ونصف من الخمر ، وعاد في الليلة التالية إلى الشراب ، ثم اشتد البرد فجاءة فأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه . ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل في أثنائها يصدر الأوامر إلى جيشه وأسطوله . ثم مات في اليوم الحادى عشر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢٣) ولما سأله قواده لمن يترك ملكه أجابهم بقوله : « إلى أعظمكم قوة (٤١) » .

وقد عجز الإسكندر كما عجز أكثر العظماء عن أن يجد رجلا جديراً بأن يخلفه على عرشه ، وكان قد مضى نجبه قبل أن يتم عمله . على أن هذا العمل رغم هذا لم يكن جليلاً فحسب بل كان فوق ذلك أبقى على الدهر مما يظنه الناس عادة . فكانت الضرورات التاريخية قد اختارت الإسكندر لتغيير

الأوضاع السياسية القائمة في ذلك الوقت ، فقد قضى على عهد دول المدن ، وأنشأ بعد التضحية بقسط غير قليل من جربة هذه المدائن نظاما أوسع رقعة وأعظم استقرارا من أى نظام عرفته أوروبا قبل عهده . وقد ظلت الفكرة التي قامت بذهنه عن الحكم ، الحكم الاستبدادى الذى يستعين بالدين لفرض السلم على أمم مختلفة الأجناس والألوان ، نقول ظلت هذه الفكرة هي المسيطرة على أوروبا حتى العصر الحديث عصر القومية والديمقراطية . وقد حطم الحواجز القائمة بين اليونان و « البرابرة » ومهد السبيل لعالمية للعصر الهلنستى ؛ وفتح آسية الدنيا للاستعمار اليونانى ، وأنشأ في بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت في هذا الاتجاه إلى بكثريا ، وجمع عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقى في نظام تجارى موحد واسع النطاق شجع التجارة وأطلقها من قيودها ؛ ونقل الآداب والفلسفة والفنون اليونانية إلى آسية ، ومات قبل أن يدرك أنه مهد السبيل لذلك الانتصار الدينى العظيم الذى ظفر فيه الشرق بالغرب . ولقد كان ارتداؤه الملابس الشرقية وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسية من أوروبا .

ولقد كان من الخير للإسكندر أن يموت وهو في عنفوان مجده ؛ ولو أنه طال به العمر لتكشف له أنه كان مخدوعا في كثير من الأمور ، ولعله لو عاش لأقضت مضجعه المزائم والآلام ولأحب السياسة ... وكان قد بدأ يجهها - أكثر مما يجب الحرب . لكنه أجهد نفسه فوق طاقته ، وأكبر الظن أن ما كان يتطلبه حفظ دولته العظيمة قوية موحدة ، ومراقبة أجزائها المختلفة بأجمعها ، قد بدأ يحدث الاضطراب في عقله المشرق النير ؛ ذلك أن الجلد ليس إلا نصف العبقرية ، أما نصفها الآخر فهو السيطرة على أعنة هذا الجلد وتملك ناصيته ؛ ولكن الإسكندر كان كله جدا ونشاطا ؛ وكان يعوزه - وإن لم يكن من حقتنا أن نتطلب منه - نضج قيصر الهادئ أو حكمة أغسطس ودهاؤه .

ونحن نعجب به كما نعجب بناپليون لأنه لاقى بمفرده نصف العالم ، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بما في نفوس الأفراد من قوة كامنة لا يكاد الإنسان يؤمن بوجودها فيها . ونحن نشعر بعطف طبيعي عليه رغم إيمانه بالخرافات والأوهام وتصديقه ما لا يصح لمثله أن يصدقه ، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شاباً كريم النفس قوى العاطفة ، كما كان رجلاً قديراً باسلاً لا يكاد يدانيه أحد في قدرته وبسالته ، وأنه كان يكافح ليتخلص مما في دمه من تراث من الممجية يذهب بالعقل الحصيف ، وأنه فيما خاض من المعارك العنيفة وفيما أهرق من الدماء الغزيرة لم يغب عنه قط حلمه العظيم وهو نشر نور أثينة في عالم أوسع منها رقعة .

الفصل الرابع

خاتمة عصر

لما علمت بلاد اليونان بموت الإسكندر اندلع لهيب الثورة على سلطان مقدونية في جميع أنحاءها . ونظم أهل طيبة المنفيون في أثينة قوة من الوطنيين وحاصروا الحامية المقدونية المرابطة في كدميا . وفي أثينة نفسها ، حيث كان الكثيرون يتضرعون إلى الآلهة أن تقضى على الإسكندر ، توج أعضاء الحزب المعادي للمقدونيين رهوسهم بأكاليل الغار حين أحسوا بأن دعاءهم قد استجيب ، وأنخلوا يقصفون ويمرحون لموت من كانوا قبل موته يتخلدونه إلها يعبد ، وينشدون ، كما يقول فلوطرخس « أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم » (١٢) .

وكان دمستين في هذه اللحظة القصيرة في ذروة مجده ؛ ذلك أن أموره في خلال حروب الإسكندر لم تكن كما يجب : فقد اتهم بأنه قبل رشوة كبيرة من هرپالوس Harpalus وزج في السجن ، ثم سمح له بالفرار وعاش تسعة أشهر يقاسى آلام النقي في تريزن Troezen . فلما مات الإبهسكندر استدعى من منفاه وأرسل في مهمة سياسية إلى الهلوبيونز ليعقد حلفاً لأثينة يعاونها في حرب الاستقلال والحرية . وزحفت قوة متحدة نحو الشمال والتقت بجيش أنثياتر عند كرانون Crannon ودارت عليها الدائرة . وفرض الجندى الطاعن في السن ، الذي لم يكن كالإسكندر يشعر بشيء من العطف على الثقافة الأثينية ، أفذح الشروط على المدينة المهزومة ، فطلب إليها أن تتحمل جميع نفقات الحرب ، وأن تقبل فيها حامية مقدونية ، وتلغى دستورها الديمقراطي ومحاكمها ، وتحرم من حق الانتخاب ، وتنقل إلى المستعمرات الخارجية كل المواطنين (١٢ر١١١ من ٢١ر١٠٠) (٢٧ - ٢ ج - ٢ - مجلد ٢)

الذين تقل قيمة مملكاتهم عن ألقى درخمة ، وأن تسلم دمستين ، وهيريلز ،
واثنين غيرهما من الخطباء المعادين للمقدونيين . فلما سمع دمستين بهذه
الشروط فر إلى كالوريا Calauria ولجأ إلى حمى أحد الهياكل . ولما أحاط
به مطارده المقدونيين تجرع ملء قارورة من السم ؛ ومات قبل أن يستطيع
جر نفسه من الهو المقدس .

وشهدت هذه السنة المشثومة نفسها خاتمة حياة أرسطو . لقد كان منذ
زمن طويل غير محبب للأثينيين : فقد كان المجمع العلمي ومدرسة إسقراط
يحقدان عليه لأنه كان يتقدما وينافسهما ، بينما كان الوطنيون يعدونه زعيما
للحزب المناصر للمقدونيين . وانتهز أعداؤه فرصة موت الإسكندر فاتهموا
أرسطو بالمروق من الدين ، وجرىء بفقرات . من كتبه دالة على كفره بالآلهة
تأييداً لهذه التهمة ؛ واتهم أيضاً بأنه كرم الطاغية هرمياس Hermeias بما تكرم
به الآلهة ، وكان هرمياس هذا عبداً رقيقاً ومن ثم لم يكن في مقدوره أن
يصبح إلهاً . وغادر أرسطو المدينة في هدوء وهو يقول إن نفسه لا تطاوعه
أن يتبع لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم في حق الفلسفة^(٤٣) . ولجأ إلى
بيت أسرة والدته في خقليديا وأوصى ثاوفراسطوس Theophrastus أن يعنى
بشئون اللوقيون . وحكم عليه الأثينيون بالإعدام ، ولكن الفرصة لم تسنح لهم
لتنفيذ الحكم ، كما أنهم لم يكونوا في حاجة لتنفيذه . ذلك أن أرسطو قضى نجه
بعد بضعة أشهر من مغادرته أثينة ؛ وقد يكون سبب موته مرضاً أصيب به
في معدته واشتد عليه بسبب فراره ، وقد يكون سببه كما يقول بعضهم أنه
تجرع السم . وكان وقت وفاته في الثالثة والستين من عمره ، وكانت وصيته
مثلاً أعلى في الحنان والتقدير لزوجته الثانية ، وأسرته ، وعبيده

وبعد فقد كان موت الديمقراطية اليونانية موتاً عنيفاً وطبيعياً في وقت
واحد . وكان أهم أسباب هذا الموت ما أصاب هذا النظام من اضطراب

تغلغل في كيانه ، ولم يكن سيف مقدونية إلا الضربة الأخيرة التي أجهزت عليه وهو يلفظ آخر أنفاسه . لقد تبين أن دولة المدينة لا تستطيع حل مشاكل الحكم : فقد عجزت عن حفظ النظام في الداخل ، وصد الأعداء في الخارج ؛ ولم تهتد إلى وسيلة توفق بها بين الاستقلال وبين الاستقرار القومي وقوة السلطان رغم نداء غورغياس ، وإسقاط وأفلاطون لهذه المدن بأن تستعين بشيء من التنظيم الدوري القوي لتكبح به جماح الحرية الأثينية . هذا إن أن حب دولة المدينة للحرية لم يقف قط في سبيل نزعتها الإمبراطورية . يضاف إلى هذا أن حرب الطبقات قد اشتدت حتى أفلتت زمامها من أيدي الزعماء ، وجعلت الديمقراطية سباقاً إلى الانتهاك عن طريق التشريع . وانحطت الجمعية التي كانت هيئة شريفة في أحسن أيامها فأصبحت هيئة من الزعاج الصخاين تكره كل سلطة فوق سلطتها ، وترفض كل قيد يحد من هذه السلطة ، تقسو على الضعيف وتخضع ذليلة للقوى ، توافق على كل ما تنال من ورائه النفع لنفسها ، وتفرض على الأملاك من الضرائب الفادحة ما من شأنه أن يقضى على الابتكار والنشاط والادخار . إن فايب والإسكندر وأنتياتر لم يكونوا هم الذين قضوا على الحرية اليونانية ، بل إن هذه الحرية هي التي قضت على نفسها بنفسها ، ولقد أبقى النظام الذي أقاموه حضارة لولاه لقضى عليها ما فيها من عناصر الفوضى الاستبدادية ، ونشر هذه الحضارة في مصر والشرق .

ومع هذا كله فهل استطاعت الأبحركية أو الملكية المطلقة أن تفعل خيراً مما فعلته تلك الديمقراطية ؟ إن حكومة « الثلاثين » قد ارتكبت في الشهور القلائل التي استولت فيها على أزمة الحكم من القضايع ضد الأنفس والأموال أكثر مما ارتكبت الديمقراطية في مائة السنين السابقة لهذا الحكم (٥٥) . وبينما كانت الديمقراطية تخلق الفوضى في أثينة كانت الملكية تخلق الفوضى في مقدونية ، وهل ثمة فوضى أكثر من حروب تربي على عشر جريها النزاع

على العرش ، ومائة من الاغتيالات ، وألف من القيود على الحرية ، وذلك كله من غير أن يصحب هذه الفوضى شيء من المجد الأدبي أو العلمى أو الفنى يخفف من فظاعتها ؟ ولقد كان ضعف الدولة وصغرها فى بلاد اليونان نعمة كبرى على الفرد ، نعمت بها روحه بلا ريب إن لم ينعم بها جسمه ؛ ذلك أن هذه الحرية ، وإن كلفته كثيراً ، قد أمكنت العقل اليونانى من أن يقوم بجلائل الأعمال . إن الفردية تقضى فى آخر الأمر على الجماعة . ولكنها قبل أن تقضى عليها تقوى الشخصية ، والكشف العقلى ؛ والإبداع الفنى ؛ ولسنا ننكر أن الديمقراطية اليونانية أضحت فاسدة عاجزة يجب أن تموت ، ولكن الناس أدركوا بعد موتها ما كانت عليه من الجمال فى أيام مجدها ، وكانت الأجيال القديمة التالية على بكرة أبيها ترنو ببصرها إلى عهد بركليز وأفلاطون وتعددها أعظم العهود التى شهدتها بلاد اليونان بل أحسن العهود فى التاريخ كله ؛